سيرة السلطان الناصر
صلاح الدين الأيوبي

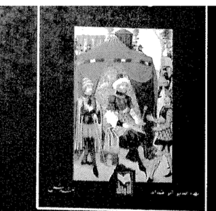
« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية »



الأوائل 2002

تحقيق
أحمد ايبش

بهاء الدين ابن شداد



هذا الكتاب

تبقى سيرة البطل الخالد صلاح الدين الأيوبي وجهاده وحروبه مع الصليبيين . وانتصاره الاكبر في حطين وفتحه للقدس . تبقى واحدة من أنصع صفحات تاريخنا العربي الاسلامي الوضاء .

في هذا الكتاب الرائع (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) ينقل لنا المؤلف بهاء الدين ابن شدّاد صورة حيّة ورواية مباشرة عن حياة بطلنا الكبير واعماله وبطولاته .. ويصوّر لنا . كشاهد عيان ثبت صادق . مشاهد مؤثرة وعبرا بليغة عن المزايا العظيمة التي تحلّى بها السلطان الناصر صلاح الدين الايوبي . حتى احترمه الأعداء بلْه الاصدقاء .. فارتفع اسم صلاح الدين عاليا ليقترن بأمجاد جهاده . وليقترن بالقدس الشريف . وليغدو صاحبه بكل جدارة واحدا من اعظم الشخصيات التي انجبتها امتنا العربية الاسلامية .

سيرة السّلطان النّاصر
صلاح الدّين الأيوبي

الكتـاب : النّوادر السُّلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة
المؤلّـف : بهاء الدّين ابن شـدّاد
التحقيق والتقديم : أحـمد إيبش
الإخراج الفني والصّور الفوتوغرافية للمحقّق
المعالجة الگرافيّة للصور : لنچيك إيبش
تصميم الغلاف : *ROOTS* للتصميم الفني
التدقيق العام : إسـماعيل الكردي
الإشراف الفني للطباعة : يزن يعقوب

الطبعة الأولى 2003 م

الناشر : الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية
سورية – دمشق – الإدارة : ص.ب 3397 – التوزيع : ص.ب 10181
تلفاكس : 00963 11 2248255
جـوّال : 00963 93 411550 – 00963 93 418181
البـــريد الإلكتروني : alawael@daralawael.com
alawael@scs-net.org
موقع الدار على الإنترنت : www.daralawael.com
عنوان المحقّق : ص.ب : 11252 ، دمشق – سـورية

صورة الغلاف الأمامي : لوحة قديمة تمثّل استسلام ملك القدس گي دي لوزينيان للسّلطان النّاصر صلاح الدّين ، وفي الخلف إلى جهة اليمين مشهد إعدام بعض بارونات الصليبيين . من مجموعة المحقّق .

صورة الغلاف الخلفي : لوحة قديمة تمثّل دخول السّلطان النّاصر صلاح الدّين إلى القدس الشريف إبّان تحريره في رجب عام 583 هـ .

سيرة السلطان الناصر

صلاح الدين الأيوبي

« النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية »

بهاء الدين ابن شداد

IBN SHADDAD'S

BIOGRAPHY OF SALADIN

THE SAGA OF A SOVEREIGN, WARRIOR AND A GENTLEMAN

EDITED BY
AHMED N. IBESCH

تحقيق

أحمد ايبش



المحقق في سطور :

أحمد إيبش باحث دمشقي ، متخصّص بالتاريخ الإسلامي في العصر الحديث ، وبخاصة : تاريخ بلاد الشام في العهد العثماني . درس التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت ، وهو حائز على درجة الدكتوراة الفخرية في التاريخ السياسي من جامعة فريدريك ألكساندر في إرلانگن بألمانيا . يجيد سبع لغات أجنبية .

قام بإلقاء عشرات المحاضرات في جامعات ومعاهد وجمعيات مختلفة ، كما شارك بندوتين دوليتين ، أقامهما معهد الأبحاث الشرقية الألماني ، الأولى منهما في بيروت عام 1999 حول عواصم بلاد الشام وحوض المتوسط خلال عهد التنظيمات الخيرية ، والثانية في جامعة إرلانگن بألمانيا عام 2000 حول نشوء الإيديولوجيات القومية في بلاد الشام في العصر الحديث . كما ألقى محاضرات في كل من جامعة مدريد وسالامانكا وغرناطة في إسپانيا ، حول انتشار الحضارة الإسلامية من المشرق إلى الأندلس .

منذ عام 1982 ، صدرت له عدّة أبحاث ودراسات في التراث الإسلامي :

1- وصف دمشق في القرن السابع عشر ، نصوص للرّحالة الفرنسي دارڤيو .
2- وصف دمشق في أيام الملك الظاهر بيبرس ، نصوص للرّحالة القزويني وغيره .
3- مسجد خالد بن الوليد ، أول مسجد بدمشق منذ الفتح الإسلامي .
4- معالم دمشق التاريخية ، دراسة في تاريخها وتراثها واشتقاق أسماء أحيائها .
5- دمشق الشام في نصوص الرّحالين والجغرافيين العرب والمسلمين (جزءان) .
6- حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام ، نصوص لابن طولون .
7- الحروب الصليبية ، صراع الشرق والغرب ، لرنيه گروسيّه . ترجمة وتحقيق .
8- دفاتر شامية عتيقة ، مذكرات ومرويات ونوادر من تاريخ دمشق .
9- سيرة السّلطان النّاصر صلاح الدّين ، لبهاء الدّين بن شدّاد . تحقيق جديد .
10- عوائد عرب الرّوَلة وشمائلهم في الشام والجزيرة ، لألويس موزل . ترجمة .
11- رحلتان إلى الرّياض في عهد الإمام فيصل بن تركي آل سعود . ترجمة وتحقيق .
12- تطوّر الإنجيل ، ترجمة جديدة لإنجيل متّى ، لإينوك باول . ترجمة ودراسة .
13- الحروب الصليبية برواية المؤرخين العرب ، لفرانتشيسكو گابرييلي . ترجمة .
14- التّلمود كتاب اليهود المقدّس ، تاريخه وتعاليمه ومقتطفات من نصوصه .

الإهــــداء

إلى بطل الأبطال وسيّد الرّجال

النّاصر صلاح الدّين

أقزاماً على أعتابك نقف لنقول :

هيهات ، هيهات ، أن يُدرك أمجادك أحد

أحمد إيبش

إلى عمر الفاروق

إلى النّاصر صلاح الدّين

وإلى كل من يضع تحرير القُدس نُصب عينيه

ويحــــاول ..

دار الأوائل



إعادة استكشاف سورية

- 4 -



«الفضلُ يعرفه ذووه»

في خواتيم العام المنصرم 2001 ، رغب إليّ أخي وصديقي العزيز إسماعيل الكردي ، أن أنتخب له كتاباً يتناول سيرة البطل الخالد صلاح الدِّين الأيوبي ، كيما يُصدره في سلسلة منشورات «دار الأوائل» . ولا غرو ، فإن لهذا الموضوع وقعاً أثيراً لدى كل قارئ أو مهتمّ بالتاريخ الإسلامي في القرون الوسيطة ، لا سيّما باعتبار المكانة الرّفيعة السّامقة لهذا البطل العظيم وسيرته المجيدة ، والرّغبة باستذكار جهاده ومآثره على الدّوام .

ما لبثتْ أن استشرت في نفسي رغبةٌ كامنة في أن أُبادر إلى نشر كتاب قديم وثمين ، كنتُ قد اقتنيتُه وقرأتُه منذ أكثر من عشرين عاماً ، وأدركتُ يومها مدى الإجحاف الذي نال هذا السِّفر الرائع ؛ إذ أنه كان لم يحظَ بمن يتصدّى لتحريره على الوجه المطلوب كما يستحقّ وينبغي ، لمكانته على الأقل ، إن لم نقل مكانة صاحب السِّيرة المدوّنة فيه .

ذلكم الكتاب هو – بلا ريب – «النّوادر السُّلطانيّة والمحاسن اليُوسفيّة» ، الذي ألّفه بهاء الدِّين يوسف بن رافع ، الشهير بابن شدّاد ؛ وكان على ما سنرى ، واحداً من أخصّ موظفي بلاط النّاصر صلاح الدِّين ، أمضى في خدمته خمس سنوات كان فيها مُلازماً له ، لا يُفارقه أبداً إلا فيما ندر .

و«النّوادر السُّلطانيّة» ، تبعاً لذلك ، هو أهم مصدر للتأريخ لحياة السُّلطان صلاح الدِّين وأحواله ، خلال المرحلة الأخيرة من حياته ، بُعيد فتح القُدس وحتى وفاته ، بين عامي 584-589 هـ . وهو بذلك يكمّل المصادر التي سبقته ، كتاريخ ابن الأثير ومؤلّفات الأصفهاني وغيرهما، كما سنبيّن في مقدّمتنا التالية .

يمثّل هذا الكتاب أنموذجاً فريداً من كتب التراجم والسِّيَر ، ورغم أن مؤلّفه لم يكن مؤرّخاً ، فقد أتحفنا بنصّ رائع لا نجدُ له مثيلاً في باقي مصادر تراثنا العربي المكتوب ، كتبه عمّا شاهده بعينه وخبره بنفسه وتفاعل بأحداثه ، لا بل وشارك في هذه الأحداث ونال شرف الجهاد والقتال في صفوف قوّات السُّلطان النَّاصر .

وفي هذا الكتاب ، نلمح مواقف إنسانية صدرت عن السُّلطان ، العملاق الشّهم النبيل ، المتناهي في كرمه وإنسانيّته وفروسيّته ؛ رصدها ابن شدّاد وروى لنا أخبارها وأخبار المعارك والفتوحات الخالدة ، التي نال النَّاصر شرف القيام بها ، فارتبط اسمه في تراثنا بالجهاد والتحرير والإخلاص لمصالح الأمّة .

لقد أُلِّف عن النَّاصر صلاح الدِّين مئات الكتب ، قديماً وحديثاً ، بالعربية وبأكثر اللغات المعروفة . ولكن – برغم ذلك كلّه – يبقى كتاب ابن شدّاد هذا أكثرها حيوية وأصالة بالرّواية وإثارة للإعجاب ومَساساً بالشّعور . والعجيب أنه على أهمّيته البالغة هذه ، لم تصدر له حتى اليوم طبعة علمية محقّقة تستوفي حقّه بالضّبط والشّرح والفهرسة ، كما سنذكر في مقدّمتنا .

فلمّا استحثّ أخي العزيز إسماعيل همّتي لنشر الكتاب ، ألفيتني أمام أمر جَلل وواجب ملحّ ، جهدتُ ألا أدّخر في القيام به وسعاً ولا طاقة . ولمّا طلبتُ إليه الحصول على صورة مخطوط الأصل من مصر ، لبّى بكل شهامة واهتمام ، ثم تابع معي مراحل العمل وقرأ تجارب الطبع مرتين وثلاثاً ويزيد ، إلى أن صارت نشرتنا اليوم على النّحو الذي يليق بالكتاب وبمجد النَّاصر الرّفيع المؤثّل .

وآخر دعوانا «أن الحمدُ لله ربِّ العالمين» .

دمشق ، 25 تشرين الأول 2002

أحمد إيبش

السُّلطان النَّاصر صلاح الدِّين
سيرة بطل وجهاد أمّة

ما كان عهد صلاح الدِّين مجرّد حادثة عابرة في تاريخ الحروب الصليبية ، مرّت كسواها من الأحداث المألوفة الاعتياديّة ، بل كان يمثّل إحدى تلك المراحل النّادرة والمشرقة في تاريخنا الإسلامي ، التي خرجت بأحداثها وأبطالها عن ساحة المكان والزّمان ، فصارت مَعْلَماً ومثالاً خالداً ترمز إلى أسمى معاني البطولة والجهاد ، والتفاني في خدمة الأمّة والحفاظ على مصالحها .

ولا ريب أن السُّلطان النَّاصر ، صلاح الدِّين يوسف بن أيّوب بن شاذي ، أبا المظفّر ، كان واحداً من أعظم ملوك الإسلام ، ومن أهمّ الشخصيات التاريخية التي أنجبتها أمتنا الإسلامية على امتداد القرون الطويلة من تاريخها .

كان أبوه نجم الدِّين وأهله من قرية دُوين (في شرقي أذربيجان) ، وهم بطنٌ من الرّوادية من قبيلة الهذبانية من الأكراد . نزلوا بتكريت في العراق ، فوُلد بها صلاح الدِّين عام 532 هـ ، وتوفي فيها جدّه شاذي . ثم ولي أبوه أعمالاً في بغداد والموصل ودمشق ، فدخل مع أبيه وعمّه شيركوه في خدمة نور الدِّين محمود ابن الأتابك عماد الدِّين زنكي ، صاحب دمشق وحلب والموصل .

اشترك صلاح الدِّين مع عمّه شيركوه في حملة وجّهها نور الدِّين للاستيلاء على مصر سنة 559 هـ ، فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدِّين العسكرية ، وتمّ لشيركوه الظَّفَر أخيراً ، باسم السُّلطان نور الدِّين ، فاستولى على زمام الأمور بمصر ، واستوزره خليفتها العاضد الفاطمي . ولكن شيركوه ما لبث أن مات ، فاختار العاضد للوزارة وقيادة الجيش صلاح الدِّين ، ولقّبه بالملك النَّاصر .

ثم في عام 565 هـ هاجم الفرنج دمياط ، فصدّهم صلاح الدِّين . ثم استقلّ بمُلك مصر ، مع اعترافه بسيادة نور الدِّين . ولّما مرض العاضدُ مرض موته ، قطع صلاح الدِّين خُطبته وخطب للعبّاسيين ، فانتهى بذلك أمر الفاطميين . وفي عام 569 هـ ، توفي السُّلطان نور الدِّين ، فاضطربت البلاد الشاميّة والجزيرة ، ودُعي صلاح الدِّين لضبطها ، فأقبل على دمشق عام 570 هـ فاستقبلته بحفاوة . وانصرف إلى ما ورائها ، فاستولى على بعلبك وحمص وحماة وحلب ، ثم ترك حلب للملك الصّالح إسماعيل ابن نور الدِّين .

ساعتذاك انصرف النَّاصر إلى عملين جدّيين : أحدهما الإصلاح الداخلي في مصر والشام ، بحيث كان يتردّد بين القطرين ، والثاني دفع غارات الصليبيين ومهاجمة حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام . فبدأ بعمارة قلعة مصر ، وأنشأ فيها مدارس وآثاراً . ثم انقطع عن مصر بعد رحيله عنها عام 578 هـ ، إذ تتابعت أمامه حوادث الغارات وصدّ الاعتداءات الفرنجيّة في الدّيار الشاميّة ، فشغلته بقيّة حياته ، ومكث متنقّلاً بين القُدس ودمشق حتى وفاته بها .

لكن سرعان ما برزت أمام وجه صلاح الدِّين أزمة حادّة من جهة الموصل والجزيرة ، إذ قوبل باعتراض شديد من حكّامها الأتابكة ، وهم أبناء أخوة الملك العادل نور الدِّين ، الذي ورث النَّاصر مُلكه بشكل لم يكن شرعيّاً ، فهذا كان ما أمْلَته التطوّرات على أرض الواقع ، وما فرضته مصلحة الأمّة من وضع زمام الأمور بيد أجدر النّاس على الدّفاع عن مصالحها إزاء خطر الغزو الصليبي .

غير أن صلاح الدّين ، بما أوتيه من شجاعة وحكمة وبُعد نظر ، تمكّن من دحر الحملات التي قصدت انتزاع المُلك منه ، ثم بما لجأ إليه من سياسة تطييب القلوب ، استطاع ردّ عداوة الحزب الزُّنكّي إلى حلف للجهاد ضدّ الصليبيين ، بقيادته هو ؛ وما عتّم أعداء الأمس أن راحوا يحاربون في صفّه كما سنرى . وهكذا دانت له البلاد ، من بلاد الجزيرة والموصل شرقاً إلى بَرْقة غرباً ، ومن بلاد الأرمن في آسيا الصُّغرى شمالاً إلى آخر حدود النُّوبة واليمن جنوباً .

منذ أن دانت لصلاح الدِّين هذه السَّلطنة المُترامية الأطراف ، وضع نُصب عينيه هدفاً واحداً لا يحيد عنه : ألا وهو مجاهدة الصّليبيين بالشام ، والعمل على اقتلاع شأفتهم . وكان الصليبيون أقاموا لأنفسهم في السّاحل الشامي ، منذ عام 491 هـ - من أنطاكية شمالاً إلى عسقلان جنوباً - أربع دول : إمارة أنطاكية ، وكونتيّة الرُّها ، ومملكة القُدس ، وكونتيّة طرابلس .

أما الهدف الأكبر الذي لم يبرح خيال النّاصر يوماً ، فكان تحرير القدس الشريف ، أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، التي رزحت تحت الاحتلال الفرنجي منذ وقوعها بأيديهم في عام 492 هـ ، فأعلنوها عاصمة لمملكتهم الفرنجية بزعامة گودفروا دي بويّون Godefroi de Bouillon «حامي القبر المقدّس» [1] ، بعد أن قاموا بإعدام سكان المدينة المقدّسة بأسرهم ، فبلغ عدد القتلى في عدد من الرّوايات 70000 قتيل [2] .

وهذا الهدف العظيم كان ، قبل صلاح الدِّين ، يراود مخيّلة مولاه وموجّهه على درب الجهاد ، السُّلطان الملك العادل نور الدّين ، الذي أمر بصنع منبر خشبي جميل في مدينة حلب لكي يوضع في المسجد الأقصى عقب استعادته ، الأمر الذي قام به صلاح الدِّين بذاته بعد فتحه لبيت المقدس .

* * * * *

وهكذا ، كان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والسّاحل الشامي «يوم حطّين» ، الذي تلاه استرداد طبريّة وعكّا ويافا إلى ما بعد بيروت ، ثم افتتاح القُدس ، سنة 583 هـ = 1187 م ، ووقائع على أبواب صور ، فدفاع مجيد عن عكّا انتهى بخروجها من يده ، سنة 587 هـ = 1191 م ، بعد أن اجتمع لحربه ملكا فرنسا وإنكلترا ، بجيشيهما وأسطوليهما .

---

(1) بالفرنسية : l'Avoué du Saint-Sépulcre .

(2) وهنا ، يحقّ لنا أن نقارن هذه الفعلة المخزية الشنعاء ، بأريحيّة سُلطاننا النّاصر الرَّجل الشهم النبيل ، بسماحه للآلاف من سكان المدينة المقدّسة عندما فتحها ، بالخروج بأمان لم يمسّهم أذى ، ورفضه القاطع للمساس بكنيسة القيامة ، بشهادة الفرنج أنفسهم .

وأخيراً ، عُقد الصُّلح بينه وبين قائد الحملة الصليبية الثالثة ، ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد ، بالرّملة في شعبان سنة 588 هـ (أيلول 1192 م) ، على أن يحتفظ الفرنج بالسّاحل من عكّا إلى يافا ، وأن يُسمح لحجّاجهم بزيارة المقدس ، وأن تُخرب عسقلان ، ويكون السّاحل من أولها إلى الجنوب لصلاح الدِّين .

وعاد ريتشارد إلى بلاده ، وانصرف صلاح الدِّين من القُدس ، بعد أن بنى فيها مدارس ومستشفيات . ومكث في دمشق مدّة قصيرة انتهت بوفاته ، في 27 صفر من عام 589 هـ ، ودُفن بدمشق في قلعتها ، ثم نقل جثمانه ابنه الملك العزيز عُثمان ملك مصر إلى المدرسة العزيزيّة بالكلاّسة شمالي الجامع الأموي ، حيث ما برح ضريحه موجوداً إلى يومنا الحاضر .

وبذلك ، ضمّت دمشق رُفات أبطال الإسلام الثلاثة المجاهدين ضد الغزاة الصليبيين في القرون الوسطى ، وهم : نور الدِّين محمود ، والنَّاصر صلاح الدِّين ، والملك الظاهر بَيْبَرس .

* * * * *

كان النَّاصر صلاح الدِّين رقيق النَّفس والقلب ، على شدّة بطولته ، رجل سياسة وحرب ، بعيد النّظر ، متواضعاً مع جنده وأمراء جيشه ، لا يملك المتقرِّب منه إلا أن يحسَّ بحبٍّ له ممزوج بهيبة . اطّلع على جانب حسن من الحديث والفقه والأدب ، ولا سيّما أنساب العرب ووقائعهم ، وحفظ ديوان الحماسة . ولم يدّخر لنفسه مالاً ولا عقاراً .

كانت مدّة حكمه بمصر 24 سنة ، منها بالشام 19 سنة . وخلّف 17 ولداً وابنة واحدة . ودامت من بعده دولة بني أيّوب ، من عام 569 هـ إلى 652 هـ ، ثم حلّت محلّها دولة المماليك البحرية بقيادة السُّلطان المظفّر قُطُوز عام 657 هـ . وآخر ملوك الأيّوبيين بمصر كان الأشرف موسى ، وبالشام النّاصر يوسف .

* * * * *

تُعدّ أعمال النّاصر صلاح الدِّين من المُنجزات البالغة الأهمية ، فلقد أتمّ جهود نُور الدِّين بتوحيد الجبهة الإسلامية ، وطرد الغُزاة الدُّخلاء من السّاحل الشامي إلى مجرّد شريط ضيّق على السّاحل الفلسطيني . غير أنه لم يتمكّن من إجلائهم نهائياً ، لضخامة قوّات الحملة الصليبيّة الثالثة . ولو أعقبه حاكم آخر من طرازه ، لتيسّر إنجاز ما تبقّى من العمل ، الذي لم يكن كبيراً جداً .

غير أن مشكلة المسلمين في العصور الوسطى ، كانت تتمثّل في الافتقار إلى النُّظم السّياسية الثابتة ، اللازمة للاضطلاع بالسُّلطة بعد وفاة الزّعيم . كانت الخلافة هي النظام الوحيد الذي كان له من الثبات ما يكفل استمرارها بعد وفاة متولّيها ، بيد أن الخليفة وقتذاك لم يكن قوياً من الناحية السياسية .

أما صلاح الدِّين فلم يكن من الخلفاء ، بل بدأ حاكماً محليّاً كرديّ الأصل لم ينحدر من أسرة كبيرة . وفي حين تمكّن من انتزاع احترام العالم الإسلامي بأسره ، وحَمَلَه على إطاعته بصلابته وتقواه وقوّة شخصيته ، فإن أبناءه من بعده افتقروا مع الأسف إلى مزاياه ، فدالت دولتهم بعد نيّف وثمانين عاماً .

* * * * *

استثارت مآثر النّاصر ومزاياه العظيمة اهتمام كتّاب عصره ، فكتب كثير منهم مؤلفات مسهبة حول حياته وأعماله ، سواءٌ من المسلمين أو الفرنج اللاتين ، وسنذكر في الفصل التالي أهم هذه المصادر المعاصرة له ، التي فصّلت في سيرته وحملت كل الإعجاب بشخصيته النبيلة ، حتى من قِبَل أعدائه أنفسهم .

ومما حفظته لنا نصوص المؤرّخين الفرنج ، أن أحد كتّابهم ، واسمه الأسقف ڤنسان دى بوڤيه Vincent de Beauvais ، قد نميت إليه عن السُّلطان أسطورة ، مُفادها أنه حينما كان يُعاني سكرات الموت ، استدعى حامل رايته وأمره بأن يطوف في أنحاء دمشق ، ويجعل برأس الرّمح قطعة من كفنه ، ويُنادي بأن «ملك المشرق لم يحمل معه إلى القبر إلا هذه الخرقة» [1] .

---

(1) انظر: Vincent de Beauvais: *Speculum Historiale*, éd. Douais, Paris 1624, p. 1204.

مراجع الترجمة :

– البرق الشامي : للعماد الأصفهاني الكاتب ، الجزء 3 و 5 ، نشرة د. مصطفى الحياري و د. فالح صالح حسين ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمّان 1987 .

– التاريخ الباهر في الدّولة الأتابكيّة : لابن الأثير الجزري ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة 1963 .

– سنا البرق الشامي : للفتح البنداري ، تحقيق رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت 1971 . وطبعة د. فتحية النّبراوي ، مكتبة الخانجي بمصر 1979 .

– الفتح القسّي في الفتح القُدسي : للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة 1965 .

– الكامل في التاريخ : لابن الأثير الجزري ، طبعة القاهرة 1348 هـ .

– كتاب الرّوضتين في أخبار الدولتين : لأبي شامة المقدسي ، مصر 1287 هـ .

– معجم الأنساب والأسرات الحاكمة : للمستشرق زامباور ، تحرير الدكتور زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة 1951 .

– مُفرِّج الكروب في أخبار بني أيوب : لابن واصل الحموي ، تحقيق الدكتور جمال الدّين الشيّال ، القاهرة 1953–1960 .

– النَّوادر السُّلطانية : لابن شدّاد ، وهو كتابنا الحاضر بين أيدينا .

– وفيات الأعيان : لابن خلّكان ، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد ، القاهرة 1948 . وطبعة أخرى بتحقيق د. إحسان عبّاس ، بيروت 1968–1972 .

Gibb, H.A.R: "The Rise of Saladin, 1169-1189", Chapt. XVIII of: *A History of the Crusades*, vol. I, ed. by K.M. Setton, Philadelphia 1958.

Lane-Poole, Stanley: *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem*, London 1898.

Lewis, B.: "Saladin and the Assassins", *B.S.O.A.S.*, vol. XV (1953).

Lyons, M.C. & Jackson, D.E.P: *Saladin, the Politics of the Holy War*, Cambridge University Press, Cambridge 1982.

Sobernheim, M.: Article "Saladin", dans: *Encyclopédie de l'Islam*, Ière éd., Leyde, 1913. tome IV, pp. 87-92.

* * * * *

مصادر سيرة النّاصر

أثارت منجزات السُّلطان النَّاصر صلاح الدِّين اهتمام عدد من مؤرّخي عصره ، فكتبوا في سيرته وحوادث دولته عدّة نصوص هامة ، تُعدُّ أساساً ومصدراً لا غنى عنه لدراسة أخبار حياته وأحوال عهده . وأهم ما كُتب عن عهد صلاح الدِّين يُقسم إلى فئتين : المؤلّفات العربية ، والمؤلّفات الصليبية المكتوبة باللاتينية والفرنسية القديمة . ويأتي في مقدّمة المصنّفات العربية أعمال خمسة كتّاب هم [1] :

- ابن أبي طَيّ ، يحيى بن حَميدة الحلبي (توفي 631 هـ = 1233 م) .
- العماد الأصفهاني الكاتب ، محمد بن محمد (توفي 597 هـ = 1201 م) .
- بهاء الدِّين بن شدّاد ، يوسف بن رافع (توفي 632 هـ = 1234 م) .
- ابن الأثير الجَزَري ، علي بن محمد (توفي 630 هـ = 1232 م) .
- القاضي الفاضل ، عبد الرّحيم بن علي (توفي 596 هـ = 1200 م) .

أوّل هؤلاء الكتّاب ، ابن أبي طيّ ، كان شيعياً من مدينة حلب ، وكانت له نظرة مناهضة لنُور الدِّين محمود ابن زنكي ، إنما كان معجباً بصلاح الدِّين ، اهتمّ به وبأخباره واعتنى بها عناية فائقة . وقد صنّف ابن أبي طيّ العديد من الكتب ، أوقف واحداً منها على تاريخ مدينة حلب ، وسمّاه «معادن الذّهب في تاريخ حلب» [2] ، وفي هذا الكتاب أثبت تفاصيل أخبار صلاح الدِّين وإنجازاته بشكل متميِّز . إنما لسوء الحظ لم يصلنا هذا الكتاب ، وهو لا يزال بحكم المفقود ، لكن وصلتنا منه نُقولٌ كبيرة جداً أوردها ابن العديم في كتابيه : «زُبدة الحَلَب من تاريخ حَلَب» و «بُغية الطَّلَب في تاريخ حلب» .

---

(1) رجعنا في هذا الفصل إلى كتاب : حطّين ، مسيرة التحرير من دمشق إلى القُدس ، للدكتور سهيل زكّار ، دمشق 1984 ، ص 12 ؛ وكذلك بحث المستشرق گب Gibb :
"The Arabic Sources for the Life of Saladin", *Speculum*, XXV (1950), pp. 58-72.

(2) للمستشرق كلود كاهن مقالة عنه : "Une Chronique Chiite au temps des Croisades" في : *Rev. de l'Acad. des Inscriptions et Belles Lettres* (Paris 1935), pp. 258-69.

وعلى أهميّة ابن أبي طَيّ ، فقد كان عزّ الدِّين ابن الأثير أوسع شُهرة منه ، وأكثر إنتاجاً في ميدان التاريخ العام والخاص . كان ابن الأثير موصليّاً ، انقطعت أسرته لخدمة الأسرة الأتابكيّة التي أسَّس حُكمها الأتابك عماد الدِّين زنكي ، ومعروف أن صلاح الدِّين انتزع ممتلكاته كلها من حكم الأتابكة ، لذلك فإن ابن الأثير كان لا يكنُّ المحبّة لصلاح الدِّين ، وقدَّم في كتاباته وجهة النظر الناقدة له .

وأشهر كُتُب ابن الأثير هو «الكامل في التاريخ»[1] ، ونجد في هذا الكتاب معلومات طيّبة عن صلاح الدِّين ، إنما الأهم منه والأعظم فائدة هو كتابه الآخر الموسوم باسم «التاريخ الباهر في الدّولة الأتابكية» ، ففي هذا المصنَّف معلومات كبيرة جداً عن صلاح الدِّين وعصره ، علينا التعامل معها بشيء من التحفّظ ، ولكن لا يمكن الاستغناء عنها ، بخاصة لأحداث ما قبل حطّين ولدور عساكر الموصل والجزيرة في هذه المعركة .

عندما ورث صلاح الدِّين مُلك نور الدِّين ، اشتبك مع أتابكة الموصل عسكرياً ودبلوماسيّاً ، وخلال المفاوضات تعرّف بعدد من شخصيات الموصل وعلمائها ، ومن هؤلاء كان بهاء الدِّين يوسف بن رافع بن تميم ، المعروف بابن شدّاد ، والمكنّى بأبي المحاسن . وحدث أنه في سنة 583 هـ = 1188 م ، مرّ ابن شدّاد بدمشق في طريق عودته من الحجّ ، يريد التوجّه إلى القُدس المحرّرة حديثاً لزيارتها ، فسمع به صلاح الدِّين ، فاستدعاه إليه ، وسأله أن يلتحق بخدمته فاستجاب ، وكان ذلك في جُمادى الأولى من عام 584 هـ .

ومنذ ذلك الحين ، صار ابن شدّاد قاضياً لعسكر صلاح الدِّين ، ومُستشاراً للسُّلطان ونديمه الخاص ، وشهد معه بقيّة أيام حياته فأُعجب به إعجاباً شديداً . وبعد وفاة صلاح الدِّين سنة 589 هـ = 1193 م ، استقرّ ابن شدّاد في مدينة حلب ، وبقي رُكناً هاماً من أركان الدّولة الأيّوبيّة ، وأثناء فترة استقراره قام بإتمام كتابه الشهير حول سيرة صلاح الدِّين : «النّوادر السُّلطانيّة والمحاسن اليُوسُفيّة» .

---

(1) نُشر الكامل في التاريخ بمصر عام 1348 هـ . ونُشر التاريخ الباهر بها أيضاً عام 1963 .

بيد أن مسوّدات هذا الكتاب كان قد دوّنها ابن شدّاد أيّام صلاح الدِّين حتى يوم وفاته ، كما يذكر في خاتمة كتابه [1] : «فرغتُ من جمعها يوم وفاته» . ثم قام بعد وفاة السُّلطان بإخراج الكتاب في نسخة كاملة بشكل لائق ، وبقي يضيف إليه وينقّح فيه حتى سنة 626 هـ على الأقل ، وهو تاريخ نسخ المخطوطة الأمّ التي رجعنا إليها في تحقيقنا للكتاب ، كما سنبيّن في موضعه .

وقد نال كتاب ابن شدّاد هذا شُهرة كبيرة ، لا لمكانة كاتبه لدى السُّلطان صلاح الدِّين ، وإنما لأسلوب المؤلّف الذي تميّز بالاستقامة والمباشرة . فلقد صوّر شخصية السُّلطان النَّاصر تصويراً إنسانياً بديعاً ، يعجز أن يفعله مؤرّخ آخر ، فهو لم يكن مأخوذاً بتقديس الأفراد وعبادة الأبطال ، وإنما كان مُعجباً بالبطل المجاهد النَّاصر إعجاب صديق نزيه قويم الطويّة ، لا يكتُم صديقه شيئاً ولا يخادعه . ولهذا ، فلا ريب أن ابن شدّاد لم يعمد إلى إخفاء أيِّ حقيقة أو تحويرها .

لقد عاش ابن شدّاد مع السُّلطان صلاح الدِّين قُرابة خمس سنوات ، فقدّم لنا صورة نكاد لا نجد لها نظيراً ، عن هذا البطل في أوج انتصاراته ، وفي كفاحه الشاقّ المرهق حول عكّا ، ضدّ الجيوش الصليبية الجرّارة القادمة في الحملة الصليبية الثالثة . ولهذا فإن مواد ابن شدّاد ذات سمة وثائقية عالية .

وعلى أي حال ، فليست هذه هنا سوى لمحة سريعة حول ابن شدّاد وكتابه ، وسنعمد إلى إعطاء تفاصيل أوفى عنهما في الصحائف التالية أدناه .

* * * * *

ولحسن الحظ ، أن بلاط صلاح الدِّين حوى من عُني بتدوين التواريخ آخرين غير ابن شدّاد ، كان أبرزهم العماد الأصفهاني الكاتب ، وقد نشأ العماد في العراق ، وأتقن بالإضافة إلى العربية اللغة الفارسية ، والتحق في مطلع حياته بالإدارة السّلجوقية في العراق ، ثم التحق بنُور الدِّين ابن زنگي بدمشق ، وبعد نُور الدِّين آل به الأمر إلى الالتحاق بإدارة النَّاصر صلاح الدِّين .

---

(1) انظر متن الكتاب أدناه ، ص 424 .

وكان العماد خصب الإنتاج ومتنوّعه ، ترجم وكتب وصنّف في التاريخ والأدب ، لكنه كان يعتمد في كتابته على الصنعة البلاغية والتكلّف البديعي بالسّجع المرهق المُبالغ به للغاية ، مما ضيّع في ثناياه العبارة على حساب اللّفظة . وهذا ما دعا بعض الكتّاب في العهد الأيوبي ، وخاصّة واحداً منهم عُرف باسم الفتح ابن علي البنداري ، إلى تهذيب بعض كتب العماد وتنقيحها .

وعلى رأس كتب العماد التاريخية كتابان : وقف الأول منهما لمعركة حطّين وتحرير القُدس ، ودعاه باسم : «الفتح القُسّي في الفتح القُدسي» . والثاني ، وهو أكبر بكثير ، جاء في سبعة مجلّدات ، دعاه باسم «البَرْق الشّامي» . ولقد وصلنا الكتاب الأول وطُبع عدّة مرّات [1] ، بينما وصلتنا قطع كبيرة من الثاني ما تزال مخطوطاتها محفوظة في إنكلترا والمغرب [2] .

ولحسن الحظ أن الفتح البنداري قام بتهذيب هذا الكتاب الكبير ، تحت عنوان : «سنَا البرق الشّامي» ، وقد عُثر على نسخة منه في تركيا بمكتبة السُّليمانيّة باستانبول (مجموعة أسعد افندي ، رقم : 2249) ، ونُشر مرتين ، الأولى في مطلع السبعينيات ثم الثانية في خاتمتها [3] .

* * * * *

(1) أول طبعة محققة ظهرت للكتاب نشرها المستشرق السويدي الكونت كارلو لاندبرغ Carlo Landberg عام 1888 . وعنها نُقلت طبعتا القاهرة : مطبعة الموسوعات 1903 والمطبعة الخيرية 1904 . ثم صدرت طبعة بتحقيق محمد محمود صبح بالقاهرة 1965 .

(2) من البرق الشامي جزءان مخطوطان في مكتبة البودليان بأوكسفورد ، هما : الثالث ، برقم : Bodleian, MSS. Bruce 11 ، والخامس ، برقم : Marsh 425 . وكذلك منه قطعة بالمغرب لا يُعلم الآن مكان وجودها ، غير أنه سبق للمختار السّوسي أن أودع عنها فيلماً في الخزانة العامّة بالرّباط ، يشتمل على ثلثي الكتاب . وصدرت عن جزئي أوكسفورد طبعة في عمّان عام 1987 ، حققها د. مصطفى الحياري و د. فالح صالح حسين ، لكنها مع الأسف مشحونة بالأغلاط . ثم طبعتها في بيروت مؤسسة الأبحاث العربية .

(3) أول من بادر إلى تحقيقه كان الباحث التركي د. رمضان ششن ، فنشر منه قسماً صدر عن دار الكتاب الجديد في بيروت عام 1971 ، لكنه لم يتمّم نشره . ثم قامت بنشره كاملاً الدكتورة فتحيّة النّبراوي ، وصدر بالقاهرة عن مكتبة الخانجي بمصر عام 1979 .

ويُعدّ كتاب «البَرق الشّامي» أوسع مصدر عربي معروف لتاريخ الحروب الصليبية بشكل عام ، ولعصر كلٍّ من نور الدِّين وصلاح الدِّين بشكل خاص ، وعلى هذا الكتاب كان جُلّ اعتماد أبي شامة الدّمشقي (توفي 665 هـ) ، في كتابه الشهير «الرَّوضتين في أخبار الدّولتين ، النُّوريّة والصّلاحيّة» .

وتختلف نظرة العماد الأصفهاني إلى الأمور عن نظرة ابن شدّاد ، فهو مع إعجابه بصلاح الدِّين كان أكثر إعجاباً بنور الدِّين ، وبحكم تمرّسه في العمل الإداري والسّياسي ، نجده يوجّه النَّقد لبعض قرارات صلاح الدِّين ، وكثيراً ما عرض هذا النّقد في باب المقارنة مع أعمال نور الدِّين ، ولربّما كان يُبدي نقده هذا في حضرة صلاح الدِّين ، ولعلّ أهميّة كتابه «البرق الشّامي» بالمقارنة مع كتاب ابن شدّاد ، أنه كُتب من وجهة نظر رجل إداري مدرّب ، وثيق الصّلة بالسُّلطان مُلازم له ، مع أن علاقة ابن شدّاد الشخصيّة بصلاح الدِّين كانت أوثق [1] .

وعلى أي حال ، فما زالت الفائدة من هذا الكتاب محدودة للغاية ، لعدم وجود نسخة كاملة منه ، ولعدم كفاية الطبعة الصّادرة عنه ، كما أسلفنا .

* * * * *

ويختلف مصدرنا الخامس عن حياة النَّاصر صلاح الدِّين عن المصادر الأربعة السّالفة الذِّكر ، فهو ليس بكتاب في التّاريخ ، بل نوع من أنواع الوثائق . فقد كان القاضي الفاضل ، عبد الرّحيم بن علي البيساني الأصل ، على رأس إدارة بلاط صلاح الدِّين ، وقد اشتهر ببراعته الإنشائيّة ، وبقدرته الفائقة على صياغة الرسائل ؛ فهو الذي تولّى كتابة الرّسائل الموجّهة مباشرة من النَّاصر ، مع أجوبة ما كان يأتيه من رسائل . وقد برز دوره بشكل كبير بعد تحرير القُدس وأثناء مواجهة السُّلطان النَّاصر للحملة الصليبية الثالثة .

---

(1) راجع البحث القيّم للمستشرق البريطاني هاملتون گب عن البرق الشامي :
Gibb, H.A.R., "Al-Barq al-Shâmi : The History of Saladin by the Kâtib Imâd ad-Din al-Isfahâni", in: *Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, LII (1953), pp. 93-115.

وكان يُؤثَر عن السُّلطان النَّاصر قوله لأمرائه وقوّاده : «لا تظنّوا أنّي مَلَكْـتُ البلاد بسُيوفكُم ، بل بقلم الفاضل !» .

ورسائل القاضي الفاضل ، المجموعة في أكثر من مجلّد ، ما تـزال مخطوطـة لم تُستثمر بعد [1] ، ويمكن منها التعـرّف على جوانـب إضافيـة مـن حيـاة السُّلطان النَّاصر ، وبخاصة تحرّكاته الديبلوماسية والسياسية ومطامحه ومُثُله الحقيقية .

* * * * *

وفضلاً عن هذه المصادر الأساسية عن حياة النَّاصر وعهده ، فـلا بـدّ لنـا أن نُشير إلى أن المكتبة العربية ما تزال تحوي عدداً كبيراً من المصادر ، كُتب بعضها أيام النَّاصر ، مثل «تاريخ ابن أبي الهيجاء» ، و«مضمار الحقائق» لمحمـد بـن عمـر ابـن شاهنشاه ؛ وبعضها الآخر أرّخ للأيوبيين بشكل عام ، مثل «مفرِّج الكروب» لابن واصل ، و«ترويح القلوب» للزُّبيدي ، و«شفاء القلوب» للحنبلي .

ثم إن تواريخ المدن الموسوعية ، مثل : «تاريخ مدينـة دمشـق» للحـافظ ابـن عسـاكر ، و «بُغيـة الطّلـب في تـاريخ حلـب» لابـن العَديـم ، و «المُقفّى» في تـاريخ مصر للمقريزي ، تحتوي على مواد عظيمـة القيمـة لـم تتـمّ الاستفادة منهـا بعـد . وكذلك ، ففي «وفيات الأعيان» لابن خلّكان ، وفي «طبقـات الشـافعية الكبرى» للسُّبكي ، تراجم مطوّلة للسُّلطان النَّاصر ، فيها مواد ذات فوائد كبيرة .

وهـذا كلّـه طبعـاً خـلا كتـاب «الرَّوضتين في أخبـار الدّولتـين» لأبـي شـامة المقدسي ، الـذي وضعـه تخليداً لذكرى بطلَيّ التوحيـد والجهـاد الإسـلاميين في القرون الوسطى : نُور الدِّين وصلاح الدِّين . ورغم أن أبا شامة كان متـأخّراً عـن عصر النَّاصر عقوداً عدّة مـن السنين (تـوفي 665 هـ) ، إلا أن كتابـه يبقـى ذا أهمّيـة خاصة ، على اعتباره نقل من مصـادر هامّة تقدّمته ، من أخصّها «البَرق الشّـامي» - المفقود جُلّه - للأصفهاني ، كما أسلفنا أعلاه .

---

(1) منها «المختار من كلام القاضي الفاضل» لابن نُباتة المصري ، بـالمتحف البريطـاني رقـم 1307 . و«الدرّ النّظيم في ترسّل عبد الرّحيم» ، في برلين 1264 والمتحف البريطاني 7307 ، 7465 .

قدّمت المصادر العربية وجهة نظر المسلمين تجاه أحداث الحروب الصليبيّة ، والمسلمون كانوا أحد طرفي النّزاع ، بينما كان اللاتين طرفه الآخر . وبالتالي ، فمن الضرورة لنا بمكان الاطّلاع على ما كتبه اللاتين أيضاً .

أهم المصادر الصليبية التي أرّخت للحملتين الصليبية الأولى والثانية ، هي ما عُرف بالأدب الفرنجي السُّوري ، ووصلتنا بشكل خاص عن طريق مؤرّخي الحوادث ، ومن بين المؤرخين المقيمين في سورية والذين كانوا يكتبون باللاتينية ، نذكر فوشيه دي شارتر Foucher de Chartres ، الذي ترك لنا تاريخاً حيّاً هاماً للأحداث الواقعة بين عامي 1100 و 1127 م [1] ، والمؤرخ گوتييه دي شانسُلييه Gautier de Chancelier ، الذي روى لنا أخبار روجيه Roger أمير أنطاكية حتى مصرعه (بين السنوات 1115 – 1122 م) .

لكن أبرز المؤلفات التاريخية التي تركها لنا الصليبيّون حول تاريخ مملكة بيت المقدس اللاتينية ، كان كتاب گيّوم الصُّوري [2] Guillaume de Tyr ، رئيس أساقفة صور ، اللغوي المتبحّر في اللاتينية والمستشرق ، الذي ندين له بتاريخ قيّم موسّع حول سورية الفرنجية منذ الحملة الصليبية الأولى حتى عام 1183 م .

وُلد گيّوم – كما هو مرجّح – في القُدس حوالي عام 1130 هـ ، وتعلّم في مدارسها اللاتينيّة والعربية واليونانيّة والعبرية والفارسية ، وفي سنة 1163 م رُسم قسّاً في كنيسة صُور في مطلع حكم ملك القُدس أموري الأول (1163–1174 م) الذي عاصر السُّلطان العادل نُور الدِّين محمود .

---

(1) وعنوان كتابه باللاتينية :

Foucher de Chartres: *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium.*

نشره هاگنماير H. Hagenmeyer في هايدلبرغ بألمانيا عام 1913 ، وعُرِّب مؤخراً .

(2) من العجيب أن كتّابنا قاطبة يصرّون على كتابة اسم گيّوم : وليام الصوري ، وكأنه كان من بني الإنكليز ، وهو الفرنسي ابن الفرنسي . أما كتابه الشهير المعنون باللاتينية : *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum* ، ومعناه بالعربية : «تاريخ المآثر المنجزة فيما وراء البحار» ، فيصرّون على كتابته بالإنكليزية بغير وجه حق :

A history of Deeds Done Beyond the Sea.

فلمّا خطّط أموري لفتح مصر ، رغب بأن يرافقه مؤرّخ يدوّن أحداث حملته ، فوقع اختياره على گيّوم ، فشرع عام 1169 م بتأليف كتاب باللغة اللاتينية دعاه باسم «أعمال أموري» ، غير أنه عاد وعدّل فيه وأضاف إليه مقدّمات حول تاريخ الفرنجة ، منذ بداية احتلالهم للقُدس وقيام مملكتهم بها عام 1199 م .

وبعد حكم أموري ، أضاف گيّوم معلومات عن الحوادث التي وقعت حتى عام 1183 م ، أي قبل معركة حطّين وتحرير القُدس بأربع سنوات ، وغيّر اسم الكتاب فأصبح : *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum* ، ومعناه بالعربية : «تاريخ المآثر المُنجزة فيما وراء البحار» .

وتوفّي گيّوم عام 1186 م ، قبل عام واحد من تحرير القُدس الشريف وسقوط مملكة بيت المقدس التي أرّخ لها ، فلم يعش ليسجّل لنا أخبار هذه الأحداث الهامّة مع الأسف . ولكن تاريخه ، مع ذلك ، يبقى أفضل وأكمل مصدر لاتيني أرّخ للحروب الصليبية ، ولجهاد المسلمين بقيادة السُّلطان النَّاصر ضد الغزاة الصليبيين منذ حكم الملك أموري الأول حتى بودوان الرابع وگي دى لوزينيان ، إلى قُبيل معركة حطّين [1] .

تم نشر كتاب گيّوم الصُّوري ، مع ذيل هام له مكتوب بالفرنسية القديمة ، بعنوان : *Estoire d'Eracles* «تاريخ هرقل» ، ضمن سلسة «تصانيف مؤرخي الحروب الصليبية – مجموعة المؤرخين الغربيين» ، المجلّد الأول ، الجزءان 1–2 . وهذه المجموعة صدرت في پاريس عام 1844–1895 م :

Recueil des Historiens des Croisades. Publ. de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres. Paris, 1841-1906. *Historiens Occidentaux,* tome I, parties I-II.

---

(1) من المفيد هنا أن نلاحظ أن كتاب ابن شدّاد الذي بين أيدينا ، يأتي ليكمل (مع تاريخيّ هرقل وإرنو) ما كان بدأه گيّوم الصوري من ذكر لأحداث عهد النّاصر ، بُعيد معركة حطّين ، وكان گيّوم توقّف قُبيلها ؛ ولكن من وجهة نظر الجهة المعاكسة . هذا فضلاً عن أن لدينا – في المعسكرين المتحاربين كليهما – نصوصاً تسبق ثم تتابع هذا وذاك .

ثم صدرت في لايبتسيك بألمانيا تتمّة الكتاب باللاتينيّة Continuatus ، بعناية زالّوخ M. Salloch في عام 1934 . كما تمّت ترجمة الأصل إلى الإنكليزية ، بعناية بابكوك وكري ، ونُشر عام 1943 في نيو يورك :

William of Tyre, *A History of Deeds Done Beyond the Sea,* English translation by: E.A. Babcock & A. Krey, Columbia University Press. *Records of Civilization,* 2 vols., New York, 1943.

أما في بلادنا ، فظهرت مؤخراً ترجمة عربية للكتاب على يد الباحث المصري الكبير الدكتور حسن حبشي ، وصدرت في أربعة أجزاء عن الهيئة المصرية العامّة للكتاب ، بالقاهرة 1991-1995 .

* * * * *

ومن بين المؤرخين الآخرين الذين كتبوا باللغة الفرنسية ، نذكر ذيل تاريخ گيّوم الصوري ، وهو التاريخ الحولي المنسوب لإرنو[1] Ernoul ، ولبرنار الخازن Bernard le Trésorier ، الذي يتضمن تاريخ سورية الفرنجية حتى عام 1231 م . وقد نُشر في پاريس عام 1871 بعناية دى مالاتري :

Ernoul: *Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier*, edit. L. de Mas-Latrie, Paris, 1871.

كان إرنو يعمل سائساً في خدمة الكونت باليان الثاني ديبلان ، ويفيد تاريخه الحولي – إلى جانب التاريخ الموسوم بتاريخ هرقل – بإعطاء معلومات تتمّم ما كان توقّف عنده كيّوم الصّوري ، وبخاصّة حول معركة حطين وسحق الجيش اللاتيني على يد السُّلطان النَّاصر في عام 583 هـ = 1187 م .

والأهمّ من ذلك ، أن إرنو كان برفقة باليان في القُدس ذاتها ، عندما حاصرها النَّاصر وأفلح بتهشيم دفاعاتها والقضاء على مقاومة حاميتها الصليبية ، فعادت أخيراً إلى أصحابها بعد 88 عاماً من الاحتلال . وتُعدّ رواية إرنو عن هذا

(1) كذا يُلفظ اسمه بالفرنسية بإهمال اللام ، بينما يصرّ باحثونا على كتابة اسمه : أرنول !

الفتح أهم وأوفى رواية على الإطلاق ، ويلاحظ أن كاتبها يُطنب في وصف شهامة السُّلطان وأريحيّته مع سكّان المدينة ، ورفضه القاطع للسّماح بإهانة المقدّسات المسيحية أو هدم كنيسة القبر المقدّس ، ثم رحمته بإطلاق آلاف الأسرى - فضلاً عن المرضى والعجائز - بغير فدية [1] .

* * * * *

وكذلك فقد ورد وصف فتوحات السُّلطان النَّاصر في فلسطين ، في نصّ لاتيني آخر معاصر له ، نُشر في لندن عام 1875 ، بعنوان :

De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum Libellus.
ed. W. Stubbs, Rolls series. London, 1875.

وثمّة نصوص أخرى ثانوية لا نحتاج هنا للإطالة بذكرها ، إلا أننا نتوقف فقط عند نصّين هامّين ، لهما شأن كبير في التأريخ للمرحلة الأخيرة من عهد النَّاصر ، وهي السنوات الخمس التي تلت معركة حطّين حتى وفاة السُّلطان ، أي 584 هـ - 589 = 1188-1193 م ، والتي خاض فيها السُّلطان معارك مريرة مع الصليبيين أثناء حملتهم الثالثة .

أولهما قصيدة بالفرنسية القديمة وضعها أمبرواز [2] Ambroise ، عنوانها : «تاريخ الحرب المقدّسة» ، نشرها گاستون پاري في پاريس عام 1897 :

Ambroise: *L'Estoire de la Guerre Sainte*, ed. G. Paris, Paris, 1897.

وثانيهما تاريخ لمؤلف مجهول كُتب باللاتينية حول خط سير حملة الملك ريتشارد قلب الأسد وأعماله ، نشرها وليام ستَبْز في لندن عام 1864 :

Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi, ed. W. Stubbs, Rolls series. London, 1864.

---

(1) لو صدر مثل هذا الوصف عن مؤرّخينا المسلمين ، لقلنا أو لقال سوانا : كلٌّ بمدح قومه مُغرم ؛ ولكنها شهادة الأعداء في رجولة سُلطاننا العظيم وفروسيته .

(2) كذا لفظ الاسم بالفرنسية ، وليس أمبرويز ، كما يصرّ باحثونا المعاصرون . وكلّ أسماء الصليبيين الفرنسيين نراها ترد مغلوطة في دراساتهم ، بسبب إهمالهم تعلّم الفرنسية .

وكانت قبل ذلك صدرت ترجمة لنص هذا التاريخ إلى الإنكليزية ، ونُشرت في لندن عام 1848 :

Itinerary of Richard I, ed. Bohn, London, 1848.

والجدير بالذكر ، أن هذين النصّين رغم أنهما يتصلان بأحداث الحملة الصليبية الثالثة ، فهما مع ذلك يعرضان معلومات هامة ومفيدة عن الفترة السابقة لهذه الحملة . أما عن حياة سُلطاننا النّاصر وأعماله ما بعد حطّين ، فيأتي هذان المرجعان في طليعة المصادر اللاتينية التي ترفد مصادرنا العربية في تقديم المعلومات واستكمال الصّورة التاريخية بجميع معطياتها .

ومن نافل القول ، أن هذه النّصوص جميعها بحاجة إلى أن تُترجم إلى اللغة العربية ، بطبعات علميّة محقّقة تستوفي شروط البحث العلمي الأكاديمي ، كيما نتمكّن من ضمّها إلى مصادرنا العربية ، ونستكمل مكتبة تاريخية شاملة عن تاريخ بلاد الشّام إبّان فترة الحروب الصليبية .

* * * * *

وكائناً ما كان الأمر ، فمن ضمن هذه المصادر القديمة عن حياة السُّلطان النَّاصر صلاح الدِّين الأيوبي[1] - والتي ذكرنا منها 5 مصادر عربية و 6 لاتينية - تبقى لكتاب ابن شدّاد «النّوادر السُّلطانيّة والمحاسن اليُوسُفيّة» ، مكانةٌ خاصّة وصبغة شائقة وتميّز فريد ؛ لا على صعيد ذلك العصر الذي عاش فيه السُّلطان والمؤلّف فحسب ، بل نجزم واثقين أن كتابنا هذا يظلّ واحداً من أروع ما وصلنا من كنوز أدبنا التاريخي العربي ونفائسه ، بوجه التعميم والإطلاق .

* * * * *

---

(1) هذا طبعاً ناهيك عن مئات الكتب الحديثة ، الصادرة في الشرق والغرب ، من دراسات وأبحاث ، وحتى روايات وأعمال تلفزيونية ، مما لا نجد له مثيلاً عن أية شخصية أخرى في تاريخنا ، ما خلا شخصية نبيّنا الكريم محمد ، عليه أزكى الصلاة والتسليم .

ابن شدّاد وكتابه
«النوادر السُلطانية والمحاسن اليوسفية»

• مؤلّف الكتاب هو بهاء الدِّين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عُتبة ، اشتُهر بابن شدّاد ، لأن شدّاد جدّه لأمه ، وقد توفي أبوه وهو طفلٌ صغير ، فربّي في كنف أخواله بني شدّاد ولهذا نُسب إليهم [1] .

• وُلد مؤرّخنا في الموصل عام 539 هـ (1145 م) ، وتوفي بحلب عام 632 هـ (1239 م) ، فيكون بذلك قد عمّر ثلاثاً وتسعين سنة ، أي قرابة قرن من الزمان .

• تلقّى ابن شدّاد علومه الأولى في الموصل ، فحفظ القرآن وقرأ على شيوخ الموصل كتباً في علوم الحديث والتفسير والفقه والقراءات والأدب ، وكانت المدرسة النظامية في بغداد تجتذب إليها وقتذاك طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ؛ فارتحل إليها مؤرخنا ابن شدّاد ، وترتّب فيها مُعيداً بعد وصوله إليها بقليل ، وكان ذلك في سنة 566 هـ (1171 م) ، وكان في السابعة والعشرين من عمره .

• وظلّ يشغل هذا المنصب نحو أربع سنوات ، حيث عاد إلى بلده الموصل ، وعيِّن هناك مدرّساً بالمدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدِّين أبو الفضل محمد ابن الشَّهْرَزُوري ، ولازم – كما يقول ابن خلّكان – «الاشتغال ، وانتفع به جماعة» ، وعَلَت مكانته وارتفع ذكره لما اشتهر به من الحكمة ورجاحة العقل والاتّزان في التفكير . ولهذا ، نجد أتابك الموصل يعهد إليه بالسِّفارة إلى الخليفة العبّاسي في بغداد (سنة 578 هـ) ، وإلى السُّلطان النَّاصر صلاح الدِّين (سنة 579 هـ وسنة 581 هـ وسنة 583 هـ) ، وكثير من الحكّام المجاورين ، في أمور خطيرة من شؤون الدَّولة .

---

(1) رجعنا في هذا الفصل إلى ما كتبه المرحوم الدكتور جمال الدِّين الشيّال ، في مقدّمته على نشرته للنّوادر السُّلطانية . وكان في خاتمة هذه المقدّمة (ص 13) أعلن بأسف أنه بسبب تقديم الكتاب إلى المطبعة أثناء غيابه عن مصر «خرجت الطبعة وبها أخطاء كثيرة» .

وفي عام 583 هـ (1188 م) ، سافر ابن شدّاد إلى مكة ، وأدّى فريضة الحج وزار قبر الرسول ، عليه الصّلاة والسّلام ، وكان يُزمع في عودته أن يزور بيت المقدس – وكان البطل صلاح الدِّين قد استردّها في السّنة ذاتها – ولكنه نزل أولاً بمدينة دمشق ، وكان صلاح الدِّين يحاصر قلعة كوكب . فعلم بوصول ابن شدّاد إلى دمشق ، وكان يعرفه معرفة أكيدة منذ اتّصل به في سفاراته السابقة ، فاستدعاه إليه .

ويروي ابن شدّاد بنفسه في كتابه عن هذا اللقاء بقوله [1] : «فوصلتُ إلى دمشق ثم خرجتُ إلى القُدس ، فبلغه خبرُ وصولي ، فظنَّ أني وصلتُ من جانب الموصل في حديث ، فاستحضرني عنده ، وبالغ في الإكرام والاحترام» .

ويتابع لنا المؤرّخ الشهير ابن خلّكان رواية أحداث هذا اللّقاء بالذّات ، في غضون ترجمته للقاضي ابن شدّاد في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان» ، نقلاً عن كتاب لابن شدّاد هو : «ملجأ الحكّام عند التباس الأحكام» . يقول ابن خلّكان [2] :

«ثم دخل دمشق والسُّلطان صلاح الدِّين مُحاصرٌ قلعة كوكب ، فذكر أنه سمع بوصوله فاستدعاه إليه ، فظنّ أنه يسأله عن كيفيّة قتل الأمير شمس الدِّين ابن المقدّم . . ؛ فلمّا دخل عليه ذكر أنه قابله بالإكرام التّام ، وما زاد على السؤال عن الطريق ، ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل . وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه ، فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكار البُخاري ، وأنه قرأه عليه بنفسه» .

---

(1) انظر متن الكتاب أدناه ، ص 166 .

(2) وفيّات الأعيان ، 7 : 87 ، طبعة دار صادر ، بيروت 1971 ، بتحقيق أستاذنا الفاضل الدكتور إحسان عبّاس . ولقد ترجم فيه ابن خلّكان لابن شدّاد ترجمة وافية ، تربو على 17 صحيفة (ص 84–100 من الطبعة المذكورة) ، يلمح القارئ فيها منتهى الاحترام للمترجَم له ، حيث كان ابن خلّكان من صغار تلامذته في الموصل ، وكانت لوالد ابن خلّكان صحبة ومودّة وثيقة مع الرّجل في الموصل ؛ ولا غرو ، فهما ابنا إقليم واحد في شمال العراق ، إذ أن ابن شدّاد موصلي وابن خلّكان إربلي .

ويشرح ابن شدّاد في كتابه هذا «النّوادر السُّلطانية» كيف اتّصل بخدمة صلاح الدِّين ، قال [1] : «ولمّا ودّعتُهُ ذاهباً إلى القُدس ، خرج لي بعض خواصّه [عماد الدِّين الكاتب الأصفهاني] ، وأبلغني تقدّمه لي بأن أعود أمثُل في خدمته عند العَوْد من القُدس . فظننتُ أنه يُوصيني بمُهمّ إلى الموصل» .

وأتمّ ابن شدّاد زيارته للقُدس وعاد إلى دمشق ، وفي عزمه أن يستأذن من صلاح الدِّين في العودة إلى بلده الموصل ، لكي يترك الوظائف ويعتكف للدراسة والعبادة ، وكان ابن شدّاد قد ألّف أثناء مقامه في دمشق هذه المرّة كتاباً في الجهاد وأحكامه وآدابه ، فقدّمه لصلاح الدِّين «فأعجبه ، وكان يُلازم مطالعته» [2] .

ويستطرد ابن شدّاد ، فيروي كيف منعه صلاح الدِّين من العودة إلى الموصل ، وألحقه بخدمته فيقول [3] : «وما زلتُ أطلبُ دُستوراً في كل وقت وهو يُدافعني عن ذلك ، ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ، ويُبلغني على ألسنة الحاضرين ثناءه عليّ وذكره إيّاي بالجميل . . ثمّ سيَّر إليّ مع الفقيه عيسى ، وكشف إلي أنه ليس في عزمه أن يمكّنني من العَوْد إلى بلادي ، وكان الله قد أوقع في قلبي محبّته مُنذ رأيتُه وحبّه للجهاد ، فأحببتُه لذلك ، وخدمتُه من تاريخ مستهلّ جُمادى الأولى سنة أربع وثمانين» .

ـ عيّن صلاح الدِّين بهاء الدِّين ابن شدّاد قاضياً لعسكره وللقُدس الشريف ، وظلّ بهاء الدِّين في خدمته مُلازماً له ، لا يفارقه ليلاً أو نهاراً إلى أن أدركته الوفاة في أواخر صفر سنة 589 هـ ، وكان مقيماً هو والقاضي الفاضل إلى جوار السُّلطان صلاح الدِّين أثناء مرضه الأخير ، ووصف اللحظات الأخيرة التي انتهت بوفاة هذا البطل العظيم وصفاً بليغاً مؤثراً .

---

(1) انظر متن الكتاب أدناه ، ص 167 .

(2) انظر متن الكتاب أدناه ، ص 168 . ويروي ابن خلّكان في وفيّاته (7 : 88) : «وجمع له في تلك المدّة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد ، وما أعدّ الله سبحانه وتعالى للمجاهدين ، يحتوي على مقدار ثلاثين كرّاسة ، فخرج إليه واجتمع به على بُقَيْعة حصن الأكراد ، وقدّم له الكتاب الذي جمعه» .

(3) انظر متن الكتاب أدناه ، ص 168 .

وبعد وفاة صلاح الدِّين ، اتّجه ابـن شدّاد إلى حلب ولعب دوراً كبيراً في التقريب بين إخوة صلاح الدِّين وأولاده ، وكانوا جميعاً يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى نصحه . وفي عام 591 هـ ، عيّنه الملك الظاهر صاحب حلب قاضياً لها ومشرفاً على أوقافها ، ويذكر ابن خلّكان [1] : «وكانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس ، وليس بها من العلماء إلا نفرٌ يسير ، فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها ، وجمع الفقهاء بها وعُمِّرت في أيامه المدارس الكثيرة» .

وكان الملك الظاهر قد قرّر لابن شدّاد إقطاعاً جيداً يدرّ عليه مبلغاً كبيراً من المال ، ولم يكن ابن شدّاد قد تزوّج ولم تكن له أسرة ولا ولد . فتوفّرت له ثروة وافية ، فعمّر بها مدرسة فخمة لتدريس المذهب الشافعي بالقرب من باب العراق في مدينة حلب ، قُبالة مدرسة السُّلطان نُور الدِّين محمود بن زنكي ، وبنى إلى جانبها داراً للحديث ، وأنشأ بين المدرستين تُربة ليُدفن بها بعد وفاته .

ومنذ بُنيت هذه المدرسة ، ومنذ رتّب ابن شدّاد دروسه بها ، أصبحت لحلب منزلة علمية مرموقة تجذب إليها طلاّب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي . يقرّر هذه الحقيقة المؤرخ ابن خلّكان – وقد كان واحداً ممّن سافروا إلى حلب خصّيصاً للتّتلمُذ على القاضي ابن شدّاد في مدرسته – فيقول [2] :

«ولمّا صارت حلب على هذه الصورة ، قصدها الفقهاء من البلاد ، وحصل بها الاشتغال والاستفادة ، وكثر الجمع بها» .

* * * * *

وقد لعب ابن شدّاد دوراً كبيراً في التوفيق بين أفراد البيت الأيوبي في مصر والشام ، كلّما نشب نزاع بين بعضهم والبعض الآخر ، ولهذا كان دائم التنقّل بين حلب والقاهرة لتحقيق هذا الهدف ، وتذكر المراجع أنه وفد على القاهرة في هذه المهام وأشباهها ، في الأعوام 593 و 608 و 613 و 629 هـ .

---

(1) وفيات الأعيان ، 7 : 89 .
(2) المرجع ذاته ، 7 : 90 .

وظلّت لابن شدّاد الكلمة النّافذة والرأي المطاع في عهد الملك العزيز ابن الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، ولمّا خطب العزيز ابنة الملك الكامل محمد صاحب مصر ، كان ابن شدّاد على رأس الوفد الذي سافر إلى القاهرة في عام 629 هـ لإحضار العروس ومرافقتها إلى حلب .

غير أن السنين كانت قد نالت منه وأصابته الأمراض ووهن الشيخوخة ، فلزم مكاناً دافئاً يقيم به متدثّراً ، لا يقوم إلا لأداء فريضة الصلاة ، ويلقي فيه بعض الدّروس على وفود أصدقائه وزوّاره وتلاميذه الذين يتردّدون عليه . وقد صحبه ولازمه في أيامه الأخيرة المؤرّخ ابن خلّكان ، فقدّم لنا في الترجمة التي أرّخ فيها لحياة ابن شدّاد في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان» صورة حيّة ومؤثرة للعالم الشيخ الذي أضناه المرض وأكدّته الشيخوخة ، بقوله [1] :

«وكنا نسمع عليه الحديث ، ونتردّد إليه في داره ، فقد كانت له قُبَّة تختص به ، وهي شتوية ، لا يجلس في الصيف أو الشتاء إلا فيها ، لأن الهرم كان قد أثّر فيه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف ، لا يقدر على الحركة للصّلاة وغيرها إلا بمشقّة عظيمة . وكانت النّزلات تعتريه في دماغه ، فلا يفارق تلك القبّة ، وفي الشتاء يكون عنده منقلٌ كبير فيه من الفحم والنّار شيء كثير ، ومع هذا كلّه لا يزال مزكوماً وعليه الفرجيّة البرطاسي والثياب الكثيرة ، وتحته الطرّاحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثخينة ، بحيث أنا كنّا نجد عنده الحرّ والكرب ، وهو لا يشعر به لكثرة استيلاء البُرودة عليه من الضعف .

وكان لا يخرج لصلاة الجمعة إلا في شدّة القيظ ، وإذا قام إلى الصلاة بعد الجُهد يكاد يسقط . ولقد كنتُ أنظر إلى ساقيه إذا وقف للصلاة ، وكأنهما عودان رقيقان لا لحم عليهما . وكان عُقيب صلاة الجمعة يسمع المصلّون عنده الحديث عليه ، وكان يُعجبه ذلك . وكان حَسَن المحاضرة ، جميل المُذاكرة ، والأدب غالبٌ عليه» .

(1) وفيات الأعيان ، 7 : 91 .

، وقد تتلمذ على ابن شدّاد – عدا ابن خلّكان – عدد آخر من كبار المؤرخين المعاصرين له ، منهم أبو شامة المقدسي صاحب كتابي «الرّوضتين في أخبار الدّولتين» و «الذّيل على الرّوضتين» . وقد ترجم له في الكتاب الأخير في وفيات سنة 632 هـ ، قال [1] :

«وفيها توفي القاضي بهاء الدِّين ابن شدّاد بحلب ، واسمه يوسف بن رافع ابن تميم . وكان من رؤسائها ، وكان للناس به نفع . وكنتُ قد اجتمعتُ بابن شدّاد بدمشق وأجاز لي جميع ما يرويه ، ثم سمعتُ عليه بمصر ، وعند قبّة الإمام الشافعي – رحمه الله تعالى – سنة ثمان وعشرين وستمائة» .

ومنهم جمال الدِّين ابن واصل الحموي ، مؤرّخ الدّولة الأيوبية وصاحب الموسوعة الكبيرة «مفرِّج الكُروب في أخبار بني أيوب» ، ففي سنة 627 هـ كان ابن واصل قد سافر إلى حلب ، ولبث بها نحو عامين تردّد في خلالهما على ما بها من مدارس ومكتبات ، واتصل بمن فيها من علماء بارزين ، وخاصّة القاضي المؤرخ بهاء الدِّين ابن شدّاد ، والشيخ نجم الدِّين ابن الخبّاز ، والشيخ موفق الدِّين ابن نفيس .

ويبدو أنه أفاد من هؤلاء الشيوخ فوائد جمّة ، فقد كان يعتزّ بهذه الزيارة فيما بعد ، ولهذا ذكرها في كتابه «مفرّج الكروب» أكثر من مرة .

قال أولاً في حوادث سنة 628 هـ : «وكنتُ في حلب في هذه السنة ، قد توجّهتُ للاشتغال بالعلم على الشيخ نجم الدِّين ابن الخبّاز ، وكان إماماً في المذهب والأصول ، وعلى الشيخ موفق الدِّين ابن نفيس في علم النحو واللغة ، ولتحصيل البركة بالقاضي بهاء الدِّين ابن شدّاد ، رحمه الله . وكان سفري إلى حلب في أواخر سنة 627 ، فأقمتُ بها إلى شعبان سنة 628 ، ثم تردّدتُ إلى خدمة القاضي بهاء الدِّين ابن شدّاد مراراً ، وكان نزولي بمدرسته التي أنشأها بالقرب من داره» .

---

(1) الذيل على الرّوضتين ، نشرة عزّت العطار الحسيني ، القاهرة 1947 ، ص 163 .

وأشار إلى هذه الزيارة مرة أخرى عند ترجمته لابن شدّاد بمناسبة وفاته ، قال : «وقصدتُ خدمته بحلب سنة 627 ، وحضرتُ مجلسه واستفدتُ منه ، وأقمتُ بمدرسته التي أنشأها إلى جانب داره – رحمه الله – نحو سنة وكسر» .

وأشار إليها مرة ثالثة بقوله : «وكان القاضي بهاء الدِّين يذكر بنفسه الدّرس في مدرسته ، ثم لمّا أسنَّ وضعف ، بقي المعيدون في كل يوم يُقرأ عليهم العلم ، ولا يذكر أحد درساً في المدرسة إلى أن توفي ، وكنتُ بحلب سنة 627 وسنة 628 ، وكان الأمر جارياً على ذلك . وكانت الرَّبْعَة تُحضر في كل يوم ، فيقرأ منها ما تيسّر ، ثم يدعو الدّاعي له» .

وحدث أثناء إقامة ابن واصل في حلب أن احتبس الغيث ، فخرج النّاس للاستسقاء ، وفي مقدّمتهم شيخ البلد بهاء الدِّين ابن شدّاد . ولقد حضر ابن واصل هذا الحدث وأرّخ له بقوله : «واحتبس الغيث في هذه السنة احتباساً كثيراً بحلب ، وارتفعت الأسعار ، فخرج الناس إلى جبل بانقوسا واستسقوا ، وحضر الاستسقاء بهاء الدِّين ابن شدّاد ، فجاء مطرٌ يسيرٌ بعد ذلك وانحطّت الأسعار قليلاً» .

وفي سنة 632 هـ ، كان الكتاب قد بلغ أجله ، وارتفعت روح ابن شدّاد إلى بارئها ، بعد أن عمَّر قرابة قرن من الزمان ، أو ثلاثاً وتسعين سنة على وجه التحديد ، قضاها في الدراسة والتدريس والتأليف والعمل الصالح . ودُفن في تربته التي بناها لنفسه بجوار مدرسته في حلب .

* * * * *

ومؤلفات ابن شدّاد ليست كثيرة ، وسنقدّم فيما يلي بياناً بالمعروف منها الذي أشارت إليه المراجع ، غير أننا نحبّ قبل إثبات هذا البيان أن نشير إلى أن مؤرخنا ابن شدّاد لم يكن الوحيد بين المؤرخين العرب الذي حمل هذا الاسم ، فهناك ابن شدّاد آخر يشترك مع مؤرخنا في أشياء كثيرة ، فكل منهما كان يسمّى ابن شدّاد ، وبهذا الاسم عُرفا وأُشير إليهما في المراجع المختلفة . غير أن مؤرخنا

صاحب سيرة صلاح الدِّين كان يُكنّى ببهاء الدِّين ، واسمه الكامل بهاء الدِّين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، ابن شدّاد ؛ بينما كان سميّه يُكنّى بعزّ الدِّين ، واسمه الكامل عزّ الدِّين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم بن شدّاد .

ومؤرخنا بهاء الدِّين ولد ونشأ في الموصل ، غير أنه قضى معظم حياته وتوفي في حلب في سنة 632 هـ . أما عزّ الدِّين ابن شدّاد فقد ولد ونشأ في حلب ، ولكنه قضى معظم حياته في القاهرة ، وبها توفي ودُفن في سنة 684 هـ ، أي بعد وفاة سميّه باثنتين وخمسين سنة ؛ وبهاء الدِّين كان فقيهاً ومحدّثاً ومؤرخاً ، وعزّ الدِّين كان مؤرخاً وجغرافياً .

ومع هذا ، فقد خلط المؤرخون وكتّاب السِّيَر والبيبلوغرافيون بين الرّجلين عند إحصاء مؤلفات كل منهما . ودفعهم إلى هذا الخلط تشابه اسمي كل منهما ، ونسبتهما إلى حلب واشتغالهما بالتاريخ وتأليفهما فيه ، وكونهما توفّيا في قرن واحد هو القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

وقد سبق المؤرخون والباحثون بإلقاء الأضواء أولاً على حياة بهاء الدِّين ابن شدّاد ، ولهذا كان ولا زال أكثر شهرة من سميّه عز الدِّين ، ولعل هذا يرجع إلى أن بهاء الدِّين كتب سيرة صلاح الدِّين . فكانت عناية المؤرخين بدراسة هذه السيرة السبب الأكبر في شهرة بهاء الدِّين ، ولهذا نجد الباحثين ينسبون إليه عدداً من مؤلفات عز الدِّين ابن شدّاد .

وكان أول من وقع في هذا الخطأ حاجي خليفة ، صاحب كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»[1] ، فقد ذكر كتاب «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» ، ونسبه إلى بهاء الدِّين ابن شدّاد ، لا إلى مؤلفه الأصلي عزّ الدِّين ابن شدّاد . وقد وقع في الخطأ نفسه مؤرّخون آخرون لأنهم نقلوا عن حاجي خليفة ، فنجد ذلك عند الشيخ كامل الغزّي في كتابه «نهر الذّهب في تاريخ حلب» (1 : 11) ، وجرجي زيدان في «تاريخ آداب اللغة العربية» .

---

(1) كشف الظنون ، الطبعة الأولى ، 1 : 123 .

والكتاب الثاني الذي نُسب بالخطأ إلى بهاء الدِّين ابن شدّاد ، في حين أنه من تأليف سميّه عز الدِّين ، هو كتاب سمّاه كارل بروكلمان «تاريخ حلب» [1] ، في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» ، فذكره ضمن مؤلفات بهاء الدِّين ، وأضاف أنه توجد منه نسخة خطية في مكتبة مدينة سان پيتربورغ ، تحت رقم : AM, 203 [2] . ووقع في الخطأ نفسه الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه «الحياة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي» [3] ، والدكتور السيِّد الباز العريني في كتابه «مؤرخو الحروب الصليبية» [4] .

والكتاب الثالث الذي نُسب بالخطأ إلى بهاء الدِّين ابن شدّاد ، في حين أنه من تأليف سميّه عز الدِّين ، هو كتاب «الرّوض الزّاهر في سيرة الملك الظاهر» ، والمقصود هنا هو السُّلطان المملوكي الملك الظاهر بيبرس البندقداري [5] ، لا الملك الظاهر غازي ابن السُّلطان صلاح الدِّين ، الذي كان صاحبَ حلب .

ووقع في هذا الخطأ نفسه بروكلمان ، فقال بوجود نسخة خطيّة من المجلد الثاني من هذا الكتاب في مكتبة السُّلطان سليم باستانبول ، برقم : 1507 ، وأنه تُرجم إلى اللغة التركية تحت عنوان : «بيبرس تاريخى جكنداكى تاريخن ايكنجى جلدى» [6] ، وطُبع في استانبول سنة 1941 . وتبعه في هذا الخطأ الدكتور السّيد الباز العريني ، في كتابه السّالف الذكر .

* * * * *

---

(1) والواقع أنه هو القسم الخاص بحلب من كتاب «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» المذكور أدناه لعزّ الدِّين ابن شدّاد . وهذا الكتاب صدر بتحقيق دومينيك سورديل وسامي الدّهان ، ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق 1953–1962 .

(2) انظر : Brockelmann, *Gesch. der Arab. Litt.*, Sup. I, S. 549 .

(3) ص 309 من الكتاب .

(4) ص 202 من الكتاب .

(5) انظر مقدّمة د. سامي الدّهان لكتاب «الأعلاق الخطيرة» – الجزء الخاص بمدينة دمشق ، 1956 ، ص 18 . وللقاضي محيي الدِّين بن عبد الظاهر كتاب بالعنوان والمحتوى ذاته .

(6) ومعنى هذا العنوان بالتركية : الجزء الثاني من تاريخ بيبرس منذ القديم . وعبارة «جكنداكي» هنا مغلوطة ، وصوابها : جُوكْذَنكي ، أي من سالف العصور .

، أما الكتب التي قام بتأليفها مؤرخنا بهاء الدِّين ، ففيما يلي بيانها :

1- دلائل الأحكام [1] ، تحدّث فيه المؤلّف عن الأحكام النبويّة المستنبط منها الأحكام ، في مجلّدين . مخطوط بالمكتبة الوطنية في باريس ، رقم : 736 .

2- ملجأ الحكّام [2] عند التباس الأحكام (في الأقضية) . مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة في مجلّدين (الفهرس القديم لدار الكتب ، 3 : 297-298) .

3- الموجز الباهر (في الفقه) [3] .

4- دروس في الحديث (كان ألقاها في القاهرة حين سافر إليها في سنة 629 هـ لإحضار ابنة الملك الكامل محمد ، عروس الملك العزيز صاحب حلب) . مخطوط بمكتبة البودليان في أوكسفورد [4] .

5- كتاب العصا (المقصود موسى وفرعون) . مخطوط بمكتبة پاتنا Patna في رضا رامپور بالهند [4] .

6- فضائل الجهاد [2] ، ألّفه خصّيصاً لصلاح الدِّين ، كما ذكر في النَّوادر . مخطوط بمكتبة كوپريلي Köprülü باستانبول ، رقم : 764 .

7- أسماء الرِّجال الذين في المهذَّب للشيرازي [5] : مخطوط بمكتبة ولي الدِّين جار الله ، رقم : 255 ، نُسخ في القرن التاسع الهجري ، وكُتب بقلم معتاد وخط قديم ، ويقع في 52 ورقة بمقياس 13×18 سم ، وتوجد منه نسخة على فيلم برقم : 872 ، بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة التابع للجامعة العربية . وهذا الكتاب لم يشر إليه بروكلمان أو أي مرجع آخر ترجم لبهاء الدِّين ابن شدّاد .

8- النَّوادر السُّلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة (المعروف بسيرة صلاح الدِّين) . وهو كتابنا الحاضر بين أيدينا .

* * * * *

---

(1) ذكره ابن خلّكان في وفيّات الأعيان ، 7 : 99 ؛ وبروكلمان ، الذيل الأول ، 549-550 .

(2) ذكره ابن خلّكان ، 7 : 87 ، 99 ؛ وبروكلمان ، الذيل الأول ، 549-550 .

(3) ذكره ابن خلّكان في وفيّات الأعيان ، 7 : 100 .

(4) راجع : Brockelmann, *Gesch. der Arab. Litt.*, Sup. I, S. 550 .

(5) فهرس المخطوطات المصوّرة بمعهد المخطوطات ، جزء 2 قسم 1 ص 11 ، وقسم 2 ص 212 .

لا مُشاحّة في أن «النّوادر السُّلطانيّة» هو أهمّ مؤلّفات بهاء الدِّين ابن شدّاد ، وهو الذي أكسب مؤلّفه هذه الشهرة ، ووضعه في مصافّ المؤرّخين الكبار .

وقد قسم بهاء الدِّين ابن شدّاد كتابه إلى قسمين :

الأول : في مولد صلاح الدِّين وخصائصه وأوصافه وشمائله وخلاله .
الثاني : في تقلّبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريخها .

وقد نصّ المؤلّف في كتابه على أنه بدأ الاتصال بخدمة صلاح الدِّين في شهر جُمادى الأولى سنة 584 هـ ، وعلى أنه اعتمد عند التأريخ للأحداث السابقة لهذا التاريخ من يثق به ، أما الأحداث اللاحقة لهذا اليوم فقد وصفها كما شاهدها بنفسه ، أو على حدّ قوله هو : «ومن هذا التاريخ ما أُسطِّرُ إلا ما شاهدتُه أو أخبرني به من أثقُ به خبراً يقارب العَيَان» [1] .

وقد أشرنا من قبل إلى أن صلاح الدِّين كان قد عيّن بهاء الدِّين ابن شدّاد قاضياً لعسكره في سنة 584 هـ ، ولهذا نجد ابن شدّاد يلازم صلاح الدِّين طوال الحقبة الأخيرة من حياته التي قضاها في الشام ، أي من سنة 584 إلى سنة 589 هـ ، ويخالطه مخالطة تامة . ولذلك ، فهو يروي معظم هذه السّيرة وأحداثها عن مشاهدة ، ونراه ينصّ في معظم الأحوال أنه رأى الأحداث التي يؤرّخ لها ، أو سمع الأقوال التي يرويها [2] ؛ أمّا إن كان لم يشهد حادثة ما بأمّ عينه ، فإن الأمانة العلمية كانت تقتضيه أن ينصّ على أنه كان متغيّباً ، فهو يصف مثلاً وقعة الرّمل في سنة 585 هـ ، ويعقّب على الوصف بقوله : «وهذه الوقعة لم أحضرها فإني كنتُ مسافراً ، وما مضى من الوقعات شاهدتُ منها ما يشاهده مثلي ، وعرفتُ الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور» [3] .

---

(1) انظر متن الكتاب فيما يلي أدناه ، ص 169 . ويشبه ذلك ما ورد في ص 94 : «وما سطّرتُ إلا ما شاهدتُه ، أو أخبرني الثقة به وحقّقتُه» .
(2) الأمثلة على ذلك كثيرة في الكتاب ، ويُلاحظ في كثير من الأحيان استخدام المؤلّف لتاء الفاعل في روايته : رأيتُ ، رأيتُه ، شاهدتُ ، قلتُ له ، سمعتُ منه ، كنتُ جانبه . .
(3) انظر المتن ، ص 208 .

لهذا عُدّت هذه السيرة أوثق المراجع للتأريخ لحياة البطل النّاصر صلاح الدِّين ، وخاصّة الفترة الأخيرة من حياته ، بين سنة 584-589 هـ ، وهي فترة حافلة بالجهاد ضد الغزاة الصليبيين ، فإن انتصار صلاح الدِّين في موقعة حطّين واستعادته لبيت المقدس في سنة 583 هـ ، أحدثا ضجّة كبرى في أوروبا ، وكان ردّ الفعل إرسال الحملة الصليبية الثالثة بقيادة ثلاثة من كبار ملوك أوروبا ، هم : فريدريك بارباروسّا إمبراطور ألمانيا ، وفيليب أوگست ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنگلترا .

واحتدم القتال في أعنف صوره بين جيوش هذه الحملة وجيوش صلاح الدِّين ، طوال هذه السّنوات الأربع ، إلى أن انتهى بصُلح الرَّملة في شعبان سنة 588 هـ (أيلول 1192 م) .

* * * * *

وهذه السّيرة التي كتبها ابن شدّاد ، تقدِّم وصفاً تفصيليّاً دقيقاً للأحداث التاريخية وللمعارك الحربية ولأدوات القتال والحرب المستعملة في الجيشين ، مما لا نجده في مرجع آخر ، فقمنا بتحقيق ما يتعلّق بها من ألفاظ اصطلاحية في الكتاب ، وخاصّة ما اتّصل منها بأسلحة القتال في البرّ والبحر .

وفي الكتاب مصطلحات حربية هامّة تفيد في الدّراسات التاريخية العسكرية لعصر المؤلّف ، وفي النص فقرات كثيرة ذات أهميّة كبرى ، وصف فيها المؤلّف بعض هذه الآلات وصفاً جديداً مفيداً ، ومثال ذلك وصفه الدّقيق النّادر للدّبّابة والكبش والسنّور والبرج ذي الخرطوم ، ووصفه للدّبّابة ذات الأبراج الأربعة .

وينفرد الكتاب كذلك بوصف كثير من الأوضاع الاجتماعية والإدارية في المجتمعين الصليبي والإسلامي ، فهو يشير (ص 64) إلى بعض تقاليد الصليبيين في التّشاور والتحكيم ، فيقول : «ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، وأنهم قد نصُّوا على عشرة أنفس منهم وحكّموهم ، فبأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم» .

وفي الصحيفة – 13 – نص هام يصف فيه كيف كان السُّلطان النَّاصر يجلس للنّظر في المظالم .

وفي الصحيفة – 171 – نص آخر يفيد أن المسلمين المقيمين في الأراضي الخاضعة للصليبين ، كانوا يرجعون في خصوماتهم إلى قاض منهم .

وفي الصحيفة – 182 – نص يدلّ على أن بعض أمراء الصليبيين في الشام «كان يعرف العربية وعنده اطّلاع على شيء من التواريخ والأحاديث» .

وفي الصحيفة – 223 – وصف طريف لبعض الشرائع والأحكام التي كانت سارية على جنود ملك الألمان ، ومنها «أن من جنى منهم جنايةً فليس له جزاءٌ إلا أنه يُذبح مثل الشاة» .

وفي الصحيفة – 258 – وصف نادر لعَلَم الجيوش الصليبية ، يقول فيه : «وعَلَمُ العدوّ مرتفع على عَجَلَة هو مغروس فيها ، وهي تُسحب بالبغال ، وهم يذبّون عن العَلَم ، وهو عالٍ جداً كالمنارة ، خُرقتُه بياضٌ ، ملمّعٌ بحُمْرة على شكل الصُّلبان» .

وفي الكتاب عدد من الوثائق الهامة التي تلقي أضواء على العلاقات بين دولة السُّلطان النَّاصر والدّول المسيحية المجاورة ، ومن بينها نصوص الخطابات المُرسلة من كل من الكاغيكوس مقدّم الأرمن [1] ، وإمبراطور بيزنطة [2] إلى صلاح الدِّين . ومن الممكن أن نضيف إلى هذه الوثائق الوصف الوافي المفصَّل للسِّفارة التي أرسلها السُّلطان إلى القسطنطينية ، ولكيفيّة إقامة الخُطبة في المسجد المُقام في عاصمة الدّولة البيزنطيّة [3] .

* * * * *

---

(1) انظر المتن أدناه ، ص 221 .

(2) انظر المتن أدناه ، ص 232 . وكان إمبراطور بيزنطة آنذاك إسحاق أنجيلوس الثاني .

(3) انظر المتن أدناه ، ص 232 . وهذا خبر نادر وطريف ، ينصّ على إقامة الخطبة والصلاة به للمرة الأولى عام 585 هـ ، مع الدّعوة للخليفة النَّاصر العبّاسي في بغداد .

لكن أندر ما في الكتاب ، هو رواية المؤلف فيه لمشاهداته الشخصية ، ممـا رآه بعينه وخبره بنفسه في إقامته الدّائمة مع السُّلطان ، ومسيره المستمرّ معـه في جميـع حملاته وتحرّكاته ومعاركه . فيقدّم لنا بذلك وصفاً حيّاً رائعاً لا يُجارى .

يذكر مثلاً (في الصحيفة 180) أثناء حصار السُّلطان لحصن كوكب وفتحـه ، كيف كان السُّلطان يقتحم الخطر ويباشر القتال بنفسه : «بحيـث اتَّخذ لـه موضعـاً يتجاوزه نُشّـاب العـدوّ ، وبنى لـه حائطاً مـن حجـر وطـين يستتر وراءه والنُّشَّـاب يتجاوزه ، ولا يقدر أحد يقف على باب خيمته إلا أن يكون مُلبّساً» .

كما يصف أحياناً طبيعة العلاقات التي تربط المعسكرين المتحاربين ، وتجاور القوّات المشتبكة ، فـيروي (ص 75) : «وتـتراءى النّـاران ، ونسـمع منهـم صـوت النَّاقوس ، ويسمعون منا صوت الأذان» . ويضيف (ص 198) : «وأنس البعـض بالبعض بحيث أن كانت الطائفتان تتحدّثان وتتركـان القتـال ، وربمـا غنّـى البعـض ورقص البعض ، لطول المُعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة» .

حتى أن ابـن شـدّاد كـان في بعـض الأحيـان يشـارك بنفسـه في أعمـال القتـال وإيصال الأوامر والإشراف على تنفيذهـا ، فيذكـر (ص 196) أثنـاء اشـتباك قـوّات صلاح الدِّين مع الصّليبيين المحاصرين لعكّا في 8 شعبان من عـام 585 هـ : «وكنـتُ ممّن دخل ، ورقي على السُّور ، ورمى العدوّ بما يَسَّر الله تعالى من فوق السُّور» .

ويذكـر (ص 386) أثنـاء فتـح يافـا في 18 رجـب سـنة 588 هـ ، أن السُّـلطان انتدبه للقيـام بمهمّـة خاصـة ، وهـي اسـتدعاء الملـك الظـاهر لحراسـة بـاب القلعـة الجنوبي وإخراج الكتيبة الإسلامية التي اقتحمتها ، لئلا تقع في أسر قوّات ريتشـارد التي خفّت لنجدة يافا .

كما نرى في مصداقية المؤلّف وشفافيته ، ما يدفعه أحياناً إلى الإشادة بالعدوّ ومدح جرأتهم وشجاعتهم . يذكر (ص 384) عن فتح يافـا واسـتماتة حاميتهـا في الدّفاع عنها : «ولله دَرُّهم من رجال قتال ، ما أشدّهم وأعظم بأسهم ، فإنهم مـع هذا كلّه لم يغلقوا لها باباً ، وما زالوا يقاتلون خارج الأبواب» .

كما نجده يُشيد ببراعة الملك ريتشارد وجُرأته (ص 379) : «فما بَلَوْنا أعظمَ حيلةً ، ولا أشدَّ إقداماً منه» .

* * * * *

وخلا ذلك ، نقرأ في الكتاب لمحات رائعة حول الصّداقة الشخصية الحميمة التي ربطت بين الرّجلين : السُّلطان النّاصر ، والمؤلّف القاضي ابن شدّاد ؛ وكان كلٌّ منهما يكنّ للآخر مودّة واحتراماً كبيرين . وبذا ، نرى أن الكتاب يمثّل نموذجاً نادراً للغاية من سير حياة الملوك والأمراء ، التي يكون الدّافع من وراء كتابتها – في العادة – الرّهبة من الحاكم ، أو في أحسن الأحوال الأمل برضاه وعطاياه . أما في كتابنا هذا ، فكلمات ابن شدّاد تنطق بغامر المحبّة والإكبار الصّادق لشخص السُّلطان العادل المجاهد الزّاهد الحرّ الشّهم الكريم الجَسور .

يذكر مثلاً (ص 63) عن مرافقته للسُّلطان في الصّلاة وهو يتضرّع لله تعالى : «وصلّيتُ إلى جانبه على العادة ، وصلّى الرّكعتين بين الأذان والإقامة ؛ ورأيتُه ساجداً ، ودموعه تتقاطر على شيبته ، وعلى سجّادته» .

ثم يروي لنا موقفاً إنسانياً رائعاً ، عن لقاء السُّلطان به من بعد غيابه – أي ابن شدّاد – في القُدس الشريف ، وعودته إليه بدمشق في 12 صفر سنة 589 هـ ، فيقول (ص 414) : «فدخلتُ عليه – رحمة الله عليه – فقام ولقيني ملقىً ما رأيتُ أشدَّ منْ بِشره فيه – رحمه الله – ولقد ضَمَّني إليه ، ودَمعَتْ عينُه» .

ولمّا مرض السُّلطان النّاصر مرض موته ، لازمه ابن شدّاد مع القاضي الفاضل ، وكانا من أدنى مقرّبيه ، فتابعا أحواله لحظة بلحظة والألم يستبدّ بهما . ولما دنت لحظته الأخيرة ، أعلن ابن شدّاد بكل أسى (ص 421) : «ونزلنا وكلٌّ منّا يودّ فداءه بنفسه» . ثم لمّا انتُدب لحضور غسل الجُثمان تخلّف قائلاً (ص 422) : «فلم يكن لي قوّةٌ تحمُّل ذلك المنظر» .

* * * * *

مخطوط الكتاب وطبعاته

كانت أول طبعة للكتاب قد صدرت في لايدن بهولندا في عام 1732 [1]، على يد المستشرق شولتنز A. Schultens ، مع ترجمة إلى اللغة اللاتينية . يليها منتخبات من تاريخ أبي الفداء صاحب حماة ، ومن كتاب الفتح القُسّي في الفتح القُدسي لعماد الدِّين القُرشي الأصبهاني . وفي آخرها فهرست جغرافي باللاتينية ومعه شواهد باللغة العربية . ثم أعيدت طباعة النّشرة ذاتها بلايدن عام 1755 .

كما تمّت ترجمة الكتاب إلى الإنكليزية ، على يد كوندر C. R. Conder ، ونُشرت بلندن في سنة 1897 ، ضمن مجموعة «جمعية دراسات حجّاج فلسطين» (P. P. T.) ، مع مقدّمة بقلم المستشرق ويلسون C. W. Wilson ، تحت عنوان :

The Life of Saladin, by Beha ad-Din, Compared with the Original Arabic, and annotated with a preface by C. W. Wilson.
Palestine Pilgrims Text Society, London 1897.

وفي مصر ، تم طبع الكتاب منقولاً برمّته عن طبعة لايدن مع المنتخبات ، لكن بإهمال المقدّمة والترجمة اللاتينية والفهارس التفصيلية . وصدر عن شركة طبع الكتب العربية ومطبعة المؤيّد سنة 1317 هـ [2].

وصدرت بمصر طبعة أخرى منقولة ، بتصحيح محمد الرّخاوي ، في مطبعة محمد علي صبيح بالقاهرة 1346 هـ (1927) ، مع منتخبات من تاريخ أبي الفداء . وعنها صدرت مؤخراً طبعة دار الفرجاني بالقاهرة ، عام 1988 . وهذه الطبعات كلها تجارية سقيمة وناقصة ، ومسروقة من طبعة لايدن . ثم صدرت طبعة صحّحها وشرح غريبها محمد محمود صبح ، دار الكتاب العربي بالقاهرة (دون تاريخ) . إنما تتشابه هذه الطبعات جميعها في النقل من طبعة لايدن ، المبتورة والمحشوّة بالتّصحيفات والأغلاط .

---

(1) راجع : معجم المطبوعات العربية والمعرّبة ، منذ ظهور الطباعة حتى عام 1919 ، ليوسف اليان سركيس ، طبعة مصر 1928 ، ص 138-139 .

(2) تشير بعض الفهارس إلى هذه الطبعة بعنوان : طبعة مصر ، مطبعة الآداب 1899 .

أما أول طبعة استندت إلى مخطوط الحرم القُدسي الشريف ، فكـانت طبعـة المرحوم الدكتور جمال الدِّين الشيّال ، التي أعدّها للنشر بطلـب مـن وزارة الثقافة والإرشـاد القومـي عـام 1962 ، وصـدرت عـن المؤسسـة المصريـة العامّـة للتـأليف والأنباء والنشر ، ضمن سلسلة «تراثنا» بالقاهرة ، عام 1964 .

ولكن مما يؤسف لـه ، أن هـذه النشـرة برغـم أفضليّـة نصّهـا علـى الطبعـات القديمة الناقصة ، فقد وقعت بها أغلاط فاحشة للغاية ، بسبب غياب محقّقها عـن مصر ، ونُشرت على علاّتها وبلا فهارس . وهكذا ، بقي الكتاب إلى يومنـا بغـير طبعة كاملة ، إلى أن قمنا بنشره اليوم كاملاً محققاً مفهرساً .

* * * * *

أما المخطوطة الأصلية ، فهي موجـودة في مكتبـة المسـجد الأقصـى بـالقُدس الشريف ، تحت رقم : 595 سير تاريخ ، وتتألف مـن 200 ورقـة ، يبلـغ مقياسـها 16×23 سم . وهذه النسخة الأمّ قيّمة للغاية ، كُتبت في حياة المؤلّف في 12 رجـب سنة 626 هـ ، أي قبل وفاته بستّ سنوات . والـذي يزيـد مـن قيمتهـا أنهـا قوبلـت على أصل ابن شـدّاد ، كمـا ورد في خاتمتهـا ؛ وقُرئـت عليـه ، كمـا يتبيّـن في نـصّ العنوان بالصفحة الأولى :

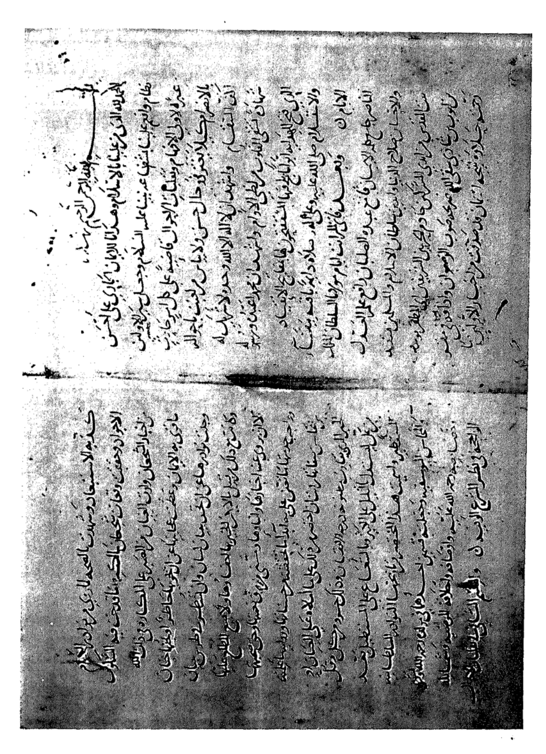
كتاب النّوادر السُلطانيّة والمحاسن اليوسفيّة
تأليف مولانا الصّاحب قاضي القضاة ، شيخ مشايخ الإسلام بهاء الدِّين أبي المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ، وليّ أمير المؤمنين ، أدام الله أيّامه ، سماع

*فعبارة «أدام الله أيّامه» تـدلّ علـى مـا ذكرنـاه ، وكذلـك يـدلّ السّـماع علـى مراجعة نص النسخة على المؤلّف بذاته ، مما يزيد من موثوقيّة النسخة وأصالتها .

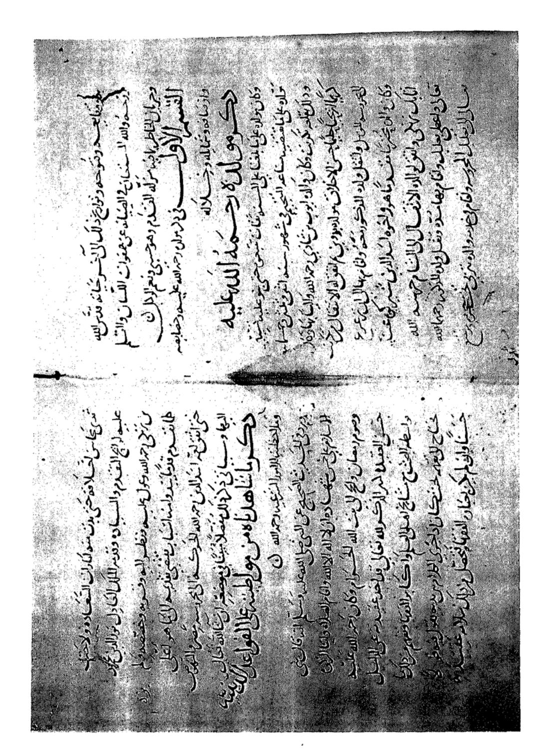
* ظفرنا بنسخة من مخطوطة القُدس الفريـدة ، مـن فيلـم بمعهـد المخطوطـات العربية بالقاهرة ، رقم : 18 (1296) ، وعنها قمنا بتحقيق الكتاب ، بمـا نعتقـد أنـه يفي أخيراً بقيمته وأهميّة موضوعه . والحمد لله على ما وفّق وأعان .



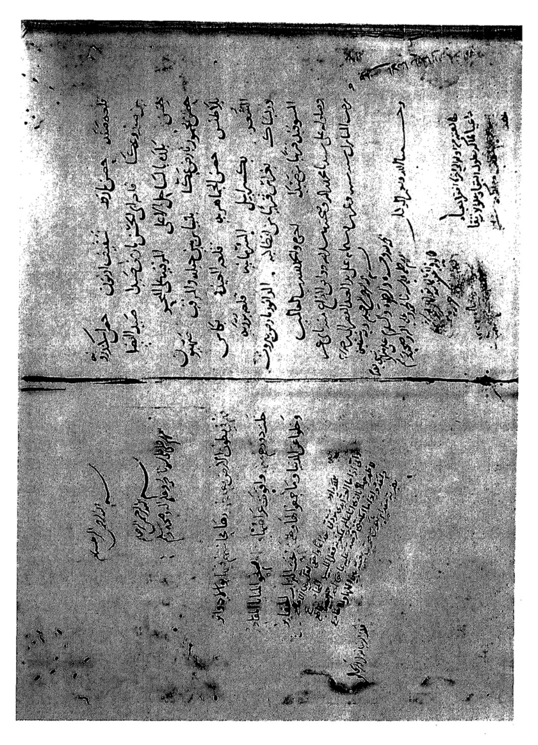
راموز صفحة العنوان الأولى [1 و] من مخطوطة الحرم القدسي الشريف



راموز لخطبة الكتاب من مخطوط الأصل ، الوجهان [1 ظ – 2 و]



راموز لمطلع الكتاب من مخطوط الأصل ، الوجهان [2 ظ – 3 و]



راموز لخاتمة الكتاب من مخطوط الأصل ، الوجهان [207 ظ – 208 و]

[1 و]

كتاب النّوادر السُّلطانيّة والمحاسن اليُوسُفيّة

تأليف مولانا الصّاحب قاضي القضاة
شيخ مشايخ الإسلام بهاء الدِّين أبي المحاسن
يوسف بن رافع بن تميم ، وليّ أمير المؤمنين
أدام الله أيّامه

سَماع [1]

(1) ذكرنا أعلاه مؤدّى عبارة السَّماع . وفي صفحة العنوان هذه [1 و] ترجمة للمؤلّف ابن شدّاد ، كُتبت بخط مغاير لخط الناسخ ، وهي منقولة عن كتاب «طبقات الشافعية» لتقيّ الدّين ابن قاضي شُهبة (توفي 851 هـ) .

[1 ظ] بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي مَنَّ علينا بالإسلام ، وهدانا للإيمان ، الجاري على أحسن نظام ، وأنعم علينا بشفاعة نبيّنا [محمّد] عليه [أفضل الصَّلاة و] السَّلام ، وجعل سير الأولين عِبْرة لأولي الأفهام ، وتقلّبات الأحوال قاضيةً على كلّ أمر حادث بالانصرام ، كَيلا يغترّ ذو حال حَسَن ، ولا ييأس مَنْ لعبتْ بأحواله أكفُّ السِّقام .

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . شهادةً تُشفي القلوب من لظى الأوام .

وأشهد أن [سيّدنا] محمّداً عبده ورسوله ، الذي فتح للهداية أبواباً يلج فيها المستفتحون لها بمفاتيح الانقياد والاستسلام ، صلّى الله عليه وعلى آله صلاةً دائمةً باقيةً ببقاء الأيام .

وبعد :

فإني لما رأيتُ أيام مولانا السُّلطان ، الملك النَّاصر جامع كلمة الإيمان ، وقامع عَبَدة الصُّلبان ، رافع عَلَم العدل والإحسان ، صلاح الدُّنيا والدِّين ، سُلطان الإسلام والمُسلمين ، مُنقذ بيت المقدس من أيدي المشركين ، خادم الحرمين الشَّريفين ، أبي المظفّر يوسف بن أيّوب بن شاذي – سقى الله ضريحَه صوب الرِّضوان ، وأذاقه في مقرِّ رحمته حلاوةَ نتيجة الإيمان – ، قد صَدَّقت من أخبار

الأوّلين ما [2 و] كذّبه الاستبعاد ، وشهدتْ بالصحّة لما رُوي من نوادر الكرام الأجواد ، وحقّقت وقعات شجعان مالكها [1] ما قدحتْ فيه الشُّكوك من أخبار الشُّجعان ، وأرت العيان [2] من الصَّبر على المكاره في ذات الله ما قوّى بها الإيمان ، وعَظُمت عجائبُها عن أن يحويها [3] خاطرٌ أو يُجنها جنان ، وجلّت نوادرُها عن [4] أن تُحدّ ببيان لسان ، أو أن تُسطَّر في طرس ببنان .

وكانت - مع ذلك - من قبيل ما لا يمكن الخبيرُ بها إخفاؤُها ، ولا يسعُ المطّلع عليها إلا أن تُروى عنه أخبارها وأنباؤها ؛ ومسَّني من رقّ نعمتها ، وحقٍّ صُحبتها [5] وواجب خدمتها ، ما تعيّن [6] به إبداءُ ما تحقّقتُه [7] من حسناتها ، وروايةَ ما علمته من محاسن صفاتها :

رأيتُ أن أختصر من ذلك على ما أملاهُ عليّ العيان ، أو الخبر الذي يقاربُ مظنونُه درجة الإيقان ، وذلك جزءٌ من كل ، وقُلٌّ من علٍ ، ليُستدلّ بالقليل على الكثير ، وبالشُّعاع على المُستطيل بعد المُستطير .

وأسميتُ هذا المختصر من تاريخها :

« النَّوادر السُّلطانيّة والمَحَاسن اليُوسُفيّة »

* * * * *

---

(1) في طبعة مصر : مماليكها .
(2) في طبعة مصر : ورأت بالعيان .
(3) في طبعة مصر : يحيط بها .
(4) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .
(5) في طبعة مصر : محبتها .
(6) في طبعة مصر : يجب .
(7) في طبعة مصر : حققتُ .

وجَعَلْتُهُ قسمين :

أحدهما : في مولده - رحمه الله - ومنشئه ، وخصائصه ، وأوصافه ، وأخلاقه المرضيّة ، وشمائله الراجحة في نظر الشرع الوفيّة .

والقسم الثاني : في تقلّبات الأحوال[2 ظ] به ، ووقائعه وفتوحه ، وتواريخ ذلك إلى آخر حياته [1] ، قدّس الله روحه .

والله المستعان في الصيانة عن هفوات اللّسان والقلم ، وجريان الخاطر بما فيه مزلّة القدم ، وهو حسبي ونِعْمَ الوكيل .

* * * * *

---

(1) في طبعة مصر : أيام حياته .

القسم الأول

في ذكر

مولده وخصائصه وأوصافه وشمائله وخِلاله

رحمة الله عليه

ذكر مولده [1]
رحمة الله عليه

كان مولده - رحمه الله - على ما بلغنا على ألسنة ثقات تتبّعوه [2] حتى بنوا عليه تسيير مولده - على ما تقتضيه صناعة التنجيم - في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وذلك بقلعة تَكْرِيت [3] .

وكان والده أيّوب بن شاذي - رحمه الله تعالى - والياً بها ، كريماً أريحياً حليماً حسن الأخلاق ، مولده بدَوِيْن [4] ، ثم اتفق له الانتقال من تَكْرِيت إلى محروسة المَوْصِل [5] ، وانتقل ولده المذكور معه ، وأقام بها إلى أن ترَعْرَعَ ، وكان والده مُحترماً مقدّماً [6] هو وأخوه أسد الدِّين شيْرْكُوْه [7] عند أتابك زنكي [8] .

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : من ألسنة الثقات الذين تتبعوه .
(3) هكذا ضبطها ياقوت في معجم البلدان (5 : 38) ، وقال : والعامة تقول : تكريت ؛ وذكر أنها بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهي إلى بغداد أقرب ، ولها قلعَة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة ، وهي غربي دجلة .
(4) هكذا ضبطها ياقوت في معجمه (8 : 491) ، وعرّفها بأنها بلدة من نواحي أران في آخر حدود أذربيجان بقرب من تفليس ، منها ملوك الشام بنو أيوب ؛ ولكن ابن خلكان في وفيات الأعيان (7 : 139) ضبطها «دُوِين» ، وعرّفها بما لا يختلف كثيراً عن تعريف ياقوت ، فقال : هي بلدة في آخر عملٍ أذربيجان من جهة أرّان وبلاد الكُرج .
قلنا : ودَوين هذه من بلاد الأكراد الرّواديّة ، كما أجمعت المصادر المعتبرة كلها . فقد ذكر ابن خلكان عن البيت الأيوبي : وهم أكراد رَوَاديّة ، والرّوادية بطن من الهذبانية ، وهي قبيلة كبيرة من الأكراد . قلنا : وكون البطل صلاح الدِّين كردياً قد أثار جدلاً ، وبخاصة إبّان ذروة دعوة القومية العربية في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين ، وراحت كل قومية تتسابق لنسبه إليها ، وكفاه أن يُعدّ واحداً من أبطال الإسلام ، بغضّ النظر عن القوميات والشعوبيات . ولسنا نرى في كل هذا أي انتقاص لرموز العروبة .
(5) في طبعة مصر : الموصل المحروسة .
(6) هذا اللفظ غير موجود في طبعة مصر .
(7) شيْرْكُوْه اسم كردي ، معناه : أسد الجبل . وكذلك أيضاً في اللّغة الفارسية .
(8) أي أتابك الموصل عماد الدِّين زنكي بن آق سُنْقُر ، المعروف بالشهيد . واسم زنگي بالتركية Zengi يعني : الزّنجي ، لكن ليس معنى هذا أنه كان زنجياً ، بل أسمر الوجه .

واتفق لوالده الانتقال إلى الشام - حرسه الله تعالى [1] - وأُعطي بعلبك ، وأقام بها مدّة ، ونقل ولده المذكور - رحمهما الله تعالى - إلى بعلبك المحروسة . وأقام [بها] في خدمة والده يتربّى تحت حجره ، ويرتضع [3 و] ثدي محاسن أخلاقه ، حتى بدت منه أمارات السّعادة ، ولاحت عليه لوائح التقدّم والسِّيادة .

فقدّمه الملك العادل نُور الدِّين محمود بن زنكي - رحمه الله تعالى - ، وعوّل عليه ، ونظر إليه ، وقرّبه وخصّصه . ولم يزل كلما تقدّم قدماً تبدو منه أسبابٌ تقتضي تقديمه إلى ما هو أعلى ، حتى اتّفق [2] لعمّه أسد الدِّين - رحمه الله - الحركة إلى محروسة مصر والنُّهوض [3] إليها .

وسيأتي ذكر ذلك مُفصَّلاً مُبيَّناً في موضعه [4] إن شاء الله تعالى .

* * * * *

(1) هذا الدُّعاء غير موجود في طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : بدا .
(3) في طبعة مصر : إلى مصر المحروسة وذهابه إليها .
(4) هذان اللفظان غير موجودين في طبعة مصر .

ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدِّينية
وملاحظته للأمور الشرعية
رحمه الله

ورد في الحديث الصحيح عن النبي – صلّى الله عليه وسلّم – أنه قال :

«بُني الإسلامُ على خَمْس : شَهَادة أنْ لا إلهَ إلا الله ، وإقَامِ الصَّلاة ، وإيتاءِ الزَّكاةِ ، وصَوْمِ رَمَضان ، والحَجِّ إلى بَيْتِ الله الحَرَام» .

وكان – رحمة الله عليه – حَسَن العقيدة ، كثير الذِّكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الدّليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء ، فتحصَّل من ذلك سلامةُ عقيدته [3 ظ] عن كَدَر التَّشبيه ، غير مارق سهم النّظر فيها إلى التَّعطيل والتَّمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء .

وكان – رحمه الله – قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدِّين النِّيسَابوري – رحمه الله – عقيدة تجميع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب ، وكان من شدّة حرصه عليها يعلّمها الصّغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصّغر ، ورأيتُه وهو يأخذها عليهم [1] ، وهم يقرؤونها [2] من حفظهم بين يديه ، رحمه الله .

* * * * *

(1) كان مؤلف هذا الكتاب بهاء الدِّين بن شدّاد قاضياً لعسكر صلاح الدِّين ، وقد لازمه خلال الحقبة الأخيرة من حياته التي قضاها في الشام ، وخالطه مخالطة تامة ، وهو يروي معظم هذه السيرة عن مشاهدة ، وينصُّ في معظم الأحوال على أنه رأى الأحداث التي يؤرّخ لها ، أو سمع الأقوال التي يرويها . ولهذا عُدَّت سيرته هذه أوثق المراجع لتاريخ حياة البطل صلاح الدِّين ، وعليها اعتمد جُلّ المؤرخين اللاحقين من عرب وأوروبيين عند الكتابة عن حياة صلاح الدِّين ، وهذا هو أول نصٍّ يشير فيه ابن شدّاد إلى أنه كان شاهد عيان للأحداث التي يؤرخ لها .

(2) في طبعة مصر : يلقونها .

وأما الصّلاة :

فإنه – رحمه الله تعالى – كان شديد المواظبة عليها بالجماعة ، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلّى إلا جماعة ، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحدَه ، ويكلّف نفسه القيام ، ويصلّي جماعة ، وكان يواظب على السّنن الرَّواتب .

وكان له ركعاتٌ يصلّيها إذا استيقظ بوقت [1] في الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصُّبح ، وما كان يترك الصُّلاة ما دام عقله عليه ، ولقد رأيتُه – قدَّس الله روحه – يصلّي في مرضه الذي مات فيه قائماً ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيّب فيها ذهنه [2] .

[4 و] وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائرٌ نزل ، وصلّى .

وأما الزّكاة :

فإنه مات – رحمه الله تعالى – ولم يحفظ ما وجبت به عليه الزّكاة .

وأما صدقة النَّفل فإنها استنفدت [3] جميع ما مَلَكَهُ من الأموال ، فإنه مَلَكَ ما ملك ومات [4] ، ولم يخلّف في خزانته من الذّهب والفضّة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصريّة ، وجُرماً واحداً ذهباً صُوْرِيّاً [5] ، ولم يخلّف مُلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قريةً ولا مزرعةً ولا شيئاً من أنواع الأملاك ، رحمة الله عليه .

---

(1) في طبعة مصر : وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ في الليل .
(2) انظر مفرِّج الكروب لابن واصل الحموي ، 2 : 429 .
(3) في طبعة مصر : استرقت .
(4) هذا اللفظ غير موجود في طبعة مصر .
(5) كذا في الأصل ، وفي مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (جزء 8 قسم 1 : 432) : ديناراً . ويبدو أن لفظ جرم كان يعني الدينار آنذاك ؟ فقد ورد في مرآة الزمان (الجزء نفسه ، ص 433) : وقال العماد الكاتب : لم يخلّف في خزانته سوى ستة وثلاثين درهماً ، وديناراً واحداً ذهباً . وإن كنا لم نجد نصاً صريحاً ينص على أن الجرم يعني الدينار تحديداً .

وأما صوم رمضان :

فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعدِّدة ، وكان القاضي الفاضل قد تولّى ثبت تلك الأيام ، وشرع - رحمه الله - في قضاء تلك فوائت ذلك بالقُدْس الشَّريف في السّنة التي توفي فيها ، وواظب على الصَّوم مقداراً زائداً على شهر ، فإنه كان عليه [1] فوائت رمضانين ، شغلته الأمراضُ ومُلازمةُ الجهاد عن قضائها . وكان الصَّوم [2] [4 ظ] لا يوافق مزاجه ، فألهمه الله تعالى الصَّوم بقضاء الفوائت [3] ، فكان يصوم وأنا أُثبتُ [4] الأيام التي يصومها ، لأن القاضي كان غائباً ، والطبيبُ يلومه وهو لا يسمع ، ويقول : «لا أعلم ما يكون» ، فكأنه كان مُلهماً ببراءة ذمّته - رحمة الله عليه - ، ولم يزل حتى قضى ما كان عليه [5] .

وأما الحجّ :

فإنه كان لم يزل عازماً عليه ، وناوياً له ، سيّما في العام الذي توفي فيه ، فإنه صمَّم العزم عليه ، وأمَرَ بالتأهّب ، وعُملت الرِّفادة [6] ، ولم يبقَ إلا المسير ، فاعتاقَ عن ذلك بسبب ضيق الوقت ، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله ، فأخَّره إلى العام المستقبل ، فقضى الله ما قضى ؛ وهذا شيءٌ اشترك في العلم به الخاصُّ والعامّ .

---

(1) في طبعة مصر : وقد واظب مدة حتى بقيت عليه فوائت .

(2) في طبعة مصر : ومع كون الصوم .

(3) في طبعة مصر : وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت .

(4) هذا النص شاهد على شدّة صلة المؤلف بصلاح الدِّين ، وقربه منه في شؤونه جميعها العامة منها والشخصية ، وسنرى في هذا الكتاب أن كل ما يرويه إنما يكون عن مشاهدة أو مشاركة ، أو في أضعف الأحوال نقلاً عن شهود عيان ثقات . وهذا ما يجعل كتابه النوادر السلطانية أثمن المصادر وأكثرها حيوية عن حياة الناصر صلاح الدِّين .

(5) في طبعة مصر : فكأنه كان ملهماً ما يُراد به ، رحمه الله تعالى .

(6) في طبعة مصر : وعملنا الرفادة . وفي نشرة الشيال : وعُملت الزوّادة .

وكان – رحمه الله تعالى – يحبُّ سماع القرآن العظيم ، حتى أنه كان يستخير [1] إمامه ، ويشترط أن يكون عالماً بعلوم [2] القرآن العظيم ، مُتقناً لحفظه .

وكان يستقرئ مَنْ يحضره [3] في الليل – وهو في بُرجه [4] – الجُزئين والثلاثة والأربعة ، وهو يسمع .

وكان يستقرئ – في مجلسه العام – مَن جرتْ عادتُه بذلك ، الآية [5 و] والعشرين ، والزّائد على ذلك .

ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن ، فاستحسنَ قراءته فقَرَّبهُ ، وجعل له حظاً من خاصِّ طعامه ، ووقف عليه وعلى أبيه جـُزءاً من مزرعة .

وكان – رحمه الله تعالى – رقيق القلب ، خاشع الدَّمعة [5] ، إذا سمع القرآن يخشعُ قلبُه ، وتدمع عينُه في معظم أوقاته .

وكان – رحمه الله تعالى – شديدَ الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممّن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع مَنْ يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصّين به . وكان يأمرُ الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له ؛ وإن كان ذلك الشيخُ ممّن لا يطرق أبوابَ السَّلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سَعى إليه ، وسمع

(1) في طبعة مصر : ويستجيد إمامه .
(2) في طبعة مصر : بعلم .
(3) في طبعة مصر : مَن يحرسه .
(4) يريد المؤلف البرج الخشبي المحصَّن الذي صار يبيت فيه السلطان ، احترازاً بعد تعرضه لمحاولتي اغتيال على أيدي الحشيشية ، كانت الأولى منهما عام 570 هـ أثناء حصاره حلب ، والثانية – وهي الأخطر – في 11 ذي القعدة 571 هـ أثناء حصاره لعزاز ، تمكن فيها أحد القتلة الثلاثة من جرحه . راجع سنا البرق الشامي للبنداري ، ص 83 ، 100 .
(5) في طبعة مصر : خاشع القلب رقيقه ، غزير الدمعة .

عليه . تردّد إلى الحافظ الأصفهاني [1] بالإسكندرية - حرسها الله تعالى - وروى عنه أحاديث كثيرة .

وكان - رحمه الله تعالى - يحبُّ أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرُني في خلوته ، ويحضرُ شيئاً من كتب الحديث ، ويقرأ هو ، فإذا مرَّ بحديث فيه عبرة رقّ قلبُه ، ودمعت عينُه .

وكان - رحمة الله عليه - كثير التعظيم لشعائر الدِّين ، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها ، [5 ظ] ومجازاة المُحسن بالجنَّة والمُسيء بالنار ، مصدّقاً بجميع ما وردت به الشرائع ، مُنشرحاً بذلك صدرُه ، مُبغضاً للفلاسفة والمعطِّلة والدَّهرية ومَنْ يعاند الشّريعة . ولقد أمرَ ولدَه صاحبَ حلب الملكَ الظاهرَ - أعزَّ الله أنصاره - بقتل شاب نشأ كان يُقال له السَّهْرَوَرْدي [2] ، قيل عنه إنه كان مُعانداً للشَّرائع مُبطلاً ، وكان قد قبض عليه ولدُه المذكور لما بلغه من خبره ، وعرَّف السُّلطان به ، فأمَرَه بقتله وصلبه أياماً ، فقتله .

وكان - قدَّس الله روحه - حسن الظنّ بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه ، ولقد شاهدتُ من آثار ذلك ما أحكيه :

وذلك أن الفرنج - خذلهم الله - كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من القُدْس الشَّريف - حرسها الله تعالى - ، يكون بينهما بعض مرحلة . وكان السُّلطان بالقُدْس ، وقد أقام يَزَكاً [3] على العدوّ محيطاً به ، وقد سيَّر إليهم الجواسيس والمُخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوّة عزمهم على الصُّعود إلى القُدْس

(1) هو الحافظ أبو الطاهر عماد الدِّين أحمد بن محمد الأصفهاني المحدّث المشهور ، زار بغداد ودمشق وصور ، حتى انتهى إلى الإسكندرية عام 511 هـ ، وبها توفي عام 576 هـ .
(2) هو المتصوّف المشهور شهاب الدِّين يحيى بن حبش بن أميرك السَّهْرَوَرْدي ، ولد في زنجان عام 549 هـ ، ونشأ بمُراغة وسافر إلى حلب ، فنُسب إلى انحلال العقيدة . له مؤلفات عديدة منها : التلويحات ، هياكل النّور ، المشارع والمُطارحات ، الأسماء الإدريسيّة ، التنقيحات ، حكمة الإشراق ، المعارج ، اللّمحات . كان مقتله بحلب عام 587 هـ .
(3) اليَزَك لفظ فارسي معناه : طلائع الجيش ، سيرد التفصيل في ذكره لاحقاً .

ومحاصرته ، وتركيب القتال [1] عليه ، واشتدَّ خوف المسلمين بسبب ذلك . فاستحضر الأمراء وعرَّفهم ما قد دَهَمَ [6 و] المسلمين من الشدّة ، وشاورهم في الإقامة بالقُدْس ، فأتوا بمجاملة باطنُها غيرُ ظاهرها ، وأصرَّ الجميع أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه ، فإنها مخاطرة بالإسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو - رحمه الله [2] - بطائفة من العسكر يكون حول العدوّ كما كان الحال بعكّا ، ويكون هو ومَنْ معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدّفع عنه . وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصرٌّ على أن يقيم بنفسه ، علماً منه أنه إن لم يُقم ما يقيم أحدٌ . فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم مَن أخبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره ، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة ، وضاق صدره ، وتقسّم فكره ، واشتدّت فكرتُه .

ولقد جلستُ في خدمته في تلك الليلة - وكانت ليلة الجمعة - من أول الليل إلى أنْ قارب الصبح ، وكان الزمانُ شتاءً ، وليس معنا ثالثٌ إلا الله تعالى ، ونحن نُقسِّم أقساماً ، ونرتّب على كل قسم مقتضاه ، حتى أخذني الإشفاقُ عليه والخوفُ على مزاجه [6 ظ] ، فإنه كان يغلب عليه اليُبْس [3] ، فشفعتُ إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة ، فقال - رحمه الله - : «لعلك جاءك النوم ؟» ، ثم نهض .

فما وصلتُ إلى بيتي وأخذتُ لبعض شأني إلا وأذّن المؤذنُ ، وطلع الصبح ، وكنتُ أُصلّي معه الصبح في معظم الوقت ، فدخلتُ عليه وهو يمرُّ الماء على أطرافه ، فقال : «ما أخذني النوم أصلاً» ، فقلتُ : «قد علمتُ» ، فقال : «من أين ؟» ، فقلتُ : «لأني ما نمتُ ، وما بقي وقت للنوم» .

---

(1) في طبعة مصر : القنابل .

(2) في طبعة مصر : أنهم يقصدونه ، ويخرج هو .

(3) يبدو أن صلاح الدّين كان يعاني من ارتفاع ضغط الدّم الشرياني ونقص التروية الدّموية .

ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه ، فقلتُ له : «قد وقع لي واقعٌ ، وأظنه مفيداً إنْ شاء الله تعالى» ، فقال : «وما هو؟» ، فقلتُ له : «الإخلاد إلى الله تعالى والإنابة إليه ، والاعتماد في كشف هذه الغُمَّة عليه» ، فقال : «وكيف نصنع ؟» ، فقلتُ : «اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرَّواح ، ويصلّي على العادة بالأقصى ، موضع مَسْرى النبي – صلّى الله عليه وسلّم – ، ويقدِّم المولى التصدُّق بشيء خفية على يد مَنْ يثق به ، ويصلّي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله في سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول [7 و] في باطنك : «يا إلهي ، قد انقطعت أسبابي الأرضية في نُصرة دينك ، ولم يبقَ إلا الإخلادُ إليك ، والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك ، أنتَ حَسبي ونعم الوكيل» ، فإن الله أكرم من أنْ يخيّب قصدك» .

ففعل ذلك كلّه ، وصلّيتُ إلى جانبه على العادة ، وصلّى الركعتين بين الأذان والإقامة ؛ ورأيتُه ساجداً ، ودموعه تتقاطر على شيبته ، وعلى سجّادته ، ولا أسمع ما يقول . فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعةٌ من عزّ الدِّين جُرْديك – وكان على اليَزَك – يُخبر فيها أن الفرنج مختبطون ، وقد ركب اليومَ عسكرُهم بأسره إلى الصحراء ، ووقفوا إلى قائم الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم . وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك .

ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا ، فذهبت الفرنسيّة [1] إلى أنهم لا بدّ لهم من مُحاصرة القُدْس ، وذهب الأنكتار [2] وأتباعه إلى أنه لا

---

(1) أي الصَّليبيون اللاتين من الفرنسيين ، الذين تألفت منهم غالباً الحملتان الصَّليبيتان الأولى والثانية ، فضلاً عن مُجمل بنيان المملكة والكونتيّة والإقطاعيات الصَّليبية في السّاحل الشامي . ثم انضاف إليهم ملكهم فيليب أوگست وملك الإنكليز في الحملة الصَّليبية الثالثة . راجع : الحروب الصَّليبية لرنيه گروسّيه ، ترجمناه مؤخراً عن الفرنسية .

(2) المقصود بالأنكتار الملك ريتشارد قلب الأسد Richard Cœur-de-Lion ، ملك إنگلترا . واسم الأنكتار في المصادر العربية المعاصرة له مصدره من الفرنسية : Roi d'Engleterre ، فظنّ الكتّاب أن الياء المُمالة قبل الراء أصلها ألف مقلوبة بطريقة نُطق أهل السّاحل .

يخاطر بدين النصرانية ، ويرميهم في هذا الجبل مع عُدْم المياه ، فإن السُّلطان كان قد أفسد جميع ما حول القُدْس من المياه ؛ وأنهم خرجوا للمشورة ، [7 ظ] ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل [1] ، وأنهم قد نصُّوا على عشرة أنفس منهم وحكّموهم ، فبأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم .

ولما كانت بُكرة الاثنين جاء البشير يُخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرَّمْلة .

فهذا ما شاهدتُه من آثار استنابته وإخلاده إلى الله تعالى ، رحمه الله .

* * * * *

ذكر عدله
رحمة الله عليه

روى أبو بكر الصدّيق – رضي الله عنه – أن النبي – صلّى الله عليه وسلم – قال :

«الوالي العادل ظلُّ الله في أرضه ورُمحه ، فمَنْ نصحه في نفسه أو في عباد الله أظلّه الله تحت عرشه يوم لا ظلّ إلا ظلّه ، ومَنْ خانه في نفسه أو في عباد الله خذله الله يوم القيامة ، يرفع للوالي العادل في كل يوم عملُ ستين صدِّيقاً كلهم عابد مجتهد لنفسه» .

---

(1) هذه إشارة طريفة إلى تقليد من تقاليد الصَّليبيين في حروبهم . ولا ريب أن في أخبار المؤلف بكتابه هذا ما يدلّ على أنه استقاه بالاعتماد على المشاهدات العيانية الشخصية ، أو بالاستقاء ممّن عاين أمور تلك المرحلة وأحداثها عن قرب .

ولقد كان – رحمه الله – عادلاً ، رؤوفاً ، رحيماً ، ناصراً للضعيف على القوي .

وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس [1] عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كلُّ أحد ، من كبير وصغير ، وعجوز هرمة ، وشيخ كبير ، [8 و] وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً [2] .

على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لما يُعرض عليه من القصص [3] ، كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم ، وكان يجمع القصص [3] في كل يوم [4] ، ويفتح باب العدل ، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات [4] ، ثم يجلس مع الكاتب ساعةً ، إما في الليل أو النهار ، ويوقِّع على كل قصة بما يُطلق الله على قلبه ، ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة ، وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة ، رحمة الله عليه .

ولقد كان رؤوفاً بالرعيّة ، ناصراً للدين ، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز ، عالماً بما فيه ، عاملاً به ، لا يعدوه أبداً ، رحمة الله عليه [5] .

وما استغاث إليه أحدٌ إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته ، وأخذ [6] قصته ؛ ولقد رأيتهُ وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له : ابنُ زهير ، على تقي الدِّين – ابن أخيه – ، فأنفذ إليه ليحضره إلى مجلس الحكم ، فما خلّصه إلى أن أشهد عليه شاهدين معروفين مقبولي القول أنه وكّل القاضي أبا القاسم أمين

(1) هذا اللفظ ساقط من مخطوط القُدْس ، أضفناه عن طبعة مصر ليستقيم به المعنى .
(2) لهذا النص قيمة عند التأريخ لنظام القضاء في عصر بني أيوب .
(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(4) هذه الجملة ساقطة من مخطوط القُدْس ، أضفناها عن طبعة مصر ليستقيم بها المعنى .
(5) هذه الفقرة كلها غير موجودة في مخطوط القُدْس ، أضفناها عن طبعة مصر .
(6) في طبعة مصر : واعتنى .

الدِّين – قاضي حماة – في المخاصمة والمنازعة ، فحضر الشاهدان ، وأقاما الشهادة عندي في مجلسه – رضي الله عنه – بعد دعوى الوكيل الوكالة الصحيحة ، وإنكار الخصم . فلمّا ثبتت الوكالة أمرتُ أبا القاسم بمساواة الخصم ، فساواه – وكان من خواص السُّلطان – رحمه الله – . ثم جرت المحاكمة بينهما ، واتجهت اليمين على تقي الدِّين ، وانقضى المجلس على ذلك ، وقطعنا عن إحضاره دخول الليل [1] . وكان تقي الدِّين [2] من أعزّ[8 ظ] الناس عليه ، وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يُحَابه في الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على [3] عدله – رحمه الله – قضيّة جرت له مع إنسان تاجر يُدعى عمر الخلاطي ، وذلك أني كنتُ يوماً في مجلس الحكم بالقُدْس الشَّريف إذ دخل عليّ شيخٌ حسن تاجرٌ معروف ، يسمّى «عُمَر الخلاطي» ، معه كتاب حكمي سأل فَتْحه ، فسألتُهُ :

– «مَنْ خَصْمُك ؟» .

فقال :

– «خَصمي السُّلطان ، وهذا بساطُ الشَّرع [4] .. وقد سمعنا أنَّك لا تُحابي» .

---

(1) هذه الفقرة كلها ساقطة من طبعة مصر ، وهذا دليل واضح على أفضلية نسخة القُدْس . ولو أننا رجعنا في عدّة مواضع ، لإكمال بعض النواقص ، إلى طبعة مصر المنقولة عن طبعة لايدن عام 1732 م بعناية المستشرق شولتنز A. Schultens . وعلى ذلك ، فبوسعنا اليوم أن نعلن واثقين أن طبعتنا الجديدة هذه هي الأكمل والأفضل لهذا الكتاب .

(2) كان تقي الدِّين عمر بن شاهنشاه بن أيوب من كبار قادة البيت الأيوبي ومؤسس مملكة حماة الأيوبية ، وكان أثيراً لدى عمّه السلطان صلاح الدِّين ، ناب عنه بمصر ، ثم أعطاه عمّه حماة عام 582 هـ فسكنها ثم لما توفي عام 587 هـ دُفن بها . ذكر أبو الفداء في تاريخه (3 : 80) : كان المظفّر ركناً عظيماً من أركان البيت الأيوبي ، وكان عنده فضلٌ وأدبٌ ، وله شعر حسن . راجع وفيات الأعيان ، 3 : 456 ؛ وتاريخ ابن الوردي ، 2 : 103 .

(3) الكلمات الثلاث التالية ساقطة من طبعة مصر .

(4) في طبعة مصر : العدل .

فقلتُ :

- «وفي أي قضية هو خصمُك ؟» .

فقال :

- «إن سُنْقرُ[1] الخلاطي كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي إلى أن مات ، وكان في يده أموالٌ عظيمةٌ كلها لي ، ومات عنها ، واستولى عليها السُّلطان ، وأنا مطالبهُ بها» .

فقلتُ له :

- «يا شيخ ، وما أقعدك إلى هذه الغاية ؟» .

فقال :

- «الحقوق لا تبطل بالتأخير ، وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات» .

فأخذتُ الكتاب منه ، وتصفّحتُ مضمونه ، فوجدته يتضمن حلْيَةَ سُنْقُر الخلاطي ، وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش ، في اليوم الفلاني ، من شهر كذا ، من سنة كذا ؛ وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذَّ عن يده في سنة كذا ، وما عرف [9 و] شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما ، وتمّم الشرط إلى آخره .

فتعجبتُ من هذه القضية ، وقلتُ للرجل :

«لا يسعني سماع الدعوى مع وجود الخصم[2] ، وأنا أعرّفه وأعرّفك ما عنده في ذلك[3]» .

---

(1) سُنْقُر اسم تركي Sungur ، معناه : نسر .
(2) في طبعة مصر : لا ينبغي سماع هذا بلا وجود الخصم .
(3) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .

فرضي الرّجل بذلك ، واندفع ، فلما اتفق المثول بين يديه في بقية ذلك اليوم عرّفته القضية ، فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً ، وقال :

- «كنتَ نظرتَ في الكتاب ؟» .

فقلتُ :

- «نظرتُ فيه ، ورأيتُه متّصل الورود والقبول إلى دمشق ، وقد كُتب عليه : كتابٌ حكمي من دمشق ، وشهد به على يد قاضي دمشق شهودٌ معروفون» .

فقال :

- «مُباركٌ ، نحضرُ الرّجل ونحاكمه ، ونعمل في القضية ما يقتضيه الشَّرع» .

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي - رضي الله عنه - خلوةً ، فقلتُ له :

- «هذا الخصم يتردّد ، ولابد وأن نسمع دعواه» .

فقال :

- «أقمْ عني وكيلاً يسمع الدعوى ، ثم يقيمُ الشهودُ شهادتهم ، وأخِّر فتح الكتاب إلى حين حضور الرّجل ها هنا» .

ففعلتُ ذلك ، ثم أحضر الرّجل عنده ، واستدناه حتى جلس بين يديه ، وكنتُ جانبه ، ثم انعزل من طرّاحته حتى ساواه ، وقال :

- «إنْ كان لك دعوى فاذكُرها» .

فحرَّر الرّجل الدعوى على معنى ما شرح أولاً ، فأجابه السُّلطان :

- «إن سُنْقُر [9 ظ] هذا كان مملوكي ، ولم يزل على ملكي حتى أعتقتُه ، وتوفي وخلَّف ما خلّفه لورثته» .

فقال الرّجل :

- «لي بَيِّنَةٌ تشهدُ بما ادّعيتهُ» .

ثم سأل فتح كتابه ، ففتحتُه ، فوجدته كما شرحته ، فلما سمع السُّلطان التاريخ ، قال :

- «عندي [1] مَنْ يشهد أن هذا سُنْقُر في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر ، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدّم على هذا التاريخ بسنة ، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقتُه» .

ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين ، فشهدوا بذلك ، وحكوا القضية كما ذكرها ، وذكروا التاريخ كما ادّعاه ، فأبلس الرّجل ، فقلتُ له :

- «يا مولاي ، هذا الرّجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السُّلطان ، وقد حضر بين يدي مولانا ، وما يحسن أن يرجع خائب القصد» ، فقال :

- «هذا بابٌ آخر» .

وتقدّم له بخلعة ونفقة بالغة ، قد شذَّ عني مقدارها .

فانظر إلى ما في طيّ هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة ، من التواضع ، والانقياد إلى الحق ، وإرغام النفس ، والكَرَم في موضع المؤاخذة ، مع القُدرة التامّة ، رحمه الله رحمة واسعة .

* * * * *

---

(1) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، أضفناه عن طبعة مصر .

ذكر طرف من كرمه
رحمه الله

[10 و] قال – صلّى الله عليه وسلم – :

«إذا عَثَرَ الكريمُ فإنَّ الله آخذٌ بيده» .

وفي الكرم أحاديث .

وكرمهُ – قدّس الله روحه – كان أظهر من أن يُسطّر ، وأشهر من أن يُذكر ، لكن نُنَبِّه [1] عليه جملةً ، وذلك أنه مَلَكَ ما مَلَكَ ومات ، ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصرية ، ومن الذّهب إلا جُرم واحدٌ صُوْري [2] ، ما علمتُ وزنه .

وكان – رحمه الله – يهب الأقاليم . وفتح آمِد ، وطلبها منه ابن قَرَه أرْسْلان ، فأعطاه إياه .

---

(1) في طبعة مصر : نبّهتُ عليه .

(2) عن الجرم انظر ما فات هنا أدناه ، وعن الدينار الصُّوري انظر مفرِّج الكروب لابن واصل الحموي (1 : 269 حاشية 7) ، ويضاف إلى ما ورد فيه أن الأب لويس شيخو اليسوعي ذكر في نشرته لتاريخ بيروت لصالح بن يحيى (ص 149 حاشية 2) أن الدينار الصُّوري ضُرب في مدينة صور أيام الدولة الفاطمية ، وكان الذهب يساوي نحو خمسة عشر فرنكاً ذهبياً من النقود الحالية ، وقد كان الدينار الصُّوري أقل قيمة من الدينار المصري . وعن دار الضرب في صور وعن الدينار الصُّوري ، وعن أنواع الدنانير المتداولة في مصر والشام في العهد الأيوبي راجع : كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية ، لمنصور بن بعرة الذهبي الكاملي (مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة) ؛ وطبعة عبد الرّحمن فهمي ، القاهرة 1966 ؛ وكذلك راجع :

Ehrenkreutz, "Extracts from the Technical Manual on the Ayyubid Mint in Cairo", *B.S.O.A.S.* vol. XV(1953), pp. 424-447.

Ehrenkreutz, "The Standard of Fineness of Gold Coins Circulating in Egypt at the Time of the Crusades." *Journal of the American Oriental Society*. vol. 74, No. 3, July-Sept. 1954, pp. 162-166.

ورأيتُه قد اجتمع عنده جمعٌ من الوفود بالقُدْس الشَّريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يُعطي الوفود ، فلم أزلْ أخاطبُهُ في معناهم حتى باع قرية[1] من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل منه درهم واحد .

وكان – رحمه الله – يعطي في وقت الضائقة كما يعطي في حال السِّعة ، وكان نوّاب خزائنه يُخفون عنه شيئاً من المال ، حذراً أن يفاجئهم مُهِمٌّ ، لعلمهم أنه متى علم به أخرجه .

وسمعتُ منه يوماً يقول في معرض حديث جرى :

– «يمكن أن يكون في الناس مَنْ ينظر إلى المال كَمَنْ [10 ظ] ينظر إلى التُّراب»[2] .

فكأنه أراد بذلك نفسَه ، رحمه الله تعالى .

وكان يعطي فوق ما يؤمِّل الطالبُ ، وما سمعتهُ قط يقول : «أعطينا لفلان» . وكان يعطي الكثير ، ويبسط وجهه للمُعْطى[3] بسط مَنْ لم يُعْطِه شيئاً .

وكان – رحمه الله – يعطي ، ويكرم أكثر مما يعطي ، وكان قد عرفه الناس فكانوا يستزيدونه في كل وقت ، وما سمعتهُ قط يقول : «قد زدتُ مراراً ، فكم أزيد ؟» .

وأكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي ، وكنتُ أخجل من كثرة ما يطلبون ، ولا أخجل منه من كثير ما أطلبه لهم ، لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك ، وما خدمه قطُّ أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره .

---

(1) في طبعة مصر : أشياء ، ولعلها الأصح ؟

(2) وبعد هذا كله يروي ابن شدّاد – كما تقدّم – أن السُّلطان الناصر فاتح القُدْس وملك مصر والشام توفي فلم يخلّف سوى 47 درهماً ناصرية وجرم واحد صوري من الذهب !

(3) في طبعة مصر : للعطاء .

وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها فلا تطمع فيه أصلاً حقيقة ، ولقد سمعتُ من صاحب ديوانه يقول لي – وقد تجارينا عطاياه – فقال :

«حصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكّا لا غير فكان عشرة آلاف فرس» .

ومن شاهد عطاياه [1] يستقلّ هذا القدر .

اللّهم ، إنك ألهمته الكرم ، وأنت أكرم منه ، فتكرّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين .

* * * * *

[12 و] [2] ذكر شجاعته
قدّس الله روحه

روي عن النبي – صلّى الله عليه وسلم – أنه قال : «إنَّ الله يُحبُّ الشَّجاعة ولوْ على قَتل حَيَّة» .

ولقد كان – رحمه الله تعالى – من عظماء الشجعان ، قويَّ النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله أمر ، ولقد رأيتُه – رحمه الله – مرابطاً في مقابلة عدّة عظيمة من الفرنج ، ونُجُدُهم تتواصل ، وعساكرهم تتواتر ، وهو لا يزداد إلا قوّة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيّف وسبعون مركباً على عكّا ،

(1) في طبعة مصر : مواهبه .

(2) كان من المفروض أن يبدأ هذا العنوان بصفحة [11 و] ، ولكن أوراق المخطوط مضطربة الترتيب ، فما في الصفحة هناك لا يتسق مع ما قبله في الصفحة [10 ظ] ، وإنما يتّسق مع هذا العنوان في الصفحة [12 و] .

وأنا أعدّها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشّمس ، وهو لا يزداد إلا قوّة نفس ، ولقد كان - رحمه الله - يعطي دُستوراً في أوائل الشتاء ، ويبقى في شرْذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرَة .

وقد سألتُ باليان بن بارزان [1] ، وهو من كبار ملوك السّاحل - وهو جالس بين يديه ، رحمه الله ، يوم انعقاد الصلح - عن عدِتهم ، فقال الترجمان عنه إنه يقول :

«كنتُ أنا وصاحب صَيْدا [2] - وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم - قاصدين عسكرنا من صُوْر ، فلمّا أشرفنا عليه تحازرناه ، فحزره هو بخمسمائة ألف ، وحزرتهم أنا بستمائة ألف ، أو قال [12 ظ] عكس ذلك . فقلتُ : فكم هلك منهم ؟ فقال : أما بالقتل فقريب من مائة ألف ، وأما بالموت والغرق فلا نعلم ، وما رجع من هذا العالم إلا الأقل» .

وكان لابدّ له من أن يطوف حول العدوّ في كل يوم مرةً أو مرّتين إذا كنا قريباً منهم .

وكان - رحمه الله تعالى - إذا اشتدّ الحرب يطوف بين الصفّين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب [3] ، ويخرق العساكر من المَيْمَنَة إلى المَيْسَرَة ، ويرتّب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدّم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدوّ ويجاوره ، رحمه الله .

---

(1) هو باليان الثاني ديبلان (Balian II d'Ibelin) صاحب الرَّمْلة ، من أسرة إيبلان الحاكمة ، وهو الاسم الفرنسي لبلدة يُبنى جنوبي يافا وغربي اللُّدّ . والاسم عند ابن الأثير : (باليان بن بيرزان) ، راجع أيضاً مفرج الكروب لابن واصل الحموي ، 2 : 211 . وبسبب باليان هذا وظلاماته ، كانت هجرة بعض المقادسة لدمشق وإعمارهم بها حي الصالحية الشهير بسفح قاسيون ، في القرن السادس الهجري . راجع أخبار ذلك في كتاب القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، لابن طولون الصالحي الدمشقي .

(2) هو رُنو گارنييه Renaud Garnier ، صاحب صيدا وشَقيف أرنون (1171-1187 م) .

(3) الجنيب جواد احتياطي يستبقيه القائد إلى جانبه لركوبه بحال قُتل جواده أو تقنطر .

ولقد قُرِىء عليه جزء [1] من الحديث بين الصفين ، وذلك أني قلتُ له :

- «قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشَّريفة ، ولم يُنْقل أنه سُمع بين الصفّين ، فإن رأى المولى أن يُؤثَر عنه ذلك كانَ حسناً» .

فأذن في ذلك ، فأُحضر جزءٌ ، وهناك [2] أُحضر مَنْ له به سماع ، فقُرِىء عليه ونحن على ظهور الدّواب بين الصفّيْن ، نمشي تارة ، ونقف أخرى .

وما رأيته استكثر العدوّ أصلاً ، ولا استعظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير ، يذكر بين يديه الأقسام كلها ، ويُرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدَّة ولا غضب يعتريه ، رحمه الله .

ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ [13 و] الأكبر بمرج عكّا ، حتى القلب ورجاله ، ووقع الكُوْس [3] والعَلَم [4] ، وهو - رضي الله عنه - ثابتُ القدم في نفر يسير قد [5] انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردّهم ، ويخجِّلهم حتى يرجعوا [6] ، ولم يزل كذلك حتى نُصر [7] عسكر المسلمين على العدوّ في ذلك اليوم ، وقُتل منهم زُهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس .

---

(1) في طبعة مصر : جزءان .

(2) في طبعة مصر : جزءه وأحضر من له به سماع .

(3) الكوس - ويقال أيضاً الكوسات - عرّفها القَلْقَشَنْدي في صبح الأعشى (4 : 9 ، 43) بأنها صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدقّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، ومن يتولّى ذلك يسمّى الكوسي . ويشبه أن يكون المقصود بها موسيقى الجيش أو (الطبلخاناه) في مصطلح العهد المملوكي أو (المهترخانه) في مصطلح العهد العثماني . وفي المنتظم لابن الجوزي (9 : 6) جملة توضح هذا المعنى وتؤكده ، قال : وعُقد للوزير فخر الدولة على ديار بكر ، وخلع عليه الخلع ، وأعطى الكوسات ، وأذن له في ضربها أوقات الصلوات الخمس بديار بكر ، والصلوات الثلاث : الفجر والمغرب والعشاء في المعسكر السلطاني .

(4) كان العَلَم السلطاني الخاص بصلاح الدِّين أصفر وفي وسطه رَسْمُ نسر أحمر .

(5) في طبعة مصر : حتى .

(6) في طبعة مصر : في الأصل : يرجعون ، وهو غلط واضح .

(7) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، أضفناه عن طبعة مصر ليستقيم به المعنى .

ولم يزل - رحمه الله - مصابراً لهم ، وهم في العدّة الوافرة ، إلى أن ظهر له ضعفُ المسلمين ، فصالح وهو مسؤول من جانبهم ، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النُّجُد ، ونحن لا نتوقعها ، وكانت المصلحة في الصُّلح [1] ، وظهر ذلك لمّا أبدت الأقضية والأقدار ما كان في مكنونها .

وكان - رحمه الله - يمرض ويصحّ ، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط ؛ وتتراءى الناران ، ونسمع منهم صوت النّاقوس ، ويسمعون منا صوت الأذان [2] ، إلى أن انقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره ، قدّس الله روحه ، ونوّر ضريحه .

* * * * *

---

(1) يشير المؤلف هنا إلى صلح الرَّمْلَة في شعبان عام 588 هـ (1192 م) ، الذي أُبرم بين السلطان صلاح الدين وملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد قائد الحملة الصّليبية الثالثة ، بعد عدّة وقعات كسبها الصّليبيون من المسلمين ، كانت على التوالي : سقوط عكّا ، معركة أرسوف ، معركة يافا ؛ وكلّ هذه الوقعات جرت في غضون عام 1191 م . غير أن جهود ريتشارد في الحملة الصّليبية الثالثة لم تصل أبداً إلى حُلم استعادة القُدْس ، وتمكّن السلطان الناصر صلاح الدّين من الحفاظ على المدينة المقدّسة ، التي بقيت بأيدي المسلمين ما بعد حطّين على الدوام ، ما خلا فترة بسيطة بين 1229-1244 م .
ويعبّر لنا المؤلف هنا بكلامه «وانقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره» على الموقف السياسي الرسمي السائد آنذاك حيال الصلح المذكور ، بأنه لم ينطو على أي تنازل من الجانب الإسلامي تجاه الغزاة الصّليبيين ، بل كان صلحاً مُشرّفاً لم ينتقص من كرامة الأمّة أو يتنازل عن ممتلكاتها أو مقدّساتها على الإطلاق ، وتمّ حسب شروط السُّلطان كاملةً .

(2) ينقل لنا المؤلف صورة تلك المرحلة وأحداثها بكل دقّة ، وبوصف حيّ شائق ومباشر ، وكل عباراته تشير إلى أنه قد عاش تلك الأحداث وخبر أمورها بأدقّ التفاصيل ، وكان ملازماً للسُّلطان النّاصر صلاح الدين منذ عام 584 هـ ، يكاد لا يفارقه .

ذكـــر
اهتمامه بأمر الجهاد

[13 ظ] قال الله سبحانه وتعالى :

﴿والذين جَاهَدُوا فينا لنَهدينَّهم سبُلَنا ، وإنّ اللهَ لَمعَ المحسنين﴾ .

ونصوص الجهاد فيها كثرة [1] .

ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالفٌ أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد ، لصدق وبرّ في يمينه .

ولقد كان الجهاد وحبّه [2] والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديثٌ إلا فيه ، ولا نظرٌ إلا في آلته ، ولا اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحثّ عليه ، ولقد هجر في محبّة الجهاد في سبيل الله أهلَه وأولادَه ووطنَه وسكنَه وسائرَ ملاذه [3] وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة [4] تهبّ بها الرياح يمنة ويسرة [5] . ولقد وقعتْ عليه الخيمة في ليلة ريّحة على مرج عكّا ، فلو لم يكن في البرج وإلا قَتَلَتْهُ [6] ، ولا يزيده ذلك إلا رغبةً ومُصابرةً واهتماماً .

---

(1) في طبعة مصر : كثيرة .
(2) في طبعة مصر : كان حبه للجهاد .
(3) في طبعة مصر : بلاده .
(4) هذا هو سلطان مصر والشام والجزيرة والموصل والنّوبة ، قاهر مملكة اللاتين وجيوشها وفاتح القُدْس الشّريف ، يكتفي بخيمته مسكناً وبالجهاد منهجاً وشرفاً ، فيجد في ذلك كل العزّ والرّفعة والإباء ، ويخلّف وراءه كل مَنْ سيأتي بعده لقرون تترى ، لا تطال هاماتهم أدنى أعتاب مجده ، بأموالهم وقصورهم وأباطيل ادّعاءاتهم .
(5) في طبعة مصر : ميمنة وميسرة .
(6) في طبعة مصر : لقتلته .

وكان الرّجل إذا أراد أن يتقرّب إليه يحثّه على الجهاد (أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد ، ولقد أُلّف له كتب عدّة في الجهاد) [1] ، وأنا ممّن جمع [14 و] له فيه كتاباً [2] جمعتُ فيه آدابه ، وكلّ آية وردت فيه ، وكلّ حديث رُوي فيه ، وشرحتُ غريبها ؛ وكان - رحمه الله - كثيراً ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل .

ولأحكينّ عنه ما سمعتُه منه :

وذلك أنه كان قد أخذ كَوْكَب ، في ذي القعدة ، سنة أربع وثمانين وخمسمائة [3] ، وأعطى العساكر دُستوراً ، وأخذ عسكرُ مصر في العود إلى مصر ، وكان مقدَّمه أخاه الملك العادل - رحمه الله - فسار معه ليودّعه ويحظى بصلاة العيد في القُدْس الشَّريف - حرسه الله تعالى - وسرنا في خدمته .

ولما صلّى العيد في القُدْس وقع له أنه يمضي معهم [4] إلى عَسْقَلان ، ويودعهم بعَسْقَلان ، ثم يعود على طريق السّاحل يتفقّد البلاد السّاحلية إلى عكّا ، ويرتّب أحوالها ، فأشاروا عليه أن لا يفعل ، فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدّة يسيرة ، والفرنج كلهم بصُوْر وهذه مخاطرة عظيمة ، فلم يلتفت - رحمه الله - وودَّع أخاه والعسكر بعَسْقَلان .

ثم سرنا في خدمته على السّاحل طالبين عكّا ، وكان الزمان شتاءً عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً شديداً [5] ، وموجه كالجبال كما قال [14 ظ] الله تعالى ، وكنتُ حديثَ عهدٍ [6] برؤية البحر ، فعظم أمر البحر عندي حتى خُيِّل إلي أنني لو

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(2) هذه إشارة إلى كتاب «فضائل الجهاد» للمؤلف ابن شدّاد ، انظر مقدمة التحقيق .
(3) هذا اللفظ غير موجود في الأصل ، أضفناه عن طبعة مصر للإيضاح .
(4) في طبعة مصر : أن يمضي إلى .
(5) في طبعة مصر : وكان الزمان شتاءً ، والبحر هائجاً شديداً .
(6) هذا اللفظ ساقط من الأصل ، أضفناه عن طبعة مصر للإيضاح . والسبب في عدم رؤية ابن شدّاد للبحر أنه وُلد بالموصل ، ونشأ بها وببغداد .

قال لي قائل[1] إن جُزْتَ في البحر ميلاً واحداً ملَّكتُكَ الدنيا ، لما كنتُ أفعل . واستسخفتُ[2] رأي مَنْ ركب البحر رجاءً لكسب دينار أو درهم ، واستحسنتُ رأي مَنْ لا يقبل شهادة راكب بحر .

هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدتُه من حركة البحر وتموّجه[3]، فبينا أنا في ذلك إذ التفتَ إلي رحمه الله وقال :

– «أما أحكي لك شيئاً ؟ قلتُ : بلى[3]. قال : في نفسي ، أنه متى يسَّر الله تعالى فتح بقية السّاحل قسَّمتُ البلاد ، وأوصيتُ وودَّعتُ ، وركبتُ هذا البحر إلى جزائرهم[4]، أتتبّعهم[5] فيها حتى لا أُبقي على وجه الأرض مَنْ يكفر بالله أو أموت» .

فعَظُم وَقْعُ هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي ، وقلتُ له :

– «ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى ، ولا أقوى نيّة منه في نُصرة دين الله» .

فقال : وكيف ؟

فقلتُ : أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمرُ هذا البحر وهولُه ، وأما نُصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض[15 و] حتى تطهر جميع الأرض منهم .

واستأذنتُ في أن أحكي له ما كان يخطر لي ، فأذن ، فحكيتُ له ، ثم قلتُ : ما هذه إلا نيّة جميلة ، ولكن المولى يُسيِّر في البحر العساكر ، وهو سُور الإسلام

---

(1) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : واستخسفت .
(3) الكلمات الثلاث السابقة ساقطة من طبعة مصر .
(4) في طبعة مصر : جزائره .
(5) في طبعة مصر : وأتبعهم .

ومنعته ، لا ينبغي له أن يخاطر بنفسه .

فقال : أنا أستفتيك : ما أشرفُ الميتات ؟

فقلتُ : الموتُ في سبيل الله .

فقال : غايةُ ما في الباب أن أموت أشرف الميتات [1].

فانظر إلى هذه الطويّة ما أطهرها ، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها [2]، رحمة الله عليه .

اللّهم ، إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك ، رجاء رحمتك ، فارحمه .

* * * * *

---

(1) في طبعة مصر : الميتتين .
(2) في طبعة مصر : وأجرأها .

ذكـــر
طرف من صبره واحتسابه
رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ثم جاهدوا وصبروا إنَّ ربَّك من بعدها لغفورٌ رحيم﴾ .

ولقد رأيتُه – رحمه الله – بمرج عكّا ، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دَمَاميل ، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنما يكون متكئاً[1] على جانبه إذا كان في الخيمة ، وامتنع من مدِّ الطعام بين يديه لعجزه [15 ظ] عن الجلوس ، وكان يأمر أن يُفرَّق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدوّ ، وقد رتّب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبية القتال . وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر[2] يطوف على الأطلاب[3] ، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدّة الألم وقوّة ضَرَبان الدَّمامل ، وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول : إذا ركِبتُ يزول عني ألمها حتى أنزل ، وهذه عنايةٌ ربّانية .

* * * * *

---

(1) في طبعة مصر : وإنما كان منكباً .

(2) في طبعة مصر : المغرب .

(3) الأطلاب جمع طَلْب ، كلمة فارسية تعني الفرقة من الجيش ، سيرد ذكرها كثيراً في هذا الكتاب . عرفها الدكتور محمد مصطفى زيادة في حواشيه على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (1 : 248 حاشية 2) بقوله : وهو لفظ كردي معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويُطلق كذلك على قائد المئة أو السبعين ، وكان أول ما استُعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدِّين ، ثم عُدّل مدلوله فأصبح يُطلق على الكتيبة (Bataillon بالفرنسية) من الجيش . انظر أيضاً مفرِّج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل (2 : 59 حاشية 3) ؛ وراجع معجم راينهارت دوزي :
Dozy, R.: *Supplément aux Dictionnaires Arabes.*

ولقد مرض – رحمه الله – ونحن على الخرّوبة [1] ، وكان قد تأخر عن تلّ الحَجَل بسبب مرضه . فبلغ الفرنج ذلك ، فخرجوا طمعاً في أن ينالوا من المسلمين شيئاً – بسبب مرضه ، رحمه الله – ، وهي نوبة النهر . فخرجوا في مرحلة إلى [2] الآبار التي تحت التلّ ، فأمر هو – رحمه الله – بالثَّقْل حتى تجهز للرحيل ، والتأخر إلى جهة النّاصرة ؛ وكان عماد الدِّين – صاحب سنْجَار – متمرّضاً أيضاً ، فأذن له حتى يتأخر مع الثَّقْل ، وأقام هو .

ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا ، فركب على مَضَض ، ورتَّب العسكر للقاء القوم تعبية الحرب ، وجعل طرف [16 و] المَيْمَنَة الملك العادل ، وطرف المَيْسَرَة تقي الدِّين ، وجعل ولده الملك الظاهر في القلب والملك الأفضل ، ونزل هو وراء القوم بطُلْبه . وأوّل ما نزل من التلّ أُحضر بين يديه إفرنجي قد أُسر من القوم ، فأمر بضرب عنقه ، فضُرب عنقه بين يديه ، بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه . وكلّما سار العدوّ يطلب رأس النهر سار هو يستدير إلى ورائهم ، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم ، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح ، ويتظلّل بمنديل على رأسه من شدّة وقع الشمس عليه ، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدوّ ضعفاً .

ولم يزل كذلك حتى نزل العدوّ برأس النهر ، ونزل هو قبالتهم على تلّ مطلٍّ عليهم إلى أن دخل الليل . ثم أمر العساكر المنصُوْرة أن عادت إلى محالّ [3] المصابرة ، وأن يبيتوا تحت السِّلاح ، وتأخَّر هو ونحن في خدمته ، إلى قمّة الجبل ، فضُربت له خيمةٌ لطيفة ، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح . ثم ضُرب البوق ، وركب هو ، وركبت العساكر ، وأحدقتْ بالعدوّ [16 ظ] ، ورحل العدوّ عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايقه المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة .

---

(1) في طبعة مصر : الخرنوبة . وتلّ الخرّوبة يقع جنوب غرب شَفْرَعَمّ ، شرقي حيفا .
(2) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .
(3) في طبعة مصر : محل .

وفي ذلك اليوم قدَّم أولاده بين يديه احتساباً : الملك الظاهر والملك الأفضل والملك الظافر [1] ، وجميع مَنْ حضر منهم ، ولم يزل يبعث مَنْ عنده حتى لم يبقَ عنده إلا أنا والطبيب ؛ وعارضُ الجيش ، والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير ، فيظنُّ الرائي لها عن بُعْد أن تحتها خَلْقاً عظيماً ، وليس تحتها إلا واحد يُعَدّ بخلق عظيم [2] . ولم يزل العدوّ سائراً والقتل يعمل فيهم ، وكلما قُتل منهم شخص دفنوه ، وكلما جُرح منهم رجل حملوه ، حتى لا يبقى بعدهم مَنْ يُعلم قتله وجرحه ، وهم سائرون ونحن نشاهدهم ، حتى اشتدّ بهم الأمر ، ونزلوا عند الجسر ، وكان الإفرنج متى ما نزلوا إلى الأرض أيس المسلمون من بلوغ غرض منهم ؛ لأنهم يحتمون في حالة النزول حماية عظيمة [3] .

وبقي - رحمه الله - في موضعه ، والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدوّ إلى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم ، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية ، فبتنا على ما بتنا [17 و] عليه إلى الصباح من مضايقة العدوّ [4] ، ورحل العدوّ ، وسار على مضض من القتل والقتال ، حتى دنا إلى خيامه ، وخرج إليه منها مَنْ أنجده حتى وصلوا إلى خيامهم .

فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب ، إلى أي غاية بلغ هذا الرّجل ، اللّهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ، ووفّقته له ، فلا تحرمه ثوابه ، يا أرحم الراحمين .

ولقد رأيتهُ - رحمه الله تعالى - وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق [5] يسمّى إسماعيل ، فوقف على الكتاب ولم يُعرِّف أحداً ، ولَم نعرف

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر . راجع أيضاً مفرج الكروب ، 2 : 434 .

(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر . راجع أيضاً كلاً من كتاب الروضتين لأبي شامة المقدسي ، 2 : 222 ؛ ومفرج الكروب ، 2 : 435 . وقوله : ليس تحتها إلا واحد يُعَدُّ بخلق عظيم ، يريد به السلطان صلاح الدّين نفسه ، و والله لقد صدق .

(3) في طبعة مصر : يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة .

(4) في طبعة مصر : وعاد العسكر في الصباح إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدوّ .

(5) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .

حتى سمعناه من غيره ، ولم يظهر عليه شيءٌ من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعتْ عينُه [1].

ولقد رأيتُه ليلةً على صَفَد وهو يحاصرها ، وقد قال : «لا ننام الليلة حتى تُنصب لنا خمسة مناجيق [2]» ، ورتَّب لكل منجنيق قوماً يتولّون نصبه ، وكنا طول الليل في خدمته - قدَّس الله روحه - في ألذّ فكاهة وأرغد عيشة ، والرُّسُل تتواصل فتخبره بأن قد نُصب من المنجنيق الفلاني كذا ، ومن المنجنيق الفلاني كذا ، حتى أتى الصباح وقد فُرِغ منها ، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها ، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً .

---

(1) ذكر ابن واصل في مفرج الكروب (2 : 423-425) أسماء أولاد صلاح الدِّين ، وليس من بينهم مَنْ اسمه إسماعيل .

(2) المنجنيق - بفتح الميم أو كسرها - أو المنجنوق (والجمع : مجانيق ومناجيق ومنجنيقات) لفظ أعجمي معرّب ، فهو في اللاتينية mangonellus ، وفي الفرنسية mangonneau ، وفي الإنكليزية mangonel ، وهو آلة من آلات الحصار في العصور الوسطى ، يقوم مقام المدفع الحالي ، وإن كانت قذائفه من الحجارة . وقد وصفه صاحب صبح الأعشى (2 : 144) بأنه : آلة من خشب له دفّتان قائمتان ، بينهما سهم طويل ، رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، تُجعل كفة المنجنيق التي يُجعل فيها الحجر يُجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يُرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفّة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئاً إلا أهلكه . وقد ذكر مرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي في كتابه المخطوط «تبصرة أرباب الألباب» التي ألّفها خصيصاً لصلاح الدِّين أن المنجنيقات في عهده كانت ثلاثة أنواع : فمنها العربي وهو أتقن مصنوعاتها وأوثق معمولاتها ، ومنها التركي وهو أقلها كلفة وأخصرها مؤونة ، ومنها الفرنجي . ثم وصف هذه الأنواع جميعاً وصفاً دقيقاً مشفوعاً بالرسوم . وقد نشرت مقتطفات من هذا المخطوط مع ترجمة فرنسية وتعليقات قيّمة للباحث الفرنسي كلود كاهن ، في مجلة المعهد الفرنسي بدمشق . انظر :

Cahen, Claude: "Un Traité d'Armurerie Composé pour Saladin", Extrait du *Bulletin d'Etudes Orientales*, IFD, Damas, Tome XII, 1947-1948.

هذا ويوجد وصف ممتع للمنجنيق وطريقة استعماله في كتاب الأنيق في صناعة المجانيق لأرنبغا الزَّرَدْكاش ؛ وفي اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخُلفا للمقريزي (ص 119 حاشية 3) ؛ والمعرّب للجواليقي (ص 305-307) ؛ وآثار الأول للحسن بن عبد الله (ص 191-193) ، وفيه وصف مفصل ؛ وفي كتاب الجندية في الدولة العباسية لنعمان ثابت (ص 190-193) معلومات وافية أيضاً .

[17 ظ] ولقد رأيتُه وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدِّين عمر – ابن أخيه – ونحن في مقابلة الإفرنج جريدة على الرَّمْلَة ، وفي كل ليلة تقع الصَّيحة فتقلع الخيام والناس تقف على ظَهْر [1] إلى الصباح ، ونحن بالرَّمْلَة [2] والعدوّ بيازور ، بيننا وبينها شَوْطُ فَرَس لا غير . فأحضر الملكَ العادلَ ، وعَلَمَ الدِّين سُليمان ابن جَنْدَر [3] ، وسابق الدِّين بن الدَّاية [4] ، وعزّ الدِّين بن المقدَّم ؛ وأمر بالناس فطُردوا من قريب من الخيمة ، بحيث لم يبقَ حولها أحدٌ زيادةً عن غلْوة سَهْم ، ثم أظهر الكتاب ، ووقف عليه ، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا ، من غير أن نعلم السبب ، ثم قال – رحمه الله – والعَبْرَةُ تخنقُه : توفي تقي الدِّين .

فاشتدّ بكاؤه وبكاء الجماعة ، ثم عدتُ إلى نفسي فقلتُ : «استغفروا الله تعالى من هذه الحالة ، وانظروا أين أنتم ، وفيمَ أنتم ، وأعرضوا عما سواه» .

فقال – رحمه الله – : نعم ، أستغفر الله . وأخذ يكرِّرها ، ثم قال : لا يعلم بهذا أحد !

واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ، ثم استحضر [2] الطعام ، وحضر الناس ، ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدوّ إلى يافا ، وعدنا نحن إلى النَّطرون ، وهو مقر ثقلنا .

وكان – رحمه الله – [18 و] شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار ، وهو صابرٌ على مفارقتهم ، راضٍ ببعدهم عنه ، وكان صابراً على مُرِّ العيش وخشونته ، مع القدرة التامة على غير ذلك ، احتساباً لله تعالى .

اللّهم ، إنه ترك ذلك اتّباعاً لمرضاتك ، فارضَ عنه وارحمه .

---

(1) أي ممتطية ظهور جيادها راكبة مستنفرة للقتال .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(3) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر . راجع كذلك كتاب الروضتين (2 : 222) ؛ ومفرج الكروب (2 : 435) .
(4) في طبعة مصر : أشخص .

ذكر نُبَذٍ من حلمه وعَفْوه
رحمه الله

قال الله سبحانه وتعالى :

﴿والعافينَ عَنِ النَّاسِ ، واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنينَ﴾ . ولقد كانَ حليماً[1] متجاوزاً قَليلَ الغَضَبِ .

ولقد كنتُ في خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكّا - يسَّر اللهُ فتحها -[2]. وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب . ثم ينزل ، فيُمدُّ الطعام ، ويأكل مع الناس ثم ينهض إلى خيمة خاص له ينام فيها ، ثم يستيقظ من منامه ، ويصلّي . ويجلس خلوة وأنا في خدمته ، نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه ؛ ولقد قرأ عليَّ كتاباً مختصراً لسليم الرّازي[3] يشتمل على الأرباع الأربعة في الفقه .

فنزل يوماً على عادته ، ومُدَّ الطعام بين يديه ، ثم عزم على النهوض ، فقيل له : إن وقت الصلاة قد قرب ، فعاد[18 ظ] إلى الجلوس . وقال : نصلّي وننام . ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أُخلي المكان إلا ممّن لزم ، فتقدّم إليه مملوك كبير محترم عنده ، وعرض عليه قصةً لبعض المجاهدين ، فقال له : أنا الآن ضجران ، أخِّرها ساعة .

فلم يفعل ، وقدّم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده ، وفتحها بحيث يقرأها ، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه ، فقال : رجل مُستحقٌّ . فقال : يوقّع له المولى ، ها هي . فقال : ليست الدّواة حاضرة الآن .

---

(1) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .

(2) يذكر المؤلف هذا الكلام هنا لأنه أتم كتابه بعد سقوط عكّا بأيدي الفرنج في عام 587 هـ ، كما سيمر في الحوادث المذكورة أدناه .

(3) كذا أيضاً في مفرج الكروب ، 2 : 436 .

وكان – رحمه الله – جالساً في باب الخَرْكَاه [1] بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها ، والدَّواة في صدرها ، والخَرْكَاه كبيرة ؛ فقال له المُخاطب : هذه الدواة في صدر الخَرْكَاه ! وليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير .

فالتفتَ – رحمه الله – فرأى الدَّوَاة ، فقال : والله لقد صَدَق .

ثم امتدّ على يده اليسرى ، ومدَّ يده اليمنى فأحضرها ، ووقَّع له ، فقلتُ : قال الله تعالى في نبيه – صلّى الله عليه وسلم – : ﴿وإنَّكَ لعلَى خُلُق عَظيم﴾ ، وما أرى المولى إلاّ قد شاركه في هذا الخلق ، فقال : ما ضرَّنا شيء ، قَضينا حاجته ، وحصل الثواب .

ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد [19 و] الناس وأفرادهم لقام وقعد ، ومَنْ الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك ، وهذه غاية الإحسان والحلم ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

ولقد كانت طرّاحتُه تُداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر عنده لذلك .

ولقد نفرتْ يوماً بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته ، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم – رحمه الله – .

ولقد دخلتُ بين يديه في يوم ريح مطير إلى القُدْس الشَّريف ، وهو كثير الوحل ، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه وهو يبتسم ، وأردتُ التأخر عنه بسبب ذلك ، فما تركني .

---

(1) الخَرْكَاه – والجمع خركَاوات – لفظ فارسي يعني : الخيمة الكبيرة (المعجم في اللغة الفارسية للهنداوي ، ص 133) . وشرحه دوزي في معجمه (Suppl. aux Dict. Arab.) بأنه نوع من الخيام يتكوّن من سرائد من الخشب معقود بينها على شكل قبّة ، وتغطيها قطع من اللّبد :

"Espèce de tente, qui se compose de morceaux de bois, réunis en forme de coupole, et sur lesquels on étend des pièces de feutre."

ولقد كـان يسـمع مـن المستغيثين إليه والمتظلمـين أغلـظ مـا يمكـن أن يسـمع ، ويلقى ذلك بالبشر والقبول . وهذه حكايةٌ يندر أن يُسطّر مثلها :

وذلك أنه كان قد اتجه أحد ملوك الإفرنج – خذلهم الله – بيافا ، فإن العسكر كان قد رحل عنهم ، وبَعُدَ وتراجع إلى النّطرون ، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجدّ وثـلاث معتادة ، وجـرد – رحمـه الله – العسكر ، ومضى [19 ظ] إلى قيسارية يتلقّى نجدتهم ، عساه يبلغ منها غرضاً ، وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافا ذلك ، وكان بها الأنكتار [1] ، ومعه جماعة ، فجهّز معظم مَنْ كان عنده في الرّكب [2] إلى قيسارية ، خشية على النجدة أن يتم عليها أمر ، وبقي الأنكتار في نفر يسير لعلمهم ببعده – رحمه الله – عنهم ، وبُعد العسكر .

ولمّا وصل – رحمه الله – إلى قَيْسَارِيَّة ، ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به ، وعلم أنه ما ينال منهم غرضه ، سرى من ليلته من أول الليل إلى آخره حتى أتى يافا صباحاً ، والأنكتار في سبعة عشر فارساً وتقدير ثلاثمائة راجل ، نازلاً خارج البلد في خيمة له ، فصبّحه العسكر صباحاً ، فركب الملعون ، وكان شجاعاً باسلاً صاحب رأي في الحرب ، وثبت بين يدي العسكر ، ولم يدخل البلد . فاستدار العسكر الإسلامي بهم إلا من جهة البلد [3] ، وتعبّى العسكر تعبية القتال . وأمر السُّلطان العسكر بالحملة انتهاز الفرصة . فأجابه بعض الأكراد الأمراء [4]

---

(1) الأنكتار أو الأنكتير ، هكذا يسمّى في المراجع العربية المعاصرة للحروب الصّليبية ، والمقصود هو الملك ريتشارد قلب الأسد (Richard Cœur-de-Lion) ملك إنكلترا . وسبب إطلاق اسم الأنكتار عليه في المشرق يأتي من ترجمة لقبه عن الفرنسية التي كانت سائدة في الممالك اللاتينية بالسّاحل الشامي : Roi d'Engleterre . حتى أن لقبه المذكور أعلاه (Cœur de Lion) – كور دى ليون – أي قلب الأسد ، كان يُطلق عليه بالفرنسية في بلاده نفسها ، ناهيك عن أن أمه من سلالة الأسرة الملكية الحاكمة في فرنسا . وما عبارة (the Lion Heart) إلا ترجمة إنكليزية للعبارة المذكورة ترد على ألسنة متوسطي الثقافة .

(2) في طبعة مصر : المراكب .

(3) في طبعة مصر : البحر .

(4) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .

بكلام فيه خشونة ، حاصلُه [1] تعتّبٌ ، لعدم التوفير في إقطاعه . فعطف - رحمه الله - عنان فرسه كالمُغضَب ، لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم [11 و] شيئاً [2] . وتركهم وانصرف راجعاً ، وأمر بخيمته التي كانت منصوبة أن قُلعت . وانفضّ الناس عن العدوّ [3] ، متيقّنين أن السُّلطان في ذلك اليوم ربما صَلَبَ وقَتَلَ جماعة .

ولقد حكى لي ولدُه الملك الظاهر - رحمه الله - أنه خاف منه في ذلك اليوم ، حتى أنه لم يتجاسر أن يقع في عينه ، مع أنه حمل في ذلك اليوم وأوغل حتى منعه - رحمه الله - . ولم يزل السُّلطان - رحمه الله - سائراً حتى نزل بيازور ، وهي مرحلة لطيفة ، فضُربت له خيمة لطيفة هنالك ، ونزل بها ، ونزل العسكر في منازلهم تحت صايوانات [4] لطيفة كما جرت العادة في مثل ذلك الوقت ، وما من الأمراء إلا مَنْ يرعد خيفةً ، ومَنْ يعتقد أنه مأخوذٌ مسخوطٌ عليه . قال : ولم تحدّثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه حتى استدعاني .

قال : فدخلتُ عليه ، وقد وصله من دمشق المحروسة فاكهة كثيرة ، فقال : اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً .

قال : فسُرّي عني ما كنتُ أجده ، وطلبتُ الأمراء ، فحضروا وهم خائفون ، فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطُّمَأنينة والأمن والسّرور ، وانصرفوا عنه على عزم الرحيل ، كأن لم يجر شيءٌ أصلاً .

فانظر [11 ظ] إلى هذا الحلم الذي لا يتأتّى في مثل هذا الزمان ، ولا حُكي عمّن تقدّم من أمثاله ، رحمة الله عليه .

* * * * *

---

(1) النص غير متصل في الأصل صفحة [19 ظ - 20 و] ، ولكن بقيته توجد بصفحة [11 و] .
(2) في طبعة مصر : وانفضّوا متيقنين .
(3) هذه الفقرة كلها غير موجودة في طبعة مصر .
(4) الصايوانات أو الصيوانات - مفردها صيوان - كلمة فارسية تعني القباء والخيمة .

ذكر محافظته على أسباب المروءة
قدّس الله روحه

قال النبي - صلّى الله عليه وسلم - : بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مكارِمَ الأخْلاقِ .

وكان - صلّى الله عليه وسلم - إذا صافحه الرّجل لا يترك يده حتى يكون [الرّجل هو التّارك] الذي يبدأ بذلك .

ولقد كان السُّلطان كثير المروءة ، نديًّ الوجه ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ، وما يخاطبه في شيء إلا وينجزه .

وكان يُكرم الوافد عليه ، وإن كان كافراً : ولقد وفد عليه البْرِنْس - صاحب أنطاكية [1] - فما أحسَّ به إلا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شهر شوّال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، عند منصرفه من القُدْس إلى دمشق ، عرض له في الطريق وطَلب منه شيئاً ، فأعطاه العَمْق ، وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح السّاحل ، وهو سنة أربع وثمانين .

ولقد رأيتُه وقد دخل عليه صاحب صَيْدا بالنّاصرة [2] ، فاحترمه [20 و] وأكرمه [3] ، وأكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الإسلام ، فذكر له طرفاً من محاسنه ، وحثّه عليه .

وكان يُكرم مَنْ يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار ، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمّن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى يحضرهم عنده ، وينالهم من إحسانه .

---

(1) هو البرنس بوهيموند الثالث le prince Bohémond III d'Antioche ، انظر ص 411 .
(2) اللفظ ساقط من الأصل ، أضفناه عن طبعة مصر . أما صاحب صيدا فهو رُنو گارنييه .
(3) بهذا اللفظ يعود النص في الأصل إلى الاتصال والاتساق في صفحة [20 و] .

ولقد مرَّ بنا سنة أربع وثمانين وخمسمائة رجلٌ جمع بين العلم والتصوّف ، وكان من ذوي الاقتدار ، وأبوه صاحب توريز - كان - فأعرض هو عن فن أبيه ، واشتغل بالعلم ، وحجّ ، ووصل زائراً لبيت الله المقدّس . ولمّا قضى لُبانته منه ، ورأى آثار السُّلطان - رحمه الله - فيه ، وقع له زيارته ، فوصل إلينا في العسكر المنصور ، وما أحسستُ به إلا وقد دخل عليّ في الخيمة ، فلقيتُه ورحّبتُ به ، وسألتُه عن سبب وصوله ، فأخبرني بذلك ، وأنه يؤثر زيارة السُّلطان لما رأى من الآثار الحميدة الجميلة [1] ، فعرّفتُ السُّلطان - رحمة الله عليه - تلك الليلة [2] وصول هذا الرّجل ، فاستحضره ، وروى عنه حديثاً [3] وشكره عن الإسلام ، وحثّه على الخير .

ثم انصرفنا ، وبات عندي في الخيمة ، فلمّا صلّينا [4] الصبح أخذ يودّعني ، فقبّحتُ [20 ظ] له المسير بدون وداع السُّلطان ، فلم يلتفت ولم يَلْوِ على ذلك ، وقال : قضيتُ حاجتي منه ، ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته . وانصرف من ساعته . ومضى على ذلك ليال ، فسأل السُّلطان عنه ، فأخبرتُه بفعله ، فظهر عليه آثار التعتّب ، كيف لم أخبره برواحه ، وقال : كيف يطرقنا مثل هذا الرّجل ، وينصرف عنا من غير إحسان يمسُّه منا ؟

وشدّد النكير عليّ في ذلك ، فما وجدتُ بُدّاً من أن أكتب كتاباً إلى محيي الدّين - قاضي دمشق - كلفتُه فيه السؤال عن حال الرّجل ، وإيصال رقعة كتبتُها إليه طيّ كتابي ، وأخبرتُه فيها بإنكار السُّلطان رَوَاحه من غير اجتماعه به ، وحسّنتُ له فيها العود ، وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك . فما أحسستُ به إلا وقد عاد إليّ ، فكتبتُ رقعة وأعلمتُه بذلك ، فكتب إلي يقول : تحضره معك ، ففعلتُ

---

(1) أضفنا هذا اللفظ عن طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : السلطان بذلك في ليلة وصول .
(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(4) في طبعة مصر : صليت .

ذلك) [1]، فرحّب به ، وانبسط معه ، واستوحش له ، وأمسكه أياماً ، ثم خلع عليه خلعةً حسنة ، وأعطاه مركوباً لائقاً ، وثياباً كثيرة ، يحملها إلى أهل بيته [2] وأتباعه وجيرانه ، ونفقة يرتفق بها [3] . وانصرف [21 و] عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاءً لأيامه .

ولقد رأيتُه وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي وقد هابَهُ [4] ، بحيث ظهرت عليه أماراتُ الخوف والجزع ، فقال له التّرجمان [5] : من أي شيء تخاف ؟ فأجرى الله على لسانه أن قال : كنتُ أخاف قبل أن أرى هذا الوجه ، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه ، أيقنتُ أني ما أرى إلا الخير . فرقَّ له ، ومَنَّ عليه ، وأطلقه .

ولقد كنتُ راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض اليَزَكيَّة [6] ، ومعه امرأة شديدة التحرُّق [7] ، كثيرة البُكاء ، متواترة الدَّقِّ على صدرها ، فقال اليَزَكي : إنَّ هذه خرجتْ من عند الفرنج ، وسألت الحضور بين يديك ، وقد أتينا بها . فأمر الترجمان أن يسألها عن قضيّتها [8] ، فقالت : إن اللُّصوص المسلمين دخلوا البارحة إلى خيمتي ، وسرقوا ابنتي ، وبتُّ البارحة أستغيثُ إلى بكرة النهار ، فقيل لي : الملك هو رحيم [9] ، ونحن نُخرجك إليه تطلبين ابنتك ، فأخرجوني ، وما أعرف ابنتي إلا منكَ .

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : بنيه .
(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(4) في طبعة مصر : وقد أصابه كرب . وهذا مثال واضح على سقم طبعة مصر .
(5) في طبعة مصر : فقال للترجمان .
(6) اليزكية نسبة إلى اليَزَك ، لفظ فارسي معناه : طلائع الجيش ، أو ما يسمّى بالفرنسية وعنها نقلت الإنكليزية : avant-garde . راجع دوزي (Suppl. aux Dict. Arab.) .
وكان هذا اليزك يجمع بين وظيفتي الكشّافة وكتائب المطاردة السريعة التي كانت تُباغت العدوّ وتشتبك معه قبل أن يبادر إلى استجماع قواه . وسيرد ذكرها في الكتاب مليّاً .
(7) في طبعة مصر : التخوف .
(8) في طبعة مصر : قصتها .
(9) في طبعة مصر : فقال لي المملوك : السلطان هو أرحم .

فرقَّ لها ، ودمعت عينه ، وحرّكته مروءته ، وأمر مَنْ ذهب إلى سُوق العسكر ، يسأل عن الصغيرة : مَنْ اشتراها ، ويدفع له ثمنها ، ويحضرها [21 ظ] وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضتْ ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها ، فخرَّت إلى الأرض تمرِّر وجهها في التراب ، والناس يبكون على ما نالها ، وترفع طرفها إلى السماء ، ولا نعلم ما تقول ، فسُلِّمت ابنتُها إليها ، وحُملت حتى أُعيدت إلى عسكرهم .

وكان – رحمه الله – لا يرى الإساءة إلى مَنْ صحبه وإنْ أفرط في الخيانة ، ولقد قُلب [1] في خزانته كيسان من الذَّهب المصري بكيسين من الفلوس ، فما عمل بالنوّاب شيئاً سوى أن صرفهم من عملهم ، لا غير .

ولقد دخل عليه البْرَنْس أرْنَاط [2] – صاحب الكَرَك – مع ملك الإفرنج بالسّاحل لما أسرهما في وقعة حطّين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، والواقعة مشهورة تجيء مشروحةً في موضعها – إن شاء الله تعالى – وكان قد أمر بإحضارهما ، وكان هذا أرْنَاط اللعين كافراً لعيناً جبّاراً شديداً ، وكان قد اجتازت به قافلة من مصر – حرسها الله تعالى – حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة ، فغدرها وأخذها ، ونكّل بهم ، وعذَّبهم ، وأسكنهم المطامير والحُبوس الحرجة ، وأذكروه حديث الهدنة ، فقال : قولوا لمحمّدكم يخلّصكم .

فلما بلغه – رحمه الله – ذلك عنه ، نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه ؛ فلما مكّن الله منه في ذلك اليوم ، قوي عزمه على قتله – وفاءً بنذره – [22 و] فأحضره مع الملك ، فشكا الملك العطش ، فأحضر له قدحاً من شراب ، فشرب منه ، ثم ناوله أرْنَاط ، فقال السُّلطان للتّرجمان :

---

(1) كذا في الأصل ، وفي طبعة مصر : أبدل .

(2) أرناط صاحب الكرك وصاحب الصيت السيء ، هكذا ترسم اسمه المراجع العربية ، وهو بالفرنسية : Le Prince Arnould, Seigneur de Carac et d'Outrejourdain ، وكان اسمه قبل مجيئه إلى الشام : Renaud de Châtillon ، رُنو دى شاتيّون .

قل للملك : أنت الذي سقيتُه ، وأما أنا فما أسقيه من شرابي ، ولا أطعمه من طعامي .

فقصد - رحمه الله - أنّ مَنْ أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أوذيه .

ثم ضرب عنقه بيده وفاءً بنذره . وأخذ عكّا ، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر ، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير ، وأعطى كلاً منهم نفقةً تُوصله إلى بلده وأهله .

هكذا بلغني على ألسنة جماعة ، فإنني لم أحضر هذه الواقعة .

وكان حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيِّب الفكاهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيَرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضرُه منه ما لا يسمع من غيره .

وكان حسن الخُلق يسأل الواحدَ منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه ، وتقلّبات أحواله .

وكان طاهر المجلس ، لا يُذكر بين يديه أحد إلا بالخير ، وطاهر [1] السمع ، فلا يحب أن يسمع [22 ظ] عن أحد إلا الخير ، وطاهر اللّسان ، فما رأيتُه ولع بشتم قطّ ؛ وطاهر القلم ، فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط [2] .

وكان حسن العهد والوفاء ، فما أُحضر بين يديه يتيمٌ إلا وترحّم على مخلفيه [3] ، وجبر قلبه ، وأعطاه خبز مخلفه ؛ وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلّمه إليه ، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته ، وسلّمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته .

---

(1) في طبعة مصر : أحد إلا بخير السمع .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(3) في طبعة مصر : وأعطاه وحير مصابه ، ولا يستقيم بها المعنى .

وكان ما يرى شيخاً إلا ويرقُّ له ويعطيه ويُحسن إليه ، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقارٍّ رحمته ومحالِّ رضوانه .

فهذه نبذةٌ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه ، اقتصرتُ عليها خوف الإطالة والإسآم ، وما سطّرتُ إلا ما شاهدتُه ، أو أخبرني الثقة به وحقّقتُه ؛ وهذا بعض ما اطّلعتُ عليه في زمان خدمتي له ، وهو يسيرٌ مما اطّلع عليه غيري ممّن طالت صحبتُه ، وقَدُمَتْ[1] خدمتُه . ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال .

وحيث نجز هذا القسم ، نشرع الآن في القسم الثاني ، وهو قسم تقلبات الأحوال [23 و] به ووقائعه وفتوحاته ، قدّس الله روحه .

* * * * *

(1) في طبعة مصر : وتقدمت .

القسم الثاني من الكتاب

في تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريخها
قدّس اللهُ روحه
ونوّر بنور رَحمته ضريحه

ذكر حركته إلى مصر في الدَّفعة الأولى
صحبة عمّه أسد الدين

وكان سبب ذلك أن شَاوَر [1] – وزير المصريين – كان قد خرج عليه إنسان يقال له الضِّرغام ، وكان يروم منصبه ومكانه ، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قِبَلٌ ، وغلب عليه ، وأخرجه من القاهرة ، وقتل ولده ، واستولى على المكان ، وولي الوزارة .

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب ، وعجز صاحب المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه ، وقّعوا للقاهر منهم ، ورتّبوه ومكّنوه ، فإنّ قوّتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم ، وهو ملقَّبٌ عندهم بالسُّلطان ، وما كانوا يروْن المكاشفة ، وأغراضهم مستتبّة [2] وقواعدهم مستقرّة من أول زمانهم على هذا المثال [3] .

[23 ظ] فلمّا قُهر شَاوَر وأُخرج من القاهرة ، اشتدّ في طلب الشام قاصداً خدمة نور الدِّين بن زنكي ، مستصرخاً به ، مستنصراً على أعدائه بعسكره/ فتقدّم نور الدِّين إلى أسد الدِّين شيْركُوْه بالخروج إلى محروسة مصر [4] قضاءً لحقّ الوافد المستصرخ ، وجسّاً [5] للبلاد وتطلعاً على أحوالها ، وذلك في شهور سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وتأهب أسد الدِّين شيْركُوْه ، وسار إلى مصر ، فاستصحبه معه – رحمه الله – عن كراهية منه لذلك ، لمكان افتقاره إليه ، وجعله

---

(1) اسمه بالكامل : أبو شجاع شاور بن مُجير بن نزار بن عشائر بن شاس السَّعدي ، انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ، 2 : 439 .
(2) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .
(3) انثال الدكتور جمال الدِّين الشيال على ابن شدّاد في قوله هذا مُغضباً ومُعاتباً ، فقال : هذا كلام ابن شدّاد ، نُبقي عليه مراعاة لأمانة النشر ، تاركين الردّ عليه لمن يعلم شيئاً من تاريخ المصريين وعاداتهم .
(4) في طبعة مصر : محروسة مصر .
(5) في طبعة مصر : وحفظاً .

مقدَّم عسكره ، وصاحب رأيه ، وساروا حتى وصلوا إلى محروسة مصر ، وشَاوَر معهم ، في الثاني من جُمادى الآخرة سنة ثمان المذكورة .

وكان لوصولهم إلى مصر موقع عظيم ، وخافه أهل مصر ، ونَصَرَ شَاوَر على خصمه ، وأعاده إلى منصبه ومرتبته ، وقرّر قواعده ، واستقرّ أمره ، وشاهد البلادَ وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد غُرس في قلبه الطمعُ في البلاد ، وعلم أنها بلاد بغير رجال ، تمشي الأمور فيها بمجرّد الإيهام والمحال [1] .

وكان ابتداء رحيله [2] عنها [24 و] متوجهاً إلى الشام في السابع من ذي الحجة سنة ثمان المذكورة ، وكان لا يفصل أمراً ، ولا يقرّر حالاً إلا بمشورته ورأيه ، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة والفكرة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته وسكناته ، فأقام بالشام مدبراً لأمره ، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية ، محدثاً بذلك نفسه ، مقرّراً لقواعد ذلك مع الملك العادل نُور الدِّين - رحمه الله - إلى سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

* * * * *

---

(1) أيضاً هنا يشير الشيال ، رحمه الله ، إلى ادّعاء ابن شدّاد باعتراض مُغضب ، فكيف يعتور مصر بهذا الذمّ الجارح ، وهي ظئر العروبة ودار الإسلام ؟

(2) في طبعة مصر : رحلته .

ذكــر

عوده إلى مصر في الدفعة الثانية

وسبب ذلك

وهي المعروفة بوقعة البابين [1]

ولم يزل أسد الدِّين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شَاوَر ذلك ، وداخله الخوفُ على البلاد من الأتراك [2] ، وعلم أن أسد الدِّين قد طمع في البلاد ، وأنه لابد له من قصدها . فكاتب الإفرنج ، وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكّنونه فيها [3] تمكيناً كلياً ، ويعينونه على استئصال أعدائه ، بحيث يستقر قلبه فيها . وبلغ ذلك أسدَ الدِّين والملكَ العادلَ نورَ الدِّين [24 ظ] ، فاشتدّ خوفهم على مصر أن يملكها [4] الكفار ، فيستولوا على البلاد كلِّها ، فتجهَّز أسد الدِّين ، وأنفذ معه الملك العادل نور الدِّين العساكرَ ، وألزم السُّلطان - رحمه الله - بالمسير معه ، على كراهيةٍ منه لذلك .

وكان توجههم في أثناء ربيع الأول من شهور [5] سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الإفرنج إليها .

واتفق شَاوَر مع الإفرنج على أسد الدِّين ، والمصريون بأسرهم ، وجرت بينهم حروب كثيرة ووقعات شديدة ، وانفصل الإفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدِّين .

---

(1) البابين : قرية كانت تقع جنوبي مدينة المنيا بمصر .

(2) يريد بالأتراك قوم السّلطان نور الدِّين محمود بن زنكي ، الذي كان تركياً بالفعل . وكان جمع بين مُلك الموصل وبلاد الشام بأسرها ، وبات يُعدّ العدّة لضمّ مصر إلى سلطنته ، لتوحيد الجهود في سبيل دحر الغزاة الصّليبيين وقلع شأفتهم من الساحل الشامي ؛ الأمر الذي لم يتيسّر له في حياته ، ولكن تابعه من بعده ربيبه السّلطان النّاصر .

(3) في طبعة مصر : ويمكنهم .

(4) في طبعة مصر : ملكها .

(5) في طبعة مصر : في اثني عشر ربيع الأول سنة . . إلخ .

وكان سببُ عَود الإفرنج أن نور الدِّين جرّد العساكر إلى بلاد الإفرنج ، وأخذ المُنيطرة [1] ، وعلم الإفرنج ذلك فخافوا على بلادهم وعادوا .

وكان سببُ عَوْد أسد الدِّين ضعفَ عسكره بسبب مُواقعة الإفرنج والمصريين ، وما عانوه من الشدائد وعاينوه من الأهوال ؛ وما عاد حتى صالح الإفرنج على أن ينصرفوا كلُّهم عن مصر .

وعاد إلى الشام في بقية السنة وقد انضم إلى قوّة الطمع [25 و] في البلاد شدّة الخوف عليها من الفرنج ، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذي عرفها ، فأقام في الشام على مضض وقلبه مقلقل ، والقضاء يجرُّه إلى شيء قد قُدِّر لغيره ، وهو لا يشعر بذلك .

وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدِّين قلعة المنيطرة بعد مسيرة أسد الدِّين في رجب ، وخرَّب قلعة أكاف بالبرِّية .

وفي رمضان منها اجتمع نور الدِّين وأخوه قطب الدِّين وزين الدِّين – رحمهم الله – بحماةَ للغَزاة ، وساروا إلى بلاد الفرنج ، فخرَّبوا هُونين [2] في شوّال منها .

وفي ذي القعدة منها كان عَود أسد الدِّين من مصر ، وفيه مات قَرَا أرْسْلان بديار بكر .

* * * * *

---

(1) المنيطرة : ذكر ياقوت في معجم البلدان (18 : 217) : حصن بالشام قريب من طرابلس .
(2) هُونين حصن في جنوب لبنان ، ذكره ياقوت في معجم البلدان (20 : 420) : بلد في جبال عاملة مطلّ على نواحي مصر . وكان بنى فيه الصّليبيون حصناً أسموه Châteauneuf ، ومعناه بالفرنسية : الحُصن الجديد .

ذكــــر

عودهم إلى مصر في الدفعة الثالثة
وهي التي ملكوها فيها
وجرى ما جرى وذلك في شهور سنة أربع وستين وخمسمائة

وكان سببُ ذلك أن الإفرنج - خذلهم الله - جمعوا راجلَهم وفارسَهم ، وخرجوا يريدون الدِّيار المصرية ، ناكثين لجميع ما استقرّ مع المصريين وأسد الدِّين من الصُّلح والقواعد ، طمعاً في البلاد . فلما بلغ ذلك نور الدِّين وأسد الدِّين لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلد [1] .

أما [25 ظ] نور الدِّين فبالمال والرجال ، ولم يَسِرْ بنفسه خوفاً على البلاد من الفرنج ، ولأنه قد حدث نظره إلى جانب الموصل بسبب وفاة زين الدِّين علي ابن بكْتكين - رحمه الله - ، فإنه توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وَسَلَّم ما كان في يده من الحصون إلى قطب الدِّين أتابك ما عدا إرْبِل ، فإنها كانت له من أتابك زنكي - رحمه الله - فحدث لنور الدِّين إلى ذلكَ الجانب طمع بهذا السبب ، فسيَّر العسكر .

وأما أسد الدِّين فبنفسه [2] وماله وأهله ورجاله ؛ ولقد قال لي السُّلطان - قدَّس الله روحه - : «كنتُ أكرهَ الناس للخروج في هذه الدفعة [3] ، وما خرجتُ مع عمّي باختياري» ؛ وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ .

---

(1) بعد معركة البابين غير الحاسمة ، بين قوّات نور الدّين بقيادة أسد الدّين شيركوه وقوّات ملك القُدس الصَّليبي أموري الأول Amaury Ier في عام 562 هـ ، رضخ المصريون بالانضواء تحت الحماية الفرنجيّة ، بما في ذلك دفع جزية وإنزال حامية فرنجيّة في القاهرة . ثم لمّا رغب أموري بعد عام باحتلال مصر ، سارع نور الدّين بضمّها إلى سلطنته .

(2) في طبعة مصر : فبسيفه وملكه .

(3) في طبعة مصر : الواقعة .

وكان شَاوَر لما أحسَّ بخروج الإفرنج إلى مصر على تلك القاعدة أنفذ إلى أسد الدِّين يستصرخه ويستنجده ، فخرج مسرعاً ؛ وكان وصولهم إلى محروسة مصر في أثناء ربيع الأول من سنة أربع وستين وخمسمائة .

وفي هذه السنة ، سنة أربع وستين وخمسمائة ، ملك نور الدِّين قلعة جَعْبَر [26 و] في المحرّم ، ابتاعها من صاحبها ابن مالك بسَرُوج وباب بُزاعة والملّوحة ، بعد قبضه .

وفي هذا الشهر مات ياروق [1] الذي تُنسب الياروقيَّة إليه .

ولما علم الإفرنج وصول أسد الدِّين إلى مصر عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين ، وعلى أعقابهم ناكصين . وأقام أسد الدِّين بها ، يتردّد إليه شَاوَر في الأحيان ؛ وكان وَعَدهم بمال في مقابلة ما خسروه من النَّفقة ، فلم يوصل إليهم شيئاً ، وعلقتْ مخاليبُ أسد الدِّين في البلاد ، وعلموا أن الإفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد ، وأن تردُّدَهم إليها في كل وقت لا يفيد ، وأن شَاوَر يلعب بهم تارة ، وبالإفرنج تارة أخرى ، وملاّكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم [2] ، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شَاوَر ، فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم ، وكانوا هم يتردّدون إلى خدمته دون أسد الدِّين ، وهو يخرج في بعض الأحيان إلى أسد الدِّين يجتمع به .

وكان [شَاوَر] يركب على قاعدة وزرائهم - بالطبل والبوق والعلم - فلم يتجاسر على قبضه من الجماعة إلا السُّلطان بنفسه : وذلك أنه لما سار [26 ظ] إليهم تلقّاه راكباً ، وسار إلى جانبه ، وأخذ بتلابيبه ، وأمر العسكر أنْ خُذوا على أصحابه ، ففرُّوا ونهبهم العسكر ، وقُبض على شَاوَر ، وأُنزل إلى خيمة مفردة .

---

(1) هو المقدّم ياروق بن أرسلان التركماني ، إليه تُنسب الطائفة الياروقية من التركمان . ترجم له ابن خلكان في وفيات الأعيان (6 : 117) ، ونقل عن النوادر السلطانية أن ياروق توفي سنة 564 هـ . ومعنى الاسم بالتركية Yürük أو Yörük : البدوي المرتحل .

(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول : لابُدَّ من رأسه . يقول : جرياً على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة مَنْ قَوِيَ منهم على صاحبه . فجُزَّت رقبتُه ، وأُنفذ رأسه إليهم .

/وأنفذ إلى أسد الدِّين خلعة الوزارة ، فلبسها وسار ودخل القصر ، وترتَّب وزيراً ، وذلك في سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة . ودام آمراً ناهياً ، والسُّلطان - رحمه الله - مباشرٌ الأمورَ ، مقرّر لها ، وزمامُ الأمر والنهي مفوَّض إليه لمكان كفايته ودرايته وحُسْن تأتّيه [1] وسياسته إلى الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة من السنة المذكورة/.

* * * * *

(1) هكذا في الأصل ، وفي طبعة مصر : رأيه .

ذكر وفاة أسد الدِّين ، رحمه الله ومصير الأمر إلى السُّلطان

[27 و] وذلك أن أسد الدِّين كان كثير الأكل ، شديد المواظبة على أكل اللّحوم الغليظة ، وتتواتر عليه التُّخَم والخوانيق [1] ، وينجو منها بعد معاناة شدّة عظيمة . فأخذه مرض شديد ، واعتراه خانوق عظيم ، فقتله في الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة في السنة المذكورة .

وفُوِّض الأمر بعده إلى السُّلطان ، واستقرّت القواعد ، واستتبت الأحوال على أحسن نظام ؛ وبَذلَ المالَ وملكَ الرجالَ ، وهانتْ عنده الدنيا فملكها ، وشكر نعمةَ الله عليه ، فتاب عن الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمَّص بلباس الجدّ والاجتهاد ، وما عاد عنه ، ولا ازداد إلا جداً إلى أن توفّاه الله إلى رحمته .

ولقد سمعتُ منه يقول : «لما يَسَّر الله لي الديار المصرية علمتُ أنه أراد فَتْحَ السّاحل ، لأنه أوقع ذلك في نفسي» . ومن حين استتبّ له الأمر ما زال يشنُّ الغارات على الإفرنج إلى الكَرَك والشَّوْبَك وبلادهما ، وغشي الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام .

هذا كلُّه وهو وزيرٌ متابع للقوم ، لكنه [27 ظ] مقوٍّ لمذهب السنّة ، غارسٌ في أهل البلاد العلمَ والفقهَ والتصوّفَ والدينَ ، والناس يُهرعون إليه من كل صوب ، ويفدون عليه من كل جانب ، وهو لا يخيِّب قاصداً ، ولا يعدم وافداً ، إلى سَنة خمس وستين وخمسمائة .

ولما عرف نور الدِّين استقرّار أمر السُّلطان بمصر ، أخذ حمص من نوّاب أسد الدِّين ، وذلك في رجب من سنة أربع وستين وخمسمائة .

---

(1) الخنّاق أن يحدث في المبلع ضيقٌ ، يقال له خوانيق . مفاتيح العلوم للخوارزمي المعروف بالسّكاكي ، ص 97 . وهو ما يعني في لغة الطبّ الحديث الإصابة بالجلطة الدّموية .

ذكر قَصْد الإفرنج دمياط
حرسها الله تعالى

ولما علم الإفرنج ما جرى على المسلمين وعساكرهم ، وما تمَّ للسُّلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية ، علموا أنه [1] يملكُ بلادَهم ويخرِّب ديارَهم ويقلع آثارهم ، لمَا حدث له من القوّة والمُلك . فاجتمع الإفرنج والرُّوم جميعاً ، وحدَّثوا أنفسهم بقصد الدِّيار المصرية ، والاستيلاء عليها ومُلْكها . ورأوا قَصْدَ دمياط [2] ، لتمكُّن القاصد لها من البرِّ والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلتْ لهم حصل لهم مَغْرَسُ قَدَم يأوون [3] إليه . فاستصحبوا المنجنيقات والدبّابات [4] ، والجروخ [5] ، وآلات الحصار ، وغير ذلك .

---

(1) في طبعة مصر : خافوا أن .

(2) في المرّات الثلاث التي هاجم فيها الصَّليبيون مصر ، كانوا يحتلّون دمياط بدلْتا النّيل .

(3) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .

(4) جاء في لسان العرب : الدبابة آلة تُتخذ من جلود وخشب ، يدخل فيها الرجال ويقرّبونها من الحصن لينقبوه ، ويقيهم ما يُرْمَون به من فوقهم ، سمّيت بذلك لأنها تُدفع فتدبّ . وقد قرن مرضي بن علي الطرسوسي بينها وبين الأبراج والستائر ، ووصفها جميعاً ووصف طرق صنعها في كتابه سالف الذكر . انظر : Cahen, op. cit. p. 18-19 .
كذلك وصفها الحسن بن عبد الله في آثار الأول (ص 192) بقوله : هي آلة سائرة تُتّخذ من الخشب الثخين المتلزّز ، وتغلّف باللبود والجلود المنقعة في الخلّ لدفع النار ، وتُركّب على عَجَل مستدير ، وتُحرك فتنجرّ ، وربما جُعلت برجاً من خشب ، ودُبّر فيها هذا التدبير ، وقد يدفعها الرجال فتندفع على البَكَر . وقد وصف العماد الأصفهاني في كتابه الفتح القسّي إحدى دبابات الإفرنج بأنها كانت دبابة عظيمة هائلة ، ولها أربع طباق ، وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس . ويصف ابن شدّاد فيما يلي إحدى دبابات الإفرنج .

(5) الجروخ جمع جَرْخ لفظة فارسية (چَرْخ) ، وهو نوع من أقواس الرمي الكبيرة الذي يُرمى عنه النُّشّاب أو النفط ، كما تصفه النصوص القديمة ، وهكذا وصفه دوزي في معجمه :
"Une arbalète avec laquelle on lançait, soit des flèches, soit le naphte."
وقد ذكر مرضي بن علي في كتابه تبصرة أرباب الألباب (ص 6-8) أربعة أنواع للقوس الرامي الذي يشبه المنجنيق ، وهي : قوس الزيار ، والقوس العقّار ، والجَرخ ، وقوس الرجل . ويقال للذي يرمي عن قوسه السهام أو النفط (الجرخي) ، ويقابله بالفرنسية لفظة arbalétrier ، والجمع (جرخيّة) . انظر : C. Cahen, op. cit., p. 125 .

ولما سمع الإفرنج بالشام [1] ذلك ، اشتدّ أمرهم ، فسرقوا حصن عكّا من المسلمين ، وأسروا صاحبها [28 و] - وكان مملوكاً لنور الدِّين يسمّى ختلخ [2] العَلَمْ دار - وذلك في ربيع الآخر منها .

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدِّين وأمير حاجبه ، وكان صاحب بعلبك وتدمر [3] .

ولما رأى نور الدِّين ظهور أمر الإفرنج ، وبلغه نزولهم على دمياط ، قصد شَغْل قلوبهم ، فنزل على الكَرَك محاصراً لها في شعبان من هذه السنة ، فقصده إفرنج السّاحل ، فرحل عنها ، وقصد لقاءهم ، فلم يقفوا له [4] .

ثم بلغه وفاة مجد الدِّين بن الدّاية بحلب ، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة خمس وستين وخمسمائة ، فاشتغل قلبُه ، لأنه كان صاحب أمره . فعاد يطلب الشام ، فبلغه خبر الزلزلة بحلب [5] ، التي أخربت كثيراً من البلاد ، وكانت في ثاني عشر شوّال من السنة [6] المذكورة وهو بعَشْترا [7] ، فسار يطلب حلب ، فبلغه خبر

هذا وقد عقد الحسن بن عبد الله في كتابه آثار الأول (ص 160) فصلاً في صفة القسيّ والنُّشّاب ، أضاف فيه معلومات قيّمة عن الشعوب التي تؤثر استعمال الجرخ ، وعن المفاضلة بين الجرخ والقوس العقّار ، وأين يُستعمل كل منهما ، لأن قوس الجرخ يُصنع من القرن ، والعقّار يُصنع من الخشب . قال : والمغاربة والفرنج يعانون قسيّ الجرخ ، وهي أكثر نفعها من داخل السُّور وفي مراكب البحر ، والقسي الجروخ القرن تصنع للقلاع ، والعقاقير جميعها خشب ، ما تصلح إلا في البحر ، لأن هواء البحر يضرّ بالقرن ويفسده ، والعقاقير الخشب ما تتغير فيه ، وقليل أن تخطئ سهام الجروخ إذا كان الرامي بها عارفاً حاذقاً .

(1) في طبعة مصر : إفرنج الشام .

(2) في طبعة مصر : خطلخ .

(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(4) في طبعة مصر : فلم يقف لهم على أثر .

(5) حدثت هذه الزلزلة في 12 شوال ، انظر أخبارها بالتفصيل في الكامل لابن الأثير ، 11 : 132-133 ؛ وكتاب الروضتين لأبي شامة ، 1 : 184 .

(6) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(7) ذكر ياقوت في معجم البلدان (4 : 125) : عشترا موضع بحوران من أعمال دمشق .

موت قطب الدِّين أخيه بالموصل [1] ، وكانت وفاته في ثاني وعشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة ، وبلغه الخبر وهو بتلّ باشر ، فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل .

ولما علم السُّلطان شدّة قصد العدوّ دمياط أنفذ إلى البلد ، وأودعه من الرجال وأبطال [28 ظ] الفرسان والميرة والآلات والسِّلاح [2] ما أمَن معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات وإزعاج [3] العدوّ عنهم إنْ نزل عليهم ، وبالغ في العطايا والهبات ، وكان وزيراً متحكماً لا يُردُّ أمره في شيء [4] .

ثم نزل الإفرنج عليها في التاريخ المتقدّم المذكور ، واشتدّ زحفهم عليها وقتالهم لها ، وهو يشنُّ الغارات عليهم من خارج ، والعساكر تقاتلهم من داخل ، ونصرُ الله للمسلمين يؤذيهم ، وحُسْن قصده في نُصرة دين الله يسعدهم وينجدهم [5] ، حتى بان لهم [6] الخُسران ، وظهر على الكفر الإيمانُ ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ، ويسلمون بنفوسهم . فرحلوا خائبين خاسرين ، فحُرِّقت مناجيقهم ، ونُهبت آلاتهم [7] ، وقُتل منهم خلقٌ عظيم [8] ، وسلم البلد [9] بحمد الله ومنّه عن قصدهم ، وظهر - بتوفيق الله - فلُّ حدّهم ، واستقرّت قواعد السُّلطان .

* * * * *

(1) أي قطب الدّين مَوْدود بن عماد الدّين زنكي ، صاحب الموصل .
(2) في طبعة مصر : وآلات السِّلاح .
(3) في طبعة مصر : وإبعاد .
(4) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(5) النص في طبعة مصر : ونصر الله المسلمين وأيّدهم ، وحسّن قصدهم في نصر دين الله ، وأسعدهم وأنجدهم .
(6) في طبعة مصر : بان للإفرنج .
(7) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .
(8) في طبعة مصر : كثير .
(9) انظر تفاصيل أخبار نزول الفرنج على دمياط وحصارهم لها في مفرج الكروب لابن واصل ، 1 : 179 .

ذكــر [1]
طلبه والده

ثم أنفذ في طلب والده ليكمل السرورُ به ويتم الحبور ، ويجمع القصة مشاكلةً لما جرى [2] للنبي يوسف – صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء أجمعين – ، فوصل والدُه نجمُ الدِّين [3] – رحمة الله عليه – في أثناء جُمادى الآخرة من سنة خمس [29 و] وستين وخمسمائة ، وسلك معه من الأدب ما كان عادته ، وألبسه الأمر كلَّه [4] فأبى أن يلبسه ، وقال : «يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤٌ له ، فلا ينبغي أن تُغيِّر موقعَ السعادة» . فحكّمه في الخزائن بأسرها وكان – رحمه الله – كريماً يطلق ولا يردّ [5] ؛ ولم يزل السُّلطان وزيراً محكّماً حتى مات العاضد أبو محمد عبد الله ، وبه خُتم أمر المصريين .

وأما نور الدِّين – رحمه الله – فإنه أخذ الرَّقَّة في المحرم سنة ست وستين ، وسار منها إلى نصيبين ، فأخذها في بقية الشهر ، وأخذ سنجار في ربيع الآخر منها .

ثم قصد الموصل ، وقصد أنْ لا يقاتلها ، فعبر بعسكره من مخاضة بلد ، وسار حتى خيَّم قبالة الموصل على تلٍّ يقال له الحصن ، وراسل ابنَ أخيه سيف الدِّين [6] غازي – صاحب الموصل – وعرَّفه صحة قصده ، فصالحه ، ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى . وقرَّر صاحبها فيها ، وزوَّجه ابنته ،

---

(1) هذا العنوان غير موجود في الأصل ، أضفناه عن طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : وتجري القصة مشاكلة لما جرى .
(3) هو الملك الأفضل نجم الدِّين أيوب بن شاذي بن مروان ، ولي قلعة تكريت ، ثم بعلبك ، وأقام بدمشق في خدمة السلطان نور الدِّين محمود بن زنگي ، ثم ورد مصر أثناء تولي ابنه فيها ، كما يذكر ابن شدّاد أعلاه سنة 565 هـ فولاّه ابنه الإسكندرية . توفي 568 هـ .
(4) يعني عرض عليه أن يكون محلّه في ولايته لمصر .
(5) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(6) في طبعة مصر : عزّ الدِّين . أي ابن أخيه قطب الدّين مودود بن عماد الدّين زنگي .

وأعطى عماد الدِّين أخاه [1] سنجار في جُمادى الآخرة ، وخرج من الموصل قاصداً نحو الشام ، فدخل حلب في شعبان من هذه السنة .

[29 ظ] ذكر موت العاضد

وكان موته في يوم الإثنين العاشر من المحرّم من شهور سنة سبع وستين وخمسمائة [2] . واستقرّ المُلْكُ للسُّلطان ، وكان خَطَبَ لبني العباس في أواخر أمر العاضد وهو حيٌّ ، وكانت الخطبة في ابتدائها للمستضيء بأمر الله ، واستمرت القواعد على الاستقامة ، وهو كلّما استولى على خزانة مال [3] وهبها ، وكلّما فُتِح له خزائن مُلْك أنهبها ، ولا يُبقي لنفسه شيئاً ، وشرع في التأهب للغزاة ، وقصد بلاد العدوّ وتعبية الأمر لذلك ، وتقرير قواعده .

وأما نور الدِّين فإنه عزم على الغزاة ، واستدعى صاحبَ الموصل ابن أخيه ، فوصل بالعساكر إلى خدمته ، وكانت غزوة [4] عرقا ، وأخذها نور الدِّين ومعه ابن أخيه في المحرّم سنة سبع وستين وخمسمائة .

* * * * *

(1) في طبعة مصر : ابن أخيه . والنص على هذا الوجه يقتصر على أن عماد الدِّين هو ابن أخي نور الدِّين ، أما نص الأصل فيوضح أن عماد الدِّين في نفس الوقت هو أخو سيف الدِّين غازي أيضاً ، وهما ابنا قطب الدّين مودود بن زنگي .

(2) كان العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين بمصر والمغرب ، واسمه عبد الله بن يوسف ، بويع له بمصر عام 555 هـ ، وظهر الضعف على دولة الفاطميين في أيامه ، ثم دالت بموته بعد أن استدامت 268 سنة .

(3) في طبعة مصر : خزانة من المال .

(4) في طبعة مصر : غزاة .

ذكر أول غزوة غزاها من الديار المصرية

[30 و] ولم يزل على بسط العدل ونشر الإحسان وإفاضة الإنعام [1] على الناس ، إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة . فعند ذلك خرج بالعساكر يريد بلاد الكَرَك والشَّوْبَك ، وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت في الطريق تمنع مَنْ يقصد الدِّيارَ المصرية ، وكان لايمكن أن تصلَ قافلةٌ حتى يخرجَ هو بنفسه يُعَبِّرها بلادَ العدوّ . فأراد توسيع الطريق وتسهيلَه لتتصل البلادُ بعضُها ببعض ، وتسهل على السَّابلة .

فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمان وستين وخمسمائة [2] فحاصرها ، وجرى بينه وبين الإفرنج وقعات ، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الدَّفعة [3] ، وحصل ثواب القصد .

وأما نورُ الدِّين ، فإنه فتح مَرْعَش [4] في ذي القعدة من هذه السنة ، وأخذ بَهَسْنا [5] في ذي الحجة منها .

ذكر وفاة والده نجم الدين

ولمّا عاد السُّلطان من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاةُ أبيه نجم الدِّين ، فشقّ عليه ذلك حيث لم يحضر وفاته ، وكان سببُ وفاته وقوعُه عن الفَرَس ، وكان – رحمه الله – شديد الرّكض ، وَلِعاً بلعب الكرة [6] ، بحيث مَنْ رآه يلعب بها

---

(1) في طبعة مصر : وإقامة الإحسان .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(3) في طبعة مصر : الواقعة .
(4) مرعش مدينة معروفة في إقليم كيليكيا ، جنوبي تركيا حالياً ، شمالي الحدود السورية .
(5) في طبعة مصر : بها . وبهسنا أيضاً بلدة في كيليكيا شمالي سُميساط وشرقي مرعش .
(6) أي قذفها بعصا معقوفة تُسمّى الجوكان ، من على ظهر الفرس ، كلعبة Polo المعروفة .

يقول : ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس . [30 ظ] وكانت وفاته - رحمه الله - بمصر [1] ، في شهور سنة ثمان وستين وخمسمائة .

ذكر فتح اليمن [2]

ولما كانت سنة تسع وستين [3] رأى قوّة عسكره وكثرةَ عدد إخوته وقوّة بأسهم ، وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها ، ومَلَكَ حصونها ، وهو يخطب لنفسه ، يسمّى بعبد النبي بن مهدي [4] ، ويزعم أن ينتشر مُلْكُه إلى الأرض كلّها ، واستتب أمره ، فرأى أن يُسيِّر إليها أخاه الأكبر شمس الدولة الملك المعظم تُورَانْشاه ، وكان كريماً أَرْيَحيّاً حسن الأخلاق ، سمعتُ منه - رحمه الله - الثناءَ على كرمه ومحاسن [5] أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه .

وكان توجُّهه إليها في أثناء رجب سنة تسع وستين ، فمضى إليها ، وفتح الله على يديه ، وقَتل الخارجي الذي كان بها ، واستولى على معظمها ، وأعطى وأغنى خلقاً كثيراً .

* * * * *

---

(1) هذه الكلمات ساقطة من طبعة مصر .

(2) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(4) المهديون أسرة حكمت زبيد بين سنتي 554-569 هـ ، وحكم من هذه الأسرة ثلاثة فقط هم : علي بن مهدي ، ومهدي بن علي ، وعبد النبي بن علي . راجع :
Stanley Lane-Poole, *Mohammedan Dynasties*, p. 96.

(5) في طبعة مصر : وحسن .

ذكر وفاة نور الدِّين محمود بن زنكي [1]
رحمه الله

وكانت وفاته بسبب خوانيق اعترته أيضاً ، عجز الأطباء عن علاجها ، وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر [2] من شوّال من سنة تسع وستين وخمسمائة ، وذلك في [31 و] قلعة دمشق ، وقام مقامه ولدُه الملكُ الصالحُ إسماعيل .

ولقد حكى لي السُّلطان قال : «كان بلغنا عن نور الدِّين أنه ربما قصدنا [3] بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن يُكاشَف ويُخالَف ويُشَقَّ عصاه ، ويُلقى عسكره بمصاف يردّه [4] إذا تحقّق قصده ، وكنتُ وحدي أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يُقال شيءٌ من ذلك ، ولم يزل النزاعُ بيننا حتى وصل الخبرُ بوفاته» [5] .

---

(1) السلطان العادل نور الدِّين محمود ابن زنگي ابن آق سُنْقُر ، الملقب بنور الدِّين الشهيد ، كان أحد أعاظم أبطال المسلمين في الجهاد ضدّ الاحتلال الصَّليبي لبلاد الشام في القرن السادس الهجري . وُلد في حلب عام 511 هـ ، وانتقلت إليه إمارتها عام 541 هـ بعد وفاة أبيه المجاهد الكبير عماد الدِّين زنگي صاحب الموصل . ثم في عام 549 هـ ضم دمشق إلى إمارته ، فتوحّدت على يديه بلاد الشام والعراق وبعض الجزيرة ، وباشر عهداً جديداً قوياً من الجهاد ضدّ الغزاة الصَّليبيين في حملتهم الثانية ، وافتتح منهم عديداً من المدن والحصون ، من أجلّها الرُّها وصافيتا وهُونين وحارم وأفامية ، حتى هابوه وأطلقوا عليه اسم Nuradin le Redoutable أي نور الدِّين الرّهيب . وامتدّت سلطته حتى ضمّت الحجاز ومصر وبعض المغرب . وفي سيرته كتب ابن القلانسي وأبو شامة وابن قاضي شُهبة ، وأوسع بحث عنه كتبه نيكيتا إليسييف N. Elisséeff بالفرنسية :
Nur ad-Din, un grand prince musulman au temps des croisades, Damas, 1967.

(2) في طبعة مصر : في الحادي والعشرين من شوال . وهو غلط واضح ، وما بالمتن هو الصواب . راجع مفرج الكروب ، 1 : 263 .

(3) في طبعة مصر : أنه يقصدنا . ويريد بذلك أنه ربما أتى لمحاربتهم .

(4) في طبعة مصر : بأن نكاشف ونخالف ونشق عصاه ونلقى عسكره بمصاف نردّه .

(5) هذا موقف مشرّف يُسجَّل بكل فخر لصلاح الدِّين الشهم الوفي ، الذي لم يرض بشق عصا الطاعة لمولاه السابق السلطان المجاهد الكبير الزاهد نور الدِّين ، هذا برغم قدرته التامة على ذلك آنذاك ، وانفراده بكل قوى مصر ومواردها الهائلة .

ذكر منافقة الكنز بأسوان
وذلك في شهور سنة سبعين وخمسمائة [1]

والكنز [2] إنسان مقدّم من المصريين كان قد انتزح إلى أسوان فأقام بها ، ولم يزل يدبِّر أمرَه ، ويجمع السّودان عليه ، ويخيِّل لهم أنه يملك البلاد ويُعيد الدّولة مصرية ، وكان في قلوب القوم من مهاواة المصريين ما يستصغر هذه الأفعال عنده فاجتمع عليه خلقٌ كثير وجمعٌ وافر من السّودان [3] ، وقصد قُوص وأعمالها .

وانتهى خبرُه إلى السُّلطان ، فجرَّد له عسكراً عظيماً شاكين في السِّلاح ، [31 ظ] من الذين ذاقوا حلاوة مُلك الدّيار [3] المصرية ، وخافوا على فَوْت ذلك منهم ، وقدَّم عليهم أخاه الملكَ العادلَ سيفَ الدِّين . وسار بهم حتى أتوا القومَ ، فلقيهم بمصاف ، فكسرهم ، وقتل منهم خلقاً عظيماً ، واستأصل شأفتهم ، وأخمد ثائرتهم ، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين ، واستقرّت قواعد المُلك ، واستتمّت أموره ، ولله الحمدُ والمنَّة .

---

(1) في طبعة مصر : تسع وستين ، وهو غلط واضح .

(2) الكنوز في الأصل بطن من قبيلة ربيعة العربية ، استقرّوا حول مدينة أسوان وفي بلاد النُّوبة ثم خالطوا النوبيين وتزوّجوا منهم . وكنز الدولة لقب منحه لأول مرة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله لحاكم النوبة في عهده أبي المكارم هبة الله بن الشيخ أبي عبد الله محمدابن علي . روى المقريزي في البيان والإعراب (ص 50) : «ولم تزل الإمارة منهم ، وكلهم يعرفون بكنز الدولة ، حتى كان آخرهم كنز الدّولة ، فقتله الملك العادل أبو بكر بن أيوب في صفر سنة 570 عندما خالف على السلطان صلاح الدِّين يوسف بن أيوب ، وجمع لحربه ، وقتل أخا أبي الهيجا السمين ، ودعا للأمير داود بن العاضد ، وكان قتله على مدينة طود بعد حروب شديدة» . وبنو كنز أو الكنوز هم سلالة هؤلاء بعد اختلاطهم مع النُّوبيين ، وكانت لهم السيطرة التامة على الصعيد في العهد المملوكي ، ولا زالت قبيلة الكنوز حتى اليوم في المنطقة الواقعة بين أسوان وكروسكو . انظر أيضاً : اتّعاظ الحُنفا للمقريزي ؛ ومفرّج الكروب لابن واصل الحموي ، 1 : 229 ، 2 : 16-17 ؛ والرّوضتين لأبي شامة ، 1 : 208-209 ؛ وراجع :
Casanova, *Les Dérniers Fatimides*; Trimingham, *Islam in the Sudan*, p. 68.

(3) هذان اللفظان غير موجودين في طبعة مصر . راجع مفرج الكروب ، 2 : 17 .

ذكــــر
قصد الإفرنج ثغر الإسكندرية
حرسها الله تعالى

وذلك أن الإفرنج - خذلهم الله تعـالى - لما علمـوا تغيرات الأحـوال بالديار المصرية ، وتقلّبات الدُّول بهـا ، داخلهـم الطمعُ في البـلاد ، وجرّدوا عسـاكرهم في البحر ، وكانوا في ستمائة قطعة ما بين شيني [1] وطرّادة [2] وبُطْسَـة [3] وغـير ذلـك ؛ وكانوا في ثلاثين ألفاً على ما ذُكر ، ونازلوا الثَّغر المحروس ، وذلك في أثناء شهر صفر في السّابع منه من هذه السنة ، وهي سنة سبعين ، فأمدَّه السُّلطان بالعسـاكر المنصُوْرة

(1) الشيني أو الشاني أو الشينية - والجمع شواني - السفينة الحربية الكبيرة ، وهي أهم القطـع الكبيرة التي كـان يتـألف منهـا الأسطول في الـدول الإسـلامية . وقـال الزبيـدي في تـاج العروس بأنهـا مـن أصـل مصـري ، وذكـر ابـن ممـاتي في قوانين الدواويـن (ص 340) إن الشيني كـانت تسير «بمائة وأربعين مجدافاً ، وفيهـا المقاتلـة والجدّافون» ، وفي مفـرج الكروب لابن واصل (2: 13) نص يحدّد حمولة الشيني في العادة بمائة وخمسين جندياً .

(2) الطريدة ، ويقال الطرّاد أو الطرّادة - والجمع طرائد ، عرّفها ابن مماتي في قوانين الدواويـن (ص 339) : هي سفينة برسم حمل الخيل ، وأكثر ما يُحمـل فيهـا أربعـون فرسـاً ، وقـال الزبيـدي في تـاج العـروس : الطرّاد - ككتّـان - سـفينة صغـيرة سريعة السير والجـري ، والعامة تقول تطريدة . وذكر دوزي في معجمه : هي نوع من المراكب الحربية أكـثر شبهاً بالبرميل الهائل مـن السـفينة ، وكـانت تُستعمل في حمـل الخيـول والفرسـان ، وأكثر مـا يُحمل فيها أربعون فرساً . وقد استعمل الأوروبيون في العصور الوسطى هـذا النـوع مـن السفن ، واشتقوا اسمه من العربية فسمّوه في الإسپانية Tarida ، وفي الإيطالية Tartana ، وفي الفرنسية Tartane ، وفي الإنكليزية Tartan . انظر أيضاً مفرّج الكروب لابـن واصـل الحموي ، 2 : 12 .

(3) البُطْسة أو البَطْسة ، ويقال أحياناً بَطشة أو بُطشة ، هي السـفينة الكبـيرة ، ذكـر صـاحب محيط المحيط أنها مأخوذة من الإسپانية ، وهذا لا يبعد لأن السفينة في الفرنسـية bateau ، وهذا يشبه boat بالإنكليزية و Boot بالألمانية ، أما في الإسپانية المحكية اليوم فهي barco أو buque . ويُفهم من نصوص المراجـع العربيـة في العصـور الوسـطي أنهـا كـانت تُستخدم أصلاً للحرب ، وقد أشار ابن واصـل عنـد حديثـه عـن حصـار عكّـا في سـنة 587 هـ إلى بطسة كبيرة ، قال : وكان السلطان قد أمر بتعبية بطسة عظيمة هائلة ببـيروت ، مشـحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والمقاتلة لتدخـل إلى عكّـا ، وكـانت عـدّة المقاتلـة بهـا ستمائة وخمسين رجلاً . . إلخ . وسيرد ذكرها أدناه .

وتحرّك ، وأدخل الله في قلوبهم [32 و] من الخوف والرعب ما لا يمكنهم الصَّبر معه ، وعادوا خائبين خاسرين بعد أن ضايقوا الثَّغر ، وزحفوا عليه ثلاثة أيام ، وقاتلوه قتالاً شديداً ، وعَصَمه الله منهم [1] .

ولما أحسُّوا بحركة السُّلطان نحوهم ما لبثوا أن خلَّفوا مَنَاجيقهم وراءهم وآلتهم ، فخرج أهل البلد إلى نَهْبها وإحراقها ، وكان من أعظم النِّعم من الله تعالى على المسلمين وأمارة كل سعادة ونجاح ، ولله الحمد والمنّة [2] .

وأما [3] نُور الدِّين – رحمه الله – فإنه خلَّف ولده الملكَ الصالحَ إسماعيل وكان بدمشق ؛ وكان بقلعة حلب ابنُ الدّاية شمسُ الدِّين علي وشَاذْبَخْت [4] . وكان عليٌّ قد حدّث نفسَه بأمور ، فسار الملكُ الصالحُ من دمشق إلى حلب ، فوصل ظاهرها ثاني المحرّم ومعه سابقُ الدِّين ، فخرج بدر الدِّين حسن للقائه ، فقبض عليه سابق الدِّين ؛ ولما دخل الملكُ الصالح القلعةَ قبض على شمس الدِّين وأخيه حسن ، وأودع الثلاثةَ السجن [5] .

وفي ذلك اليوم قُتل ابنُ الخشّاب أبو الفضل ، لفتنة جَرَت بحلب ، ذكروا أنه قُتل قبل إمساك أولاد الدّاية بيوم ، لأنهم تولّوا ذلك [6] .

---

(1) للإلمام بأخبار هذه الحملة وتفاصيلها راجع الروضتين لأبي شامة (1 : 234-235) ؛ والكامل لابن الأثير (11 : 155-156) ؛ ومفرج الكروب لابن واصل (2 : 11-16) ؛ والبداية والنهاية لابن كثير (12 : 287) ؛ والسلوك للمقريزي (1 : 55-57) . وراجع : Runciman, S., *A History of the Crusades*, vol. I, p. 403; Lane-Poole, *Saladin*, p. 127; *Cambridge Medieval History*, vol. V, pp. 184-207.

(2) في طبعة مصر : وكان أمراً عظيماً ومن أعظم النعم على المسلمين ، وأمارة كل سعادة .

(3) قبل هذا اللفظ في طبعة مصر عنوان نصه : «ذكر خروج السلطان إلى الشام وأخذه دمشق» ، وقد ذكر في غير مكانه ، وسيأتي هذا العنوان هنا في المتن بعد قليل في موضعه الصحيح .

(4) ورد في مفرج الكروب لابن واصل أن شاذبخت كان دزداراً لقلعة حلب .

(5) كانت لأبناء الدّاية في عهد نور الدّين بحلب مكانة رفيعة ، وتولّوا فيها مناصب إدارية مهمّة ، فلمّا دخلت حلب في مُلك صلاح الدّين زالت عنهم مكانتهم السابقة .

(6) هذه الجملة غير موجودة في الأصل ، أضفناها عن طبعة مصر .

ذكر خروج السُّلطان
- رحمة الله عليه -
إلى الشام [32 ظ] وأخذه لدمشق المحروسة

ولما تحقّق السُّلطان وفاة نور الدِّين ، وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء المُلك ، ولا يستقلّ بدفع عدو الله عن البلاد ، تجهَّز للخروج إلى الشام ، إذ هو أصل بلاد الإسلام ، فتجهَّز بجمع كثير من العساكر ، وخلّف في الدِّيار المصرية مَنْ يستقلُّ بحفظها وحراستها ، ونظْم أمورها وسياستها ، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه ، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها .

واختلفت كلمةُ أصحاب الملك الصَّالح [1] ، واختلّت تدابيرهم ، وخاف بعضُهم من بعض ، وقبض البعض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك ، وسبباً لتنفير قلوب الناس عن الصَّبي ؛ فاقتضى [2] الحال أن كاتَبَ شمسُ الدِّين بن المُقدّم السُّلطانَ ، ووصل [السُّلطان] البلاد مُطالباً بالملك الصَّالح ، ليكون هو الذي يتولّى أمرَه ويربّ حاله ، ويقوِّم له ما اعوجَّ من أمره . فوصل محروسة دمشق ، ولم يُشقّ عليه عصا ، ودخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سَلْخ ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة ، وتسلّم قلعتها .

وكان أول دخوله إلى دار أبيه [3] ، [33 و] واجتمع الناس إليه ، وفرحوا به [4] ، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالاً طائلاً ، وأظهر الفرح والسُّرور بالدِّمشقيين وأظهروا الفرح به ؛ وصعد القلعة ، واستقرّ قدمهُ في مُلْكها . فلم يلبث أن سار في [5] طلب حلب ، فنازل حمص ، وأخذ مدينتها في جُمادى الأولى سنة سبعين

---

(1) أي الملك الصّالح إسماعيل ، ابن نُور الدّين محمود بن زنگي .
(2) في طبعة مصر : فاستقر .
(3) وكان أبوه نجم الدّين أيوب من أعوان نور الدّين بدمشق ثم ولي بعلبك ، راجع ص 56 .
(4) في طبعة مصر : وفي جوابه .
(5) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .

ولم يشتغل بقلعتها ، وسار حتى أتى حلب ، ونازلها في يوم الجمعة سلخ جُمادى الأولى من السنة المذكورة ، وهي الدفعة الأولى .

ذكر تسيير سيف الدِّين
أخاه عزّ الدِّين إلى لقائه

ولما أحسَّ سيفُ الدِّين [1] - صاحبُ الموصل - بما جرى ، علم أن الرّجل قد استفحل أمرُه ، وعظم شأنه ، وعلت كلمتُه ، وخاف أنه إنْ غفل عنه استحوذ على البلاد ، واستقرّ قدمه في الملك ، وتعدّى الأمر إليه ، فجهَّز عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً ، وقدَّم عليه أخاه عزّ الدِّين مسعوداً ، وساروا يريدون لقاءَ السُّلطان وضرْبَ المصاف معه وردَّه عن البلاد .

ولما بلغ السُّلطان ذلك ، رحل عن حلب مستهلّ رجب من السنة المذكورة عائداً إلى حماة ، وسار إلى [33 ظ] حمص فاشتغل بأخذ قلعتها ، فأخذها ، ثم وصل عزّ الدِّين إلى محروسة حلب ، وانضمّ إليه مَنْ كان بها من العسكر ، وخرجوا بجمع عظيم .

ولما عرف هو بمسيرهم سار حتى وافاهم في قرون حماة [2] ، وراسلهم وراسلوه ، واجتهد أن يصالحوه ، فما صالحوه ورأوْا أن المصاف ربما نالوا به الغرض الأكبر ، والمقصود الأوفر ، والقضاء يجرُّ إلى أمور ، وهم بها لا يشعرون .

وقام المصاف بين العسكرين ، فقضى الله أن انكسروا بين يديه ، وأسر جماعة منهم ، ومنَّ عليهم وأطلقهم ، وذلك عند قرون حماة في تاسع عشر رمضان ، سنة سبعين وخمسمائة .

---

(1) هو سيف الدّين غازي بن مودود بن عماد الدّين زنگي ، ابن أخ نور الدّين محمود .
(2) قرون حماة هي ما يُعرف في عصرنا بجبل زين العابدين وجبل الهاشمية إلى جواره .

ثم سار عقيب انكسارهم ، ونزل على حلب ، وهي الدّفعة الثانية ؛ وصالحوه على أن أخذ المعرَّة وكَفْر طَاب وأخذ بارِيْن [1] ، وذلك في أواخر سنة سبعين وخمسمائة .

ذكر مسير سيف الدِّين بنفسه

ولما وقعت هذه الوقعة ، كان سيف الدِّين على سنْجَار يحاصر بها أخاه عماد الدِّين ، ويقصد أخذها منه ، ودخوله في طاعته ، وكان قد أظهر أخوه الانتماء إلى السُّلطان ، واعتصم بذلك . واشتدّ [34 و] سيف الدِّين في حصار المكان وضرْبه بالمنجنيق حتى انهدم من سوره ثُلَمٌ كثيرة . وأشرف على الأخذ ، فبلغه وقوع هذه الوقعة ، فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتدّ أمره ويقوى جأشه [2] ، فراسله إلى الصلح فصالحه .

ثم سار من وقته إلى نصيبين ، واهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها ، وسار حتى أتى الفُرَات وعبر بالبيرة ، وخيّم على جانب الفُرَات الشامي ، وراسل كُمُشْتكين [3] والملك الصالح حتى تستقر قاعدةٌ يصل عليها إليهم . ووصل كُمُشْتكين إليه ، وجرت مراجعات كثيرة ، عزم فيها على العود مراراً حتى استقرّ اجتماعه بالملك الصالح ، وسمحوا به .

وسار ووصل محروسة حلب ، وخرج الملك الصالح إلى لقائه بنفسه ، فالتقاه قريب القلعة ، واعتنقه وضمَّه إليه وبكى ، ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها ، وسار هو حتى نزل بعين المباركة ، وأقام بها مدّة ، وعسكرُ حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم .

---

(1) المعرّة مدينة بشمال غرب سورية بين حماة وحلب ، وجنوبيها كفر طاب وغربيها بارين .
(2) هذان اللفظان غير موجودين في طبعة مصر .
(3) الاسم تركي : Gümüş-tekin ، ويعني : مولى (تكين) - فضة (كُمُش) .

وصعد القلعة جريدةً ، وأكل فيها خبزاً ونزل ، وسار راحلاً إلى تلّ السُّلطان [1] ومعه الدّيار بكرية وجمعٌ كثير ، والسُّلطان قد أنفذ في طلب العساكر من مصر ، وهو يترقب وصولها [34 ظ] ، وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم ، وهم لا يشعرون أن في التأخير تدبيراً ، حتى وصل عسكر مصر ، فسار - رحمه الله - حتى أتى قرون حماة ، فبلغهم أنه قد قارب عسكره ، فأخرجوا اليَزَك ، وجهّزوا مَنْ كشف الأخبار ، فوجدوه قد وصل جريدةً إلى جباب التُّركمان ، وتفرّق عسكره يسقي ، فلو أراد الله نصرتهم لقصدوه في تلك الساعة ، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فصبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره ، واجتمعوا ، وتعبّوا تعبية القتال .

وأصبح القوم على مصاف ، وذلك في بكرة الخميس العاشر من شوّال سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، فالتقى العسكران وتصادما ، وجرى قتال عظيم ، انكسرت ميسرة السُّلطان بابن زين الدِّين مظفَّر الدِّين ، فإنه كان في ميمنة سيف الدِّين ، وحمل السُّلطان بنفسه ، فانكسر القوم ، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء ، منهم فخر الدِّين عبد المسيح فمَنَّ عليهم وأطلقهم .

وعاد سيف الدِّين إلى حلب المحروسة ، فأخذ منها خزانته ، وسار حتى عبر الفُرَات ، وعاد إلى بلاده .

وأمسك هو - رحمه الله - [35 و] عن تتبع العسكر ، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم ، فإنهم كانوا قد أبقوا الثَّقْل على ما كان عليه ، والمطابخ قد عُملت ، ففرَّق الاصطبلات ، ووهب الخزائن ، وأعطى خيمة سيف الدِّين عزّ الدِّين فَرُّوخْشَاه [2] ، وسار إلى محروسة مَنْبِج فتسلّمها في بقية الشهر المذكور .

---

(1) تل السلطان موضع وقرية شرقي مدينة إدلب ، سُمّي بذا نسبة للسلطان السلجوقي ألب أرسلان ، وكان يعرف بالمرج الأحمر . ذكره ياقوت (2 : 42) وذكر الوقعة أعلاه .
(2) الاسم فارسي الأصل يتألف من مقطعين : فَرُّخ : ويعني مبارك أو ميمون ، وشاه : تعني الملك .

وسار حتى نزل على قلعة أعزاز يحاصرها ، وذلك رابع ذي القعدة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وعليها وثب الإسماعيلية [1] عليه – رحمه الله – فنجّاه الله من كيدهم ، وظفر بهم ، ولم يفلّ ذلك عزمه . وأقام عليها حتى أخذها ، وذلك في رابع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة ، وسار حتى نزل على حلب المحروسة في سادس عشر منه ، فأقام مدّة ، ثم سار عنها ، فأخرجوا إليه ابنةً لنور الدِّين صغيرة ، وسألت منه أعزاز ، فوهبها إياها .

وفي بقية الشهر أيضاً وصل شمس الدولة [2] أخوه من اليمن إلى محروسة [3] دمشق ، وأقام بها مدّة ، ثم عاد إلى الديار المصرية ، وتوفي بإسكندرية يوم الخميس مستهلّ صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة .

ثم [35 ظ] إنّ السُّلطان عاد إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها ، وكان مسيره إليها في ربيع الأول من شهور سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق ، فأقام – رحمه الله – بها يقرّر قواعدها ، ويسدُّ خللها .

وأراح العسكر ، ثم تأهب للغزاة ، وخرج يطلب السّاحل حتى وافى الإفرنج على الرّمْلَة ، وذلك في أوائل جُمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة .

* * * * *

(1) سبق لنا ذكر محاولتي الاغتيال اللتين تعرّض لهما صلاح الدِّين على أيدي الحشيشية في عامي 570 هـ و 571 هـ . راجع سنا البرق الشامي للفتح البنداري ، 83 ، 100 . وللإلمام بهذا الموضوع راجع : مفرج الكروب لابن واصل ، 2 : 24 ؛ وانظر كذلك :
Lewis, B., "Saladin and the Assassins", *B.S.O.A.S.*, vol. XV (1953), p. 12.

(2) راجع أخباره بالتفصيل في مفرج الكروب لابن واصل ، في الجزئين الأولين .

(3) هذا اللفظ غير موجود في طبعة مصر .

ذكر كسرة الرَّمْلَة [1]

وكان مقدَّمُ الإفرنج البْرَنْس أرْنَاط [2] ، وكان قد بيع بحلب ، فإنه كان أسيراً بها في زمن نور الدِّين .

وجرى خللٌ في ذلك اليوم على المسلمين ، ولقد حكى السُّلطان صُورْة الكسْرة في ذلك اليوم ، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبُّوا تعبية الحرب ، ولما قرب العدوّ رأى بعضُ الجماعة أن تعبر المَيْمَنَة إلى جهة المَيْسَرَة ، والميسرة إلى جهة القلب [3] ، ليكونوا حالة اللقاء وراء ظهورهم تلّ يعرف بأرض الرَّمْلَة .

فبينما اشتغلوا بهذه التعبية [36 و] هجمهم الإفرنج ، وقدَّر الله كسرتهم ، فانكسروا كسرةً عظيمةً ، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه ، فطلبوا جهة الدِّيار المصرية ، وضلّوا في الطريق ، وتبدّدوا ، وأسروا منهم جماعة ، منهم الفقيه عيسى ؛ وكان وهناً عظيماً جبره اللهُ بوقعة حطّين المشهورة ، ولله الحمد.

وأما الملك الصالح فإنه تخبَّط أمرُه ، وقبض على كُمُشْتكين صاحب دولته ، وطلب منه تسليم حارم إليه ، فلم يفعل ، فقَتَلَه . ولما سمع الإفرنج بقتله ، نزلوا على حارم طمعاً فيها ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين ، وقابل عسكرُ الملك الصالح العساكر الإفرنجية . ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الإفرنج ، سلّموها إلى الملك الصالح ، في العشر الأواخر من شهر رمضان من السّنة المذكورة .

ولما علم الإفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم [4] ، وذلك في تاسع عشر شهر رمضان من السنة المذكورة [4] . ثم عاد الملك الصَّالح إلى محروسة

---

(1) جرت بين تلّي الجزر والصّافية في 25 تشرين الثاني 1177 م ، بقيادة الملك بودوان الرابع .

(2) الكونت رُنو دى شاتيّون Renaud de Châtillon صاحب حصن الكَرَك ، سيُذكر مراراً .

(3) في طبعة مصر : الميمنة .

(4) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

حلب . ولم يزل أصحابه على اختلاف ، يميل بعضهم إلى جانب السُّلطان ، حتى بلغه عصيان قليج [1] غرس الدِّين [2] بتلّ [36 ظ] خالد ، فأخرج إليه العسكر ، وذلك في عاشر المحرّم سنة ست وسبعين وخمسمائة .

ثم بلغه وفاة ابن عمه سيف الدِّين غازي - صاحب الموصل - ، وكانت وفاته في ثالث صفر من هذه السنة ، وولي مكانه أخوه عزّ الدِّين مسعود في الخامس منه [3] . وسبق تاريخ وفاة شمس الدَّولة بالإسكندرية [3] ، رحمه الله .

ذكر عود السُّلطان
- رحمه الله -
إلى الشام

ولما عاد السُّلطان بعد الكسرة إلى الديار المصرية ، وأقام بها ريثما لمَّ الناسُ شعثَهم ، وعلم تخبُّط الشام ، عزم على العود إليه ، وكان عوده للغزاة ، فوصله رسل [4] قليج أرْسْلان [5] يلتمسون من السُّلطان الموافقة ، ويستغيث إليه من الأرمن ، فاشتمل نحو بلاد ابن لاون [6] لنصرة قليج أرْسْلان عليه ، ونزل بقَرَا حصار ، وأخذ عسكر حلب في خدمته ، لأنه قد اشترط في الصلح ، فاجتمعوا على

---

(1) الاسم تركي : Kılıç ، ويعني : سيف ، حُسام . ويُكتب بالتركية العثمانية القديمة بالجيم المشبعة : قليج .

(2) في طبعة مصر : عصيان عزّ الدِّين قليج .

(3) العبارة ليست في الأصل ، أضفناها من طبعة مصر . وممّا تجدر الإشارة إليه أن أتابكة الموصل الذين دخلوا في نزاع ضار مع السّلطان النّاصر إبّان تولّيه مقاليد الشّام ، إثر وفاة مولاه نور الدِّين وابنه الصالح إسماعيل ، عادوا فانخرطوا تحت قيادته في جهاده وحروبه ضد الغزاة الصّليبيين .

(4) بعد هذا اللفظ في طبعة مصر : في الخامس منه .

(5) الاسم تركي ، وتقدّم شرح معنى قليج بالسيف ، أما أرْسْلان Arslan فهو الأسد .

(6) هو الملك روبين الثالث صاحب أرمينية ، Roubène III d'Arménie ، انظر :
Steven Runciman, op. cit., vol. 2, p. 430.

النهر الأزرق بين بَهَسْنَى [1] وحصن منصُوْر ، وعبر منه إلى النَّهر الأسـود [2] وطَرَقَ بلاد ابن لاون ، فأخذ حصناً وأخربه ، وبذلوا له أسارى ، والتمسوا منه الصلح ، وعاد عنهم .

ثم راسله قليج أرْسْلان في صلح الشرقيين [37 و] بأسرهم ، واستقرّ الصُّلح ، وحلف السُّلطان في عاشر جُمادى الأولى سنة ست وسبعين ، ودخل في الصُّلح قليج أرْسْلان والمواصلة والدِّيار بكرية [3] ، وكان ذلك على نهر شنجة ، وهو نهر يرمي إلى الفُرَات . وسار السُّلطان نحو دمشق المحروسة .

ذكر وفاة الملك الصّالح [4]

ولما دخل جُمادى من [5] سنة سبع وسبعين ، مرض الملك الصّالح [6] بالقَوَلَنْج ، وكان أول مرضه في تاسع رجب . وفي ثالث وعشرين منه غُلق باب القلعة لشدة مرضه ، واستُدعي الأمراء واحداً واحداً واستُحلفوا لعزّ الدِّين صاحب الموصل .

وفي خامس وعشرين منه توفي – رحمه الله – ، وكان لموته وقعٌ عظيمٌ في قلوب الناس .

---

(1) في طبعة مصر : بهنسة .

(2) عرّف ياقوت في معجمه (5 : 317) النهر الأزرق بأنه نهر الثَّغر بين بهسنا وحصن منصور في طرف بلاد الروم من جهة حلب ؛ ثم قال : ونهر الأسود قريب من الذي قبله في طرف بلاد مصيصة وطرسوس . قلنا : وكلا الاسمين معرّب عن التركية ، فهما فيها : النهر الأزرق Gökçay ، والنهر الأسود Karaçay .

(3) في طبعة مصر : وديار بكر .

(4) يوجد تتمة في طبعة مصر لهذا العنوان ، نصها : ووصول عزّ الدِّين إلى حلب ، وقد أفردنا هذه الجملة لتكون عنواناً مستقلاً للفقرة التالية .

(5) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(6) تقدّم ذكره ، وهو الملك الفتى الصّالح إسماعيل ابن نُور الدّين محمود بن زنگي .

ذكر وصول عزّ الدِّين إلى حلب

ولما توفي ، سارعوا إلى إعلام عزّ الدِّين مسعود بن قطب الدِّين بذلك ، وإعلامه بما جرى له من الوصيّة إليه ، وتحليف الناس له ، فسارع سائراً إلى حلب مبادراً ، خوفاً من السُّلطان . وكان [37 ظ] أول قادم من أمرائه إلى حلب مظفَّر الدِّين ابن زين الدِّين ، وصاحب سَرُوج ، ووصل معهما مَن حَلَّف [1] جميع الأمراء له ، وكان وصولهم في ثالث شعبان من السنة المذكورة .

وفي العشرين منه ، وصل عزّ الدِّين إلى حلب ، وصعد القلعة ، واستولى على خزائنها وذخائرها ، وتزوَّج أمّ الملك الصّالح [2] خامس شوّال من السنة المذكورة .

ذكر مقايضة عزّ الدين أخاه عماد الدِّين زنكي بالبلاد

ثم أقام عزّ الدِّين بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال من السنة المذكورة ، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لحاجته إلى ملازمة الشام لأجل السُّلطان ، وألحَّ عليه الأمراء في طلب الزيادات ، ورأوا أنفسهم أنهم قد اختاروه ، وضاق عَطَنُهُ [3] ، وكان صاحب أمره مُجاهد الدِّين قايماز [4] ، وكان ضيّق العَطَن لم يعتدْ بمقاساة أمراء الشام .

فرحل من قلعة حلب طالباً للرَّقّة ، وخلّف ولده مظفَّر الدِّين بها ، وسار حتى أتى الرَّقّة ولقيه أخوه عماد الدِّين عن قرار بينهم ، واستقرَّ مقايضة حلب

---

(1) في طبعة مصر : من حلب .

(2) وتلك كما يتّضح ، محاولة منه لتعزيز شرعيّته في اقتناص تركة الصّالح وأبيه نور الدّين .

(3) العَطَن : المزاج والخُلُق .

(4) الاسم تركي Koymaz ، ومعناه : الوفي ، مَن لا يخون العشرة .

بسنجار ، وحلف عزّ الدِّين لأخيه على ذلك في الحادي عشر من شوال ، وسار من جانب عماد الدِّين مَنْ تسلّم حلب ، ومن جانب عزّ الدِّين مَنْ تسلّم سنجار . وفي ثالث عشر محرّم سنة ثمان وسبعين صعد عماد الدِّين إلى قلعة حلب .

ذكر عود السُّلطان من مصر

وأما السُّلطان فإنه لما وقع الصُّلح على يد قليج أرْسْلان ، صعد إلى الدِّيار المصرية – حرسها الله تعالى – واستخلف ابن أخيه عزّ الدِّين فَرُّوْخْشَاه [1] والياً . ولما بلغ السُّلطان – قدَّس الله روحه – وفاة الملك الصَّالح ، عزم على العود إلى الشام خوفاً على البلاد من الإفرنج ، وبلغه أيضاً وفاة فَرُّوْخْشَاه في يوم الجمعة مستهلّ رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة [2] ، فاشتدّ عزمه .

وكان وصوله إلى محروسة دمشق في سابع عشر صفر سنة ثمان وسبعين ، ثم أنشأ التأهُّب لغزاة بَيْرُوت ، فإنه عبر على الإفرنج في عوده من مصر مُكابرةً من غير صُلح ، فقصد[38 ظ] بَيْرُوت ونازَلَها ، ولم ينل منها غرضاً ، واجتمع الإفرنج فرحّلوه عنها ، ودخل إلى دمشق .

ويلغه أن رُسُل الموصل وصلوا إلى الإفرنج يحثّونهم على قتال المسلمين ، فعلم أنهم نَكثوا اليمين ، وأنشأ العزم على قصدهم لجمع كلمة العساكر الإسلامية على عدوّ الله ، فأخذ في التأهب لذلك ، فلما بلغ ذلك عماد الدِّين سيَّر إلى الموصل يُشعرهم بالخبر ، ويستحثّ العساكر .

---

(1) في طبعة مصر : فخروشاه ، وما في المتن هو الصواب ، راجع مفرج الكروب ، 2 : 151 . ولفرّوخ شاه داود بن شاهنشاه مدرسة لطيفة بدمشق في المنطقة المعروفة بزقاق الصّخر (بالشرف الأعلى قديماً) ، ويجوارها تربة ابنه الملك الأمجد بهرام شاه ، كادتا تُهدمان في أيامنا لإقامة فندق Four Seasons ، ولم يتم تداركهما إلا في اللحظة الأخيرة ؛ وكان لنا فخر المساهمة في تدارك الأمر ، وفي العمل على توثيق محلّتهما بالمخططات والصور .

(2) هذه الجملة كلها ساقطة من طبعة مصر .

وسار السُّلطان حتى نـزل على حلـب في ثـامن عشـر جُمـادى الأولـى ، سـنة ثمان وسبعين ، وأقام ثلاثة أيام ، ورحل في الحادي والعشرين منه يطلب الفُـرَاة [1] . واستقرّ الحال بينه وبين مظفَّر الدِّين ، وكان صاحب حرَّان ، وكان قد استوحش مـن جانب الموصل ، وخاف من مُجاهد الدِّين ، فالتجـأ إلـى السُّـلطان ، وعـبر إليـه إلـى قاطع الفُرَات ، وقـوي عزمـه علـى البـلاد ، وسـهل أمرهـا عنـده . فعـبر الفُـرَات ، وأخذ [2] الرُّها ، والرّقّة ، ونصيبين ، وسَرُوج ، ثم شحن على الخابور وأقطعه .

ذكر نزوله على الموصل

[39 و] وكان نزوله عليهـا في هـذه الدفعـة في يـوم الخمـيس حـادي عشـر شـهر رجب سنة ثمان وسبعين ، وكنتُ - إذْ ذاك - بالموصل ، فسُيِّرْتُ رسـولاً إلـى بغـداد قبيل نزوله عليها بأيام قلائل [3] .

فسـرتُ [4] مسـرعاً في الدِّجلـة ، وأتيـت بغـداد في يومـين وسـاعتين مـن اليـوم الثالث ، مُستنجداً بهم . فلم يحصل منهـم سـوى الإنفـاذ إلـى شـيخ الشـيوخ [5] ، وكان في صحبته رسـولاً [6] من جانبهـم ، يأمرونـه بـالحديث معـه ، ويتلطَّـف الحـال معه ، وسَيَّر إلـى بهلـوان رسولاً مـن الموصـل يستنجد [7] ، فلـم يحصـل منـه سـوى تشرّط كان الدخول تحته أخطر من حرب السُّلطان .

---

(1) كذا بالأصل ، والمقصود : الفُرات ، النهر المعروف . وفي طبعة مصر : الغزاة .

(2) النص في طبعة مصر : عنده ، ودخل الرها .

(3) في طبعة مصر : مقبلاً بأيام قلائل . ولا معنى لها .

(4) هذا نص له أهميته عند الترجمة للمؤلف ابن شداد ، كما كنا ذكرنا في مقدّمتنا ، فهو يشير إلى أنه بُعث رسولاً إلى بغداد ، فسار إليها من الموصل في شهر رجب سنة 578 هـ .

(5) كان شيخ الشيوخ صدر الدّين من كبار خواص الخليفة في بغداد ، انظر ما يلي ص 136 .

(6) في طبعة مصر : رسول ، والمقصود أنه كان في صحبة صلاح الدِّين وقتذاك ، راجع مفـرج الكروب ، 2 : 122 .

(7) في طبعة مصر : يستنجدونه . أما بهلوان فهو الأتابك پهلوان بن إلدكز .

ثم أقام السُّلطان على الموصل أياماً ، وعلم أنه بلد عظيم لا يتحصّل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه ، ورأى أن طريقَ أخذه أخذُ قلاعه وما حوله من البلاد ، وإضعافه بطول الزمان . فرحل عنها ، ونزل علَى سِنْجَار [1] في سادس عشر شعبان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .

ذكر أخذه سِنْجَار

وأقام يحاصر سنْجَار ، وكان فيها شرف الدِّين بن قطب الدِّين وجماعةٌ ، واشتدّ عليه الأمر ، حتَى كان ثاني شهر رمضان سنة ثمان وسبعين فأخذها عَنْوَةً ، وخرج شرف الدِّين وجماعته [39 ظ] محترمين محفوظين إلى محروسة الموصل ، وأعطاها ابن أخيه تقي الدِّين ، ورحل عنها إلى نصيبين .

ذكر قصة شاه أرمن
صاحب خلاط

وذلك أن أصحاب الموصل أنفذوا إليه واستنجدوا به ، وطرحوا أنفسهم عليه ، فخرج من خلاط لنصرتهم ، ونزل بحَرْزَم [2] . وسيَّر إلى عزّ الدِّين صاحب الموصل أعلمه ، فخرج إليه ، وذلك في خامس عشرين [3] شوال سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .

---

(1) ذكر ياقوت في معجم البلدان (3 : 262) : سنجار مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام . . وقال حمزة الأصبهاني : سنجار تعريب سنكار ، وهي مدينة طيِّبة في وسطها نهر جار ، وهي عامرة جداً ، وقدّامها واد فيه بساتين ذات أشجار ونخل وتُرُنج ونارنج ، وبينها وبين نصيبين ثلاثة أيام أيضاً .

(2) ذكرها ياقوت في معجم البلدان (2 : 240) وعرّفها بأنها بُليدة في واد ذات نهر جار وبساتين بين ماردين ودُنيسر من أعمال الجزيرة ، وأكثر أهلها أرمن نصارى .

(3) في طبعة مصر : الخامس عشر من شهر شوّال .

فسار حتى اجتمع به وصاحب ماردين ، ووصل جماعة من عسكر حلب ، كلّ ذلك للقاء السُّلطان .

وأرسل شاه أرمن بكْتَمر [1] إلى السُّلطان يخاطبه في الصلح بتوسُّط شيخ الشيوخ ، فلم ينتظم بينهم الحَال ، ورحل السُّلطان إلى عسكر شاه أرمن ، فلما سمع شاه أرمن بوصول السُّلطان ولّى راجعاً إلى بلاده . وعاد عزّ الدِّين إلى بلاده ، وتفرّقوا ، وسار السُّلطان يطلب بلد آمد ، فنزل عليها وقاتلها ، وأخذها في ثمانية أيام ، وذلك في أوائل المحرّم [2] سنة تسع وسبعين ، وأعطاها نور الدِّين ابن قَرَا أرْسْلان . ومَنّ على ابن نيسان [3] بجميع ما كان فيها من الأموال وغيرها ، ثم سار يطلب الشام لقصد حلب .

وفي هذه المدّة خرج عماد الدِّين ، وخرَّب قلعة [40 و] أعزاز في تاسع جُمادى الآخرة من سنة ثمان وسبعين ، وخرَّب حصن كفر لاثا ، وأخذها من بكمش [4] ، فإنه كان صار مع السُّلطان في ثاني عشر [5] جُمادى الأولى من السنة المذكورة . وقاتل تلّ باشر ، وكان صاحبها - دلدرم الياروقي [6] - قد صار مع السُّلطان ، فلم يقدر عليها ، وجرت غارات من الإفرنج في البلاد ، بحكم اختلاف العساكر ، ودفعهم الله تعالى ، وتسلّم الكرزين [7] ، ثم عاد إلى حلب المحروسة .

* * * * *

(1) الاسم تركي Bey-Demir ، ويعني : أمير - حديد ، أو نصل السيف .
(2) في طبعة مصر : أول محرم .
(3) أي بهاء الدّين مسعود بن علي آخر حكّام آمد من آل نيسان ، وبعده صارت للأراتقة .
(4) الاسم تركي Bey-Gümüş ، ويعني : أمير - فضة .
(5) في طبعة مصر : الثاني والعشرين من جمادى .
(6) هذا الاسم غير موجود في الأصل ، أضفناه عن طبعة مصر . وتقدّم ذكر طائفة التركمان الياروقية ، أما اسم دلدرم فهو محرّف عن التركية «يلدرم» Yıldırım ، ويعني صاعقة .
(7) الكرزين ذكرها ياقوت في معجم البلدان (4 : 451) : قلعة من نواحي حلب ، بين نهر الجوز والبيرة ، لها عمل .

ذكر عود السُلطان إلى الشام

ولما عاد إلى الشام بدأ بتلّ خـالد ، فنزل عليهـا ، وقاتلهـا ، وأخذهـا في ثـاني عشر المحرّم [1] سنة تسع وسبعين وخمسـمائة . ثـم سـار طالباً حلـب ، فنزل عليهـا في سادس عشر محرّم [2] سنة تسع وسبعين وخمسـمائة ، وكـان أول نزولـه بـالميدان الأخضـر [3] ، وسيَّر المقاتلـة يقـاتلون ، فيباسطون عسـكر حلـب ببانقوسـا وبـاب الجنان [4] غدوة وعشية ، وفي يوم نزوله جُرح أخوه تاج الملوك [5] ، رحمه الله .

ذكر أخذه حلب
قدّس الله روحه

ولما نزل على حلب ، استدعى العساكر من الجوانب ، واجتمع خلق [40 ظ] عظيم ، وقاتلها قتالاً شديداً ، وتحقّق عمـاد الدِّين أنه ليس لـه بـه قِبَل ، وكـان قـد ضرس [6] من اقتراح الأمراء عليه ، وجبههم ، فأشـار إلى حسـام الدِّين طُمَان أن يسفر له مع السُّلطان في إعادة بلاده ، وتسليم حلب إليه .

واستقرّت القاعدة ، ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتـى تم الأمر وانحكمت القاعدة ، واستفاض ذلك ، واستعلم العسكر منه ذلـك ، فـأعلمهم ، وأذن لهـم في تدبير أنفسهم ، فـأنفذوا عنهـم وعـن الرعيـة عـزّ الدِّيـن جُرْديـك [7]

---

(1) في طبعة مصر : الثاني والعشرين من محرم .
(2) في طبعة مصر : السادس والعشرين .
(3) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .
(4) من المحلاّت المعروفة بحلب ، راجع حولها : زبدة الحلب من تاريخ حلب ، للصاحب ابن العديم (توفي 660 هـ) ، نشرة سامي الدّهان ، المعهد الفرنسي بدمشق 1951-1968 .
(5) هو مجد الدّين بوري بن أيوب ، أصغر إخوة السّلطان .
(6) ضرس : أي ملّ وسئم .
(7) سيرد ذكره عمّا قليل ، وشرح معنى اسمه بالتركية .

[النُّوري] ، وزين الدِّين بلـك اليـاروقي [1] ، فقعـدوا عنـده إلـى الليـل ، واستحلفوه على العسكر وعلى أهل البلد ، وذلك في سابع عشر من صفر سنة تسع وسبعين .

وخرجت العساكر إلى خدمته إلـى الميـدان الأخضر ومقدّمـو حلـب ، وخلـع عليهم وطيَّب قلوبهم ، وأقـام عمـاد الدِّين بالقلعـة يقضـي أشغاله ، ونقـل أقمشته وخزانته ، والسُّلطان مقيم بالميدان الأخضر إلى يوم الخميس ثالث عشرين صفر .

وفيه توفي أخوه تاج الملوك [2] من الجرح الذي كان أصابه ، وشقَّ [41 و] عليـه أمرُ موته ، وجلس للعزاء .

وفي ذلك اليوم نـزل عمـاد الدِّين إلـى خدمتـه ، وعـزَّاه ، وسـار معـه بـالميدان الأخضر ، وتقرّرت بينهما قواعد ، وأنزله السُّلطان عنده في الخيمة ، وقدَّم له تقدمـة سنيّة وخيلاً جميلة ، وخَلَع على جماعة من أصحابه .

وسار عماد الدِّين مـن يومـه إلى قَرَا حصـار [3] سـائراً إلـى سنْجَار ، (وأقـام السُّلطان بالمخيم بعد سير عماد الدِّين غير مكترث بأمرها ، ولا مستعظَم لشـأنها إلـى يوم الإثنين سابع عشرين صفر ، ثم في ذلك اليوم) [4] صعـد [السُّلطان] قلعـة حلـب مسروراً منصُوْراً ، وعمل له حسام الدِّين طُمَـان [5] دعـوة سَنيّة ، وكـان قـد تخلَّـف لأخذ ما تخلّف لعماد الدِّين من قماش وغيره .

---

(1) تقدم ذكر طائفة التركمان الياروقية ، أما اسم بلـك بالتركيـة فيحتمـل عـدّة وجـوه : bilek وتعني مُسْتَحْفَظ الوالي ، أو beylik وتعني الإمارة ، أو bolluk وتعني السعة والوفرة .

(2) كان تاج الملوك بوري أصغر أخوة صلاح الدين جميعاً ، وكان يبشّر بمستقبل طيّـب ، فقـد كـان شـجاعاً وشـاعراً ، وتذكـر المصـادر أن لـه ديـوان شـعر (لـم تصلنـا منــه أيـة نسـخة مخطوطة) . وأما اسمه «بورى» فهو بالتركية القديمة Börü يعنـي الذئـب ، غـير أن هـذه اللفظة ليست في قواميس اللغة التركية الحديثة ، ففيها الذئب يسمّى كُوْرْت Kurt . انظـر ترجمته في مفرج الكروب ، 2 : 143–146 ؛ والروضتين ، 2 : 42–44 .

(3) بالتركية Kara-hisar تعني : الحصن الأسود .

(4) العبارة بين قوسين ساقطة بأكملها من طبعة مصر .

(5) طُمَـان اسـم تركـي Tümen ، ويعنـي : كثير ، وافر ، كبير . ومنه اسـم آخـر سـلاطين المماليك بمصر «طومان باي» ، فهو في التركية : Tümen-Bey .

ذكر أخذه حارم[1]

وكان قد أنفذ إلى حارم مَنْ يتسلّمها ، ودافعهم الوالي وأنفذ الأجناد الذين بها يستحلفونه (فوصل خبرهم يوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر ، فحلف لهم ، وسار من وقته إلى حارم فوصلها في تاسع عشرين صفر)[2] ، وتسلَّمها ، وبات بها ليلتين وقرّر [41 ظ] قواعدها ، وولّى فيها إبراهيم بن شروة ، وعاد إلى حلب ، ودخلها في ثالث ربيع الأول سنة تسع وسبعين .

ثم أعطى العساكر دُستوراً ، وسار كل منهم إلى بلاده ، وأقام يقرّر قواعد حلب ويدبِّر أمورها .

ذكر
غزاة عين جالوت

ولم يقم في حلب إلا إلى يوم السبت ثاني وعشرين[3] ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ، وأنشأ عزماً على الغزاة ، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيحي[4] مُبرزاً نحو دمشق ، واستنهض العساكر ، فخرجوا يتبعونه . (ثم رحل في رابع وعشرين منه إلى حماة فوصلها ، ثم رحل في بقية يومه)[5] ، ولم يزل يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جُمادى الأولى سنة تسع وسبعين . فأقام بها متأهباً إلى سابع وعشرين منه . ثم برز في ذلك اليوم ، ونزل على جسر الخشب ، وتبعته العساكر مبرزة ، فأقام بها تسعة أيام .

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(3) في طبعة مصر : إلى الثاني والعشرين من ربيع الآخر .
(4) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .
(5) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

ثم رحل في ثامن جُمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وسار حتى أتى الفوّار [1] ، وتعبّى فيه للحرب ، وسار حتى نزل الصّير ، فبات به ، وأصبح [42 و] على المخاض ، وعبر وسار حتى أتى بيسان ، فوجد أهلها قد نزحوا [2] عنها ، وتركوا ما كان من ثقيل الأقمشة والغلال والأمتعة بها ، فنهبها العسكر ، وغنموا ، وأحرقوا ما لم يمكن أخذه .

وسار حتى أتى الجالوت ، وهي قرية عامرة ، وعندها عينٌ جارية ، فخيّم بها .

وكان قد قدم عزّ الدّين جُرْديك [3] وجماعة من المماليك النُّورية ، وجاولي - مملوك أسد الدّين - حتى يكشفوا خبرَ الإفرنج ، فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكَرَك والشَّوبَك سائرين نجدة للإفرنج ، فوقع أصحابنا عليهم ، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمة وأسروا منهم زهاء مائة نفر . وعادوا ولم يُفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى «بهرام الشاووش» [4] ، فوصل إليه في بقية يوم الكَسْرَة ، وهو الخميس [5] العاشر من جُمادى الآخرة من سنة تسع وسبعين ، فاستبشر المسلمون بالنصر والظفر .

---

(1) في طبعة مصر : الفؤاد . والفوّار : موضع معروف إلى اليوم ، قرب زيزون بجوار شلالات تل شهاب ، في محافظة درعا جنوبي سورية .
(2) في طبعة مصر : ترحوا .
(3) جُرديك أو جُورديك اسم تركي Gürdük ، ويعني : تام الوفرة أو السِّعة أو العَظَمة .
(4) بهرام اسم فارسي شهير يُطلق على الرجال وجياد الخيل ، أما الشاووش أو الشاويش (وتكتب أيضاً بالجيم المشبعة چاويش) فهي لفظة تركية çavuş ، جمعتها المصادر العربية على جاويشية . كان معناها في مصطلح العهد الأيوبي جندي مهمته النداء أو استنفار الجند ، انظر الفتح القسي للعماد الأصفهاني ، ص 242 ؛ ومفرج الكروب ، 2 : 295 . أما في العهد المملوكي فكان أربعة من شجعان جنود الحلقة السّلطانية يسيرون أمام السلطان في موكبه للنداء وتنبيه المارّة . والجاويش أو الشاووش جندي من رتبة بسيطة ، أو ساع يكلّفه مخدومه بحمل الرّسائل وتبليغها . وما زالت هذه التسمية معروفة في الرتب العسكرية لصف الضبّاط بمصر . راجع : Dozy: *Suppl. Dict. Arab.* .
(5) هذه الكلمات ساقطة من طبعة مصر .

ولما كان السبت حادي عشر وصل الخبر إليه أن الإفرنج قد اجتمعوا في صفّورية ، فرحلوا إلى الفُوْلة ، وهي قرية معروفة ، وكان غرضه المصاف ، فلما سمع بذلك تعبّى للّقاء ، ورتّب الأطلاب [1] ميمنة وميسرة [42 ظ] وقلباً ، وسار للقاء العدوّ .

وسار الإفرنج طالبين المسلمين ، ووقعت العينُ في العين ، وأخرج السُّلطان الجاليش [2] خمسمائة رجل معروفة ، فواقعوا الإفرنج ، وجرى قتالٌ عظيم ، وقُتل من العدوّ جماعة وجُرح جماعة ، وهم ينضمّ بعضهم إلى بعض ، يحمي راجلُهم فارسهم ، ولم يخرجوا إلى المصاف . ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين ، ونزلوا عليها ، ونزل السُّلطان حولهم ، والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصافّ ، وهم لا يخرجون لخوفهم من المسلمين ، فإنهم كانوا في كثرة عظيمة .

ولما رأى أنهم لا يخرجون ، رأى الانتزاح عنهم لعلهم يرحلون ، فيضرب معهم مصافاً ، فرحل نحو الطُّور ، وذلك في سابع عشر جُمادى الآخرة سنة تسع وسبعين ، فنزل تحت الجبل مترقّباً رحيلهم ، ليأخذ منهم فرصة .

وأصبح الإفرنج في ثامن عشره راحلين ، راجعين على أعقابهم ، ناكصين ، فرحل - رحمه الله - نحوهم ، وجرى من رمي النُّشّاب [3] واستنهاضهم

---

(1) تقدّم ذكرها ، والطَّلْب لفظة فارسية وكردية تعني الفرقة من الجيش أو الأمير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، وقد تُطلق على قائد المائة أو السبعين أيضاً .

(2) الجاليش لفظة تركية çalış ، معناها خصلة من الشعر تجعل برأس راية عظيمة ، ثم ساد اللفظ على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة منه . راجع السلوك ، 1 : 628 .

(3) النُّشّاب : النبل أو السهام ، واحدته نُشّابة ؛ وفي لسان العرب لابن منظور : الناشبة والنَّشّابة قوم يرمون بالنُّشّاب . وقد ذكر الحسن بن عبد الله في كتابه آثار الأول (ص 160) أنواع النُّشّاب وما يمتاز به كل نوع على الآخر ، قال : وأما النُّشّاب فيجب أن تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والفتل والثقل والخفّة ، وطوله وقصره على حسب مقادير الرامي ، والمريّش : المربع أو المثلث ، والجناح الأيمن أخف من الأيسر ، والمثلث المريش أسرع ، والمربع أعدل وأصح ، لكن فيه بطءاً ، وريش الذنب لا خير فيه ، فإن اضطُر إليه فليُخلط مع غيره .. إلخ .

للمصاف أمور عظيمة ، فلم يخرجوا ، ولم يزل المسلمون حولهم حتى نزلوا الفُولة المقدّم ذكرها [1] ، راجعين إلى بلادهم .

فلما رأى المسلمون ذلك اجتمعوا على [43 و] السُّلطان ، وأشاروا بالعود لفراغ أزوادهم [2] ، وكان قد نال منهم بالقتل والأسر ، وتخريب عَفْربَلا [3] وقلعة بيسان ، وزرعين ، وهي من حصونهم المذكورة ، وخرَّب عليهم قرايا عدّة . فعاد منصُوْراً مظفّراً مسروراً ، فسار حتى نزل الفوّار ، وأعطى الناس دُستوراً من أثر المسير ، ثم سار هو حتى أتى دمشق ، فدخلها فرحاً مسروراً في يوم الخميس رابع وعشرين من جُمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وخمسمائة .

فانظر إلى هذه الهمّة التي لم يشغلها عن الغزاة أخذُ حلب ولا الظَّفر بها ، بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد ، فالله يحسن جزاءه في الآخرة ، كما وفَّقه للأعمال المرضيّة في الدنيا .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكَرَك

ثم إنه أقام بدمشق إلى ثالث رجب سنة تسع وسبعين ، وخرج مُبرزاً [4] نحو الكَرَك . وكان قد سيَّر إلى الملك العادل وهو بمصر يتقدّم إليه بالاجتماع به على الكَرَك ، فبلغه خبر حركته من مصر ، فخرج للقائه ، وسار حتى أتى الكَرَك [43 ظ] ، ووافاه الملك العادل عليها ، وقد خرج معه خلقٌ عظيم من تاجر وغير تاجر ، وذلك في رابع شعبان من السنة المذكورة .

---

(1) انظر ما تقدّم في الصفحة السابقة ، والفولة هذه تقع إلى الجنوب من النّاصرة .
(2) في طبعة مصر : زادهم .
(3) في طبعة مصر : وخربت عقربلا . وعَفْربَلا ذكرها ياقوت في معجم البلدان (4 : 131) : بلدٌ بغور الأردنّ قرب بيسان وطبريّة .
(4) في طبعة مصر : مراراً .

فلما اجتمعا على الكَرَك ، وكان قد بلغ الإفرنج - خذلهم الله - (خبرُ خروجه ، فساروا براجلهم وفارسهم نحو الكَرَك للدفع عنه ، ولما انتهى ذلك إليه سيَّر الملك المظفّر تقي الدِّين إلى مصر ، وذلك في خامس عشر شهر شعبان) [1] من السنة المذكورة .

وفي صبيحة [2] السابع عشر منه نزلت الإفرنج على الكَرَك ، وتزحزح السُّلطان عنه بعد أن كان قاتله قتالاً عظيماً ، وعليه قُتل شرف الدِّين بُزْغُش [3] النُّوري شهيداً - رحمه الله - في ثامن عشرين رجب [2] .

ذكر إعطائه أخيه [4] الملك العادل حلباً

ثم رحل السُّلطان مستصحباً أخاه الملكَ العادلَ معه إلى دمشق ، ليأسه عن الكَرَك بعد نزول الإفرنج عليها ، فدخل دمشق في رابع عشرين شعبان من سنة تسع وسبعين ، وأعطى أخاه الملك العادل حلباً ، بعد مقامه بدمشق إلى ثاني شهر رمضان ، فسار في ذلك اليوم نحو حلب ، فوصلها وصعد [44 و] القلعة في يوم الجمعة ثاني عشرين [5] من شهر رمضان ، وكان بها ولد السُّلطان الملك الظاهر ، ومعه سيف الدِّين يازكُج [6] يدبِّر أمره ، وابن العميد في البلد .

* * * * *

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(2) العبارة ساقطة من طبعة مصر .
(3) الاسم تركي Boz-koç ، معناه الكبش الأشهب .
(4) بالأصل : إعطائه أخاه ، لا تستقيم بذلك .
(5) الجملة السابقة ساقطة من طبعة مصر .
(6) يازكُج اسم تركي قديم Yazkoç ، معناه : الكبش الفتي ، المولود في الصيف .

وكان الملك الظاهر من أحبِّ أولاده إلى قلبه ، لما قد خصَّه الله به من الشهامة والفطنة والعقل وحُسن السَّمْت والشَّغف بالمُلك ، وظهور ذلك عليه [1] ؛ وكان أبرَّ الناس بوالده ، وأطوعهم له ، ولكن أخذ منه حلب لمصلحة رآها . فخرج من حلب لمّا دخلها الملكُ العادل ، هو ويازكُج سائرين إلى خدمة السُّلطان . فدخل [2] دمشق يوم الإثنين ثامن عشرين [3] شوّال سنة تسع وسبعين ، فأقام في خدمة والده لا يُظهر له إلا الطاعة والانقياد مع انكسار في باطنه لا يخفى عن نظر والده .

وفي ذلك الشهر وَرَدْنا على السُّلطان رُسُلاً من جانب الموصل ، وكنّا قد توسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله في إنفاذ شيخ الشيوخ صدر الدِّين [4] رسولاً وشفيعاً إلى السُّلطان ، فسيَّره معنا [5] من بغداد ، وكان غزير المروءة عظيم الحرمة في دولة الخليفة ، وفي سائر البلاد ، وكانت مكانتُه [44 ظ] عند السُّلطان بحيث يتردّد إليه إذا كان عنده في معظم الأيام .

* * * * *

---

(1) في طبعة مصر : كله .

(2) في طبعة مصر : فدفع .

(3) في طبعة مصر : الثامن عشر من شوال .

(4) في طبعة مصر : بدر الدِّين . وقدّمنا ذكره (ص 126) أنه كان من خواصّ الخليفة النّاصر لدين الله في بغداد ، واسمه صدر الدّين عبد الرّحيم بن إسماعيل .

(5) هذا النص له أهميته عند الترجمة لحياة المؤلف ، فهو هنا يشير إلى أنه عاد من سفارته إلى الموصل وبغداد ، فوصل إلى حلب في شوال سنة 579 هـ .

ذكر وصولنا إلى خدمته رُسُلاً

وكان الشيخ قد وصل إلى محروسة الموصل رسولاً ، وسار منها بعد أن سار في صحبته [1] القاضي محيي الدِّين بن كمال الدِّين [2] ، وكان بينهما صحبة من الصِّبا ، وكنتُ مع القوم ، وسرنا حتى أتينا دمشق ، وخرج السُّلطان إلى لقاء الشيخ ونحن في خدمته ، فلقيه عن بُعْد .

وكان دخولنا إلى دمشق [3] يوم السبت حادي عشر ذي القعدة سنة تسع وسبعين ، ولقينا من السُّلطان كلَّ جميل فيما يرجع إلى الإكرام والاحترام ، وأقمنا أياماً نراجع في فصل حال ، فلم يتفق صلح في تلك الدفعة ، وخرجنا راجعين إلى الموصل ، وخرج السُّلطان إلى وداع الشيخ إلى القُصَيْر ، واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل فلم يتفق .

وكان الوقوف من جانب محيي الدِّين ، فإن السُّلطان اشترط أن يكون صاحبا إربل والجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه أو إلى الموصل ، فقال [45 و] محيي الدِّين : «لابد من ذكرهما في النسخة» ، فوقف الحال .

وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحجة سنة تسع وسبعين ، وفي تلك الدفعة عرض عليَّ السُّلطان مواضع البهاء الدمشقي بمصر - على لسان الشيخ - ، فاعتذرتُ [4] ولم أفعل خوفاً من أن يُحال توقف الحال عليَّ ، ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشَّريفة مني أمرٌ لم أعرفه إلا بعد خدمتي له .

---

(1) في طبعة مصر : وكان الشيخ قد وصل إلى الموصل ، وسار منها في صحبة القاضي محيي الدِّين . . إلخ .

(2) هو القاضي محيي الدِّين أبو حامد ابن الشَّهْرَزوري ، كما يذكر ابن الأثير ، 9 : 164 .

(3) في هذا النص يشير المؤلف إلى أنه وصل إلى دمشق في الحادي عشر من ذي القعدة من سنة 579 هـ ، ثم عاد منها إلى الموصل .

(4) وهذا النص له أهميته الخاصة ، ففيه يذكر المؤلف التاريخ الذي بدأ فيه صلاح الدِّين للمرة الأولى يعرض عليه أن يعمل في خدمته .

وأقام السُّلطان – رحمه الله – بدمشق تردُ عليه الرسل من الجوانب ، فوصله رسولُ سَنْجَر شاه [1] – صاحب الجزيرة – فاستحلفه لنفسه ، وانتمى إليه [2] ، ورسول إربل ، وحلف لهم ، وسارا .

ووصل إليه أخوه الملك العادل يوم الإثنين [3] رابع ذي الحجة ، فأقام عنده وعيَّد ، وتوجّه وعاد [3] إلى حلب المحروسة .

ذكر غزاة أخرى إلى الكَرَك

وسيّر السُّلطان – قدَّس الله روحه – إلى العساكر يطلبها [4] ، فوصل إليه ابن قَرَا أرْسْلان [5] نور الدِّين إلى حلب في يوم الخميس [3] ثامن عشر من صفر سنة ثمانين وخمسمائة ، فأكرمه الملك العادل إكراماً عظيماً ، وأصعده إلى القلعة ، وباسطه ، ورحل معه طالباً دمشق وذلك في سادس [45 ظ] وعشرين منه ؛ وكان السُّلطان قد مرض أياماً ، ثم شفاه الله .

ولما بلغه وصول ابن قَرَا أرْسْلان خرج إلى لقائه ، وكان السُّلطان يكارم الناس مكارمة عظيمة ، فالتقاه على عين الجرّ [6] بالبقاع ، وذلك في تاسع ربيع الأول سنة ثمانين ، ثم عاد إلى دمشق ، وخلَّف نور الدِّين واصلاً مع أخيه الملك العادل ، فتأهب للغزاة ، وخرج مُبرزاً إلى جسر الخشب في منتصف ربيع الأول .

---

(1) الاسم فارسي مركب من مقطعين : سنگار وتعني رفيق أو زميل ، وشاه هو الملك . ونقل ياقوت الحموي في معجم البلدان (3 : 262) عن الأصفهاني أنه نسبة إلى سنجار .

(2) في طبعة مصر : في الانتماء إليه .

(3) هذه الألفاظ ساقطة من طبعة مصر .

(4) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(5) قرا أرسلان اسم تركي Kara-Arslan ، ويعني الأسد الأسْوَد .

(6) تصويب الاسم من طبعة مصر ، وعين الجر هي بلدة عَنْجَر اللبنانية المعروفة في البقاع الشرقي . ورد ذكرها بهذا الاسم في كتاب الخَراج لقُدامة بن جعفر الكاتب ، ص 218 .

وفي رابع وعشرين منه ، وصل الملك العادل ومعه ابن قَرَا أرْسْلان إلى دمشق ، فأقاما بها أياماً ، ثم رحلا يلتحقان بالسُّلطان . ولما كان ثاني ربيع الآخر من السنة المذكورة رحل الملك الناصر [(1)] من رأس الماء طالباً للكَرَك ، فأقام قريباً منها أياماً ينتظر وصول الملك المظفّر من مصر إلى تاسع عشر ربيع الآخر . فوصل تقي الدِّين إلى خدمته واجتمع به [(2)] ، ومعه بيت الملك العادل وخزانته ، فسيَّرهم إلى الملك العادل ، وتقدّم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول [46 و] إليه إلى الكَرَك ، فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكَرَك ، وذلك في رابع عشر [(3)] جُمادى الأولى سنة ثمانين ، وركّب المناجيق على المكان ، وقد التقت العساكر المصرية والشامية والجزرية أيضاً مع ابن قَرَا أرْسْلان .

ولما بلغ الإفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذبِّ عن الكَرَك ، وكان على المسلمين منه ضررٌ عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمَّة الغفيرة ، فاهتمَّ السُّلطان بأمره ليكون الطريق سابلة إلى مصر ، ويسَّر الله ذلك ، وله المنَّة [(1)] .

ولما بلغ السُّلطان - قدّس الله روحه - خبر خروج الإفرنج تعبَّى للقائهم ، وأمر العساكر أن خرجت إلى ظاهر الكَرَك ، وسيَّر الثَّقْل نحو البلاد ، وبقي العسكر جريدةً ، ثم سار السُّلطان يقصد العدوّ .

وكان الإفرنج قد نزلوا بموضع يقال له الواله ، وسار حتى نزل بالبَلْقَا على قرية يقال لها حُسبان ، قبالة الإفرنج في طريقهم ، ورحل منها إلى موضع يُقال له : ماء عين [(4)] ، والإفرنج مقيمون بالواله إلى [46 ظ] سادس وعشرين من جُمادى

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(2) هذه الألفاظ ساقطة من طبعة مصر .
(3) في طبعة مصر : رابع جمادى الأولى .
(4) موضع معروف باسم «ماعين» ، بالقرب من بلدة مادبا جنوب غربي عمّان بالأردن ، فيه مياه معدنية كبريتية يقصده أصحاب الأمراض الجلدية والعصبية للاستشفاء .

الأولى ، ثم رحلوا قاصدين الكَرَك ، فسار بعض العسكر وراءهم ، فقاتلوهم إلى آخر النهار .

ولما رأى - قدّس الله روحه - تصميمَ الإفرنج على الكَرَك أمر العسكر أن دخل السّاحل لخلوه عن العساكر ، فهجموا نابلس ونهبوها ، وغنموا ما فيها ، ولم يبقَ فيها إلا حصناها ، وأخذوا جينين ، والتحقوا بالسُّلطان برأس الماء ، وقد نهبوا وأسروا وأخربوا وأحرقوا ؛ واتفق دخول السُّلطان إلى دمشق يوم السبت سابع جُمادى الآخرة سنة ثمانين ، ومعه الملك العادل ونور الدِّين بن قَرَا أرْسْلان فرحاً مسروراً ، وأكرمه واحترمه وأحسن إليه .

وفي هذا الشهر وصل رُسُل الخليفة ومعهم [1] الخلع فلبسها السُّلطان ، وألبس أخاه الملك العادل وابن أسد الدِّين خلَعاً جاءت لهم .

وفي رابع عشر الشهر خلع السُّلطان خلعة الخليفة على نور الدِّين بن قَرَا أرْسْلان ، وأعطاه دُستوراً ، وأعطى العساكر دُستوراً ، وسار ابن قَرَا أرْسْلان في تاسع عشر جُمادى الآخرة طالباً بلاده [2] .

وفي ذلك التاريخ ، وصلت [47 و] رُسُل ابن زين الدِّين مستصرخاً إلى السُّلطان ، يُخبر أنّ عسكر الموصل وعسكر قزل [3] نزلوا إلى إربل [4] مع مُجاهد الدِّين قايماز ، وأنهم نهبوا وأحرقوا ، وأنه نُصر عليهم وكَسَرَهم .

* * * * *

(1) في طبعة مصر : رسول الخليفة ومعه .

(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(3) قزل اسم تركي Kızıl ، يعني : الأحمر . والمقصود قزل ابن إلدكز (إيلدنيز) صاحب ديار العجم ، راجع ما يرد حول مقتله ، ص 331 .

(4) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .

ذكر خروج السُّلطان إلى جهة الموصل
الدفعة[1] الثانية

ولما سمع السُّلطان ذلك ، رحل من دمشق يطلب البلاد ، وتقدّم إلى العساكر فتبعته ، وسار حتى أتى حرَّان[2] على طريق البيرة[3] ، والتقاه مظفَّر الدِّين بالبيرة في ثاني عشر محرّم سنة إحدى وثمانين وخمسمائة .

وكان قد وصل إلى السُّلطان عزّ الدِّين بن عبد السلام رسولاً ، فلقيه بحماة يعتذر مما جرى ، وأعطاه دُستوراً بعد أن أكرمه ، وسار من غير غرض[4] ، وتقدّم السُّلطان إلى سيف الدِّين المشطوب أن يسير في مقدّمة العسكر إلى رأس العين[5] ، ووصل السُّلطان حرَّان ثاني وعشرين من صفر .

ذكر قبض مظفَّر الدِّين وإطلاقه[6]

وفي سادس وعشرين من صفر من سنة إحدى وثمانين ، قبض [47 ظ] السُّلطان على مظفَّر الدِّين بن زين الدِّين ، لشيء كان قد جرى منه ، وحديث كان بلغه عنه رسوله ، ولم يقف عليه ، وأنكره ، فأخذ منه قلعة حرَّان والرُّها ، ثم أقام في الاعتقال تأديباً إلى مستهلّ ربيع الأول .

---

(1) في طبعة مصر : في الوقعة .

(2) من مدن الجزيرة الفُراتية في كيليكيا جنوبي تركيا حالياً . ذكرها ياقوت (2 : 235) : مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور . . وهي على طريق الموصل والشام والرّوم .

(3) البيرة ذكرها ياقوت في معجم البلدان (4 : 526) : بلد قرب سُمَيْسَاط بين حلب والثغور الرّومية ، وهي قلع حصينة ولها رُستاق واسع ، وهي اليوم للملك الزّاهر مُجير الدِّين [الأيوبي] . وتماثلها في الاسم البيرة التي بين بيت المقدس ونابلس .

(4) هذه الفقرة كلها ساقطة من طبعة مصر .

(5) ذكر ياقوت (3 : 13) : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين ودنيسر .

(6) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

ثم خلع عليه وطيّب قلبه ، وأعاد إليه قلعة حرّان وبلاده التي كانت بيده ، وأعاده إلى قانونه في الإكرام والاحترام ، ولم يتخلّف له سوى قلعة الرُّها ، ووعده بها .

ثم رحل السُّلطان من حرّان ثاني ربيع الأول إلى رأس العين ، ووصله في ذلك رسول قليج أرْسْلان يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السُّلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين ، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك .

فرحل السُّلطان يطلب دُنَيْسر ، فوصله يوم السبت [1] ثامن ربيع الأول عماد الدِّين بن قَرَا أرْسْلان ومعه عسكر نُور الدِّين - صاحب ماردين - ، فالتقاهم السُّلطان واحترمهم .

ثم رحل السُّلطان - رحمة الله عليه - من دُنيسر يوم [48 و] الثلاثاء [2] حادي عشر نحو الموصل ، وسار حتى نزل موضعاً يُعرف بالإسماعيلات [3] قريب الموصل ، بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل . فبلغ عماد الدِّين بن قَرَا أرْسْلان موت أخيه نور الدِّين ، فطلب من السُّلطان دُستوراً ، طمعاً في مُلْك أخيه ، فأعطاه دُستوراً .

* * * * *

(1) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .

(2) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .

(3) كذا في الأصل ، وهي في مفرج الكروب لابن واصل (2 : 166) : الإسماعيليات .

ذكر موت شاه أرمن
صاحب خلاط

ولما كان ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة توفي شاه أرمن [1] صاحب خلاط [2] ، وولي بعده غلام له يدعى بَكْتَمر [3] ، وهو الذي كان وصل رسولاً إلى خدمة السُّلطان بسِنْجَار ، فعدل وأحسن إلى أهل خلاط ، وكان متصوّفاً في طريقته ، فأطاعه الناس ومالوا إليه .

ولما ملك خلاط امتدّت نحوه الأطماع لموت شاه أرمن ، فسار نحوه بهلوان ابن إلدكز [4] ، فلما بلغه ذلك سيَّر إلى خدمة السُّلطان مَنْ يقرّر معه تسليم خلاط إليه واندراجه [48 ظ] في جملته ، وأعطاه ما يرضيه .

فطمع السُّلطان في خلاط ، وارتحل عن الموصل متوجهاً نحوها ، وسيَّر إليها الفقيه عيسى – رحمه الله – وغرس الدِّين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها . فوصلت الرُّسُل وبهلوان قد قارب البلاد جداً ، فخوَّف بهلوان من السُّلطان وأشعره أنه إن قصده سلّم البلاد إلى السُّلطان [5] فطلب بهلوان إصلاحه ، وزوَّجه ببنت له ، وولاّه ، وأعاد البلاد إليه ، واعتذر إلى رُسُل السُّلطان ، وعادوا من غير زُبدة . وكان السُّلطان قد نزل على ميّافارقين ، يحاصرها .

---

(1) هو ناصر الدِّين سكمان الثاني ابن إبراهيم ، انظر معجم الأنساب لزامباور ، ص 348 . واسمه شاه أرمن لا علاقة له بالشعب الأرمني ، وإنما هو اسم فارسي .

(2) ذكر ياقوت في معجم البلدان (2 : 380) : خلاط ، بكسر أوّله . . البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات . . وهي قصبة أرمينية الوسطى . . ولها البحيرة التي ليس لها في الدنيا نظير . قلنا : هي بحيرة وان في شرقي تركيا ، وخلاط نفسها تسمّى اليوم «وان» Van .

(3) في طبعة مصر : غلامه بكتمر . وقد سبق شرحنا لهذا الاسم بالتركية Bey-Demir : أمير حديد ، أو نصل السيف . وسيكون بكتمر هذا من خيرة المجاهدين مع السُّلطان .

(4) هو أتابك شمس الدِّين محمد ابن إيلدكز . واسم بهلوان فارسي (پهلوان) ، ويعني : شجاع ، قوي . أما إلدكز فاسم تركي İl-Deniz مركب من مقطعين : زعيم – بحر .

(5) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

ذكر أخذه ميافارقين [1]

ثم نـزل على ميّافارقين بعد عوده من الموصل ، وقاتلها قتالاً عظيماً [2] ، ونصب عليها مجانيق ، وكان بها إنسان يقال له الأسد ، وما قصَّر في حفظها ، لكن الأقدار لا تُغالب ، فملكها السُّلطان عن صلح في تاسع وعشرين من جُمادى الأولى سنة إحدى وثمانين .

[49 و] ذكر عود السُّلطان من الموصل [3]

ولما أيس من أمر خلاط عاد إلى الموصل ، فنزل بعيداً عنها ، وهي الدّفعة الثالثة ، بموضع يقال له كفر زمّار ، وكان الحرُّ شديداً ، فأقام مدّة .

وفي هذه المنزلة أتاه سنجر شاه من الجزيرة ، واجتمع به ، وأعاده إلى بلده . ومرض - رحمه الله - بكفر زمّار مرضاً شديداً خاف من غائلته ، فرحل طالباً حرّان وهو مريض ، وكان يتجلّد ولم يركب في محفّة ، فوصل حرّان شديد المرض ، وبلغ إلى غاية الضعف ، وأُيس منه ، ورُجف بموته . وكان رحيله من كفر زمّار في مستهلّ شوّال سنة إحدى وثمانين وخمسمائة [4] فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها [5] .

* * * * *

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر . أما ميّافارقين فقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان (5 : 235) : أشهر مدينة بديار بكر . وأفرد لتاريخها مساحة مطوّلة من كتابه .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(3) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(4) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(5) في طبعة مصر : أطباؤه .

ذكر صلح المُواصلة معه

وكان سبب ذلك أن عزّ الدِّين أتابك - صاحب الموصل - سيَّرني إلى الخليفة يستنجد به[1]، فلم يحصل منه زُبدة، وسيَّر إلى العجم [49 ظ] فلم يحصل منهم زُبدة[2]، فلما وصلتُ من بغداد وأدَّيتُ[3] جواب الرسالة أيس من نجدة، فلما بلغهم مرض السُّلطان رأوْا ذلك فرصة، وعلموا رقّة قلبه وسرعة انقياده في ذلك الوقت، فندبوني لهذا الأمر وبهاء الدِّين الرَّبيب، وفوَّض إلي أمر النسخة التي يحلف بها، وقالوا: امضيا ما يصل إليه جهدكما وطاقتكما[4]، فسرنا حتى أتينا العسكر، والناس كلهم آيسون من السُّلطان.

وكان وصولنا في أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة، فاحترَمَنَا احتراماً عظيماً، وجلس لنا، وكان أول جلوسه من مرضه، وحلف في يوم عرفة، وأخذنا منه بين النهرين، وكان أخذها من سَنْجَر شاه، أعطاها المواصلة، وحلَّفتُهُ[5] يميناً تامة، وحلَّفتُ أخاه الملك العادل، ومات - قدّس الله روحه - وهو على ذلك الصُّلح لم يتغيَّر عنه، وسرنا عنه وهو بحرَّان وقد تماثل، ووصله خبر موت ابن أسد الدِّين - صاحب حمص - وكانت وفاته يوم عرفة من السنة المذكورة ونحن في المعسكر[6]، وجلس الملك العادل للعزاء.

وفي تلك [50 و] الأيام كانت وقعة التُّركمان والأكراد، وقُتل بينهم خلقٌ عظيم.

---

(1) في طبعة مصر: يستنجده. والخليفة عام 581 هـ كان أبا العبّاس النّاصر لدين الله.
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر.
(3) في طبعة مصر: وردّدت.
(4) كذا في طبعة مصر، وفي الأصل: أمضى ما يصل جهدكم وطاقتكم. والأولى أضبط.
(5) لهذا النص أهمية خاصة، فهو يشير إلى السفارة التي قام بها المؤلف من صاحب الموصل إلى صلاح الدِّين في أوائل ذي الحجة سنة 580 هـ.
(6) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر.

وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بَهْلَوَان بن إلدكز ، وكانت وفاته في سلخ ذي الحجة .

ذكر عوده
- رحمة الله عليه -
إلى الشام

ولما وجد السُّلطان نشاطاً من مرضه رحل يطلب جهة حلب ، وكان وصوله إليها يوم الأحد [1] رابع عشر المحرَّم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وكان يوماً مشهوداً لشدَّة فرح الناس بعافيته ولقائه ، فأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل في ثامن عشره [3] نحو دمشق ، ولقيه أسد الدِّين شيْرْكُوْه بن محمد شيْرْكُوْه بتلّ السُّلطان ، ومعه أخته ، وقد صحبه خدمة عظيمة وقرب زائدة [3] ، ومَنَّ عليه بحمص ، وأقام أياماً يعتبر تركة أبيه [2] ، ثم سار يطلب جهة دمشق ، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول ، وكان يوماً لم يُرَ مثله فرحاً وسروراً .

ووقعت في هذا الشهر وقعات كثيرة بين التُّركمان [3] والأكراد بأرض نصيبين وغيرها ، وقُتل من الفئتين خلق [50 ظ] عظيم . وبلغ السُّلطان أن مُعين الدِّين قد عصا بالرَّاوندان ، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه ، وكان نزولهم عليه في العَشر الأول من سنة اثنتين وثمانين ، وأعطاه بُرج الرَّصاص [4] لينزل في بقية ذلك الشهر [5] .

---

(1) هذه الكلمات ساقطة من طبعة مصر .

(2) أي تركة ابن عمّه محمد بن أسد الدّين شيركوه المتوفى مؤخراً ، انظر الصفحة السابقة .

(3) في طبعة مصر : التُّرك .

(4) ذكر ياقوت في معجمه (1 : 373) : برج الرّصاص قلعة ولها رساتيق ، من أعمال حلب قرب أنطاكية .

(5) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

وفي ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين ، وصل مُعين الدِّين من الرَّاوندان ، وقد سلّمها إلى علم الدِّين سليمان [1] ، ثم مضى إلى خدمة السُّلطان .

وفي سابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين ، وصل الملك الأفضل [2] إلى دمشق ، ولم يكن قد رأى قبل ذلك الشام .

ذكر مسير الملك العادل إلى مصر
وعود الملك الظاهر إلى محروسة حلب

وذلك أن السُّلطان – قدّس الله روحه – رأى رَوَاح الملك العادل إلى مصر ، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفّر ، فما زال يفاوضه في ذلك [3] ، وهو على حرّان مريض ، وحصل ذلك في نفس الملك العادل ، فإنه يحبُّ الديار المصرية .

فلما عاد السُّلطان إلى دمشق ، ومَنَّ الله بعافيته ، سَيَّر يطلب الملك العادل [51 و] إلى دمشق ، فخرج من حلب جريدةً ليلة السبت [4] رابع عشرين ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وسار حتى وصل محروسة دمشق [5] ، فأقام بها في خدمة السُّلطان ، يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرّر إلى جُمادى الآخرة من السنة المذكورة .

واستقرّت القاعدة على عَوْد الملك العادل إلى مصر ، وتسَلُّم حلب منه ، فسيَّر الصنيعة لإحضار أهله من حلب المحروسة .

---

(1) أي عَلَم الدِّين سليمان بن جَنْدَر ، أحد كبار قوّاد السّلطان .
(2) الملك الأفضل هو بكر أبناء السّلطان ، الذي سيتولى دمشق من بعده ، غير أنه كان شاباً أرعن لا يحسن الحكم ، دخل مع عمّه العادل في شقاق مع أخيه الظاهر صاحب حلب .
(3) في طبعة مصر : ليزيل تقاويضها بذلك . ولا معنى لها .
(4) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر . ولفظة «جريدة» يتكرر ذكرها كثيراً في النص ، وتعني أنه خرج على رأس تشكيل قتالي مسلح .
(5) في طبعة مصر : أتى دمشق .

ذكر عود الملك الظاهر إلى محروسة حلب [1]

وكان الملك الظاهر ، والملك العزيز - رحمهما الله [2] - بدمشق في خدمة والدهما ، فلما استقرّت القاعدة على عود الملك العادل إلى مصر استقرّت على أن يكون أتابك الملك العزيز ، ويسلّمه والده إليه يُربّي أمره ، ويُسلِّم الملكُ العادلُ حلبَ إلى الملك الظاهر .

ولقد قال لي الملكُ العادل : إنه لما استقرّت هذه القاعدة ، اجتمعتُ بخدمة الملك العزيز والظاهر ، وجلستُ بينهما ، قلتُ للملك العزيز : يا مولاي ، إن السُّلطان قد أمرني أن [51 ظ] أسير في خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المُفسدين كثير ، وغداً فما يخلو [3] ممّن يقول عني ما لا يجوز ويخوّفك مني ، فإن كان لك عزم [4] تسمع ، فقل لي حتى لا أجيء ! فقال : لا أسمع ، وكيف يكون ذلك ؟

ثم التفتُّ وقلتُ للملك الظاهر : أنا أعرف أن أخاك ربما سمع فيّ أقوال المفسدين ، وأنا فما لي إلا أنت ، وقد قنعتُ منك بمنبج ، متى ضاق صدري من جانبه . فقال : مُبارك ، وذكر كلّ خير .

ثم إن الملك الظاهر - رحمه الله - سيَّره والده إلى حلب وأعادها عليه [5] ، وكان - قدّس الله روحه - يعلم أن حلباً هي أصل المُلك وجُرثومته وقاعدته ، ولهذا

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) في طبعة مصر : وكان الملك الظاهر - أيّده الله - والملك العزيز بدمشق . . إلخ ، وما ورد أعلاه هو صيغة مخطوط القُدْس ، أما قول المؤلف فيها تعقيباً على ذكر الملكين الظاهر والعزيز : رحمهما الله ، فيعني أنه أنهى جمع كتابه بعد عام 613 هـ ، وهي السنة التي توفي فيها الملك الظاهر . غير أنه في خاتمة كتابه يقول : هذه أخبار الملك الناصر أبي المظفّر يوسف بن أيوب ، فرغتُ من جمعها يوم وفاته . يعني عام 589 هـ .

(3) في طبعة مصر : لا يخلون . ويخوفونك .

(4) في طبعة مصر : أذن .

(5) كان خروج حلب من يد الملك العادل إلى يد ابن أخيه الظاهر سبباً في حنقه ، لا كما يروي هنا لابن شدّاد ، وبعد وفاة السّلطان عاداه ، وصادر أموال الأمير سامه لأنه يكاتبه .

دأب في طلبها ذلك الدأب . ولّما حصلتْ أعرضَ عمّا سواها من بلاد المشرق ، وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد ، فسلّمها إليه ، علماً منه بحذاقته وحزمه وحفظه وتأنّيه [1] وعلوّ همّته . فسار إليها حتى أتى العين المباركة ، وسيَّر في خدمته شحنةً [2] حُسام الدِّين بشارة ، ووالياً عيسى بن بلاشوا ، فنزل في يوم الجمعة [3] بعين [52 و] المباركة ، وخرج الناس إلى لقائه في بكرة السبت تاسع جمادى الآخر من سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة [4] .

وصعد القلعة ضحوة نهاره ، وفرح الناس به فرحاً شديداً ، ومدَّ على الناس من جناح عدله ، وأفاض عليهم وابل فضله .

وأما الملك العزيز والملك العادل فإن السُّلطان قرّر حالهما ، وكتب إلى الملك المظفّر يخبره بمسير الملك العزيز ولده وهو صحبة عمه الملك العادل ، ويأمره بالوصول إلى الشام . وشقَّ ذلك على الملك المظفّر حتى أظهره للناس ، وعزم على المسير إلى ديار الغرب [5] ، إلى بَرْقة ، فقبَّح ذلك عليه جماعة من أكابر الدولة ، وعرَّفوه أن عمّه السُّلطان يخرج من يده في الحال ، والله أعلم بما يكون منه بعد ذلك ، فأراه الله [6] الحقَّ بعين البصيرة ، وأجاب بالسمع والطاعة ، وسلّم البلاد ،

---

(1) في طبعة مصر : وثباته .
(2) في طبعة مصر : الشحنة . وجاء في لسان العرب لابن منظور الأفريقي : وشحن البلد بالخيل ملأه ، وبالبلد شحْنَةٌ من الخيل أي رابطة . قال ابن بري : وقول العامة في الشحنة إنه الأمير غلط . قلنا : غير أن هذا الغلط هو ما كان يستعمله الناس دائماً ، ويتردد في المصادر التاريخية العربية في العصور الوسطى ، فالشحنة – ويقال الشحنكية – هي رئاسة الشرطة أو محافظ المدينة أو الأمير المشرف على حراستها ، ويجمع اللفظ على شحن وشحاني وشحنكيات .
(3) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .
(4) هذا التاريخ ساقط من طبعة مصر .
(5) توجد تفاصيل هامة جداً حول مشروع الملك المظفر تقي الدِّين عمر للخروج إلى ليبيا وتكوين مُلك له فيها ، في المراجع التاريخية المعاصرة الأخرى . انظر : الكامل لابن الأثير ، 11 : 197 ؛ الروضتين لأبي شامة ، 2 : 70 ؛ مفرج الكروب ، 2 : 180 .
(6) في طبعة مصر : فرأى الحق .

ورحل واصلاً إلى خدمة السُّلطان ، فسار السُّلطان إلى لقائه فلقيه بمرج الصُّفَّر [1] ، وفرح بوصوله فرحاً شديداً ، وذلك في ثالث عشر شعبان سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، وأعطاه حماة ، وسار إليها .

وكان قد عُقِد بين الملك [52 ظ] الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح ، فتمّم ذلك ، ودخل بها يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان . ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدِّين بن أسد الدِّين [2] في شوّال من السنة المذكورة المباركة .

ذكر غزاة أنشأها إلى الكَرَك

ولما كان المحرّم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، عزم على قصد الكَرَك ، فسَيَّر إلى محروسة حلب مَنْ يستحضر العسكر . وبرز من دمشق في منتصف المحرّم ، فسار حتى نزل بأرض نيطرة [3] منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية ، وأمَرَ العساكر المتواصلة إليه بشنّ الغارات على ما في طريقهم من البلاد السّاحلية ، ففعلوا ذلك . وأقام بأرض الكَرَك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام ، وأمنوا غائلة العدوّ .

ووصل قَفْلُ محروسة مصر الشتوي ، ووصل معه بيت الملك المظفّر ، وما كان له بالدِّيار المصرية .

---

(1) الكلمات الثلاث ساقطة من طبعة مصر . ومرج الصُّفَّر سهل قبلي دمشق ، يبعد عنها 38 كيلومتراً . جرت فيه معركة بين العرب والرّوم بفتوح الشام (14 هـ) ، ورابط فيه الملك العادل بوجه الفرنج (614 هـ) ، كما جرت فيه معركة بين التّتار والمماليك (702 هـ) . حدّده ابن طولون الصالحي بين قريتي الكسوة وغباغب . وكتب الشيخ دهمان : يحدّه شمالاً قريتا الطّيبة وزاكية ، وغرباً شُقْحَب ، وجنوباً الزّريقيّة ، وشرقاً عالقين .

(2) الملك القاهر ناصر الدّين محمد بن شيرگوه ، صاحب حمص ، الذي توفي وخلفه ابنه .

(3) كذا بالأصل ، ولعله يريد : قُنيطرة . أما في طبعة مصر : برأس الماء .

وتأخّرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالإفرنج بأرض أنطاكية [1]، وبلاد ابن لاون ، وذلك أنه كان قد مات ، ووصّى لابن أخيه - الملعون - بالملك ، وكان الملك المظفّر بحماة ، وبلغ السُّلطان الخبر [53 و] فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدوّ وإخماد ثائرته ، وكان وصول تقي الدِّين إلى محروسة حلب في سابع عشر المحرّم سنة ثلاث وثمانين ، فنزل في دار عفيف الدِّين بن زُرَيق ، فأقام بها إلى ثالث صفر ، وانتقل إلى دار طُمَان [2].

وفي تاسع صفر ، سار الملك المظفّر بعسكر حلب إلى محروسة حارم ، فأقام بها ليعلم العدوّ أن هذا الجانب ليس بمُهمل ؛ فعاد السُّلطان إلى الشام ، وكان وصول السُّلطان - رحمه الله - إلى السّواد في خامس عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين [3].

وفي يوم الخميس سابع عشر نزل بعَشْتَرا [4]، ولقيه ولده الملك الأفضل ، ومظفّر الدِّين [بن زين الدين] وجميع العساكر .

وكان قد تقدّم إلى الملك المظفّر بمصالحة الجانب الحلبي مع الإفرنج ؛ ليتفرّغ البال مع العدوّ في جانب واحد ، فصالحهم الملك المظفّر في العشر الآخر من ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وتوجّه إلى حماة يطلب خدمة السُّلطان للغزاة التي عزم عليها ، فسار ومَنْ اجتمع به من العساكر الشرقية في خدمته . وهم : عسكر الموصل ، مقدّمهم مسعود بن الزّعفراني ، وعسكر [53 ظ] ماردين ؛ إلى أن أتوا عَشْتَرا في العشر الأوسط من ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فلقيهم السُّلطان واحترمهم وأكرمهم [5].

---

(1) في طبعة مصر : بأرض الأرمن من بلاد ابن لاون .
(2) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .
(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر . وقوله «السّواد» يعني البرّ ومناطق الأرياف .
(4) ذكر ياقوت في معجم البلدان (4 : 125) : عشترا موضع بحوران من أعمال دمشق .
(5) في طبعة مصر : فلقيهم السلطان في العشر الأوسط من ربيع الآخر فأقرّهم وأكرمهم .

وفي منتصف ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانين ، عرض السُّلطان العسكرَ لأمر قد عزم عليه على تلّ يُعرف بتلّ تسيل ، وتقدّم إلى أرباب المَيْمَنَة بحفظ موضعهم ، وإلى أصحاب المَيْسَرَة بذلك ، وإلى أصحاب القلب بمثله – قدّس الله روحه – فما كان أحرصه على نصر الإسلام .

ذكر وقعة حطّين المباركة على المؤمنين (1)

وكانت في يوم السبت رابع وعشرين ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (2) . وذلك أن السُّلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله إياه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قوانين خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد في إقامة قانون الجهاد .

فسيَّر إلى سائر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا إليه بعَشْتَرا في التاريخ المذكور ، وعرضهم [54 و] ورتَّبهم ، واندفع قاصداً نحو بلاد العدوّ المخذول في وسط نهار الجمعة سابع عشر [من] ربيع الآخر من السنة المذكورة ، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجُمَع [لا] سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبرّكاً بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الإجابة .

فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغه أن العدوّ المخذول لما بلغهم أن السُّلطان قد جمع العساكر ، اجتمعوا بأسرهم في مرج صفّورية بأرض عكّا ، فقصدوا نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طَبَرِيَّة عند

---

(1) يُعدّ وصف ابن شدّاد لهذه المعركة الفاصلة هاماً ، إلا أنه مع ذلك يأتي في المرتبة الثالثة بعد العماد الأصفهاني في كتابيه «البرق الشامي» و «الفتح القسّي» ، وابن الأثير الجَزري في تاريخه المشهور . وذلك على اعتبار عدم حضور ابن شدّاد لها أو حتى وجوده بالشّام آنذاك ، فهو لم يدخل في خدمة السلطان الناصر إلا في عام 584 هـ . ومع ذلك فيبقى لما أورده قيمة بالغة دون شك .

(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

قريـة تُسـمّى الصَّنَّبْرَة [1] . ورحـل من هناك ، ونـزل غـربي طَبَرِيَّة على سـطح الجبل بتعبية الحرب منتظراً أن الإفرنـج إذا بلغهـم ذلـك قصـدوه ، فلـم يتحركـوا مـن منزلتهم .

وكان نزولـه في هـذه المنزلـة يـوم الأربعـاء الحـادي والعشـرين مـن ربيـع الآخـر المذكـور ، فلمـا رآهـم لا يتحركـون نـزل جريـدةً على طَبَرِيَّة ، وتـرك الأطـلاب [2] بحالها قبالـة وجهـة العـدوّ ، ونـازل طَبَرِيَّة ، وزحـف عليهـا فهَجَمَهـا ، وأخذهـا في سـاعة مـن نهـار ، وامتـدّت الأيـدي إليهـا بـالنهب والأسـر والحريـق والقتـل [54 ظ] واحتمت القلعة وحدها .

ولما بلغ العدوّ ما جرى على طَبَرِيَّة ، لم يـأخذهم الصبر دون إجابـة الحميّة ، فرحلـوا مـن وقتهـم وسـاعتهم ، وقصـدوا طَبَرِيَّة للدفـع عنهـا ، فـأخبرت الطلائـع الإسلامية الأمراء بحركة الإفرنج ، فسيَّروا إلى السُّلطان مَنْ عرَّفه ذلك ، فترك على طَبَرِيَّة مَنْ يحفظ قلعتها ، ولحق العسكر هو ومَنْ معه ، فالتقى العسكران على سطح جبل طَبَرِيَّة الغربي منها ، وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين مـن ربيـع الآخـر المذكور .

وحال الليل بـين الفئتين فتبايتـا علـى مصـافّ شـاكين في السِّلاح إلـى صبيحـة الجمعـة ثـالث وعشـرين ، فركـب العسـكران وتصادمـا ، وعملـت الجاليشـية [3] وتحركـت الأطـلاب ، والتحـم القتـال ، واشتدّ الأمـر ، وذلـك بـأرض قريـة تُسـمّى اللُّوبْيا ، وضاق الخناق بـالقوم ، هـذا وهـم سـائرون كأنمـا يُسـاقون إلـى المـوت وهـم ينظرون ، وقد أيقنوا بالويل والثُّبور ، وأحسَّت أنفسهم أنهم في غد زوّار القبور .

---

(1) ضبط الكلمة من معجم البلدان لياقوت (3 : 425) ، ذكر فيه : الصِّنَّبْرَة : موضعٌ بالأردنّ مقابل لعقبة أفيق ، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال ، كان مُعاوية يشتو بها .

(2) تقدّم ذكر الأطلاب ومعناها غير مرة .

(3) تقدّم ذكر الجاليش أعلاه ، وهي لفظة تركية çalış ، معناها خصلة من الشعر تجعل بـرأس راية عظيمة ، ثم ساد اللفظ على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة منه .

ولم تزل الحرب تلتحم ، والفارس مع قرنه يصطدم ، حتى لم يبق إلا الظّفر ، ووقوع الوبال على مَنْ كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرت في ذلك [55 و] اليوم من الوقائع العظيمة ، والوقائع الجسيمة ، ما لم يُحكَ عمّن تقدّم ، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النَّصَب عن الحَبْو فضلاً عن الرّكوض .

حتى كان صباح السبت الذي بُورك فيه ، فطلب كلٌّ من الفريقين مقامه ، وعلمت كلُّ طائفة أن المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس ، وتحقّق المسلمون أن من ورائهم الأردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى .

وكان الله قد قدّر نصر المؤمنين فيَسّره ، وأجراه على وفق ما قدّره ، فحملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة الرّجل الواحد ، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين ، ﴿وكان حقاً علينا نَصْرُ المؤمنين﴾ .

وكان القُومْص [1] ذكيَّ القوم وألمعيّهم [2] ، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه ، ولم يَشغله ظنٌّ محاسنة جنسه عن نفسه ، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده ، وأخذ طريقه نحو صُوْر ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، وأمن الإسلام كيده .

---

(1) القومص تعريب حرفي للفظة اللاتينية Comes ، أي الأمير ، ومعناها الأصلي في اللاتينية (الرّفيق) ، لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته ، ثم سُمّي بالأمير . واللفظة دخلت الفرنسية بصيغة الكونت Comte ، والإنكليزية بصيغة Count . راجع مفرج الكروب لابن واصل ، 1 : 73 . والمقصود الكونت ريمون الثالث Raymond III صاحب طرابلس ، وكانت زوجته إيشيڤا Eschiva de Bures آنذاك أميرة على الجليل (صاحبة طبريّة) . اعتبره گي ملك القُدْس الصّليبي خائناً قُبيل معركة حطّين ، لأنه بنتيجة تجريد الملك له من بيروت ، قام بعقد هدنة مع صلاح الدّين لصالح كونتيّته ، شملت حتى إمارة زوجته بالجليل . وسمح لكتيبة استطلاع إسلامية يقودها مظفّر الدين گُوكُبُورِي ، بالمرور في أراضيه بالجليل ، بغية استكشاف أحوال المعسكر الصّليبي .

(2) في طبعة مصر : وأطغاهم .

واحتاط أهل الإسلام بأهل الكفر [55 ظ] والطغيان من كل جانب ، وأطلقوا عليهم السهام ، وعاملوهم بالصِّفاح ، فانهزمت منهم طائفة ، فتبعها أبطال المسلمين ، فلم ينجُ منهم واحد ، واعتصمت الطائفة الأخرى بتلّ يُقال له تلّ حطّين ، وهي قرية عنده وعندها قبر شُعَيْب ، عليه وعلى سائر الأنبياء الصلاة والسلام . فضايقهم المسلمون على التلّ ، وأشعلوا حولهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر ، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل ، فأُسر مقدّموهم ، وقُتل الباقون وأُسروا ، وكان فيمن سلم وأُسر من مقدّميهم الملك جفْري [1] ، والبْرَنْس أرْناط [2] ، وأخو الملك ، والبْرَنْس - وهو صاحب الشَّوبَك - وابن الهَنْفَري ، وابن صاحبة طَبَرِيَّة ، ومُقدّم الدَّاويّة [3] ، وصاحب جُبَيْل ، ومقدّم الإسبتار [4] .

وأما الباقون من المقدّمين فإنهم قُتلوا ، وأما الأدوان فإنهم انقسموا إلى قتيل وأسير ، ولم يسلم منهم إلا من أُسر ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه ، ولقد حكى لي مَنْ أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً معه طُنُب خيمة فيه نيّف وثلاثون أسيراً يجرّهم وحده [56 و] لخذلان وقع عليهم . فأما الذين بقوا من مقدّميهم فنذكر حديثهم .

---

(1) هو ملك القُدْس گي دى لوزينيان Guy de Lusignan ، أما تسميته جفري فهي غلط ، فذاك كان اسم أخيه Geoffroi الذي أُسر معه ، وليس اسمه .

(2) هو رُنو دى شاتيّون Renaud de Châtillon ، صاحب الكَرَك ، تقدم ذكره .

(3) كان مقدّم الداويّة (فرسان الهيكل) جيرار دى ريدفور Le Maître Gérard de Ridefort .

(4) وكان مقدم الإسبتارية روجيه ديه مولان Le Maître Roger des Moulins . أما الإسبتار أو الإسبتارية فهي التسمية العربية لطائفة فرسان المشفى ، وهو تحريف ظاهر للكلمة الفرنسية Hospitaliers ، والإنكليزية Hospitallers ، التي كانت تُطلق في عصر الحروب الصّليبية على طائفة من الفرسان المترهبنين ، كما عُرفوا بفرسان القديس يوحنا . ويشبه هذه الطائفة فرسان الهيكل ، Templiers بالفرنسية وبالإنكليزية Templars ، وسمّاهم المسلمون : فرسان الداويّة . وقامت الطائفتان بدور هام في الحروب الصّليبية ، فكانتا أشبه بالقوات الخاصة المتميزة بقوتها ومراس أفرادها ، وكان يقابلها من حيث القوّة والبأس فرق المماليك السلطانية الفائقة التدريب .

أما القُوْمص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس ، فأصابه ذات الجنب [1] ، فأهلكه الله بها . وأما مقدّمو الإسبتار والدّاويّة فإن السُّلطان اختار قتلهم [2] ، فقُتلوا عن بُكرة أبيهم .

وأما البْرَنْس أرْنَاط فكان السُّلطان قد نَذَرَ أنه إن ظفر به قتله ، وذلك أنه كان عبر به بالشّوْبَك قَفْل من الديار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصُّلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي – صلّى الله عليه وسلم – ، وبلغ ذلك السُّلطان ، فحمله الدِّين والحميّة على أنه نَذَرَ إن ظفر به قتله .

ولما فتح الله تعالى عليه بالنصر والظفر ، جلس السُّلطان في دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن نُصبت ، والناس يتقرّبون إليه بالأسرى وبمن وجدوه من المقدّمين .

ونُصبت الخيمة [3] ، وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله عليه ، ثم استحضر الملكَ جفْري [56 ظ] وأخاه والبْرَنْس أرْنَاط ، وناولَ الملكَ جفْري شُربة من جُلاّب [4] بثلج ، فشرب منها ، وكان على أشدّ حال من العطش ، ثم ناولَ بعضها البْرَنْسَ أرْنَاط ، فقال السُّلطان للترجمان :

قُل للملك : أنت الذي تسقيه ، وإلا أنا ما سقيتُه .

وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل وشرب من مال مَنْ أسره أمِنَ . فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق .

---

(1) أي التهاب الرئة الحاد pneumonia .

(2) وذلك لتعصّبهم الفائق وعداوتهم الشديدة وضراوتهم في الحرب ضدّ أهل البلاد .

(3) حول هذه الخيمة ومثول الملك گي بين يدي صلاح الدِّين انظر صورة الغلاف .

(4) الجلاب لفظة فارسية : گُل – آب ، تعني ماء الورد . انظر لسان العرب ؛ والمعرّب للجواليقي ، ص 106 ؛ والمعتمد في الأدوية للملك المظفر يوسف بن رسول ، ص 71 . وفسّره دوزي في معجمه (Dozy: *Suppl. aux Dict. Arab.*) :

"L'eau dans laquelle on a laissé trempé les raisains secs."

ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عُيِّن لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثم عاد فاستحضرهم ، ولم يبقَ عنده أحد سوى بعض الخدم ، واستحضرهم وأقعد الملك في الدّهليز ، واستحضر البْرِنْس أرْنَاط ، وواقفه على ما قال .

وقال له : ها أنا أستنصر لمحمد عليه الصّلاة والسّلام ! ثم عرض عليه الإسلامَ ، فلم يفعل . ثم سَلَّ النِّمْجَاه [1] وضربه بها ، فحلَّ كتفه ، وتمّم عليه مَنْ حضر ، وعجَّل الله بروحه إلى النَّار ، فأُخذ ورُمي على باب الخيمة [2] .

فلما رآه الملكُ وقد خُرج به على تلك الصُورْة لم يشكّ في أنه يُثّنى به ، فاستحضره [السُّلطان] وطيَّب قلبه ، وقال : لم تَجْرِ عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حدَّه ، فجرى ما جرى .

وبات الناس في تلك الليلة على [57 و] أتمّ سرور ، وأكمل حُبور ، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشّكر له ، والتكبير والتهليل ، حتى طلع الصبحُ في يوم الأحد .

ذكر أخذ قلعة طَبَرَيَّة

ولما كان يوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل - قدّس الله روحه - على طَبَرَيَّة ، وتسلَّم في بقية ذلك اليوم قلعتها ، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء [3] .

---

(1) النمجاه لفظة فارسية : نيمجه ، تعني خنجراً مقوساً يشبه السيف القصير . ويُقال فيها النمجا أو النمشا . راجع معجم دوزي (Suppl. aux Dict. Arab.) .

(2) انظر صورة الغلاف ، وهي صورة قديمة نادرة تمثل استسلام ملك القدس گي دى لوزينيان للسّلطان النّاصر ، وفي الخلف مشهد لقطع رأس الكونت رنو دى شاتيّون (أرناط) .

(3) هذه الفقرة بكاملها والعنوان غير موجودين في طبعة مصر ، وإنما النص هناك متصل بجملة قصيرة : وتسلّم في بقية ذلك اليوم قلعة طبرية وأقام بها إلى يوم الثلاثاء .

ذكر أخذ عكّا [1]

ثم رحل - قدّس الله روحه - طالباً عكّا ، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر . وقاتلها بكرة الخميس مستهلّ جُمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين ، فأخذها ، واستنقذ مَنْ كان فيها من الأسارى ، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر ، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع والتجائر ، فإنها كانت مَظَنَّة التُّجّار .

وتفرقت العساكر في بلاد السّاحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة ، وأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفّورية والنّاصرة ، وكان ذلك لخلوّ الرجال بالقتل والأسر . ولما [57 ظ] استقرّت قواعد عكّا ، واقتسم الغانمون أموالها وأسراها ، سار [السُّلطان] يطلب تِبْنين .

ذكر أخذ تِبْنِين [2]

فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جُمادى الأولى ، وهي قلعة منيعة ، فنصب عليها المناجيق ، وضيق عليها بالزّحف الخناق ، وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم ، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ، ونصره اللهُ عليهم . وتسلّمها

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر . وتقع تبنين في جنوب لبنان ، إلى الشرق من قانا شمالي الجليل الأعلى ، كان بنى قلعتها الصّليبيون ، وأسموها بالفرنسية : Le Toron . وكانت تبنين إقطاعاً تابعاً لمملكة القُدس ، ومن كونتاتها «ابن الهنفري» الذي يذكره ابن شدّاد مراراً في كتابه هذا ، وكان يجيد العربية تماماً . وهو الكونت همفري الرّابع ، زوج إيزابيل Isabelle وليّة عهد مملكة بيت المقدس من بعد أختها الملكة سيبيل Sibylle زوجة الملك گي دى لوزينيان ، وهما أختا الملك السّابق بودوان الرابع ابن الملك أموري الأول . غير أن الأميرة إيزابيل عادت فطلبت الطلاق من همفري ، وتزوّجت بعده من الكونت كونراد دى مونفيراً ، ثم تزوّجت بعد مقتله من الكونت هنري دى شامپاني .

يوم الأحد ثامن عشر من الشهر المذكور عَنْوَةً [1] ، وأسَرَ مَنْ بقي بها بعد القتل ، ثم رحل منها إلى مدينة صَيْدا فنزل عليها ، ومن الغد تسلّمها وهو يوم الأربعاء العشرين من جُمادى المذكور .

ذكر أخذ بَيْرُوت [2]

ثم أقام عليها بحيث قرّر قاعدتها وسار [السُّلطان حتى] أتى بَيْرُوت ، فنازلها يوم الخميس الثاني والعشرين من جُمادى الأولى [2] من سنة ثلاث وثمانين ، فركّب عليها القتال والزَّحف . وضيَّق عليهم الأمر حتى أخذها يوم الخميس التاسع والعشرين من جُمادى الأولى [1] ، وتسلّم [58 و] أصحابه جُبَيْلاً وهو على بَيْرُوت .

ولما فرغ باله من هذا الجانب رأى قَصْدَ عَسْقَلان ، ولم يَرَ الاشتغال بصُوْر بعد أن نزل عليها ومارسها في هذا الوقت ، لأن العسكر كان قد تفرّق في السّاحل ، وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئاً ، وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب ، وكان قد اجتمع في صُوْر كل أفرنجي بقي في السّاحل ، فرأى قصد عَسْقَلان ، لأن أمرها كان أيسر [3] .

---

(1) هذه الكلمات ساقطة من طبعة مصر .

(2) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(3) هنا تتبدّى البراعة الحربية لصلاح الدّين ، فهو برغم نصره الساحق على الصَّليبيين في حطّين ، لم يعمد بعدها فوراً إلى حصار القُدْس ، وإنما رأى المصلحة تقتضي أولاً استئصال شأفة الصَّليبيين في السّاحل ، كعكا ويافا وبيروت وعسقلان ، وذلك لحرمان المدن الصَّليبية الداخلية من منافذها على البحر ، فقطع بذلك الشريان الرئيسي الذي يربطها بالغرب ، ومنع عنها المؤن والنجدات ، ثم شرع بفتحها بعد ذلك رأساً . وهذا ما تم له بالفعل ، ولم يستعص عليه سوى صُوْر وطرابلس . وهنا ، بعد حملتين صليبيتين دام احتلالهما للساحل 90 عاماً ، استطاع صلاح الدِّين القضاء على مملكة القُدْس تماماً ، فلم يعد يبقى منها سوى اسمها ، وأضحت عكّا العاصمة الثانية لمملكة القُدْس .

ذكر أخذ عَسْقَلان [1]

ونازلها يوم الأحد السادس عشر [1] من جُمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ، وتسلّم في طريقه مواضع كثيرة كالرَّمْلَة [2]، ويُبْنى [3] والدَّارُون [4]، وأقام عليها المنجنيقات ، وقاتلها قتالاً شديداً ، وتسلّمها يوم السبت سلخ جُمادى الآخرة من هذه السنة ، وأقام عليها إلى أن تسلّم أصحابهُ غَزَّة وبيت جبرين والنّطرون بغير قتال .

وكان بين فتوح عَسْقَلان وأخذ الإفرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثون سنة ، فإن العدوّ ملكها في سبعة وعشرين من جُمادى الآخرة ، سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

[58 ظ] ذكر فتح القُدْس المُبارك الشَّريف
حرسها الله تعالى

ولما تسلّم عَسْقَلان والأماكن المحيطة بالقُدْس ، شمَّر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرّقة في السّاحل بعد قضاء لُبانتها من النهب والغارة . فسار نحوه معتمداً على الله ، مفوِّضاً أمره إلى الله ، منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حثّ على انتهازه إذا فُتح ، بقوله عليه السلام [5] : «من فُتحَ له بابُ خَيْر فلينتهزهُ ، فإنَّه لا يعلم متى يُغلق دُونَهُ» .

---

(1) في طبعة مصر : ونازلها في السادس والعشرين . . إلخ .
(2) الرَّملة بلدة معروفة إلى الشرق من يافا وجنوبي اللُّدّ ، وإلى الغرب منها يُبنى .
(3) يُبْنَى بلدة في فلسطين بالقرب من السّاحل إلى الجنوب من يافا وغربي اللُّدّ ، كانت تُعرف قديماً باسم «يمنيّا» Jamnia ، أقام فيها الصّليبيون وأسموها بالفرنسية إيبلان Ibelin .
(4) الدَّارون أو الدَّاروم ، بلدة بجنوبي السّاحل الفلسطيني ، تقع إلى الجنوب من غزّة .
(5) النص في طبعة مصر : الذي حثّ عليه صلى الله عليه وسلّم بقوله . . إلخ .

وكان نزوله عليه يوم الأحد [1] الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين المباركة ، فنزل بالجانب الغربي ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيّالة والرَّجّالة ، ولقد تحازر أهلُ الخبرة عدّة مَنْ كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النساء والصبيان .

ثم انتقل – رحمه الله – لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي ، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ، ونصب عليه المنجنيقات ، وضايقه بالزَّحف والقتال وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب في السُّور مما يلي وادي جهنم في قرية شماليه .

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم ، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل ، [59 و] وكان قد أُلقي في قلوبهم ممّا جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون ، وبالسيف الذي قُتل به إخوانهم مقتولون ؛ فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان ، واستقرّت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين .

وكان تسلُّمُه – قدّس الله روحه – له في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب [2] ، وليلته كانت المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد ، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسَّر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم – صلّى الله عليه وسلم – إليه ، وهذه علامة قبول هذه الطّاعة من الله تعالى .

وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلقٌ عظيم ، ومن أرباب الخرَق والطُّرُق . وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسَّر الله على يده من فتوح السّاحل ، وشاع قصدُه القُدْسي قَصَده العلماء من مصر ومن الشام بحيث لم يتخلَّف معروفٌ من الحضور ؛ وارتفعت الأصوات بالضجيج والدُّعاء والتهليل والتكبير ، وخُطب فيه

(1) في طبعة مصر : وكان نزوله عليها في الخامس عشر . . إلخ .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

وصُلّيت فيه الجمعة يوم فَتحه [59 ظ] وحُطّ الصَّليب [1] الذي كان على قبّة الصخرة ، وكان شكلاً عظيماً ، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر .

وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم : عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن كل امرأة خمسة دنانير صُوْرية [2] ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً ، فمَنْ أحضر القطيعة سَلمَ بنفسه ، وإلا أُخذ أسيراً . وفرَّج الله عمّن كان أسرى من المسلمين ، وكانوا خلقاً عظيماً ، زُهاء ثلاثة آلاف أسير .

وأقام عليه – رحمه الله – يجمع الأموال ، ويفرّقها على الأمراء والعلماء ، وإيصال مَنْ دفع قطيعته منهم إلى مأمنه ، وهو صُوْر .

ولقد بلغني [أنه] – رحمة الله عليه – رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال شيء [3] ، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .

* * * * *

(1) هو المعروف بصليب الصَّلبوت ، وقد وصفه أبو شامة المقدسي في الروضتين (2 : 78) بقوله : وقد غلّفوه بالذهب الأحمر وكلّلوه بالدرّ والجوهر . . إلخ . وتذكر المراجع أن هذا الصَّليب نُقل إلى جزيرة قبرص بعد إجلاء الصَّليبيين عن الشام ، ثم استولى عليه المسلمون عند فتحهم لهذه الجزيرة سنة 1426 م ، على أنه بقي بقبرص . راجع :
Ziada: *The Mamluk Conquest of Cyprus*, p. 102.

(2) تقدّم ذكر الدنانير الذهبية الصُّورية أعلاه ، وذكرنا أنها ضُربت بصُوْر في أيام الدولة الفاطمية . وهذا الدينار الصُّوري كان أقل قيمة من الدينار الذهبي المصري .

(3) أي أنه قام بتفريقه على من حضر من أمرائه وجنده ، مكافأة لهم على حسن بلائهم في معركة حطّين وفتوحات السّاحل والقُدْس الشَّريف .

ذكر قصده صُوْر
يسَّر الله فتحها

ولما ثبت قدم السُّلطان بمُلك القُدْس والسّاحل قويت نفسه على قصد صُوْر [1] ، وعلى أنه إن أخّر أمرها ربما اشتدّ ، فرحل سائراً إليها حتى أتى عكّا ، فنزل عليها ، ونظر في أحوالها ، ثم رحل متوجهاً [60 و] إلى صُوْر يوم الجمعة خامس شهر رمضان ، وسار حتى أشرف عليها ، ونزل قريباً منها ينتظر وصول آلات القتال .

ذكر وصول ولده الظاهر إليه [2]

وكان لما تحرَّر عزمه على قصد صُوْر سَيَّرَ إلى ولده الملك الظاهر يستحضره ، فإنه كان قد تركه بمحروسة حلب ليسدَّ ذلك الجانب ، لاشتغاله هو بأمر السّاحل ، فقدم عليه في ثامن عشر شهر رمضان على تلك المنزلة ، وسُرَّ بوصوله سروراً عظيماً .

* * * * *

(1) الذي جرى بعد ذلك أن مدينة صُوْر (في السّاحل الجنوبي للبنان) قد تمكنت من مقاومة حصار صلاح الدِّين ، ونجح المركيز كونراد دى مونفيراً Conrad de Monferrat في الحفاظ عليها ، فكانت هي الوحيدة الناجية من مملكة القُدْس اللاتينية بأكملها . وأضحت بعد ذلك نقطة الارتكاز التي انطلقت منها الحملة الصّليبية الثالثة لإعادة احتلال المدن السّاحلية - وخاصّة عكّا - بقيادة ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد وملك فرنسا فيليب أوكست . أما كونتيّة طرابلس فقد سقطت بأكملها عقب معركة حطّين ، ما عدا مدينة طرابلس نفسها وطرطوس وحصن الأكراد ؛ وأما إمارة أنطاكية فانحسرت إلى مدينة أنطاكية ذاتها بالإضافة إلى قلعة المرقب .

(2) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

ذكر نزوله على صُوْر [1]

ولما تكاملت عنده آلات القتال من المناجيق والدَّبابات والستائر وغير ذلك ، نزل عليها ثاني وعشرين من شهر رمضان [2] ، وضايقها وقاتلها قتالاً عظيماً ، واستدعى أسطول مصر ، وكان يحاصرها من البحر ، والعسكر من البر .

وكان قد خلَّف أخاه الملك العادل في القُدْس يقرّر قواعده ، فاستدعاه ، فوصل إليه في خامس شوّال ، وسَيَّر مَنْ حاصر هُوْنين ، فسُلّمت بأمان في ثالث وعشرين من شوّال سنة ثلاث وثمانين [3] .

ذكر كسرة الأسطول [4]

[60 ظ] وذلك أنه قدّم على الأسطول إنساناً يقال له «الفارس بَدْران» ، وكان ناهضاً جلداً في البحر ، وكان رئيس البحريين يقال له : «عبد المحسن» . وكان قد أكّد عليهم الوصية في أخذ حذرهم وتيقُّظهم ، لئلا تُنتهز منهم فرصة ؛ فخالفوه ، وغفلوا عن أنفسهم في الليل ، فخرج أسطول الكفار من صُوْر وكبسهم ، وأخذوا المقدّمين ، وأخذوا منهم خمس قطع ، وقتلوا خلقاً عظيماً من الأسطول الإسلامي ، وذلك في سابع وعشرين من شوّال .

* * * * *

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : في الثامن والعشرين .
(3) هذه الجملة غير موجودة في طبعة مصر .
(4) الأسطول كلمة يونانية الأصل ، تهجئتها باللاتينية : Ostolos ، وتُطلق في المراجع العربية على السفن الحربية مجتمعة أو على السفينة الواحدة . انظر شفاء الغليل للخفاجي ، 38 و 119 ؛ ومقدمة ابن خلدون ، 138 ؛ والخطط التوفيقية لعلي مبارك ، 14 : 82 .

فلما علم السُّلطان ما تمّ على المسلمين ضاق عَطَنُهُ ، وكان قد هجم الشتاء ، وتراكمت الأمطار ، وامتنع الناس من القتال من شدّة المطر ، فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر جزءاً من الراحة ، ويستعدوا لهذا الأمر استعداداً جديداً ، فرأى ذلك رأياً ، فرحل عنها بعد أن رمى المنجنيقات وسَيَّرها ، وأحرق ما لا يمكن نقله [1] .

وكان رحيله يوم الأحد ثاني ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، ففرَّق العساكر ، وأعطاها دُستوراً ، وسار كلٌّ قوم إلى بلادهم . وأقام هو مع جماعة من خواصه [61 و] بعكّا ، حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

ذكر نزوله على كَوْكَب

ولما دخلت عليه هذه السنة المباركة ، رأى الاشتغال بهذه الحصون الباقية التي لهم ، مما يضعف قلوب مَنْ في صُوْر ويُنْهي أمرها به ، فاشتغل بذلك ، ونزل على كَوْكَب [2] في أوائل المحرّم سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

وكان سبب بدايته بكَوْكَب أنه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن تدخل إليهم قوّة أو جماعة ، فخرج الإفرنج ليلاً ، وأخذوا غرّتهم ، وكبسوهم بعَفْرَبَلا [3] ، وقتلوا مقدّمهم ، وكان من الأمراء ، يُعرف بسيف الدِّين

---

(1) كان من جرّاء تأجيل فتح مدينة صُوْر أنها أضحت قاعدة الصَّليبيين لاسترداد عكّا وأجزاء أخرى من السّاحل في الحملة الصَّليبية الثالثة ، ثم بقيت بيد الفرنجة حتى اللحظة الأخيرة من احتلالهم للساحل الشامي ، فسقطت أخيراً تحت ضربات المماليك بقيادة السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون ، في جُمادى الأولى 690 هـ (أيار 1291 م) ، بعد بضعة أيام من سقوط عكّا الحصينة العاصمة الثانية لـ «مملكة القُدْس» ، التي لم تكن حتى القُدْس نفسها جزءاً منها بعد أن فتحها المسلمون مرتين . وبذلك انتهى الاحتلال الصَّليبي نهائياً وزال عن بلاد الشام ، بعد أن دام فيها قرابة المئتي عام .

(2) تقع قلعة كوكب إلى الجنوب الشرقي من النَّاصرة ، وإلى الشمال من بيسان .

(3) ذكرها ياقوت في معجم البلدان (4 : 131) : بلدٌ بغور الأردنّ قرب بيسان وطبريّة .

أخي الجاولي ، وأخذوا أسلحتهم ، فسار – رحمه الله – من عكّا ، ونزل عليها بمَنْ كان قد بقي معه من خواصه بعكّا ، فإنه كان قد أعطى العساكر دُستوراً ، وعاد أخوه الملك العادل إلى مصر ، وعاد ولده الملك الظاهر إلى محروسة حلب ، ولقي في طريقه شدّة من الثلج والبرد ، فحملت السُّلطان مع ذلك – رحمة الله عليه – الحميّة على النزول عليها ، وأقام يقاتلها مدّة .

وفي تلك المنزلة وصلتُ [61 ظ] إلى خدمته ، فإني كنتُ قد حججتُ سنة ثلاث وثمانين [1] وخمسمائة ، وكانت وقعةُ ابن المقدّم [2] ، وجُرح يوم عرفة على عرفة ، لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج كُمُشْتكين [3] على ضرب الكُوْس والدَّبدبة ، فإن أمير الحاج نهاه عن ذلك ، فلم ينته ابن المقدّم ، وكان من أكبر أمراء الشام ، وكان كثير الخير كثير الغزاة ، فقدَّر الله أنه جُرح يوم عرفة بعرفة ، ثم حُمل إلى منى مجروحاً ، ومات بمنى يوم الخميس ، يوم عيد الله الأكبر ، وصُلّي عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم ، ودُفن بالمَعْلاَ ، وهذا من أتم السّعادات ، وبلغ ذلك السُّلطان فشقَّ عليه .

ثم اتفق لي العَوْد من الحج على الشام لقصد القُدْس وزيارته ، والجمع بين زيارة النبي – صلّى الله عليه وسلم – وزيارة أبيه إبراهيم – عليهما السلام – ، فوصلتُ إلى دمشق ثم خرجتُ إلى القُدْس ، فبلغه خبرُ وصولي ، فظن أنني وصلتُ من جانب الموصل في حديث ، فاستحضرني عنده ، وبالغ في الإكرام والاحترام .

---

(1) ينص المؤلف هنا على أنه حج في سنة 583 هـ .

(2) هو الأمير الكبير شمس الدِّين محمد بن عبد الملك ابن المقدّم ، باني المدرسة المقدّمية داخل باب الفراديس بدمشق ، وكانت له بقربها دار كبيرة وتربة ، ترجم له الذهبي في العبر والأسدي في تاريخه وابن كثير في البداية والنهاية . راجع : الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ، 1 : 594 . وبدمشق بحي الصالحية غربي التكية السليمية حيٌّ وحمّام ينسبان إلى ابن هذا الأمير ، وهو فخر الدِّين إبراهيم ابن المقدّم ، توفي سنة 597 هـ .

(3) ذكر الذهبي في كتاب العبر في خبر مَن غبر : أمير ركب العراق طاشتكين .

ولما ودّعته ذاهباً إلى القُدْس ، خرج إلي بعض خواصه ، وأبلغني تقدّمه إليَّ بأن أعود أمْثُل [1] في خدمته عند العود من القُدْس [62 و] ، فظننتُ أنه يوصيني بمهمٍّ إلى الموصل المحروسة ، وانصرفتُ إلى القُدْس الشَّريف – حرسه الله تعالى – يوم رحيله عن كَوْكَب ، ورحل لأنه علم أن هذا الحصن لا يؤخذ إلا بجمع العساكر عليه ، وكان حصناً قوياً وفيه رجال شداد من بقايا السيف ، وميرة عظيمة ، فرحل إلى دمشق ، وكان دخوله إليها في سادس ربيع الأول سنة أربع وثمانين .

وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إلى محروسة دمشق عائداً من القُدْس [2] الشَّريف ، فأقام – رحمة الله عليه – في دمشق خمسة أيام ، فكان له عنها ستة عشر شهراً .

وفي اليوم الخامس بلغه خبر الإفرنج أنهم قصدوا جُبَيْلاً [3] واغتالوها ، فخرج منزعجاً [4] ساعة بلوغ الخبر ، وكان قد سَيَّر إلى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب ، وسار يطلب جُبَيْلاً ، فلما عرف الفرنج بخروجه كفُّوا عن ذلك .

وكان بلغه وصولُ عماد الدِّين زنكي ، وعسكر الموصل ومظفّر الدِّين ابن زين الدِّين إلى حلب قاصدين الخدمة للغزاة ، فسار نحو حصن الأكراد [5] في طلب السّاحل الفوقاني .

---

(1) في طبعة مصر : أمْثل .

(2) يحدد المؤلف هنا تاريخ سفره إلى القُدْس وتاريخ عودته منها .

(3) أي الفرنجة الذين تجمعت فلولهم في كل من طرابلس وصور ، اللتين تمكنتا من النجاة من حملات صلاح الدِّين عقب معركة حطّين . وأما جُبيل فتقع على السّاحل اللبناني إلى الشمال من بيروت على الطريق الآخذ باتجاه طرابلس ، وقد أطلق الصّليبيون بالفرنسية عليها اسم : Giblet ، وهي نفسها بيبلوس القديمة إحدى حواضر الفينيقيين .

(4) في طبعة مصر : مسرعاً .

(5) حصن الأكراد هو المعروف في أيامنا بقلعة الحصن ، شرقي طرطوس ، بين مدينتي حمص وصافيتا ، بناه الصّليبيون عام 1142 م وأطلقوا عليه اسم : Crac des Chevaliers ، وكان أكبر حصون فرسان المشفى (الإسبتارية) ، وقد استعصى فتحه على صلاح الدِّين وأعقابه ، ثم فتحه الظاهر بيبرس أخيراً في رمضان من عام 670 هـ (نيسان 1271 م) .

[62 ظ] ذكر دخوله السّاحل الأعلى
وأخذه اللاذقية وجَبْلَة وغيرها

ولما كان مستهلّ ربيع الآخر ، نزل على تلّ قبالة حصن الأكراد ، ثم سَيَّر إلى الملك الظاهر ولده والملك المظفّر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب ، فسارا حتى نزلا بتيزين في هذا التاريخ [1] ، وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بخدمة السُّلطان في هذه المنزلة ، ووصلتُ إليه في هذه المنزلة ، فإنه كان قد سَيَّر إلى دمشق يقول : تلحقنا نحو حمص ، فخرجتُ على عزم المسير إلى الموصل متجهزاً لذلك فوصلت إليه امتثالاً لأمره ، فلما حضرتُ عنده فرح بي وأكرمني .

وكنتُ قد جمعتُ له كتاباً في الجهاد [2] بدمشق مدّة مقامي فيها ، يجمع أحكامه وآدابه ، فقدَّمتُه بين يديه فأعجبه ، وكان يلازم مطالعته ؛ وما زلتُ أطلب دُستوراً في كل وقت وهو يدافعُني عن ذلك ، ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ، ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناءه [عليّ] [63 و] وذكره إياي بالجميل ؛ فأقام في منزلته ربيعاً الآخر جميعه ، وصعد في أثنائه إلى حصن الأكراد وحاصرها يوماً يجسّها به [3] ، فما رأى الوقت يحتمل حصاره .

واجتمعت العساكر من الجوانب ، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين ، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر ، وتقويةً للعساكر [4] بالغنائم ، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر : إنا داخلون إلى السّاحل وهو قليل الأزواد ، والعدوّ يحيط بنا في بلاده من سائر الجوانب ، فاحملوا زاد شهر .

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(2) هذه إشارة هامة إلى الكتاب الذي صنّفه المؤلف لصلاح الدِّين : «فضائل الجهاد» ، تقدّم ذكره . لم يُنشر إلى الآن ، ومنه نسخة خطّية في مكتبة Köprülü باستانبول ، راجع مقدمة التحقيق .

(3) في طبعة مصر : وحاصرها يوم مجيئه بها .

(4) بالأصل : تقوية العساكر .

ثم سيَّر إليّ مع الفقيه عيسى ، وكشف إليّ أنه ليس في عزمه أن يمكّنني من العود إلى بلادي ، وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيتهُ وحب الجهاد فأجبتُه إلى ذلك ، وخدمتهُ من تاريخ مستهلّ جُمادى الأولى سنة أربع وثمانين [1] - وهو يوم دخوله السّاحل - ، وجميع ما حكيتهُ قبلُ إنما هو روايتي عمّن أثق به ممّن شاهده .

ومن هذا التاريخ ما أُسطِّرُ إلا ما شاهدتُه أو أخبرني به من أثقُ به خبراً يقارب العَيَان [2] ، والله الموفّق .

[63 ظ] ذكر دخوله
- رحمة الله عليه - إلى السّاحل [3]

ولما كان يوم الجمعة رابع عشر جُمادى الأولى رحل - رحمة الله عليه - إلى تعبية لقاء العدوّ ، ورَتَّبَ الأطلاب ، وسارت المَيْمَنَة أولاً ، ومقدَّمها عماد الدِّين زنكي ، والقلبُ في الوسط ، والميسرة في الأخير ، ومقدَّمها مظفَّر الدِّين بن زين الدِّين ؛ وسار الثَّقْل في وسط العسكر حتى أتى المنزل ، فبتنا تلك اللّيلة في بلد العدوّ . ثم رحل في صبيحة السبت [4] ونزل على العُرَيْمَة فلم يقاتلها ، ولم يعرض لها ، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت ، ورحل عنها يوم الأحد [4] .

* * * * *

---

(1) هذا نص هام يحدد المؤلف فيه بدء اتصاله بخدمة صلاح الدِّين .
(2) وهذا هنا بالضبط ما يضفي على كتاب ابن شدّاد تلك القيمة الفائقة كشاهد عيان ثَبْت .
(3) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(4) هذه العبارات ساقطة في طبعة مصر .

ذكر فتح أنطرسوس [1]

وكان وصوله – رحمة الله عليه – إلى أنطرسوس ضاحي نهار الأحد سادس جُمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، فوقف قُبالتها ينظر إليها ، وكان في عزمه الاجتياز ، فإنه كان له عمل بجَبْلَة ، فاستهان بأمرها ، فعزم على قتالها . فسَيَّر مَنْ ردّ المَيْمَنَة ، وأمرها بالنزول على جانب البحر وأمر المَيْسَرَة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ، ونزل هو في موضعه ، [64 و] وصارت العساكر محدقة بها من البحر إلى البحر ، وهي مدينة راكبة على البحر ، ولها بُرجان [2] كالقلعتين حصينان [1] . وكان رأس المَيْمَنَة عماد الدِّين صاحب سنْجَار ، ورأس المَيْسَرَة مظفَّر الدِّين بن زين الدِّين ، وركب – رحمة الله عليه – وقارب البلد ، وأمر الناس بالزَّحف والقتال ، فلبسوا لأمَةَ [3] الحرب واشتدّ عليها الحرب والقتال والزَّحف ، وضايقهم وباغتهم . فما استتبَّ نَصْبُ الخيم حتى صعد الناسُ السُّور وأخذها سيفاً وغنم العسكر جميع مَنْ بها وما بها ، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم ، وترك الغلمانُ نَصْبَ الخيم ، واشتغلوا بالنهب والكسب ، ووفى بقوله – رحمه الله تعالى – فإنه كان قد عُرض عليه الغداء ، فقال : نتغدَّى بأنطرسوس إن شاء الله .

وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً ، وحضرنا عنده للهناء بما جرى ، ومُدَّ الطعام وحضر النّاس ، وأكلوا على عادتهم . ورتّب على البُرجين الباقيين الحصار ، فسلّم أحدهما إلى مظفَّر الدِّين ، فما زال يحاصره حتى أخربه [4] وأخذ مَنْ كان

---

(1) أنطرسوس هو الاسم القديم لمدينة طرطوس الحالية بالسّاحل السُّوري جنوبي جَبلة وبانياس . ذكرها ياقوت في معجمه (1 : 270) : بلد من سواحل بحر الشام ، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد السّاحلية وأول أعمال دمشق .

(2) في طبعة مصر : برجان .

(3) اللأمة : الدرع ، وقيل السِّلاح ، وقيل الدرع الحصينة ، سمّيت لأمة لإحكامها وجودة حلقاتها . وقيل هي السِّلاح كله ، ولأمة الحرب : أداته . انظر لسان العرب لابن منظور ؛ وحلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل الأندلسي ، ص 238 .

(4) في طبعة مصر : أخرجه .

فيه . وأمر السُّلطان بإخراب سور البلد ، وقسَّمه على الأمراء ، وشرعوا في [64 ظ] خرابه ، وأخذ في محاصرة البرج الآخر ، وكان حصناً منيعاً مبنياً بالحجر النَّحيت ، وقد اجتمع مَنْ كان فيها من الخيّالة [1] والمقاتلة فيه ، وخندقه يدور فيه الماء ، وفيه جُروخ [2] كثيرة تجرح الناس عن بعد ، وليس له قدر يجرح عليه مسلم .

فرأى السُّلطان تأخير أمره والاشتغال بما هو أهم منه ، فاشتدّ في خراب السُّور حتى أتى عليه ، وخرّب البَيْعة [3] ، وهي بَيْعةٌ عظيمة عندهم محجوجٌ إليها من أقطار بلادهم ، وأمر بوضع النار في البلد ، فأُحرق جميعه حتى كانت تعجّ النار في أدره وبيوته ، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير ، فأقام عليها يخربها إلى رابع عشر جُمادى الأولى . وسار يريد جَبْلَة ، وكان عرض له ولدُه الملك الظاهر في أثناء طريق جَبْلَة ، فإنه طلبه وأمره أن يحضر معه جميع العساكر التي كانت بتِيْزِين ، فحضر وهم في خدمته .

ذكر فتوح جَبْلَة

وكان وصوله – قدّس الله روحه – إليها في ثامن عشر [65 و] في يوم الجمعة وما استتم نزول العسكر حتى أخذ البلد ، وكان فيه مسلمون مقيمون فيه ، وقاض يحكم بينهم [4] ، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع ؛ وبقيت القلعة ممتنعة ، ونزل العسكر مُحدقاً بالبلد وقد دخله المسلمون ، واشتغل بقتال القلعة فقوتلوا قتالاً يقيم عذراً لمن كان فيها ، وسلّمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر جُمادى الأولى ، وأقام عليها إلى ثالث عشرين الشهر المذكور ، وسار عنها يطلب اللاذقية .

---

(1) في طبعة مصر : من الخيالة والبطارقة والمقاتلة .
(2) تقدم ذكر قسيّ الجروخ وتفسير معناها آنفاً .
(3) أي كاتدرائيّة نوتردام بطرطوس الشهيرة إلى أيامنا ، بناها الصَّليبيون في القرن 12–13 م .
(4) يدل النص على أن المسلمين في المدن الخاضعة للصليبيين كان يحكم بينهم قاض منهم .

ذكر فتوح اللاذقية

وكان نزولنا [1] عليها يوم الخميس رابع عشرين جُمادى الأولى سنة أربع وثمانين ، وهي بلدٌ مليحٌ خفيفٌ على القلب ، غير مستور ، وله ميناء مشهور ، وله قلعتان متّصلتان على تلّ يشرف على البلد . فنزل - رحمة الله عليه - مُحدقاً بالبلد ، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد ، واشتدّ القتال ، وعظم الزَّحف ، وارتفعت الأصوات ، وقوي الضجيج إلى آخر النهار ، وأخذ البلد دون القلعتين ، وغنم الناس منه [65 ظ] غنيمة عظيمة ؛ فإنه كان بلد التجار ، وفرّق بين الناس اللّيلُ وهجومه .

وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في أخذ النقوب ، وأخذت النقوب يوم الجمعة من شمالي القلاع ، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله - على ما حكى لي مَنْ ذَرَعَهُ - ستين ذراعاً ، وعرضه أربعة أذرع ، واشتدّ الزَّحف عليهم حتى صعد الناس الجبل ، وقاربوا السُّور ، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة باليد ، فلما رأى عدو الله ما حلَّ به من الصَّغار والبَوار استغاثوا بطلب الأمان عشيَّة الجمعة خامس عشر الشهر ، وطلبوا قاضي جَبْلَة فدخل إليهم ؛ ليقرّر لهم قاعدة الأمان ، فأُجيبوا إلى ذلك .

وكان - رحمه الله - متى طُلب منه الأمانُ لا يبخل به ، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب ، فباتوا إلى صبيحة السبت . ودخل قاضي جَبْلَة إليهم ، واستقرّ الحال معهم على أنهم يطلقون بنفوسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم - خلا الغلال والذخائر وآلات السِّلاح والدّواب - وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم ، وأُجيبوا إلى [66 و] ذلك ، ورقي عليها العَلَمُ الإسلامي المنصُوْر في بقية السبت المذكور المبارك ، وأقمنا عليها إلى يوم الأحد سابع عشرين جُمادى الأولى .

(1) هذا مثال آخر على مشاركة المؤلف بنفسه في مسيرة الجهاد تحت قيادة السّلطان النّاصر .

ذكر فتوح صهيَون

ورحل عن اللاذقية ظهيرة الأحد المذكور طالباً صهيـون [1] المحروسة ، فكـان النُّزول عليها يوم الثلاثاء تاسع عشرين جُمادى المذكورة ، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الأربعـاء [2] ، ونصب عليهـا ستة مناجيق ، وهي قلعة حصينة منيعة وهي في طرف جبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد ، مقدار طوله ستون ذراعاً ولا يُبلـغ [3] ، وهو نقرٌ في صخر ، ولها ثلاثة أسوار ، سور دون رَبَضها ، وسور دون القلّة ، وسور القلّة . وكان على قلّتها [4] عَلَمٌ طويل منصوب ، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدتُه وقد وقع ، فاستبشر المسلمون بذلك ، وعُلم أنه النصر والفتح ، واشتدّ القتال عليها من سائر الجوانب ، فضربها [66 ظ] ولده الملك الظاهر ، صاحب حلب [5] ، وكان قد لحقه قبيل جَبْلَة بجحفله وعسكره وحضر فتوحها ، وكان نصب على صهيون منجنيقاً قبالة قرنيه من سورها قاطع الوادي ، وكان صائب الحجر ، فلم يزل يضربها حتى هدم من السُّور قطعة عظيمة يمكّن الصاعد في السُّور من الترقي إليه منها .

ولما كان بُكرة الجمعة ثاني جُمادى الآخرة عزم السُّلطان – رحمة الله عليه – على الزَّحف ، وركب وتقدّم ، وأمر المنجنيقات أن تتواتر بالضرب ، وارتفعت الأصوات ، وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل ، وما كان إلا ساعة حتى رقي المسلمون على أسوار الربَض ، واشتدّ الزَّحف ، وعظم الأمر ، وهجم المسلمون الربَض .

---

(1) هي القلعة المعروفة في أيامنا بقلعة صلاح الدِّين ، في منطقة الحفّة شرقي اللاذقية .

(2) النص في طبعة مصر : واستدارت العساكر بها من سائر نواحيها في التاسع والعشرين .

(3) في طبعة مصر : أو أكثر .

(4) في طبعة مصر : القلعة .

(5) النص في طبعة مصر : فضربها بمنجنيق الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان نصب منجنيقاً قريباً من سورها فقطع الوادي .

ولقد كنتُ أشاهد الناس وهم يأخذون القُدُور ، وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهم يقاتلون القلعة ، وانضم مَنْ كان في الرَّبَض إلى القلعة و[حملوا] ما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم ، ونُهب الباقي ، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة .

ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان ، ووصل خبرهم إلى السُّلطان ، فبذل لهم الأمان وأنعم عليهم ، أن يسلموا [67 و] بأنفسهم وأموالهم ، ويؤخذ من الرّجل منهم عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن الصغير ديناران ، وسلّمت القلعة - ولله الحمد - ، وأقام السُّلطان عليها حتى تسلّم عدّة قلاع ، كالعيذو [1] ، ويلاطنس [2] وغيرهما من القلاع والحصون ، وتسلّمها النوّاب ، فإنها كانت تتعلّق بصهيون .

ذكر فتح بكّاس

ثم رحل - رحمة الله عليه - وسرنا حتى أتينا سادس جُمادى الآخرة بكّاس ، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي [3] ، ولها نهر يخرج من تحتها ، وكان النزول بذلك المنزل على شاطىء العاصي . وصعد السُّلطان جريدةً إلى القلعة ، وهي على جبل يطل على العاصي ، فأحدق بها من كل جانب ، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزَّحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جُمادى الآخرة ، ويسَّر الله فتحها عَنْوَةً ، وأسر مَنْ فيها بعد قتل مَنْ قُتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها .

---

(1) العيذو : قرية تقع على السّفوح الغربية الدُّنيا لجبال اللاذقية في السّاحل السوري ، وعلى مهماز في السّفح الشمالي من ضهرة الكروم الحمر ، غير بعيد عن قلعة صهيون (المعروفة بقلعة صلاح الدّين) . تتبع ناحية كنسبًا ، منطقة الحفّة . وتُسمّى في أيامنا : العيدو .

(2) في طبعة مصر : كالعيد ، وفيحه ، وبلاطينس .

(3) تقع بكّاس إلى الشمال من بلدة جسر الشغور ، وتشرف على نهر العاصي .

وكان لها قلعة تُسمّى الشُّغْر قريبة منها يُعبر إليها منها بجسر ، وهي في [67 ظ] غاية المنعة ليس إليها طريق ، فسُلِّطت عليها المنجنيقات من الجوانب ، ورأوا أنهم لا ناصر لهم ، فطلبوا الأمان ، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشر ، وسألوا أن يؤَخَّرُوا ثلاثة أيام لاستئذان مَنْ بأنطاكية ، فأذن في ذلك . وكان تمام فتحها وصعود العَلَم السُّلطاني على قلّتها يوم الجمعة سادس عشر .

ثم عاد السُّلطان إلى الثَّقْل ، وسَيَّر ولده الملك الظاهر إلى قلعة سرمانية يوم السبت سابع عشره ، فقاتلها قتالاً شديداً ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وتسلّمها يوم الجمعة ثالث عشرين الشهر المذكور ، فاتفقت فتوحات السّاحل من جَبْلَة إلى سرمانية [1] في أيام الجمع ، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السُّلطان ، حيث يُسِّرَ له الفتوح في اليوم الذي يُضاعَفُ فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية ، ولم يتفق مثلها في التاريخ .

ذكر فتح برزية

[68 و] ثم سَيَّر السُّلطان جريدةً إلى قلعة برزية [2] ، وهي قلعة حصينة في غاية القوّة والمنعة على سنّ جبل شاهق يُضرب بها المثل في جميع بلاد الإفرنج والمسلمين ، يحيط بها أودية من سائر جوانبها ، وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ، ثم جدَّد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعى الثَّقْل ، فكان وصول الثَّقْل وبقية العسكر يوم السبت رابع عشرين جُمادى الآخرة ، ونزل الثَّقْل تحت جبلها .

---

(1) تقع السّرمانية على السفح الشرقي الأدنى لجبال اللاذقية ، وتطل على القسم الشمالي من سهل الغاب .

(2) تقع قلعة برزيّة على المنحدر الشرقي لجبال اللاذقية ، وتطل على الغاب قرب بلدة صلنفة شرقاً .

وفي بكرة الأحد خامس عشرين منه صعد السُّلطان جريدةً مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل ، فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها ، وركّب القتال عليها من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً . وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء سابع وعشرين منه ، فقسّم العسكر ثلاثة أقسام ، ورتّب كل قسم يقاتل شطراً من النهار ، ثم يستريح ، ويتسلّم القتال القسم الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلاً .

وكان صاحب النوبة [68 ظ] الأولى عماد الدِّين – صاحب سِنْجَار – فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته ، وضرس الناس من القتال ، وتراجعوا عنه .

وتسلّم النوبة الثانية السُّلطان بنفسه ، وركب وتحرك خطوات عدّة ، وصاح في الناس ، فحملوا عليها حملة الرّجل الواحد ، وصاحوا صيحة الرّجل الواحد ، وقصدوا السُّور من كل جانب ، فلم يكن إلا بعض ساعة وقد رقي الناس على الأسوار ، وهجموا القلعة ، وأخذت عَنْوَةً ، واستغاثوا : «الأمان» ، وقد تمكنت الأيدي منهم ، ﴿فلم يكُ ينفعُهم إيمانُهم لما رأوا بأسنا﴾ (1) ، ونُهب جميع ما فيها ، وأُسر جميع مَنْ كان فيها ، وكان قد آوى إليها خلق عظيم ، وكانت من قلاعهم المذكورة ، وكان يوماً عظيماً .

وعاد الناسُ إلى خيامهم غانمين بحمد الله تعالى ، وعاد السُّلطان إلى الثَّقْل فرحاً مسروراً ، وأحضر بين يديه صاحب القلعة ، وكان رجلاً كبيراً منهم ، وكان هو ومَنْ أُخذ من أهله سبعة عشر نفساً ، فمَنَّ عليهم السُّلطان ورقَّ لهم ، [69 و] وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية ، استمالةً له ، فإنهم كانوا يتعلّقون به ومن أهله .

* * * * *

(1) سورة غافر ، الآية 85 .

ذكر فتح دَرْبَسَاك

ثم سار – قدّس الله روحه – [1] حتى أتى جسر الحديد ، وأقام عليه أياماً ، وسار حتى نزل على دَرْبَسَاك يوم الجمعة ثامن شهر رجب [2] سنة أربع وثمانين ، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية – يَسَّرَ الله فتحها – فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات ، وضايقها مضايقة عظيمة ، وأخذ النقب تحت برج منها .

وتمكّن النقب منها حتى وقع ، وحموه بالرجال والمقاتلة ، ووقف في الثّغرة رجالٌ يحمونها عمّن يصعد فيها ، ولقد شاهدتُهم وكلما قُتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عوض الجدار مُكشَّفين [3] . فاشتدّ بهم الأمر حتى طلبوا الأمان ، واشترطوا مراجعة أنطاكية ، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير . ورقي عليها العَلَم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشرين رجب ، وأعطاها علَم الدِّين سليمان [69 ظ] بن جَنْدَر ، وسار عنها بكرة السبت ثالث عشرين منه .

ذكر فتح بَغْرَاس

وهي قلعة [4] منيعة أقرب إلى أنطاكية من دَرْبَسَاك ، وكانت كثيرة العدّة والرجال . فنزل العسكر في مرج لها ، وأحدق العسكر بها جريدةً مع أنَّا احتجنا في تلك المنزلة إلى يَزَك يحفظ من جانب أنطاكية ، لئلا يخرج منها مَنْ يهاجم العسكر ، فضرب يَزَك الإسلام على باب أنطاكية بحيث لا يشذّ عنه مَنْ يخرج

(1) في طبعة مصر : ثم رحل حتى أتى .
(2) في طبعة مصر : ثامن شهر رجب .
(3) في طبعة مصر : وهم قيام في عرض الجدار المكشوف .
(4) ذكرها ياقوت في معجمه (1 : 467) : مدينة في لحف جبل اللكّام ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ . وذكر فتح صلاح الدين لها عام 584 .

منها – وأنا ممّن كان في اليَزَك في بعض الأيام لرؤية البلد وزيارة حبيب النّجار المدفون فيها – . ولم يزل يقاتل بَغْرَاس مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان أنطاكية ورقي العلم السُّلطاني [1] عليها في ثاني شعبان من شهور سنة أربع وثمانين .

وفي بقية ذلك اليوم عاد – رحمه الله – إلى المخيم الأكبر ، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح ، فصالحهم لشدة ضجر العسكر وقوّة قلق عماد الدِّين – صاحب سنْجَار – في طلب الدُّستور ، وعُقد الصلح بيننا وبين أنطاكية من بلاد الإفرنج [70 و] لا غير على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم ، وكان إلى سبعة أشهر ، فإن جاءهم مَنْ ينصرهم وإلا سلّموا البلد إلى السُّلطان .

ورحل يطلب دمشق ، فسأله ولده الملك الظاهر – صاحب حلب – أن يجتاز به ، فأجابه ، وسار حتى أتى حلب حادي عشر شعبان ، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام ، وولده يقوم بالضيافة حقَّ القيام ، ولم يبق من العسكر إلا مَنْ ناله من نعمته منال وأكثر حتى أشفق عليه والده [2] .

وسار من حلب رابع عشر شعبان يريد دمشق ، فاعترضه ابن أخيه الملك المظفّر تقي الدِّين ، وأصعده إلى قلعة حماة ، واصطنع له طعاماً حسناً ، وأحضر له سماع الصوفية ، وبات فيها ليلة واحدة ، وأعطاه جَبْلَة واللاذقية .

وسار – رحمة الله عليه – على طريق بعلبك حتى أتى بعلبك ، وأقام بمرجها يوماً ، ودخل إلى حمّامها ، وسار منها حتى أتى محروسة دمشق قبل دخول رمضان بأيام يسيرة ، فأقام بها حتى دخل رمضان ، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد [70 ظ] مهما أمكنه . وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها : صَفَد وكَوْكَب ، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم .

---

(1) في طبعة مصر : الإسلامي . وراية صلاح الدِّين كانت صفراء وحُليتها نسرٌ أحمر .
(2) في طبعة مصر : وأكبر ظني أنه أشفق عليه والده .

ذكر فتح صَفَد

ثم سار في أوائل رمضان من محروسة دمشق يريد صَفَد ، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن في هذا الشهر الذي يسافر الإنسانُ أين كان فيجتمع في هذا الشهر بأهله . اللهم ، إنه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك ، فآته أجراً عظيماً .

فسار حتى أتى صَفَد في أثناء شهر رمضان المبارك ، وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها ، فأحدق العسكر بها ، ونصب عليها المناجيق ، وفي أثناء شهر رمضان سُلِّمت الكَرَك من جانب نوّاب صاحبها [1] ، وخلّصوه بها من الأسر ، وكان قد أُسر في وقعة حطِّين المباركة [2] ، وكانت الأمطار شديدة ، والوحول عظيمة ، ولم يمنعه ذلك عن جدِّه .

ولقد كنتُ عنده في خدمته ليلة ، وقد عيَّن مواضع خمسة مناجيق ، حتى تنصب [71 و] فقال في تلك الليلة : ما ننام حتى تُنصب الخمسة .

وسلَّم كل منجنيق إلى قوم ، ورسله تتواتر إليهم يخبرونه ويعرّفهم كيف يصنعون حتى أظلّنا الصبحُ ونحن في خدمته - رحمة الله عليه - وقد فرغت المنجنيقات ، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها [3] فيها ، فرويتُ له الحديث المشهور في الصِّحاح ، وبشّرته بمقتضاه ، وهو قوله صلّى الله عليه وسلم : «عينان لا تمسُّهما النار : عينٌ باتت تحرس في سبيل الله ، وعينٌ بكت من خشية الله» .

ولم يزل القتال على صَفَد متواصلاً بالنوب مع الصوم ، حتى سلَّمت بالأمان في رابع عشر شوّال من السنة المذكورة .

---

(1) هو الكونت همفري الرّابع سيّد تبنين (ابن الهنفري) ، لكنه لم يكن صاحب الكَرَك حقاً ، بل كانت أمّه ستيفاني دى ميّيي Stéphanie de Milly صاحبة إقطاع شرقي الأردنّ ، التي تزوّجت من رُنو دى شاتيّون (أرناط) فأضحى سيّداً للكرك والشّوبك .

(2) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

(3) أي بكراتها ، وتوهّم الشيال أنها مصحفة عن جنازيرها ، علماً أن كلمة جنزير عامية دخيلة ، مصحّفة عن الفارسية والتركية : زنجير zencir .

ذكر فتح كَوْكَب

ثم سار يريد كَوْكَب ، فنزل على سطح الجبل ، وجرَّد العسكر ، وأحدق بالقلعة ، وضايقها بالكلية ، بحيث اتَّخذ له موضعاً يتجاوزه نُشّاب العدوّ ، وبنى له حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه والنُّشَّاب يتجاوزه [1] ، ولا يقدر أحد يقف على باب خيمته إلا أن يكون ملبّساً [2] . وكانت الأمطار متواترة [71 ظ] ، والوحول عظيمة ، بحيث يمنع الماشي والراكب إلا بمشقّة [عظيمة] ، وعانى شدائد وأهوالاً من شدّة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدوّ متسلطاً عليهم بعُلُوِّ مكانه ، وجُرح وقُتل جماعة ، ولم يزل راكباً مركب الجدِّ حتى تمكَّن النقبُ من سورها .

ولما أحسَّ العدوّ المخذول بالنقب وقد تمكّن من السُّور ، علم أنه مأخوذ [3] فطلب الأمان ، فأجابهم إلى ذلك وأمّنهم ، وتسلّمها في منتصف ذي القعدة . ونزل على الغَوْر إلى الثَّقْل ، وكان قد نزل الثَّقْل من شدّة الوحل والريح في سطح الجبل ، فأقام بقية الشهر يراجعه أخوه الملك العادل في أشغال تخصّه حتى هلَّ هلال ذي الحجة ، وأعطى الجماعة دُستوراً ، وسار مع أخيه الملك العادل يريد القُدْس الشَّريف ، يريد زيارته ووداع أخيه ، فإنه كان عائداً إلى مصر . فوصلا إليه يوم الجمعة ثامن ذي الحجة وصلّيا الجمعة في قبّة الصَّخرة الشَّريفة ، وصلّيا صلاة العيد الأعظم بها أيضاً يوم الأحد ، وعاد إلى خيمه ، وعاد بقية [72 و] يومه .

وسار يوم الإثنين حادي عشر ذي الحجة طالباً عَسْقَلان ، لينظر في أحوالها ويودّع أخاه الملك العادل ، فأقام بها أياماً يَلُمُّ شَعْثها ، ويصلح أحوالها . فودَّع أخاه ، وأعطاه الكَرَك ، وأخذ منه عَسْقَلان ، وعاد يطلب عكّا على طريق السّاحل ، يمرُّ على البلاد يتفقّد أحوالها ، ويودعها الرجال والعُدَد حتى أتى عكّا ،

(1) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .
(2) لم يتمترس صلاح الدين خلف خطوط قوّاته ، بل ها هو كما نرى يباشر الخطر بنفسه .
(3) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

فأقام بها معظم المحرّم سنة خمس وثمانين وخمسمائة يصلح أحوالها ، ورتّب بها بهاء الدِّين قَرَاقُوش والياً ، وأمره بعمارة السُّور والإطناب فيه ومعه حسام الدِّين بشارة [1] وسار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم في عكّا بصدد حفظها ، وسار حتى دخل محروسة دمشق مستهلّ صفر سنة خمس وثمانين وخمسمائة .

ذكر توجهه إلى شقيف أرنون
وهي السفرة المتصلة بواقعة عكّا

وأقام بمحروسة دمشق حتى دخل في ربيع الأول [72 ظ] سنة خمس وثمانين ثلاثة أيام .

ووصله في أثناء ربيع الأول رسول الخليفة الناصر لدين الله يأمره بالخطبة لولده ولي العهد ، فخطب له .

وحرّر عزمه على قصد شقيف أرنون ، وهو موضع حصن قريب من بانياس ، وكان تبريزه بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع ، فسار حتى نزل في مرج فلوس . وأصبح يوم السبت راحلاً حتى أتى مرج برغوث فنزل به ينتظر العساكر ، وأقام به والعساكر تتتابع [2] إلى حادي عشر ، ورحل حتى أتى بانياس ، ثم رحل منها حتى أتى مرج عيون فخيَّم به ، وهو قريب من شقيف أرنون [3] ، بحيث يركب

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(2) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

(3) شقيف أرنون حصن في جنوب لبنان ، يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة صور وإلى الغرب من مرجعيون ومن بانياس وإلى الجنوب من بلدة النبطية ، بناه الصّليبيون وأطلقوا عليه تسمية : Beaufort بالفرنسية ، وتعني : الحصن الجميل . أما اسمه الأصلي فهو سرياني ، وكلمة شقيف (شقيفا) تعني الرّوشن الصخري المشرف على ما دونه ، أما أرنون فتعني التيس الجبلي .

كل يوم يشارفه ويعود ، والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب وأوب ، وكان وصوله بمرج عيون في سابع عشر ربيع الأول المذكور .

فأقمنا أياماً نُشرف كل يوم على الشَّقيف ، والعساكر الإسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعُدَد ، وصاحب الشَّقيف يرى ما يتيقن معه عدم السلامة ، فرأى أن إصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته فنزل بنفسه ، وما أحسسنا به إلا [73 و] وهو قائم على باب خيمة السُّلطان ، فأذن له ، فدخل ، واحترمه وأكرمه ، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها [1] ، وكان يعرف العربية وعنده اطّلاع على شيء من التواريخ والأحاديث ، وبلغني أنه كان عنده مُسلمٌ يقرأ له ويفهّمه [2] ، وكان عنده تأنٍّ .

فحضر بين يدي السُّلطان ، وأكل معه الطعام ، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه ، وأنه تحت طاعته ، وأنه يسلم المكان إليه من غير تعب ، واشترط أن يُعطى موضعاً يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الإفرنج ، وإقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله ، وأن يُمكَّن من الإقامة بموضعه ، وهو يتردّد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حيث يتمكّن من تخليص أهله وجماعته من صُوْر ويأخذ مغلّ هذه السنة [3] . فأُجيب إلى ذلك كله ، وأقام يتردّد إلى خدمة السُّلطان في كل وقت ، ويناظرنا في دينه ونناظره في بطلانه ؛ وكان حَسَنَ المحاورة متأدّباً في كلامه .

وفي أثناء ربيع الأول وصل [73 ظ] الخبر بتسليم الشَّوبَك ، وكان قد أقام السُّلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدّة سنة حتى فرغت أزوادهم ، وسلّموه بالأمان .

---

(1) هو رُنو صاحب صيدا Renaud Garnier, Seigneur de Sidon et du Beaufort . وعن سياسته لعقد هذه الهدنة راجع مفرج الكروب لابن واصل ، 2 : 282 . وراجع : Runciman, *A History of the Crusades*, vol. 2, pp. 469-470.

(2) هذا شاهد له أهميته ، لأنه يدلّ على أن بعض كونتات اللاتين الصَّليبيين في الشام بدأوا يتعلمون اللغة العربية ، ويتأثرون بالثقافة الإسلامية . ومثله في ذلك ابن الهَنْفَري .

(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

ذكر اجتماع الإفرنج لقصد عكّا

وكان السُّلطان اشترط على نفسه حين تسلّم عَسْقَلان أنه إن أمَرَ الملكُ مَنْ بها بتسليمها أطلقه ، فأمرهم بتسليمها ، وسلّموها ، فطالبه الملك بإطلاقه فأطلقه وفاءً بالشرط ، ونحن على حصن الأكراد ، أطلقه من أنطرسوس [1]، واشترط عليه أن لا يُشهر في وجهه سيفاً أبداً ، وأنه يكون مملوكه وطليقه وغلامه أبداً . فنكث - لعنه الله - ، وجمع الجموع ، وأتى صُوْر يطلب الدخول إليها ، فخيَّم على بابها يراجع المَرْكيس الذي كان بها في ذلك ، والمَرْكيس اللعين كان بصُوْر ، وكان رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد في دينه وصرامة عظيمة ، فقال : إنني نائب الملوك الذين وراء البحر ، وما أذنوا لي في تسليمها إليك .

وطالت المراجعة ، واستقرّت القاعدة بينهما على أن يتّفقوا جميعاً [74 و] على المسلمين ، وتجتمع العساكر التي بصُوْر وغيرها من الإفرنجية على المسلمين ، وعسكروا على باب صُوْر .

ذكر الواقعة التي استُشهد فيها أيبك الأخرس

وذلك أنه لما كان يوم الإثنين ، سابع عشر جُمادى الأولى من السنة المذكورة ، بلغ السُّلطان من جانب اليَزَك أن الإفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صُوْر وأرض صَيْدا ، وهي الأرض التي نحن عليها ، فركب السُّلطان ، وصاح الجاووش بالناس ، فركب العسكر يريدون نحو اليَزَك .

فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة وذلك أن الإفرنج عبر منهم جماعةٌ الجسرَ ، فنهض لهم اليَزَك الإسلامي ، وكانوا في قوّة وعدّة ، فقاتلوهم قتالاً

(1) أنطرسوس هو الاسم القديم لطرطوس ، المدينة المعروفة اليوم بالسّاحل السُّوري ، جنوبي جَبلة وبانياس .

شديداً ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وجرحوا أضعاف ما قتلوا ، ورموا في النهر جماعة ، فغرقوا ، ونصر الله الإسلام وأهله .

ولم يُقتل من المسلمين إلا مملوكٌ للسُّلطان يُعرف بأيبك الأخرس [1] ، فإنه استُشهد في ذلك اليوم ، وكان شجاعاً بطلاً باسلاً مجرّباً للحرب ، فارساً ، [74 ظ] تَقَنْطَر به فرسه ، فلجأ إلى صخرة ، فقاتل بالنُّشَّاب حتى فني ، ثم بالسيف حتى قتل جماعةً ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، وَوَجدَ السُّلطان عليه لمكان شجاعته .

وعاد السُّلطان – رحمه الله – من الوقعة إلى خيم كانت قد ضُربت له قريب المكان جريدةً .

ذكر وقعة ثانية
استُشهد فيها جَمْعٌ من رَجَّالة المسلمين

وأقام في تلك الخيم إلى يوم الأربعاء تاسع عشر جُمادى الأولى المذكور ، وركب يتشرّف [2] على القوم – على عادته – فتبع العسكرَ خلقٌ عظيم من الرَّجَّالة والغُزاة والسُّوقة ، وحرص على رَدِّهم ، فلم يفعلوا ، ولقد أمر مَنْ ضَرَبَهم فلم يفعلوا ، وخاف عليهم ، فإن المكان كان حرجاً ليس للرَّاجل فيه ملجأ .

ثم هجم الرَّجَّالة إلى الجسر ، وناوشوا العدوّ ، وعبر منهم جماعةٌ إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع لهم من الإفرنج خلق عظيم وهم لا يشعرون ، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين ؛ فحملوا عليهم حملة واحدة على غرّة من السُّلطان [75 و] ، فإنه كان بعيداً منهم ، ولم يكن معه عسكر ، فإنه لم يخرج بتعبية قتال ، وإنما ركب مستشرفاً عليهم على العادة من كل يوم .

---

(1) اسم أيبك تركي : Ay-bey ، ويعني : قمر – أمير .
(2) يتشرّف : أي يستطلع .

ولما بان له الوقعة ، وظهر له غبارها بعث إليهم مَنْ كان معه ليردّوهم ، فوجدوا الأمر قد فرط ، والإفرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السَّرية التي بعثها السُّلطان ، وظفروا بالرَّجَّالة ظفرة عظيمة ، وجرى بينهم وبين السَّرية قتال شديد ، وأسروا جماعة من الرَّجَّالة ، وقتلوا جماعة ، وعُدَّ مَنْ كان قُتل من الرَّجَّالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً .

وقُتل أيضاً من الإفرنج عدّة عظيمة ، وغرق أيضاً منهم عدّة ، وكان ممّن قُتل منهم مقدَّم الألمانية (1) ، فإنه قُتل في ذلك اليوم ، وكان عندهم عظيماً محترماً .

واستُشهد من المعروفين من المسلمين ابن البصَّار (2) ، وكان شاباً حسناً شجاعاً ، واحتسبه والده في سبيل الله ، ولم تقطر من عينه عليه دمعةٌ - على ما ذكر جماعةٌ لازموه - ، وهذه الوقعة لم يتّفق للإفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتُها وشاهدتُها ، ولم ينالوا من المسلمين [75 ظ] مثل هذه العدّة في هذه المدّة .

ذكر مسيره إلى عكّا جريدةً
وسبب ذلك

ولما رأى السُّلطان - رحمه الله - ما حلَّ بالمسلمين في تلك الوقعة النّادرة ، جمع أصحابه وشَاوَرهم ، وقرّر معهم أنه يهجم على الإفرنج ، ويعبر الجسر ، ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم ، وكان الإفرنج قد رحلوا من صُوْر ، ونزلوا قريب الجسر ، وبين الجسر وصُوْر مقدار فرسخ وزائد على فرسخ .

فلمّا صمَّم العزم على ذلك ، أصبح في يوم الخميس سابع عشرين جُمادى الأولى على ذلك وركب وسار ، وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ، ولما وصل أواخر

---

(1) كان مقدّم العسكر الألمان آنذاك لودڤيك فون تورينگن ، لكنه لم يُقتل في حروب المشرق .
(2) كذا في الأصل ، بينما لدى ابن واصل : الأمير غازي بن سعد الدّين بن النّصّار .

الناس إلى أوائلهم وجدوا اليَزَك عائداً ، وخيامهم قد قُلعت ، فسُئلوا عن سبب ذلك ، فذكروا أن الإفرنج رحلوا راجعين إلى صُوْر ملتجئين إلى سورها ، معتصمين بقربها ، وذلك أنهم لما بلغهم ذلك عادوا خائبين ، فوقع الغنى عن اليَزَك وعادوا [1] .

ولما رأى السُّلطان ذلك منهم ، رأى أن يسير إلى عكّا ليلحظَ ما بُني من سورها ، ويحثَّ على الباقي ، ويعودَ ، فراح على تبْنين ولم يرجع على مرج عيون [2] فمضى إلى عكّا ، ورتَّب أحوالها ، وأمر بتتمّة [76 و] عمارة سورها وإتقانه وإحكامه ، وأمرهم بالاحتياط والاحتراز . وعاد إلى العسكر المنصُوْر إلى مرج عيون ، وأقام بمرج عيون منتظراً مهلة صاحب الشَّقيف ، لعنه الله .

ذكر وقعة أخرى

ولمّا كان يوم السبت سادس جُمادى الآخرة ، بلغه أن جماعة من رَجَّالة العدوّ يسطون ويصلون إلى جبل تبْنين يحتطبون ، وفي قلبه من رَجَّالة المسلمين وما جرى عليهم أمرٌ عظيم ، فرأى أنْ يقرِّر قاعدة وكميناً يرتّبه لهم ، ويأخذهم فيه ، وبلغه أنه يخرج وراءهم أيضاً خيل تحفظهم .

فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع ، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين وتقدَّم إليهم أن يخرجوا في نفر يسير غائرين على تلك الرَّجَّالة ، وأن خيل العدوّ إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عيَّنها لهم ، وأن يكون ذلك صبيحة الإثنين ثامن جمادى الآخرة ، وأرسل إلى عسكر عكّا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدوّ ، حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم .

---

(1) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

(2) مرج عيون بلدة معروفة بالجنوب اللبناني ، إلى الجنوب من جزّين وغربي حاصبيّا ووادي التّيم الواقع بالسفوح الغربية لجبل الشيخ .

وركب هو وجحفله سَحَر يوم الإثنين شاكين في السِّلاح متجردين ، ليس معهم خيمة إلى الجهة التي [76 ظ] عيّنها لهزيمة عسكر تبنين ، وسار حتى قطع تبنين [1] ، ورتّب العسكر ثمانية أطلاب ، واستخرج من كل طَلْب [2] عشرين فارساً من الشجعان الجياد الخيل ، وأمرهم أن يتراءَوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين .

ففعلوا ذلك ، وظهر لهم من الإفرنج معظم عسكرهم يقدمهم الملك - لعنه الله - وكان قد بلغهم الخبر ، فتعبّوا تعبية القتال ، وجرى بينهم وبين هذه السَّرية اليسيرة قتالٌ شديد ، والتزمت السَّريةُ القتال ، وأنفوا عن الانهزام بين أيديهم ، وحملتهم الحمية على مخالفة السُّلطان ولقائهم العدوّ الكثير بذلك الجمع اليسير ، واتصل الحرب بينهم إلى أواخر نهار الإثنين ، ولم يرجع منهم أحد إلى العسكر ليخبرهم بما جرى .

واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر وقد هجم الليل ، فبعث إليهم بعوثاً كثيرة حين علم ضيق الوقت عن المصاف ، وفوات الأمر .

ولما بصر الإفرنج بأوائل المدد قد لحق السَّرية ، عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم ، بعد أن جرت مقتلة عظيمة من الجانبين ، وكانت القتلى من الإفرنج على ما ذكر مَنْ حضر - فإني لم أكن حاضرها - زهاء عشرة أنفس ، ومن المسلمين ستة نفر : [77 و] اثنان من اليَزَك ، وأربعة من العرب ، منهم الأمير زامل ، وكان شاباً تاماً حَسَنَ الشَّباب ، مُقَدَّم عشيرته ؛ وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ، ففداه ابن عمه بفرسه ، فتقنطرت به أيضاً فرسه ، وأُسر هو وثلاثة من أهله . ولما بصر الإفرنج بالمدد للعسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ ، وجُرح خلق كثير من الطائفتين ، وخيلٌ كثيرة .

---

(1) تقدّم ذكرها ، وهي تقع في جنوب لبنان ، إلى الشرق من قانا شمالي الجليل الأعلى ، بنى قلعتها الصَّليبيون وأطلقوا عليها اسم Le Toron .
(2) تقدّم ذكر الأطلاب وشَرْحُ معناها مراراً فيما سبق .

ومن نوادر هذه الوقعة ، أن مملوكاً من مماليك السُّلطان يُقال له أيبك أُثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى ، وجراحاته تشخبُ دماً ، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة إلى صبيحة يوم الثلاثاء ، فتفقّده أصحابه فلم يجدوه فعرّفوا السُّلطان فَقْدَهُ ، فأنفذ مَنْ يكشف خبره ، فوجدوه بين القتلى على مثل هذه الحالة ، فحملوه ونقلوه إلى المخيّم على تلك الحال وعافاه الله . وعاد السُّلطان إلى المخيَّم يوم الأربعاء عاشر الشهر منصوراً ، فرحاً مسروراً .

ذكر أخذ صاحب الشَّقيف
وسبب ذلك

ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشَّقيف [1] فعل ما فعله من المهلة غيلة ، لا أنه صادق في ذلك ، وإنما قصد به تدفيع الزمان ، وظهرت لذلك [77 ظ] مخائل كثيرة من الحرص في تحصيل الميرة وإتقان الأبواب وغير ذلك . فرأى السُّلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويكون بمرأى منه ، يمنع من دخوله نجدة وميرة إليه ، وأظهر أن سبب ذلك شدّة حمو الزمان ، والفرار من وَخَم المرج .

وكان انتقاله إلى سطح الجبل ليلة الجمعة ثاني عشر جُمادى الآخرة ، وقد مضى من الليل ربعه ، فما أصبح صاحب الشَّقيف إلا والخيمة مضروبة ، وبقي بعض العسكر بالمرج على حاله . فلما رأى صاحب الشَّقيف قرب العسكر منه ، وعلم أنه قد بقي من المدّة بقية جُمادى الآخرة ، حدثته نفسه أنه ينزل إلى خدمة السُّلطان ويستعطفه ، ويستزيده في المدّة ، وتخايل له بما رأى من أخلاق السُّلطان ولطافتها أن ذلك يتم . فنزل إلى الخدمة ، وعرض المكان ، وقال : «المدّة لم يبق منها إلا اليسير ، وأي فرق بين التّسليم اليوم أو غداً ؟ . . ومن المصلحة أن يبعث

(1) تقدّم ذكره ، وهو رُنو گارنييه Renaud Garnier ، صاحب صيدا وشقيف أرنون . وسيتّضح أنه بالفعل يضمر الخيانة للسّلطان من بعد عهده له ، فيُلقى به في السّجن .

السُّلطان مَنْ يتسلّم المكان»[1]. وأظهر أنه بقي من أهله جماعة بصُوْر، وأنهم على الخروج منها في هذه الأيام.

وأقام في الخدمة ذلك اليوم إلى الليل، وعاد صاعداً إلى القلعة ولم يُظهر له [78 و] السُّلطان شيئاً، وأجراه على قاعدته[2] ومقتضى مدّته، ثم عاد ونزل بعد أيام وقد قرب انتهاء المدّة والفراغ منها، وطلب الخلوة بالسُّلطان، وسأل منه أن يمهله تمام السنة تسعة أشهر، فأحسّ السُّلطان منه بالغدر، فماطله وما آيسه، وقال: «نفكّر في ذلك، ونجمع الجماعة ونأخذ رأيهم، وما ينفصل الحال عليه نعرِّفُك!».

وضرب له خيمة قريبة من خيمته، وأقام عليه حرساً لا يشعر بهم وهو على غاية من الإكرام والاحترام له، والمراجعة والمراسلة بينهم في ذلك الفن مستمرّة حتى انقضت الأيام، وطولب بتسليم المكان، فكشف له «أنك أضمرتَ الغدر، وجدّدتَ في المكان عمائر، وحملتَ إليه ذخائر»، فأنكر ذلك. واستقرّت القاعدة على أن يُنفذ من عنده ثقته، ويُنفذ السُّلطان ثقته ليتسلّم المكان، وينظر هل تجدد فيه شيء من البناء أم لا.

فمضوا إليه فلم يلتفت أصحابه المقيمون فيه إليهم، ووجدوه قد جدَّد باباً للسور لم يكن، فأُقيم الحرس الشديد عليه، وأُظهر ذلك ومُنع من الدخول إلى الخدمة، وقيل له: قد انقضت المدّة ولابد من التسليم، وهو يغلط عن ذلك ويدافع عن الجواب عنه، ثم عاد وأنفذ إليهم صاحبه [78 ظ] يأمرهم بالتسليم، فأظهروا له العصيان عليه، وقالوا: «نحن نوّاب المسيح لا نوّابك!» فاحتيط على الحصن، وأُقيم عليه من خارجه يَزَك يحفظ الداخل إليه والخارج منه[3].

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر.

(2) في طبعة مصر: عادته وتقضى مدته.

(3) هذه الفقرة كلها ساقطة من طبعة مصر.

ولما كان الأحد ثامن عشر من جُمادى الآخرة سنة خمس وثمانين وفيه اعترف هو بانتهاء المدّة فإنه كان عنده مجاحدة فيما مضى ، قال [1] : «أنا أمضي وأسلّم المكان» . فأُركب بغلة وسار .

وسار معه جمعٌ كثير من الأمراء والأجناد حتى أتى الشَّقيف ، وأمرهم بالتسليم فأبوا ، وطلب منهم قسّيساً ، فخرج إليه ، وحدَّثه بلسانه ثم عاد ، واشتدّ امتناعهم بعد عود القسّيس إليهم ، فظُنَّ أنه أكَّد الوصية على القسّيس في الامتناع [2] .

وأقام ذلك اليوم والحديث يتردّد ، فلم يلتفتوا وأُعيد إلى المخيم المنصُوْر ، وسُيِّر من ليلته إلى بانياس ، وأُحيط عليه في قلعتها . وأحدق العسكر بالشَّقيف مقاتلين ومحاصرين ، وأقام صاحب الشَّقيف ببانياس إلى سادس رجب ، واشتدّ حنق السُّلطان عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره ، ولم يعملوا فيها شيئاً ، فأُحضر إلى المخيم ، وهُدِّد ليلة وصوله بأمور عظيمة ، فلم يفعل .

وأصبح السُّلطان صبيحة الأربعاء ثامن رجب ، ورقي [79 و] إلى سنام الجبل بخيمه ، وهو موضع أشرف على الشَّقيف عن المكان الذي كان فيه أولاً وأبعد من الوَخَم ، وكان قد تغيَّر مزاجه .

ثم بلغنا بعد ذلك أن الإفرنج بصُوْر ومَنْ كان مع الملك قد ساروا نحو النَّواقير يريدون جهة عكّا [3] ، وأن بعضهم نزل بالإسكندرية ، وجرى بينهم وبين رَجَّالة المسلمين مناوشة ، وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً ، وأقاموا هناك .

* * * * *

(1) هذه الفقرة ساقطة من طبعة مصر .
(2) هذا ما يراه ستيفن رنسيمان عن موقف رنو گارنييه ، نقلاً عن ابن شدّاد ، أنه أصدر أمره بالعربية إلى قائد الحامية بالتسليم ، ثم أمره بعكس ذلك بالفرنسية .
(3) النَّواقير المذكورة هي ما يُعرف في عصرنا برأس النّاقورة ، إلى الجنوب من صور .

ذكر وقعة عكّا
- يسّر الله فتحها [1] - وسبب ذلك

ولما بلغ السُّلطان حركة الإفرنج إلى تلك الجهة عَظُم عليه ، ولم يرَ المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيله عن الشّقيف لا قصد المكان . فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد [2] ثاني عشر رجب ، فوصل قاصدٌ وأُخبر [3] أن الإفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصّة ووصل أوائلهم إلى الزّيب [4] ، فعَظُم ذلك عنده ، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف يتقدّم إلى [5] العساكر الإسلامية بالمسير إلى المخيم المحروس . وعاد فجدَّد الكُتُبَ والحثَّ . وتقدّم إلى الثَّقْل أن سار الليل .

وأصبح هو صبيحة الإثنين [6] ثالث [79 ظ] عشر سائراً إلى عكّا على طريق طَبَرِيَّة ، إذ لم يكن ثمَّ طريقٌ يسع العسكر إلا هو ، وسَيَّر جماعة على طريق تبْنين يستشرفون [7] العدوّ ، ويواصلون بأخباره ، وسرنا حتى أتينا الحُولَة منتصَف النهار ، فنزل بها ساعة . ثم رحل ، وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له : المنية ، صباح الثلاثاء الرابع عشر رجب [6] . وفيه بلغنا نزول الإفرنج على عكّا يوم الإثنين ثالث عشر ، وسَيَّر صاحبَ الشّقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه .

---

(1) كانت عكّا هنا لا تزال بأيدي المسلمين ، لكن قول المؤلف «يسَّر الله فتحها» يأتي لاحقاً .
(2) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .
(3) في طبعة مصر : آخر .
(4) في الأصل : الزيت ، والتصويب من معجم البلدان لياقوت (3 : 162) ، حيث عرّف بأنها قرية كبيرة على ساحل بحر الشام قريب عكّا . وقد ذكر الآثاري الفرنسي رنيه دوسّو بأنها قرية على الشاطئ بين عكّا وصور . راجع :
Dussaud, *Topographie Historique de La Syrie Antique et Médiévale*, p. 17.
(5) في طبعة مصر : يتقدمون بالعساكر .
(6) الكلمتان ساقطتان من طبعة مصر .
(7) في طبعة مصر : يستطلعون .

وسار هو جريدةً من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر ، الذي كان أنفذه على طريق تبْنين بمرج صفّورية ، فإنه كان واعدهم إليه ، وتقدّم إلى الثَّقْل أن يلحقه إلى مرج صَفَّورية . ولم يزل حتى شارف العدوّ من الخرّوبة ، وبعث بعض العسكر ، ودخل عكّا على غرّة من العدوّ تقويةً لمن فيها ، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلقٌ كثير وعدد وافر ، ورتّب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً .

وسار من الخرّوبة ، وكان قد نزل عليها يوم الأربعاء [1] خامس عشر الشهر ، فسار منها حتى أتى تلاً يُقال له تلّ كيسان في أوائل مرج عكّا ، فنزل عليه [2] وأمر الناس أن ينزلوا به على هذه التعبية ، وكان آخر المَيْسَرَة على طرف النهر الحلو ، وآخر المَيْمَنَة مقارب تلّ العَيَّاضيّة . فاحتاط العسكر الإسلامي المنصُوْر بالعدوّ المخذول ، وأخذ عليهم الطرق من الجوانب ، وتلاحقت العساكر الإسلامية واجتمعت ، ورُتِّب اليَزَك الدائم والجاليش في كل يوم مع العدوّ ، وحُصر العدوّ في خيامه من كل جانب ، بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحد إلا ويُجرح أو يُقتل .

وكان معسكر العدوّ المخذول على [80 و] شطر من عكّا ، وخيمة ملكهم على تلّ المصلّبين قريباً من باب البلد ، وكان عدد راكبهم ألفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً ، وما رأيتُ مَن أنقصهم عن ذلك ، ورأيتُ من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددُهم من البحر لا ينقطع . وجرى بينهم وبين اليَزَك مقاتلات عظيمة متواترة ، والمسلمون يتهافتون على قتالهم ، والسُّلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته ، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل ، والملوك والأمراء من الأقطار تتتابع فأول مَنْ وصل الأمير الأجلّ [3] الكبير مظفَّر الدِّين بن زين الدِّين ، ثم قدم بعده الملك المظفّر تقي الدِّين صاحب حماة في جحفله ، وتتابعت العساكر الإسلامية [4] .

(1) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .
(2) الكلمتان ساقطتان من طبعة مصر .
(3) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .
(4) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

وفي أثناء هذه الحال توفي حسام الدِّين سُنْقُر الأخلاطي بإسهال شديد [1]، وأسف المسلمون عليه أسفاً شديداً ، فإنه كان شجاعاً ديِّناً - رحمه الله - يوم الإثنين سابع عشري رجب على تلّ بمرج عكّا مشرف على العَيَّاضيّة . ثم إن الإفرنج لمّا تكاثروا واستفحل أمرهم ، استداروا بعكّا بحيث مَنَعُوا من الدخول والخروج منها ، وذلك في يوم الخميس سلخ رجب .

ولما رأى السُّلطان - قدّس الله روحه - ذلك عَظُم لديه ، وضاق صدره ، وثارت همّته العالية في فتح الطريق إلى عكّا لتستمر السَّابلةُ إليها [80 ظ] بالميرة والنجدة وغير ذلك ، فأحضر أمراءه وأصحاب الرأي من دولته ، وشَاوَرهم في مضايقة القوم ، وانفصل الحال على أنه يضايقهم مضايقة شديدة بحيث ينفصل أمرهم بالكلية ، وينفتح الباب والطريق إلى عكّا . فباكرهم صبيحة الجمعة مستهلّ شعبان سنة خمس وثمانين ، وسار مع العسكر وقد رتَّبه للقتال : ميمنةً وميسرةً وقلباً ، وضايقهم مضايقةً شديدة .

وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة ، اغتناماً لدعاء خُطباء المسلمين على منابرهم ، وجرت حملات عظيمة وقلبات كثيرة ، وانتشر عسكر العدوّ إلى أن مَلَكَ التلول ، وكانت ميسرة عسكرهم إلى النهر الحلو آخذةً إلى البحر ، وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكّا . واتصل الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجومُ الليل ، وبات الناسُ على حالهم من الجانبين ، شاكين في السِّلاح ، تحرس كلُّ طائفة نفسَها من الطائفة الأخرى ، إلى أن أصبح صباح السبت ثاني شعبان .

* * * * *

(1) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر . والواضح أن الأمير سُنْقُر أُصيب بالهيضة (أي الكوليرا) فأدّت إلى تجفاف جسمه ووفاته .

ذكر فتح الطريق إلى عَكّا

ولما كانت صبيحة السبت ، أصبح الناس على القتال ، وأنفذ السُّلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمال عكّا [1] ، ولم يكن هناك للعدوّ خيم ، لكنّ عسكره كان قد امتدّ جريدةً شمالي عكّا [81 و] إلى البحر ، فحمل شُجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف على شمالي عكّا [2] ، فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة ، وقتلوا منهم جمعاً كثيراً ، وانكفّ السالمون منهم إلى خيامهم .

وهجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم ، ووقف اليَزَك الإسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل [3] ، وانفتح الطريق إلى عكّا من باب القلعة المسمَّاة بقلعة الملك إلى باب قَرَاقُوش – الذي جدّده – ، وصار الطريق مَهْيَعاً [4] يمرّ فيه السوقي ومعه الحوائج ، ويمرّ به الرّجل الواحد والمرأة ، واليَزَك بين الطريق وبين العدوّ .

ودخل السُّلطان – رحمه الله – في ذلك اليوم إلى عكّا ، ورقي على السُّور ، ونظر إلى عسكر العدوّ من تحت السُّور ، وفرح المسلمون بنصر الله [5] ، وخرج العسكر الذي كان بها في خدمة السُّلطان ؛ واستدار العسكر الإسلامي حول العسكر الإفرنجي ، وأحدقوا به من كل جانب .

ولما استقرّ ذلك تراجع الناس عن القتال ، وذلك بعد صلاة [6] الظهر ، لسقي الدّواب ، وأخذ الراحة ، وكان نزولهم على أنهم إذا أخذوا حظاً من الراحة عادوا إلى القتال لمناجزة العدوّ بالكلّية ، لما أخذهم منهم من الطمع وضاق الوقت في ذلك

---

(1) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : فحملوا عليهم .
(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(4) المَهْيَع من الطريق : البَيِّن ، جمعه : مَهَايع .
(5) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .
(6) هذه الكلمة ساقطة من طبعة مصر .

اليوم ، وأخذ الضجر والتعب من الناس ، فلم يرجعوا إلى القتال في [81 ظ] ذلك اليوم ، وبات الناس على أنهم يصبّحونهم بكرة الأحد إلى القتال ، رجاء المناجزة بالكلية ، واحتوى [1] العدوّ في خيامه بحيث لم يظهر منهم أحد .

ولما كانت بُكرة الأحد ثالث شعبان ، تعبّى الناس للقتال ، وأحدقوا بالعدوّ ، وعزموا على مهاجمة القوم ، وعلى أن يترجّل الأمراء ومعظم العسكر ، ويقاتلوا العدوّ في خيامه . فلما تهيّأوا لذلك رأى بعض الأمراء تأخير ذلك إلى بكرة الإثنين رابع شعبان ، وأن يدخل الرّاجل كله إلى داخل عكّا ، ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من أبواب البلد على العدوّ من ورائه ، وتركب العساكر الإسلامية من خارج من سائر الجوانب ، ويحملوا حملة الرّجل الواحد ، والسُّلطان يعاني [2] هذه الأمور بنفسه ويصافحها [3] بذاته ، لا يتخلّف عن مقام من هذه المقامات ، وهو من شدّة حرصه ووفور همّته كالوالدة الثّكلى .

ولقد أخبرني بعض أطبائه ، أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد المذكور لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً – لفرط اهتمامه – ، وفعلوا ما كان عزموا عليه ، واشتدّت منعة العدوّ ، وحمى نفسه في خيامه ، ولم تزل سوق الحرب قائمة تُباع فيها النفوسُ بالنفائس ، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس ، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان .

* * * * *

(1) في طبعة مصر : واختفى العدوّ في خيامهم .
(2) في طبعة مصر : يوالي .
(3) في طبعة مصر : ويكافحها .

[82 و] تأخر الناس إلى تلّ العَيَّاضيّة

ولما كان يوم الجمعة ثامن شعبان [1] عزم العدوّ على الخروج بجموعهم ، فخرج راجلهم وفارسهم ، وامتدُّوا على التلول ، وساروا الهوينى غير مفرِّطين في نفوسهم ، ولا خارجين من راجلهم ، والرَّجَّالة حولهم كالسور المبني ، يتلو بعضهم بعضاً ، حتى قاربوا خيام اليَزَك .

ولما رأى المسلمون ذلك وإقدام العدوّ عليهم تداعت [2] الشُّجعان ، وتنازلت الكُماةُ إلى الأقران ، وصاح السُّلطان – قدّس الله روحه – بالعساكر الإسلامية :

– «يا للإسلام . .» .

فركب الناس بأجمعهم ، ووافق راجلهم فارسهم وشابّهم شيخهم ، وحملوا حملة الرّجل الواحد على العدوّ المخذول ، فعاد ناكصاً على عقبيه ، والسيف يعمل فيهم ، والسّالم منهم جريح ، والعاطب طريح ، مشتدون هزيمة ، يعثر [3] جريحهم بقتيلهم ، ولا تلوي الجماعة منهم على قبيلهم [4] ، حتى لحق بخيامهم مَنْ سلم منهم ، وانكفّوا عن القتال أياماً ، وكان قصاراهم [5] أن يحفظوا نفوسهم ، ويحرسوا رؤوسهم .

واستمرّ فتح طريق عكّا ، والمسلمون يتردّدون إليها .

وكنتُ ممّن دخل ، ورقي على السُّور ، ورمى العدوّ بما يَسَّر الله تعالى من فوق السُّور [6] .

---

(1) في طبعة مصر : ولما كان الثامن عشر عزم . . إلخ .
(2) في طبعة مصر : عليها شدّوا وتنازعت الشجعان .
(3) في طبعة مصر : يعبر .
(4) في طبعة مصر : قتيلهم .
(5) في طبعة مصر : وكان رأيهم .
(6) هذا خبر هام وطريف للمؤلف ، بمباشرته القتال بنفسه ومشاركته بفضيلة الجهاد وشرفه .

ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار ، حتى كان الحادي عشر من شعبان .

ورأى [82 ظ] السُّلطان توسيع الدائرة عليهم ، لعلهم يخرجون إلى مصارعهم ، فنقل الثَّقْل إلى تلّ العَيَّاضيّة وهو تلّ قبالة تل المصلَّبين ، مشرف على عكّا وخيام العدوّ .

وفي هذه المنزلة توفي حسام الدِّين طُمَان [1] ، وكان من شجعان المسلمين [2] – رحمه الله – ودُفن في سطح [3] هذا التلّ ، وصلّيتُ [4] عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان ، وقد مضى من الليل هزيعٌ ، رحمه الله .

ذكر وقعة جرت للعرب مع العدوّ

وكان سبب ذلك أنه بلغنا أن جمعاً من العدوّ يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه ، فأكمن السُّلطان لهم جماعة من العرب ، وقصد العرب لخفّتهم على خيلهم وأمنه عليهم ، فخرجوا ولم يشعروا بهم ، فهجموا عليهم ، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، وأسروا جماعة ، وأحضروا رؤوساً عدّة بين يديه ، فخلع عليهم وأحسن إليهم .

وكان ذلك في يوم السَّبت ، سادس عشر شعبان .

---

(1) تقدم ذكر الأمير حسام الدِّين غير مرة ، كما في ذكر أخذ السلطان الناصر حلب . أما طُمَان فاسم تركي Tümen ، ويعني : كثير ، وافر ، كبير . ومنه اسم آخر سلاطين المماليك بمصر «طومان باي» ، فهو في التركية : Tümen-Bey .

(2) في طبعة مصر : وكان من الشجعان .

(3) في طبعة مصر : سفح .

(4) بدأ المؤلف يُكثر في نصه من استخدام تاء الفاعل ، على اعتباره صار يروي ما شاهد بعينه بدءاً من أحداث عام 584 هـ ، مما يُكسب كتابه موثوقية وقيمة أكبر ، بَلْهَ الإمتاع الوافر .

وفي عشية ذلك اليوم ، وقع بين العدوّ وبين أهل البلد حرب عظيم قُتل فيه جمع عظيم من الطائفتين ، فطال الأمر بين الفئتين ، وما يخلو يوم عن جرح وقتل [83 و] وسبي ونهب . وأنس البعض بالبعض بحيث أن كانت الطائفتان تتحدثان وتتركان القتال ، وربما غنّى البعض ورقص البعض ، لطول المعاشرة ، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة [1].

نادرة في هذه الواقعة [2]

وذلك أنه كان الرِّجال يوماً من الطائفتين قد سئموا من القتال ، فقالوا [3] : «إلى كم يتقاتل الكبار ، وليس للصغار حظ ؟ نريد أن يصطرع [4] صبيان : صبي منا وصبي منكم [5]» .

فأُخرج صبيَّان من البلد إلى صبيين من الإفرنج ، واشتدَّ الحرب بين الصبيان [6] ، فوثب أحد الصبيّين المسلمين إلى أحد الصبيين الكافرين ، فاحتضنه وضرب به الأرض وقبضه أسيراً ، واشتدّ به ليأخذه ، فاشتراه منه بعض الإفرنج بدينارين ، وقالوا : «هو أسيرُكَ حقاً» . فأخذ الدّينارين وأطلقه ، وهذه من نوادر القتال [7] .

---

(1) هذه من الأخبار الطريفة التي يشذّ بها المؤلف عن أسلوب الكتّاب الآخرين المعنين في السّرد الجاف ، وهو بذلك يذكّرنا بكتاب الاعتبار للأمير أسامة بن منقذ ، المتناهي في رونقه ونُدرته ، والذي يؤرخ للفترة ذاتها . وكان أسامة معاصراً للسّلطان الناصر والتقى به بدمشق ، كما يروي في كتابه (ص 164) .

(2) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(3) في طبعة مصر : فقالوا إلى كم تقاتل . . إلخ .

(4) في طبعة مصر : يصارع

(5) في طبعة مصر : صبيان منا ومنكم .

(6) في طبعة مصر : بينهم .

(7) في طبعة مصر : هذه نادرة غريبة .

ووصل للفرنج مركب فيه خيلٌ ، فهرب منها فرسٌ ووقع في البحر ، ولا زال يسبح وهم حوله يردّونه حتى دخل ميناء عكّا ، وأخذه المسلمون .

ذكر المصاف الأعظم على عَكّا
يَسَّر الله فتحها [1]

وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء الحادي عشرين من شعبان ، تحركت عساكر الإفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة ، فارسهم وراجلهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، واصطفّوا خارج خيمهم : قلباً وميمنة وميسرة ، وفي القلب [83 ظ] الملك وبين يديه الإنجيل محمولاً مستوراً بثوب أطلس مغطّى ، يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه ، يسيرون بين يدي الملك .

وامتدّت المَيْمَنَة في مقابلة المَيْسَرَة التي لعسكر الإسلام من أولها إلى آخرها ، وامتدّت ميسرة العدوّ في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر ، وطرف ميسرتهم إلى البحر .

وأما العسكر الإسلامي المنصُوْر فإن السُّلطان لما بَصر بالقوم [2] أمر الجاويش أن ينادي في الناس :

« يا للإسلام ، وعساكر موحّدين »

فركب الناس ، وقد باعوا أنفسهم بالجنّة ، وامتدّت المَيْمَنَة إلى البحر ، كلُّ قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم [3] ، والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً .

---

(1) سنرى كيف أن الصَّليبيين ، الذين تجمّعت فلولهم في صور ، سيحاولون بأقصى جهدهم استعادة عكّا من بعد هزيمتهم السّاحقة في حطّين ، وبعد حصارهم لها لسنة ونصف ، تسقط بمعونة قوات ملكي فرنسا وإنكلترا القادمة في الحملة الصَّليبية الثالثة .

(2) هذه الكلمات ساقطة من طبعة مصر .

(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

وكـان – رحمـه الله – قد أنزل النـاس في الخيـم ميمنـةً وميسـرةً وقلبـاً ، تعبيـة الحرب ، حتـى إذا وقعـت صيحـةٌ لا يحتـاجون إلـى تجديـد ترتيـب ، وكـان هـو في القلب ، وفي ميمنـة القلـب ولـده الملـك الأفضـل ، ثـم ولـده الملـك الظـافر [1] – عزّ نصره – ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدِّين ابـن البُلُنْكَري [2] ، ثـم عسـكر ديار بكر في خدمة قطب الدِّينَ بن نور الدِّين صاحب الحصن ؛ ثم حسام الدِّين بن لاجـين – صاحب نابلس – ؛ ثم الطَّواشي قايماز النَّجمي ، وجموع عظيمة متصلـين بطرف المَيْمَنَة ، وكان في [84 و] طرفهـا الملـك المظفّر تقـي الدِّيـن بجحفلـه وعسكره ، وهـو يطلّ على البحر .

وأمـا أوائـل المَيْسَرَة : فكـان ممـا يلـي القلـب سـيف الدِّيـن علـي بـن أحمـد المشطوب ، من كبار ملوك الأكراد ومقدّميهم [3] والأمير مجلّي ، وجماعـة المهرانيـة والهكارية ، ومجـاهد الدِّيـن يَرنقُش [4] – مقـدّم عسـكر سنْجَار – ، وجماعـةٌ مـن المماليك ؛ ثم مظفَّر الدِّين بن زين الدِّين بجحفله وعسكره .

وأواخر المَيْسَرَة : كبار المماليك الأسـدية ، كسيف الدِّيـن يـازْكُج ، ورُسْلان بُغَا [5] ، وجماعة الأسدية الذين يُضرب بهم المثل . وفي مقـدّم القلـب الفقيـه عيسـى وجَمْعُه . هـذا والسُّلطان يطـوف علـى الأطـلاب بنفسـه يحثّهـم علـى القتـال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويرغّبهم في نصرة دين الله .

ولم يزل القوم يتقدّمون ، والمسلمون يتقدّمون ، حتـى عـلا النهـار ، ومضـى منه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركـت ميسرة العـدوّ علـى ميمنـة المسـلمين ،

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(2) ورد الاسم عند ابن واصل في مفرّج الكروب : البلتكري ، وهو غلط ؛ وفي الروضتين لأبي شامة (2 : 144) : البكنكري . والاسم تركي Bülent-geri : ذو الظهر العالي .

(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(4) في طبعة مصر : برنقش . والاسم تركي Yarın-koç ، ومعنـاه : الكبـش الفتـي ، وكلمـة yarın تعني الغد . يماثله في ذلك اسم يازْكُج Yaz-koç : الكبش المولود بالصيف .

(5) رسلان بُغا : اسم تركي Arslan-Boğa ، ويعني : أسد يافع . والبُغا وحدها الظبي .

فأخرج لهم الملك المظفّر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفّر - وكان في طرف المَيْمَنَة على البحر - ، فتراجع عنهم شيئاً ، إطماعاً لهم ، لعلّهم يبعدون عن أصحابهم ، فينال منهم غرضاً ، فلما رآه السُّلطان قد تأخر [1] ظن به ضعفاً ، فأمدّه بأطلاب عدّة من القلب حتى قوي جانبه ، وتراجعت ميسرة [84 ظ] العدوّ ، واجتمعت على تلّ مشرف على البحر .

ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومَنْ خرج منه من الأطلاب داخَلَهم الطمع ، وتحركوا نحو ميمنة القلب ، وحملوا حملة الرّجل الواحد ، راجلُهم وفارسُهم ، ولقد رأيتُ الرَّجَّالة تسير سيرَ الخيّالة ولا يسبقونها وهم يسوقون خَبَباً [2] .

وجاءت الحملة على الدِّيار بكريّة - كما يشاء الله تعالى - وكان بهم غرّة عن الحرب ، فتحركوا بين يدي العدوّ ، وانكسروا كسرةً عظيمة ، وسرى الأمر حتى انكسر معظم المَيْمَنَة ، واتّبع العدوّ المنهزمين إلى العَيَّاضيّة ، فإنهم استداروا حول التلّ ، وصعد طائفة من العدوّ إلى خيم [3] السُّلطان ، فقتلوا طِشْتْ دَر [4] كان هناك .

وفي ذلك اليوم استُشهد إسماعيل المكبِّس ، وابن رواحة ، رحمهما الله .

وأما المَيْسَرَة ، فإنها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها .

---

(1) في طبعة مصر : فلما رأى السلطان ذلك ظن . . إلخ .

(2) في طبعة مصر : الخيالة وهم يسبقون حيناً . وهي قراءة خاطئة تشوّه المعنى .

(3) كانت هذه الكتيبة التي بلغت خيمة صلاح الدِّين بقيادة الكونت الفرنسي أندريه دى بريين André de Brienne ، الذي ما لبث أن لقي مصرعه في الوقعة ذاتها .

(4) الطست لفظ فارسي «تست» ، وهو بالعامية : طشت . والطشت الدار : أحد الغلمان المشرفين على الطشت خاناه ، وهي كما عرّفها القلقشندي في صبح الأعشى (4 : 10) : «بيت الطشت : سمّيت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذي تغسل فيه الأيدي ، والطشت الذي يُغسل فيه القماش السلطاني . . وفيه ما يلبسه السلطان من الكلوتة والأقبية وسائر الثياب ، والسيف والخفّ والسرموزة . . إلخ» .

وأما السُّلطان فأخذ يطوف على الأطلاب فيُنهضهم ، ويعدهم الوعود الجميلة ، ويحثّهم على الجهاد ، وينادي فيهم : «يا لَلإسلام» ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس ، وهو يطوف [على] الأطلاب ، ويتجاوز [1] الصفوف ، وأوى إلى تحت التلّ الذي كان عليه الخيام .

وأما المنهزمون من العسكر فإنه بلغت هزيمتهم إلى القُحْوانة ، قاطع جسر طَبَرَيَّة ، وأمَّ منهم قومٌ إلى محروسة دمشق ، فأما المتّبعون لهم فإنهم اتّبعوهم [85 و] [إلى] العَيَّاضيّة ، فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم ، وجاؤوا عائدين إلى عسكرهم ، فلقيهم جماعة من الغلمان والخَرْبَنْديّة والسَّاسة منهزمين على بغال الحمل ثم جاؤوهم فقتلوا جماعة ، وقُتل منهم جماعة فإن السّوق كان فيه خلق عظيم ، ولهم سلاح .

وأما الذين صعدوا [إلى] الخيم السُّلطانية فإنهم لم يلتمسوا فيها شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا مَنْ ذكرناه وهم ثلاثة نفر ، ثم رأوا مَيْسَرة الإسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتمّ [2] ، فعادوا منحدرين من التلّ يطلبون عسكرهم .

وأما السُّلطان – رحمة الله عليه – فإنه كان واقفاً تحت التلّ ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدوّ ، فلما رأى الإفرنج نازلين من التلّ أرادوا لقاءهم ، فأمرهم بالصبر إلى أن ولّوا ظهورهم ، واشتدّوا يطلبون أصحابهم ، فصاح في الناس ، وحملوا عليهم ، وطرحوا منهم جماعة [3] ، فاشتدّ الطمع فيهم ، وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم ، والطَّردُ وراءهم ، فلمّا رأوهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ظنوا أنّ مَنْ حمل منهم قد قُتل ، وأنهم إنما نجا منهم هذا النَّفَر فقط ، وأن الهزيمة قد عادت عليهم ، فاشتدّوا في الهرب والهزيمة ، وتحركت المَيْسَرَة عليهم .

---

(1) في طبعة مصر : ويخرق .

(2) في طبعة مصر : لا تتم .

(3) وكان من بين قتلاهم ، كما ذكرنا ، الكونت أندريه دى بريين الذي بلغ خيمة السّلطان .

وعاد الملك المظفّر بجمعه [85 ظ] من المَيْمَنَة ، وتحايت الرجال وتداعت ، وتراجع الناسُ من كل جانب وكذّب اللهُ الشيطانَ ، ونَصَرَ الإيمان ، وظلَّ الناسُ في قتل وطرح ، وضرب وجرح ، إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكر العدوّ ، فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدّوها - خشية من [مثل] هذا الأمر - مستريحة ، فردّوا المسلمين ، وكان التعبُ قد أخذ من الناس ، والخوف والعَرَقُ قد ألجمهم ، فرجع الناسُ عنهم بعد صلاة العصر ، يخوضون في القتلى ودمائهم إلى خيامهم ، فرحين مسرورين .

وعاد السُّلطان في ذلك اليوم إلى خيمته فرحاً مسروراً ، وجلسوا في خيمته يتذاكرون [1] مَنْ فُقِد منهم ، وكان مقدارُ مَنْ فُقِد من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً ، ومن المعروفين استُشهد في ذلك اليوم ظهير الدِّين - أخو الفقيه عيسى - ولقد رأيتُه وهو جالسٌ يضحك ، والناسُ يعزّونه وهو يقول : «هذا يوم الهناء لا يوم العزاء» ؛ وكان هو قد وقع عن فرسه وأركبه ، وقُتل عليه جماعة من أقاربه . وقُتل في ذلك اليوم الأمير مجلّي . هذا الذي قُتل من المسلمين .

أما من العدوّ المخذول فحُزر قتلاهم بسبعة آلاف [86 و] نفر ، ورأيتُهم [2] وقد حُملوا إلى شاطىء النهر ليُلقوا فيه ، فحزرتُهم بدون سبعة آلاف [3] .

ولما تمَّ على المسلمين من الهزيمة ما تمّ ، ورأى الغلمان خلوّ الخيام عمّن يعترض عليهم ، فإن العسكر انقسم إلى قسمين : منهزمين ومقاتلين ، فلم يبق في الخيم أحد ورأوا الكسرة قد وقعت وظنّوا أنها تتم [4] ، وأن العدوّ ينهب جميع ما في الخيم ، فوضعوا أيديهم في الخيم ونهبوا جميع ما كان فيها ، وذهب من الناس أموالٌ عظيمة ، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعاً .

---

(1) في طبعة مصر : يتداركون .

(2) يستمر المؤلف ، كما نرى ، بتقديم المعلومات بناء على مشاهدات شخصية مباشرة .

(3) وكان من بين الأسرى أيضاً مقدَّم الداّويّة جيرار دي ريدفور Gérard de Ridefort .

(4) في طبعة مصر : أحد وراءنا ، فظنوا أن الكسرة تتم .

ولما عاد السُّلطان إلى المخيّم ، ورأى ما قد تمَّ على الناس من نهب الأموال والهزيمة ، سارع في الكتب والرُّسُل في ردِّ المنهزمين ، وتتبّع مَنْ شذَّ من العسكر ، والرسلُ تتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيق ، فردّوهم وأخبروهم بالكسرة للمسلمين [1] ، فعادوا .

وأمر بجمع الأقمشة من أكفّ الغلمان ، وجمع الأقمشة في خيمته [2] ، حتى جلالات الخيل والمخالي بين يديه في خيمته ، وهو جالسٌ ونحن حوله ، وهو يتقدّم إلى كل مَنْ عرف شيئاً وحلف عليه يُسلم إليه ، وهو يلتقي هذه الأحوال بقلب صلب ، وصدر رحب ، ووجه مبسوط ، ورأي مستقيم غير مختبط ، واحتساب لله تعالى ، وقوّة عزم في نُصرة دين الله .

[86 ظ] وأما العدوّ المخذول فإنه عاد إلى خيمه وقد قُتلت شجعانهم ، وطُرحت مقدّموهم ، وفُقدت ملوكهم ، فأمر السُّلطان أن يخرج من عكّا عَجَلٌ [3] يسحبون [عليه] القتلى منهم إلى طرف النهر ليُلقوا فيه .

ولقد حكى لي بعضُ مَنْ ولي أمر العَجَل أنه أخذ خيطاً ، وكان كلما أخذ قتيلاً عقد عقدةً ، فبلغ عددُ قتلى المَيْسَرَة إلى أربعة آلاف ومائة وكسر [4] ، وبقي قتلى المَيْمَنَة وقتلى القلب لم يعدّهم فإنه ولي أمرهم غيره ، وبقي من العدوّ بعد ذلك مَن حمى نفسه ، وأقاموا في مخيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم ، وشذّت [5] من عساكر المسلمين خلقٌ كثير بسبب الهزيمة ، فإنه ما رجع منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه ، والباقون هربوا في حال سبيلهم .

---

(1) في طبعة مصر : وأخذوهم بالكسرة إلى عسكر المسلمين . وراجع أيضاً : مفرج الكروب لابن واصل ، 2 : 300 .
(2) في طبعة مصر : وأمر بجمع الأقمشة من أكفّ الغلمان إلى خيمته .
(3) أي عربات تسير على عجلات خشبية .
(4) في طبعة مصر : وكسور .
(5) في طبعة مصر : وتشتت .

وأخـذ السُّـلطان - رحمـه الله - في جمـع الأمـوال المنهوبـة وإعادتهـا إلـى أصحابهـا ، وأقـام المنادية [1] في العسـاكر ، وقَرَن النـداءَ بـالوعيد والتهديـد ، وهـو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه ، واجتمع من الأقمشة عـدد كثير في خيمتـه ، حتى إن الجالس في أحد الطرفيْن لا يرى الجالس في الطرف الآخر ، وأقام مَنْ ينادي على مَـنْ ضاع منه [شيء] ، فحضر الخلق وصار مَنْ عرف شيئاً وأعطى [87 و] علامتـه حلـف عليه وأخذه من الجـلّ [2] والمخلاة إلى الهميّان والجوهـرة ، ولقـي مـن ذلـك مشـقّة عظيمة ، ولا يرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها .

ولقد حضرتُ يوم تفرقة الأقمشة على أربابها ، فرأيتُ سوقاً للعدل قائمـة لـم يُرَ في الدنيا أعظم منها ، وكان ذلك في يـوم الجمعـة الثـالث والعشـرين مـن شـعبان . وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثائرتهـا أمر السُّـلطان بـالثَّقْل ، حتى تراجع إلى موقع يقال له الخرّوبة ، خشيةً على العسكر من أراييـح [3] القتلى وآثـار الوقعـة مـن الوَخَم ، وهو موضع قريب من مكان الوقعة ، إلا أنه أبعد عنها في المكان الـذي كـان نازلاً فيه بقليل ، وضُربت له خيمة عند الثَّقْل ، وأمر اليَزَك أن يكون مقيمـاً في المكـان الذي كان نازلاً فيه ، وذلك في يوم الخميس تاسع عشرين شعبان .

واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ، ثم أمرهم بالإصغـاء إلى كلامه ، وكنتُ من جملة الحاضرين ، ثم قال :

«بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلمـوا أن هـذا عـدوّ الله وعدونـا قـد نـزل في بلدنـا ، وقـد وطـىء أرض الإسـلام ؛ وقد لاحـت [4] لوايح النصرة عليه إن شاء الله تعالى ، وقد [87 ظ] بقـي في هـذا الجمـع اليسير ولابـد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينـا ذلـك ، وأنتـم تعلمـون أن هـذه عسـاكرنا

---

(1) في طبعة مصر : المناداة .
(2) في طبعة مصر : الحبل .
(3) في طبعة مصر : روائح .
(4) ي الأصل : لاح ، والتصحيح عن طبعة مصر .

ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدوّ إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مددٌ عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم ، فليخبرنا كلٌ منكم ما عنده في ذلك» .

وكان ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية ، فامتخضت الآراء ، وجرى تجاذب في أطراف الكلام ، وانفصلت آراؤهم على أن «المصلحة تأخير العسكر إلى الخرّوبة ، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجمّ من حَمْل السِّلاح ، وترجع نفوسهم إليهم ؛ فقد أخذ منهم التعب ، واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تُؤمن غائلتُه ، والناس لهم خمسون يوماً تحت السِّلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت من عَرْك اللُّجم ، وسئمت نفوسها ذلك ، وعند أخذ حظٍّ من الراحة ترجع نفوسها إليها ، ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ، ونستعيد مَنْ شذَّ من العساكر ، ونجمع الرَّجَّالة ليقفوا في مقابلة الرَّجَّالة» .

وكان بالسُّلطان – رحمه الله – التياثٌ مزاجي ، قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه ، وما عاناه من التعب بحمل السِّلاح والفكر في تلك الأيام ، فوقع به ما قالوه ورآه مصلحة .

وكان انتقال العسكر إلى الثَّقْل يوم [88 و] الإثنين ثالث رمضان وانتقال السُّلطان – رحمة الله عليه – تلك الليلة . وأقام يصلح مزاجه ، ويجمع العساكر ، وينتظر أخاه الملك العادل إلى يوم الإثنين عاشر رمضان .

* * * * *

ذكر وصول خبر ملك الألمان
لعنه الله

ولما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وصل من جانب حلب المحروسة كتبٌ من ولده الملك الظاهر ، يخبر فيها أنه قد صحَّ أن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدّة عظيمة ، قيل : مائتا ألف ، وقيل : مائتان وستون الفاً ، يريد البلاد الإسلامية .

واشتدّ ذلك على السُّلطان – قدّس الله روحه – وعظم عليه ، ورأى استنفار الناس للجهاد ، وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة ، فاستندبني لذلك ، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنْجَار ، وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب إربل ، واستدعائهم إلَى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم . وأمرني بالمسير إلى محروسة بغداد لإعلام خليفة الزمان بذلك ، وتحريك عزمه على المعاونة . وكان الخليفة إذ ذاك النّاصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله .

وكان مسيري في ذلك المعنى في حادي عشر رمضان ، ويسَّر الله تعالى الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم ، فأجابوا [88 ظ] بنفوسهم . وسار عماد الدِّين زنكي – صاحب سنْجَار – بعسكره وجَمْعه في تلك السنة ، وسار ابن أخيه سنجر شاه – صاحب الجزَيرة – يجرُّ عسكره وسيَّر صاحبُ الموصل عزّ الدِّين ابنه علاء الدِّين خُرَّم شاه بمعظم عسكره ، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره .

وحضرتُ الدّيوان العزيز ببغداد ، وأنهيتُ الحال كما رَسَم ، ووُعد كل جميل ، وعدتُ إلى خدمته – رحمة الله عليه – . وكان وصولي إليه في يوم الخميس خامس ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وكنتُ قد سبقتُ العساكر ، فعرَّفتهُ بإجابتهم بالسمع والطاعة ، وتأهبهم بالمسير . فسُرَّ بذلك ، وفرح فرحاً شديداً .

ذكر وقعة الرَّمل
الذي على جانب نهر عَكّا

ولما كان صفر من تلك السنة ، خرج السُّلطان – قدّس الله روحه – يتصيَّد ، مطمئن النفس ببُعْد المنزلة عن العدوّ ، فأوغل في الصيد . وبلغ ذلك العدوّ ، فأخذوا غرّة العسكر ، واجتمعوا وخرجوا يريدون الهجوم على العسكر الإسلامي ، فأحسَّ بهم الملكُ العادل – قدّس الله روحه – فصاح بالناس ، وركبت العساكر من كل جانب ، وحمل على القوم ، وجرتْ مقتلةٌ عظيمة ، قُتل فيها منهم خلقٌ عظيم وجُرح جمع عظيم (1) ، ولم يُقتل من معروف في المسلمين إلا مملوك [89 و] للسُّلطان – رحمه الله – ، استُشهد في ذلك اليوم يدعى أرْغَشَاً (2) ، وكان رجلاً صالحاً – رحمه الله – .

ويلغ الخبرُ السُّلطان – رحمه الله – فعاد منزعجاً ، فوجد الحرب قد انفصل وعاد كلُّ فريق إلى حزبه ، وعاد العدوّ خائباً خاسراً ، ولله الحمد والمنّة . وهذه الوقعة لم أحضرها فإني كنتُ مسافراً (3) ، وما مضى من الوقعات شاهدتُ منها ما يشاهده مثلي ، وعرفتُ الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور (4) .

* * * * *

(1) النص في طبعة مصر : قتل وجرح بينهما منهم خلق عظيم .
(2) في طبعة مصر : أرغش .
(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(4) النص في طبعة مصر : وعرفتُ الباقي معرفة خاصة في هذه الأمور .

ذكر وفاة الفقيه عيسى

رحمه الله

وهي مما بلغني ولم أكن حاضرها ، وذلك أنه مرض مرضاً كان يتعاهده وهو ضيقُ[1] النَّفَس ، وعرض له إسهالٌ فأضعفه ، ولم يقطع صلاة ولم يغب ذهنه عنه إلى أن مات ، على ما بلغني ممّن حضره[2] . وكان رحمه الله كريماً ، شجاعاً حسن المقصد ، كثير الغرام بقضاء حوائج المسلمين . توفي - رحمه الله تعالى - طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذي القعدة من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، رحمه الله .

نادرة

ومن نوادر هذه الوقعة ، أن مملوكاً كان للسُّلطان يدعى قَرَا سُنْقُر[3] ، وكان شجاعاً قد قَتَلَ من أعداء الله خلقاً عظيماً ، وفَتَكَ فيهم . فأخذوا في قلوبهم من نكايته فيهم ، فمكروا به ، وتجمعوا له ، وكمنوا له ، وخرج إليه بعضهم ، وتراءوا له . فحمل عليهم حتى صار بينهم ، ووثبوا عليه من سائر جوانبه ، فأمسكوه [89 ظ] وأخذ واحدٌ بشعره[4] وضرب الآخر رقبته بسيفه ، فإنه كان قتل له قريباً ، فوقعت الضربةُ في يد الماسك بشعره فقطعت يده ، وخلّى عن شعره . فاشتدّ هارباً حتى عاد إلى أصحابه ، وأعداء الله يشتدّون عدواً خلفه ، فلم يلحقه منهم أحد ، وعاد سالماً ولله الحمد ، ﴿وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ .

---

(1) في طبعة مصر : ضعيف النفس .

(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(3) بالأصل : سَرا سنقر ، والصواب ما أثبتناه ، وهو اسم تركي Kara-Sungur ، يعني : النسر الأسود .

(4) النص في طبعة مصر : فأمسك واحد منهم بشعره .

ذكر تسليم الشَّقيف

سنة ست وثمانين وخمسمائة

ولما كان يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول ، علم الفرنج المستحفظون بالشَّقيف أنه لا عاصم لهم من أمر الله ، وأنهم إن أُخذوا عَنْوَةً ضُرِبت رقابهم ، فطلبوا الأمان ، وجرت مراجعات كثيرة في قاعدة الأمان ، وكانوا قد علموا من حال صاحبهم أنه قد عُذِّب أشدّ العذاب ، فاستقرّت القاعدة على أن الشَّقيف يُسلَّم ، ويُطلق صاحبه وجميعُ من فيه من الفرنج ، ويُترك ما فيه من أنواع الأموال والذخائر ، فتُسلِّم في التاريخ المذكور .

وكان الحديث قد جرى مراراً ، حتى استقرّت القاعدة في التاريخ المتقدّم [1] ، وعاد صاحب صَيْدا والفرنج الذين كانوا بالشَّقيف إلى صُوْر . ولما رأى السُّلطان – رحمة الله عليه – اهتمام الفرنج من أقطار بلادهم بالمكان ، وتصويب سهام [2] عزائمهم نحوه [3] ، اغتنم الشتاء [90 و] وانقطاع البحر ، وحصَّل في عَكّا من الميِر والذخائر والعُدَد والرّجال ما أمن معه عليها مع تقدير الله تعالى ، وتقدّم إلى النوّاب بمحروسة مصر أن عَمَّروا لها أسطولاً [4] عظيماً يحمل خلقاً كثيراً .

وسار حتى دخل عَكّا مُكايدةً [5] للعدو ومُراغمةً له ، وأعطى العساكر دُستوراً في تلك السنة طول الشتاء ، ليستجمّوا ويستريحوا ، وأقام هو – رحمه الله – مع نفر يسير قبالة العدوّ ، وقد حال بين العسكرين شدّة الوُحول ، وتعذّر عليهم بسبب ذلك وصول بعضهم إلى بعض .

---

(1) هذه العبارة ساقطة بأكملها من طبعة مصر .

(2) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .

(3) يريد المؤلف مدينة صُور التي استعصت على السّلطان بالأمس القريب ، ولا تزال .

(4) سبق ذكر الأسطول وتفسير اشتقاق اسمه سابقاً ، انظر ص 164 .

(5) في طبعة مصر : مكابرة .

طريفة

كان لما بلغ خبر العدوّ قصده عكّا ، جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون ، وشَاوَرهم فيما يصنع ، وكان رأيه – رحمه الله – أنه قال : «المصلحة مُناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد ، وإلا إن نزلوا جعلوا الرَّجَّالة سوراً لهم وحفروا الخنادق ، وصعب علينا الوصول إليهم ، وخيف على البلد منهم» . وكانت إشارة الجماعة : «أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر ، قلعناهم في يوم واحد» .

وكان الأمر كما قال السُّلطان – رحمه الله – [و] ، والله لقد سمعتُ منه هذا القول ، وشاهدتُ الفعل كما قال رحمه الله ، وهذا يوافق معنى قوله – صلّى الله عليه وسلم – : «إنَّ من أمتي لمحدِّثين ومكلَّمين ، وإنّ عُمَرَ لمنهم» .

ولم يزل السُّلطان – رحمه الله – مُجداً في الإنفاذ إلى عكّا [90 ظ] بالمير والعُدَد والأسلحة والرجال ، حتى انقضى الشتاء وانفتح البحر وحان زمان القتال ، فكتب إلى العساكر يستدعيها من الأطراف .

ولما تواصل أوائل العسكر ، وقوي جيش الإسلام ، رحل السُّلطان – رحمة الله عليه – نحو العدوّ ، فنزل بتلّ كَيْسان ، وذلك في ثامن عشر ربيع الأول من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ورتَّبَ العسكر قلباً وميمنة وميسرة ، وكان أول المَيْمَنَة ولده الملك الأفضل ، وأخذت العساكر في التواصل ، والنُّجَد في التواتر ، فوصل رسول الخليفة .

* * * * *

ذكر وصول رسول الخليفة

ولما كان يوم الإثنين سادس عشر ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل رسول بغداد ، وهو شاب شريف ، وصل معه حملان من النَّفط ، وجماعة من النفَّاطين الزرَّاقين [1] . ووصل معه رُقعة من الدّيوان العزيز النَّبوي - مجَّده الله تعالى - يتضمّن الإذن للسُّلطان - رحمة الله عليه - في أن يقترض عشرين ألف دينار من التجار [2] يُنفقها في الجهاد ، ويُحيل بها على الدّيوان العزيز ، فقبل جميع ما وصل مع الرّسول ، واستعفى عن الرُّقعة والتَّثقيل بها ، رحمة الله عليه .

وفي ذلك اليوم ، بلغ السُّلطان - رحمه الله - أن الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب [91 و] إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد ، فركب وقاتلهم قتالاً شديداً إلى أن فصل بين الطائفتين الليلُ ، وعاد كلٌّ فريق إلى أصحابه . ورأى السُّلطان - رحمة الله عليه - قوّة العساكر الإسلامية ، ورأى بُعْدَ المكان عن العدوّ ، فخاف أن يُهجم البلد ، فيتمَّ عليه أمرٌ ، فرأى الانتقال إلى تلّ العُجول بالعسكر والثَّقْل بالكلّية . وكان الانتقال إليه في الخامس والعشرين من ربيع الأول ، من سنة ست وثمانين وخمسمائة .

وفي صبيحة هذا اليوم ، وصل من البلد عَوَّام معه كتبٌ [3] تتضمن أنه قد طَمَّ العدوّ بعضَ الخندق ، وقد قوي عزم العدوّ على منازلة البلد ومضايقته ، فجدَّد الكتب إلى العساكر بالحثّ على الوصول ، وعبَّأ العساكر تعبئة القتال ، وزحف إلى العدوّ ليشغله عن ذلك .

---

(1) الزرّاق ، والجمع زرّاقون ، هو من يرمي النفط من الزرّاقة ، وهي أنبوبة خاصة يُزرق بها النفط لبثقه على السفن والأبراج الخشبية وإحراقها . راجع معجم Dozy .

(2) أضيف هذان اللفظان عن طبعة مصر .

(3) النص في طبعة مصر : وصلت كتب تتضمن .

ذكر وصول الملك الظاهر ولده

رحمه الله

ولما كانت سحرة [1] ليلة الجمعة ، سابع عشري ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وصل ولدهُ الملكُ الظاهرُ - رحمه الله - غياثُ الدِّين غازي - صاحبُ حلب - جريدةً إلى خدمته - قدّس الله روحه - مُعاجلةً للبرّ ، وترك عسكره في المنزلة ، وخدم والده ، وبلّ شوقه منه .

وعاد إلى عسكره سحرة السبت ثامن عشرين منه .

وسار بهم حتى وصل في ذلك اليوم بجحفله ، وقد أظهر الزّينة ، ولبسوا [91 ظ] لأمة الحرب ، ونُشرت [2] الأعلام والبيارق ، وضُربت الكُوْسات [3] ، ونُعرت البوقات ، وعُرض بين يدي والده - رحمة الله عليه - وقد ركب إلى لقائه في المرج ، وسار بهم حتى وقف بهم على العدوّ ، وشاهدوا من جند الله ما أزعجهم وأقلقهم .

وفي أواخر ذلك اليوم قدم مظفَّر الدِّين بن زين الدِّين جريدةً أيضاً ، مسارعةً للخدمة ، ثم عاد إلى عسكره ، وقدم معه في يوم الأحد في لأمة الحرب ، فعرضهم السُّلطان - رحمة الله عليه - وسار بهم حتى وقف بهم على العدوّ ، وعادوا إلى منزلتهم .

وكان - رحمه الله - ما يقدم عسكر إلا ويعرضهم ، ويسير بهم إلى العدوّ ، وينزل بهم في خيمته ، ويمدُّ لهم الطعام ، وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب ، ثم تُضرب خيامهم حيث يأمر ، وينزلون بها مكرّمين .

---

(1) في طبعة مصر : ولما كان سحر .

(2) في طبعة مصر : وكثرت .

(3) انظر ما تقدّم أعلاه ، ص 74 .

لطيفة تدل على سعادة ولده الملك الظاهر
رحمه الله وقدّس روح والده

وذلك أن العدوّ كان قد اصطنع ثلاثة أبرجة [1] من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخلّ على ما ذُكر بحيث لا تنفذ فيها النيران ، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نُشاهدها من مواضعنا عالية على أسوار البلد ، وهي مركّبة [92 و] على عَجَل ، يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ، ويتسع سطحها لأن يُنصب عليه منجنيق ، وكان ذلك قد عَمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن شرحه ، وآيس الناس من البلد بالكلّيّة ، وتقطّعت قلوب المقاتلة فيه ، وكان قد فرغ عملها ، ولم يبق إلا جرُّها إلى قريب السُّور .

وكان السُّلطان قد أعمل فكره في إحراقها وإهلاكها ، وجمع الصُّنّاع من الزّرّاقين والنَّفّاطين وباحَثَهُم في الاجتهاد [2] في إحراقها ووعدهم عليه بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة ، وضاقت حيلهم عن ذلك ، وكان من جملة مَنْ حضر شابٌّ نحّاس دمشقي ، ذكر بين يديه - رحمه الله - أن له صناعة في إحراقها ، وأنه إن مُكِّن من الدخول إلى عكّا ، وحُصِّل له الأدوية التي يعرفها أحرقها ، فحُصِّل له جميع ما طلبه ، ودخل إلى عكّا ، وطبخ الأدوية التي حصّلها مع النِّفط في قُدور من النحاس ، حتى صار الجميع كأنه جَمْرةُ نار .

ولما كان يوم وصول ولده الملك الظاهر - رحمه الله - ، ولعلّه كان عُقيب وصوله ، ضُرب البرجُ الواحد بقدْر ، فلم يكن إلا أن وقعت فيه واشتعل من ساعته ووقته ، وصار كالجبل العظيمِ مِنَ النّار ، طالعة ذؤابتُه نحو السماء ، فاستغاث المسلمون بالتّهليل [92 ظ] والتكبير ، وغلبهم الفرح ، حتى كادت عُقولهم أن تذهب .

---

(1) في طبعة مصر : أبراج .
(2) في طبعة مصر : وحثّهم على الاجتهاد .

وبينما الناس ينظرون ويتعجّبون ، إذ رُمي البرج الثاني بالقدرة الثانية ، فما كان إلا أن وصلت إليه واشتعلت كالتي قبلها ، فاشتدّ ضجيج الفئتين وارتفعت الأصوات إلى السّماء ، وما كان إلا ساعة حتى ضُرب الثالث فالتهب ، وغشي الناس من السّرور والفرح ، ما حرّك ذوي الأحلام والنُّهى منهم حركة الشباب الرّعناء .

وركب السُّلطان - قدّس الله روحه - وركبت العساكر ميمنةً وميسرةً وقلباً ، وكان أواخر النهار ، وسار حتى أتى عسكر القوم ، وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم ، عملاً بقوله صلّى الله عليه وسلم : «من فُتح له بابُ خير فلينتهزه» . فلم يظهر العدوّ من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليلُ ، وعاد كلٌّ فريق إلى حزبه ، ورأى الناسُ ذلك ببركة قدوم الملك الظاهر - رحمه الله - واستبشر والده بغرّته ، وعلم أن ذلك أثر [1] صلاح سريرته .

واستمر ركوب السُّلطان إليهم في كل يوم ، وطلب نزالهم وقتالهم وهم لا يخرجون من خيامهم ، لعلمهم ببشائر النصر والظفر بهم ، والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل .

ذكر وصول عماد الدِّين زنكي
صاحب سِنْجَار

ولما كان يوم الثلاثاء ثاني عشرين ربيع الآخر ، وصل عماد الدِّين زنكي ابن مودود [93 و] بن زنكي ، صاحب سنجار ، يجرُّ عسكره ، ووصل بتجمُّل حسن وعسكر تام ، ولقيه السُّلطان - رحمة الله عليه - بالاحترام والتعظيم ، ورتَّب له العسكر في لقائه . فكان أوّل مَنْ لقيه من العسكر المنصور قضاتُه وكتّابُه ، ثم لقيه

---

(1) في طبعة مصر : بيُمن صلاح سريرته .

أولاده بعد ذلك ، ثم لقيه السُّلطان – قدّس الله روحه – ، ثم سار به حتى أوقفه على العدوّ ، وعاد معه إلى خيمته ، وأنزله عنده ، وكان صنع له طعاماً لائقاً بذلك اليوم ، فحضر هو وجميعُ أصحابه ، وقدَّم له من التحف واللطائف ما لا يقدر عليه غيره ، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طُرّاحةً مستقلّة إلى جانبه ، وبسط له ثوباً أطلس عند دخوله ، وضُربت خيمته على طرف المَيْسَرَة على جانب النهر .

ذكر وصول معزّ الدِّين سنجر شاه [1]
صاحب الجزيرة

ولما كان يوم الأربعاء سابع جُمادى الأول سنة ستّ ، وصل سنجر شاه معزّ الدِّين ، وهو ابن سيف الدِّين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الجزيرة ، وصل في عسكر حسن وزيّ مستحسن ، فلقيه السُّلطان – قدّس الله روحه – واحترمه وأكرمه ، وأنزله في خيمته ، وأمر أن ضُربت له خيمةٌ إلى جانب عمّه عماد الدِّين .

ذكر وصول علاء الدِّين [2]
ابن صاحب الموصل

[93 ظ] وكان وصوله في تاسع جُمادى الأولى سنة سبع وثمانين وخمسمائة وهو علاء الدِّين خُرَّمْشَاه ابن مسعود بن مودود بن زنكي [3] ، وصل نائباً عن أبيه عزّ الدِّين مسعود صاحب الموصل مقدّماً على عسكره . ففرح السُّلطان – رحمة الله

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(2) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(3) نرى هنا كيف أن النزاع المرير الذي اندلع بين السّلطان النّاصر وأتابكة الموصل ، على اعتبارهم ينكرون حقّه في احتجان تركة مولاه نُور الدّين ، سرعان ما تحوّل إلى تعاضد وتحالف ، من أجل الجهاد ضد الغزاة الصّليبيين ، تحت قيادته .

عليه – بقدومه فرحاً شديداً ، وتلقّاه عن بُعد هو وأهله ، واستحسن أدبه واستنجبه وأنزله عنده في الخيمة ، وكارمه مكارمة عظيمة ، وقدَّم له تحفاً حسنة ، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر ، وما من أهله إلا مَنْ بسط له من ضيافته ومكارمته وجهاً وضيئاً .

ذكر وصول الأصطول [1]
ودخوله إلى عَكّا

ولما كان ظهيرة ذلك اليوم – وهو يوم وصول علاء الدِّين – ، ظهرت في البحر قُلُوعٌ كثيرة ، وكان – رحمة الله عليه – في نظره وصول الأصطول من محروسة مصر ، فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله ، فعلم أنه هو ، وركب السُّلطان – رحمه الله – وركب الناس في خدمته ، وتعبأ تعبئة القتال ، وقصد مضايقة العدوّ ليشغله عن قصد الأصطول .

ولما علم العدوّ وصول الأصطول استعدّ له ، وعمَّر له أصطولاً لقتاله ومنعه من دخول عكّا ، وخرج [94 و] أصطول العدوّ واشتدّ السُّلطان – رحمة الله عليه – في قتالهم من خارج ، وسار الناس على جانب البحر تقويةً للأصطول وإيناساً لرجاله ، والتقى الأصطولان في البحر والعسكران في البر ، واضطرمت نار الحرب واستعرت ، وباع كلُّ فريق روحه براحته الأخروية ، ورجَّح حياته الأبديّة على حياته الدُّنيوية ، وجرى بين الأصطولين قتال شديد ، انقشع عن نُصرة الأصطول الإسلامي – ولله الحمد – على عدوّ الله ، وأخذ منه شاني [2] وقتل مَنْ به ونهب جميع ما فيه ، وظفر من العدوّ بمركب أيضاً كان واصلاً من قسطنطينية .

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : وأخذ من العدوّ شواني . وحول المصطلح راجع ما تقدّم ، ص 114 .

ودخل الأصطول المنصُوْر إلى عكّا ، وكان قد صحبه مراكب من السّاحل فيها ميَر وذخائر ، وطابت قلوب أهل البلد بذلك ، وانشرحت صدورهم ، فإن الضائقة كانت قد أخذت منهم . واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل ، وعاد كل فريق إلى خيمته .

وقد قُتل من عدوّ الله وجُرح في ذلك اليوم خلق عظيم ، فإنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع ، فإن أهل البلد اشتدّوا في قتالهم ليشغلوهم عن الأصطول أيضاً ، والأصطولان يتقاتلان ، والعسكر من البرّ يقاتلهم ، وكان النصر بحمد الله للمسلمين في ذلك اليوم في الأماكن كلها .

[94 ظ] ذكر وصول زين الدِّين [1]
صاحب إربل

وكان وصوله في العشر الأخير من جُمادى الأولى ، وهو زين الدِّين ابن يوسف زين الدِّين بن علي بن بكْتكين [2] – صاحب إربل – ، قدم بعسكر حسن ، وتجمّل جميل ، فاحترمه السُّلطَانَ – رحمه الله – وأكرمه ، وأنزله في خيمته ، وأكثر من ضيافته ، وأمر بضرب خيمته عند أخيه مظفَّر الدِّين .

* * * * *

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) في طبعة مصر : وهو زين الدِّين يوسف بن على بن بكتكين . أما بكتكين فهو اسم تركي Bey-Tekin ، ويعني : أمير – مولى .

ذكر خبر ملك الألمان

ثم تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان [1] إلى بلاد قليج أرْسْلان ، وأنه انتهض للقائه جمعٌ عظيم من التُّركمان ، وقصدوا منعه مِن عبور النهر ، وأنه أعجزهم لكثرة خَلْقه ، وعُدْم مُقدَّم لهم يجمع كلمتهم . وكان قليج أرْسْلان يُظهر شقاقه ، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه ، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر ما كان أضمره ، ووافقه وأعطاه رهائن معه على أنه يُنْفذ معه مَنْ يوصله إلى بلاد ابن لافون [2] ، وأنفذ معه أدلَّةً يدلون به ، وعَرَاهم في الطريق جُوعٌ عظيم وأعوزهم الزّاد ، وقلَّ بهم الظَّهر [3] حتى أنهم ألقوا بعض أقمشتهم .

ولقد بلغنا - والله أعلم - أنهم جمعوا عُدداً كثيرة من زَرَدِيّات وخُوَذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها ، وجعلوها بيدراً [4] واحداً ، وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع [95 و] بها أحد ، وأنها بقيت بعد ذلك رابيةً [5] من حديد .

---

(1) أثارت هزيمة الصَّليبيين في حطّين عزائم ملوك أوروبا للانطلاق في حملة صليبية جديدة ، هي الثالثة ، فشارك بها كل من الإمبراطور الجرماني فريدريك باربا روسّا Friedrich «Barbarossa» ، وملك فرنسا فيليب أوگست Philippe Auguste ، وملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد Richard cœur de Lion .
ولما كان فريدريك باربا روسا أول المتهيئين للانطلاق ، فقد اجتاز بجيش جرّار الأقاليم البيزنطية في أوروبا (آذار 1190 م) ، واجتاز كذلك الأقاليم البيزنطية في ليديا وفريجيا ، ثم السلطنة السلجوقية في آسيا الوسطى ، حيث اقتحم عاصمتها قونية عَنْوةً (في 18-20 أيار 1190 م) . وكان باربا روسا يُعدّ العُدّة للنزول في سورية ، وقد منّى نفسه بانتصارات حاسمة لما تميَّز به جيشه من الكثرة والنظام ، وإذا به يموت غريقاً (بحسب الروايات الفرنجية) في مياه نهر سلوقية Silifke (في 10 حزيران 1190 م) . وعندما أمسى جيشه دون قائد ، فقد تبعثر وتفرّق وأخفقت حملته تماماً .

(2) أي الملك ليڤون الثاني الأكبر ملك الأرمن من السلالة الروبينية (حكم 1187-1219 م) .

(3) هاتان الجملتان ساقطتان من طبعة مصر . وقوله «قلّ بهم الظَّهر» يعني أعوزتهم مطايا الركوب .

(4) في طبعة مصر : صدراً ، والبيدر هو الجرن أو المخزن أو الكومة الكبرى من الحبوب .

(5) في طبعة مصر : تلاً .

وساروا على هذا الحال حتى وصلوا إلى بلد يقال له طرسوس ، فأقاموا على نهر ليعبروه ، وأن ملكهم الملعون عنّ له أنه سبح فيه ، وكان ماؤه شديد البرودة ، وكان ذلك عقيب ما ناله من التعب والنَّصَب والمشقّة والخوف ، وأنه عرض له بسبب ذلك مرضٌ عظيم اشتدّ به إلى أن قتله ، ولما رأى ما حلَّ به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته .

ولما مات ، أجمعوا [1] آراءهم على أنهم سلقوه في خَلٍّ ، وجمعوا عظامه في كيس ، حتى [2] يحملوه إلى القُدْس الشَّريف ويدفنوه فيه ، وترتّب ابنهُ مكانه على خُلْف من أصحابه ، فإن ولده الأكبر كان قد خَلّفه في بلاده ، وكان جماعةٌ من أصحابه يميلون إليه ، واستقرّ قدمُ ولده الحاضر في تقدّمه العسكر . ولما أحسَّ ابن لافون بما جرى عليهم من الخلل وما حلَّ بهم من الجوع والموت والخوف والضعف بسبب موت ملكهم ، ما رأى أن يُلقي نفسه بينهم ، فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر ، وهم إفرنج وهو أرمني [3] ، فاعتصم هو عنه في بعض قلاعه المنيعة .

---

(1) بالأصل : أرجعوا ، والتصويب من طبعة مصر .

(2) في طبعة مصر : على أن .

(3) هذا هنا تعبير هام يدل على إدراك المؤلف وأصحاب الاطّلاع في العالم الإسلامي على واقع الخلاف الطائفي المستعر آنذاك في العالم الأوروبي بشقيه : الغربي اللاتيني (الكاثوليكي) والشرقي (الأرثوذوكسي) ، بالإضافة إلى بعض المذاهب الهرطقية المنشقة في الشرق ، كمذاهب التوحيد المسيحي ، وهي المذاهب القائلة بوحدانية طبيعة المسيح monophysisme ، كالملل السريانية والقبطية . وهذه المذاهب قد ناصبتها الأرثوذوكسية البيزنطية العداء كمذاهب هرطقية منشقّة ، بينما اعتبر اللاتين أنفسهم أصحاب المذهب الشرعي الوحيد ، وحاربوا الجميع – وبخاصة بيزنطة – التي وجّهوا إليها حملة صليبية كاملة (هي الرابعة) ، واحتلوا عاصمتها القسطنطينية عام 1204 م ، وأقاموا فيها إمبراطورية لاتينية دامت حتى عام 1261 م . راجع كتاب «الحروب الصّليبية» لرنيه گروسيه (صدر بترجمتنا مؤخراً عن دار قتيبة بدمشق) ، الفصل السادس : إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، ص 135 .

أما الأرمن ، فكانوا قد قاموا منذ عام 527 م باعتناق مذهب الوحدانية ، فضمنوا بذلك استقلالهم الروحي التام ، حيث وقاهم هذا المذهب من الانصهار في بوتقة بيزنطة الأرثوذوكسية . ومن الهام هنا ملاحظة مراسلاتهم مع النّاصر لتزويده بالاستخبارات .

صُورة كتاب الكاغيكوس الأرمني

ولقد وصل إلى السُّلطان - رحمه الله - كتاب من الكاغيكوس [1]، وهو مُقدّم الأرمن ، وهو صاحب قلعة الرُّوم التي على طرف الفُرات .

نسخة

هذه ترجمته :

[95 ظ] «كتاب الدّاعي المُخلص الكاغيكوس :

مما أُطالع به علوم مولانا ومالكنا السُّلطان الناصر - جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدِّين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ، وضاعف جلاله ، وصان مُهجته وكماله ، وبلَّغه نهاية آماله ، بعظمته وجلاله - من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره . .

وذلك : أنه أول ما خرج من دياره ، ودخل بلاد الهُنْكَر [2] غصباً ، وغصب ملك الهُنْكَر بالإذعان والدخول تحت طاعته ، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار . ثم إنه دخل أرض مُقدَّم الرّوم [3]، وفتح البلاد ، ونهبها ، وأقام بها وأخلاها ، وأحوج ملك الرّوم إلى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه : ولده وأخاه وأربعين نفراً من خُلصائه ، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً وخمسين قنطاراً فضة ، وثياب أطلس مبلغاً عظيماً ، واغتصب المراكب ، وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرُّهائن .

---

(1) لعل هذا اللفظ يعني في الأرمنية اسم خاتشيك ، بإضافة os باليونانية للمذكّر المرفوع .

(2) أي هنگاريا أو المجر .

(3) أي أراضي الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس ، فاجتاز أولاً أقاليم بيزنطة الأوروبية في آذار 1190 م ، ثم عبر إقليمي ليديا وفريجيا في آسيا الصغرى .

إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرْسْلان ، ورَدَّ الرُّهائن ، وبقي سائراً ثلاثة أيام ، وتركمان الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيل والبضائع ؛ فتداخلهم الطمع ، وجمعوا من جميع البلاد ، ووقع القتال بين التُّركمان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين [96 و] يوماً وهو سائر .

ولما قَرُبَ من قُونْيَة جمع قطب الدِّين ولد قليج أرْسْلان العساكر ، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قُونْيَة . فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين ، فردّهم مكسورين ، وهجم قُونْيَة بالسيف ، وقتل منها عالماً عظيماً من المسلمين والفُرس ، وأقام بها خمسة أيام . فطلب قليج أرْسْلان منه الأمان ، فأمَّنه الملك ، واستقرّ بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ منه الملك رهائن ، عشرين من أكابر دولته ، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ، ففعل ، وقبل منه .

وقبل وصوله إلى هذه البلاد ، نفّذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده ، وما لقيه في طريقه ، وأنه لا بُدَّ مجتاز هذه الديار اختياراً أو كرهاً ، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم [1] ، وصحبته ما سأل ، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه . وكانت الوصية معهم أن يحرفوه على بلاد قليج أرْسْلان إن أمكن .

فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب ، وعرفوا الأحوال ، أبى الانحراف ، ثم كثر عليه العساكر والجموع ، ونزل على شطّ بعض الأنهار ، فأكل خبزاً ونام ساعة ، وانتبه ، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء [96 ظ] البارد [2] ، فمكث أياماً قلائل ومات . وأما لافون فكان سائراً يلقى الملك ، فلما جرى هذا المجرى ، هرب الرُّسُل من العسكر ، وتقدّموا إليه ، وأخبروه بالحال ، فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك .

---

(1) العبارة غير مفهومة كذا بالأصل : المملوك حاتم ، ولعلّ المُراد بها : إنفاذ المملوك بما تمّ ؟
(2) النص في طبعة مصر : الاستحمام في الماء البارد ، ففعل ذلك وخرج ، وكان من أمر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد ، فمكث أياماً قلائل ومات .

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجَّه إلى قصد هذه الديار نصَّب ولده الذي معه عوضه وتوطدت قواعده ، وبلغه هرب رسل ابن لاون ، فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم ، وقال : «إن أبي كان شيخاً[1] كبيراً ، وإنما قَصَدَ هذه الدِّيار لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذي دبَّرتُ المُلك وعانيتُ المشاقّ في هذه الطريق فمن أطاعني وإلا بدأتُ بقصد دياره !» . واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة ، وفي الجملة هم في عدد كثير .

ولقد عرض عسكره فكان في اثنين وأربعين ألف مُجفجف[2] ، وأما الرَّجَّالة فلا يُحصى عددهم[3] وهم أجناس متفاوتة ، وخلق غريبة ، وهم على قصد عظيم وجدٍّ في أمرهم وسياسة هائلة ، حتى إن من جنى منهم جنايةً فليس له جزاءٌ إلا أنه يُذبح مثل الشاة .

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحدَّ في ضربه ، فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه ، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم ، [97 و] فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه . وقد حرَّموا الملاذَّ على أنفسهم ، حتى إن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزّروه ، كل ذلك كان حزناً على البيت المقدّس .

ولقد صحّ عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدّة طويلة ، وحرّموها على أنفسهم ، ولم يلبسوا إلا الحديد ، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك ، وهم من الصبر على الشقاء والذُّلّ والتعب في حال عظيم .

طالع المملوك بالحال وما يتجدّد بعدُ يُطالع به إن شاء الله تعالى» .

---

(1) بالأصل : شجاعاً ، والتصحيح من طبعة مصر .

(2) التجفاف : آلة للحرب من حديد وغيره ، يلبسه الفرس أو الإنسان ليقيه في الحرب ، والجمع تجافيف .

(3) هذه الجملة ساقطة في طبعة مصر .

هذا كتاب الكاغيكوس ، ومعنى هذا اللفظ الخليفة ، واسمه بَرْكري كُور [1] ابن باسيل .

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد
التي في طريق ملك الألمان

ولما تحقّق السُّلطان – قدّس الله روحه – وصول ملك الألمان إلى بلاد ابن لافون ، وقُربه من البلاد الإسلامية ، جمع أمراء دولته وأرباب الآراء ، وشَاوَرهم فيما يصنع ، فاتفق الرأي على أن العسكر يسير بعضُه إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدوّ الواصل ، وأن يقيم هو – رحمه الله – [2] على منازلة العدوّ بباقي العسكر المنصُوْر .

فكان أول من سار صاحب مَنْبِج ، وهو ناصر الدِّين بن تقي الدِّين ، وعزّ الدِّين ابن المُقدَّم – صاحب كفر طَاب وبَعْرين وغيرهما – ، ثم مجد الدِّين – صاحب بعلبك – ، ثم سابق الدِّين – صاحب شَيْزَر – [97 ظ] ، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب ، ثم عسكر حماة . وسار ولده الملك الأفضل لمرض عرض له أيضاً ، ثم بدر الدِّين شحْنَة دمشق ، لمرض عرض له أيضاً . وسار بعده ولده الملك الظاهر إلى محروسة حَلَب لإبانة الطرق ، وكشف الأخبار ، وحفظ ما يليه من البلاد . وسار بعده الملك المظفّر يحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدوّ المجتاز . وكان آخر مَنْ سافر في ليلة السبت التاسع من شهور جُمادى من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة [3] .

---

(1) بَرْ كلمة سريانية (بار) تعني ابن ، ومعنى الاسم : ابن كريكور ، وهواسم أرمني معروف يقابل الاسم اللاتيني گريگوريوس .
(2) هذه الكلمات ساقطة من طبعة مصر .
(3) العبارة من قوله : وكان آخر من سافر . . إلى خمسمائة ، ساقطة من طبعة مصر .

ولما سارت هذه العساكر خفَّتْ المَيْمَنَة ، فإن معظم مَنْ سار منها ، فأمر - رحمة الله عليه - الملك العادل - رحمه الله - أن ينتقل إلى منزلة تقي الدِّين في طرف المَيْمَنَة ؛ وكان عماد الدِّين زنكي في طرف المَيْسَرَة .

ووقع في العسكر مرضٌ عظيم ، فمرض مظفَّر الدِّين بن زين الدِّين - صاحب حرّان - وشُفي ، ومرض بعده الملك الظافر ولد السُّلطان - رحمة الله عليه - وشُفي ، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم ، إلا أن المرض كان سليماً بحمد الله تعالى ، وكان المرض عند العدوّ أكثر وأعظم ، وكان مقروناً بموت (1) عظيم . وأقام السُّلطان - قدّس الله روحه - مصابراً على ذلك مرابطاً للعدو .

ذكر تمام خبر ملك الألمان

[98 و] وذلك أن ولده الذي أقام مقامه مرض مرضاً عظيماً ، أقام بسببه بموضع يُسمّى المينات من بلاد ابن لافون ، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون داوياً ، وجهّز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ، ورتّبهم ثلاث فرق لكثرتهم . ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بَغْرَاس يقدمها كُنْدٌ عظيم عندهم ، وأن عسكر بَغْرَاس مع قلّته أخذ منهم مائتي رجل قهراً ونهباً .

وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم (2) والمرض الشديد وقلّة الخيل والظهر والعدد والآلات . ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الشامية أنفذوا إليهم عسكراً يكشف أخبارهم ، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العُلُوفة ، فأغاروا عليهم غارةً عظيمةً ، وقتلوا وأسروا ، وكان مقدار ما أخذوه على ما ذكره المخبرون في الكتب زُهاء خمسمائة نفس .

---

(1) في طبعة مصر : بموتان .

(2) النص في طبعة مصر : وكتب جزء منهم بالضعف العظيم .

ولقد حضرتُ أداء رسالة رسول ثان وصل من كاغيكوس بين يدي السُّلطان – رحمة الله عليه – وهو يذكر خبرهم ، ويقول :

«هم عدد كثير ، لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعُدّة ، وأكثرهم ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة» ، قال : «ولقد وقفتُ على جسر يعبرون عليه لأعتبرهم ، فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم [98 ظ] طارقة [1] ولا رُمحاً إلا النادر ، فسألتُهم عن ذلك فقالوا أقمنا بمرج وَخِم أياماً ، وقلّت أزوادنا وأحطابنا ، فوقدنا معظم عُدَدنا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها ، وأوقدنا الرِّماح والعُدَد لإعواز الحطب ؛ وأما الكُنْد الذي وصل إلى أنطاكية – يسَّر الله فتحها – في مقدّمة العسكر فإنه مات» .

وذكر أن ابن لافون لما أحسّ منهم بهذا الضعف طمع فيهم حتى إنه عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه ، وقلّة جمعه الذي تخلّف معه ، وأن البِرْنْس – صاحب أنطاكية – لما أحسّ منهم بذلك سار إلى ملك الألمان لينقله إلى أنطاكية ، طمعاً في أن يموت عنده ، ويأخذ ماله . ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض إلى أن وقعت وقعة العادل – رحمه الله – على طرف البحر .

---

(1) الطارقة – وتجمع على طوارق أو طارقيات – اختُلف في أصلها ، ويرى دوزي في معجمه أنها لا ترجع إلى أصل عربي ، بل هي مأخوذة عن الكلمة اللاتينية targa ، ومنها اشتّقت الكلمة الإيطالية targa والفرنسية targe ، والأصل اللاتيني لها جميعاً targum . ويؤيد دوزي رأيه هذا بشواهد منقولة عن المراجع العربية المعاصرة للحروب الصَّليبية ، ومعظم هذه الشواهد يورد لفظ «الطوارق» عند وصفه لأسلحة الصَّليبيين ، فقد جاء في الفتح القسّي لابن العماد (ص 164) عند وصفه للقتال مع الإفرنج قوله : وهم لمواضعهم ملازمون ، وبالخنادق من البوائق مجتمعون ، وبالطوارق من الطوارق معتصمون . وأورد كذلك (ص 247) : فتراجع الفرنج واصطفّوا على خنادقهم ، ووقفوا بقنطارياتهم وطوارقهم .
والطوارق نوع من التراس ، كما ذكر مرضي بن علي في كتابه «تبصرة أرباب الألباب» (ص 12) الذي ألّفه لصلاح الدِّين ، عند وصفه للتراس : ومنها الطوارق ، وهي التي يستعملها الفرنج والروم ، ويُتباهى في حُسن إذهابها ودهانها وتلوينها بأنواع الأصباغ وتصويرها وإتقانها . وهي مستطالة وتكوينها إلى أن تستر الفارس والرّاجل .

ذكر الواقعة العادلية

ولما كان يوم الأربعاء العشرين من جُمادى الآخر من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ، علم عدوّ الله أن العساكر قد تفرّقت في أطراف العدوّ ، وأن المَيْمَنَة قد خفّت لأن معظم مَنْ سافر كان منها بُحكم قرب بلادهم من طرق العدوّ ، وأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ، ويهجمون على طرف المَيْمَنَة فجأة ، وتلاعبت بهم آمالهم التي أكذبها الله تعالى .

فخرجوا ظهيرة نهار الأربعاء [99 و] وامتدّوا ميمنة وميسرة وقلباً ، وانبثّوا في الأرض ، وكانوا عدداً عظيماً ، واستخفّوا طرف المَيْمَنَة ، وكان في طرفها مخيّم الملك العادل – قدّس الله روحه – فلما بصر بهم الناس قد خرجوا في تعبئة القتال صاح صائحهم ، وخرجوا من خيامهم كالأُسود من آجامها ، وركب السُّلطان – قدّس الله روحه – ونادى مناديه : يا للإسلام ! وركبت الجيوش وطُلِّبت الأطلاب ، وكان – رحمة الله عليه – أول راكب ، ولقد رأيتُه وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه ، والناس لم يستتم ركوبهم ، وهو كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها ، ثم ضُرب الكُوْس ، فأجابته كوسات الأمراء من أماكنها ، وركب الناس .

وأما الفرنج – لعنهم الله – فإنهم سارعوا في القصد إلى المَيْمَنَة حتى وصلوا قبل استتمام ركوب العساكر حتى وصلوا إلى مخيم الملك العادل ، ودخلوا في وطاقه [1] ، وامتدّت أيديهم في السوق ، وأطراف الخيم ، بالنهب والغارة ، وقيل وصلوا إلى خيمة الخاص ، وأخذوا من شراب خاناته شيئاً [2] .

---

(1) الوطاق : لفظ معرّب ، وأصله بالتركية utak (أوتاق أو أوطاق أو أوتاغ) ، ومعناه الخيمة أو مجموعة الخيام أو المعسكر . راجع : Dozy: *Suppl. Dict. Arab.* . والمصطلح يرد كثيراً في مؤلفات العهدين المملوكي والعثماني .

(2) كان جرى مثل ذلك أثناء المصاف الأعظم على عكّا ، راجع الصحيفة 201 .

وأما الملك العادل فإنه لما علم بذلك ركب وخرج من خيمته ، واستركب مَنْ يليه من المَيْمَنَة ، كالطّواشي قايماز النَّجمي ، ومن يجري مجراه من أُسود الإسلام ، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في الخيم ، ويشتغلوا [99 ظ] بالنَّهب ، وكان كما ظن - رحمه الله - فإنهم عاثت أيديهم في الخيام والأقمشة والفواكه والمطاعم .

فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس ، وحَمَلَ بنفسه يَقْدُمُهُ ولده الكبير شمس الدِّين ، وحَمَلَ بحملته مَنْ كان يليه من المَيْمَنَة من الطواشي قايماز وغيره ، واتصل الأمر بجميع المَيْمَنَة حتى وصل الصائح إلى عسكر الموصل ، وهجموا على العدوّ هجمة الأُسود على فرائسها ، وأمكنهم الله تعالى منهم ، ووقعت الكسرة ، فعادوا يشتدّون نحو خيامهم هاربين ، على أعقابهم ناكصين ، وسيف الله فيهم يلتقط الأرواح من الأشباح ، ويفصل بين الأجساد والرؤوس ، ويفرّق بين الأبدان والنفوس .

ولما بصر السُّلطان - رحمة الله عليه - بقصطل [1] الحرب قد ارتفع مما يلي خيام أخيه - رحمه الله - ثارت في قلبه نار الإشفاق ، وحركت الأخوّة حميّته ، وأنهضت الرغبة في نصرة دين الله والخوف على أوليائه عزمته ، وصاح صائحُه في الناس : «يا للإسلام وأبطال الموحّدين ، هذا عدوّ الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطَّمع حتى غشي خيامكم بنفسه» .

فكان من المبادرين إلى إجابة دعوته جماعةٌ من مماليكه وخاصته وحلقته ، ثم طَلَب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدِّين ولد عزّ الدِّين ، ثم عسكر مصر يقدمهم سُنْقُر الحلبي ، وتتابعت العساكر [100 و] وتجاوبت الأبطال ، ووقف هو - رحمة الله عليه - في القلب خشية أن يستضعف العدوّ القلبَ بحكم ما أنفذ منه من العساكر فينال غرضاً ، وتواصلت العساكر واتصل الضرب ، وقامت سوق الحرب .

---

(1) في طبعة مصر : باصطلاء الحرب .

فلم يكن إلا ساعة ، حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وامتدوا مطرّحين من خيام الملك العادل – رحمه الله – إلى خيامهم ، أولهم في الخيم الإسلامية ، وآخرهم في خيم العدوّ ، صرعى على التُّلول والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى رُويت ، وأكلت أُسْدُ الوغى بأسنان الظّفر بهم حتى شبعت ، وأظهر الله سبحانه كلمته ، وحقّق لعبيده نصرته .

وكان مقدار ما امتدّ فيه القتلى فيما بين المخيمين فرسخاً ، وربما زاد على ذلك ولم ينجُ من القوم إلا النادر . ولقد خُضتُ في تلك الدماء بدابتي ، واجتهدتُ أن أعدّهم فما قدرتُ على ذلك لكثرتهم وتفوّقهم ، وشاهدتُ فيهم امرأتين مقتولتين ، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن ، وأُسر منهن اثنتان . وأُسر من الرجال في ذلك اليوم نفرٌ يسير ، فإن السُّلطان – رحمه الله – كان أمَرَ الناس أن لا يستبْقوا أحداً ، هذا كله في المَيْمَنَة وبعض القلب .

وأما [في] المَيْسَرَة فما اتصل الصائحُ بهم إلا وقد نجز الأمر وقضى القضاء على [100 ظ] العدوّ لبُعد ما بين المسافتين . وكانت هذه الواقعة فيما بين الظهر والعصر ، فإن العدوّ ظهر في قائم الظهيرة ، وانفصلت الحرب بعد صلاة العصر ، وانكسر القوم حتى دخلت معهم طائفة من المسلمين وراءهم إلى مخيمهم على ما قيل ، ثم إنه – رحمة الله عليه – أمر الناس بالتراجع لما ظهر له وجه الربح ، حيث قُتل من العدوّ ما قُتل من هذا الخلق العظيم [1] ، ولم يُفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين .

ولما أحسَّ جندُ الله بعكّا بما جرى بين المسلمين وبين عدوّ الله من الوقعة – فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السُّور – خرجوا إلى مخيم العدوّ المخذول من البلد ، وجرى بينهم مقتلة عظيمة ، وكانت النصرة – والحمد لله – للمسلمين ، بحيث هجموا خيام العدوّ ، ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة ،

(1) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

حتى القدور وفيها الطعام ، ووصل كتابٌ من المدينة يخبر بذلك ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً . واختلف الناس في عدد القتلى منهم ، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف ، وقال آخرون : سبعة آلاف ، ولم ينقصهم حازر بأقل من خمسة آلاف .

ولقد شاهدتُ منهم خمسة صفوف أولها في خيم العادل - رحمه الله - وآخرها في خيم العدوّ . ولقد لقيتُ إنساناً عاقلاً جندياً يسعى بين صفوف القتلى ويعدّهم ، فقلتُ له : كم عددتَ ؟ فقال [101 و] لي : إلى ها هنا أربعة آلاف ونيّفاً وستين قتيلاً ، وكان قد عدَّ صفيْن وهو في الصف الثالث ، لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقي . وانجلى يوم الأربعاء المذكور بأحسن ما ينجلي عنه الإسلام .

ولما كان يوم الخميس الحادي والعشرين من جُمادى المذكور ورد في عصره نجّابٌ له عن محروسة حلب خمسة أيام يتضمن كتابهُ أن جماعة عظيمة من العدوّ الشمالي خرجوا لنهب أطراف البلاد الإسلامية ، ونهض العسكر الإسلامي بمحروسة حلب إليهم ، وأخذ عليهم الطريق ، فلم ينجُ منهم أحد إلا من شاء الله ، وكان وقع هذا الخبر عقيب هذه الوقعة المباركة وقعاً عظيماً ، وضُربت البشائر ، ولم يُرَ صبيحة ذلك العرس أحسن من هذه الصبيحة .

وجاء في بقية ليلة ذلك اليوم من اليَزَك قايماز الحرّاني ، وذكر أن العدوّ قد سأل من جانب السلطان - قدّس الله روحه - مَنْ يصل إليهم ، ليسمع منهم حديثاً في سؤال الصلح ، لضعف حلَّ بهم . ولم يزل عدوّ الله من حينئذ مكسور الجناح مُهاض الجانب ، حتى وَصلهم كُنْدٌ يقال له : كُنْدُهْري [1] .

---

(1) الكُنْدُهْري صيغة محرّفة لاسم : الكونت هنري le comte Henri . وهو القائد الفرنسي هنري دى تروا كونت شامپانيا Henri, Comte de Champagne . كانت أمه - وهي ابنة كونتيسة أكيتين - أختاً غير شقيقة لكل من ملكي إنكلترا وفرنسا ، وكان خالاه كلاهما يفخران به ، وسرعان ما أضحت له مكانة خاصة باعتباره ممثلاً للملكين ، فتولّى قيادة عمليات حصار عكّا التي كان يتزعّمها قبله الدوق الألماني لودڤيك فون تورينگن .

ذكر وصول الكُنْدُهْري

وهذا المذكور من ملوكهم وأغنيائهم [1]، وصل في البحر في مراكب عدّة ، ومعه [101 ظ] من الأموال والذخائر والمير والأسلحة والرّجال عدد عظيم ، فقوي بوصوله جأشهم ، واشتدّ أزرهم [2]، وحدّثتهم نفوسهم بكبس [3] العسكر الإسلامي المنصُوْر ليلاً ، وكثر ذلك الحديث على ألسنة المستأمنين والجواسيس .

فجمع السُّلطان - رحمة الله عليه - الأمراء وأرباب الرأي ، واستشارهم فيما يفعل ، فكان آخر الرأي أنهم يُوسّعون الحلقة ، ويتأخّرون عن العدوّ ، رجاء أن يخرج العدوّ ، ويبعد عن خيمه فيُمكِّن اللهُ منهم ، ووافقهم السُّلطان - رحمة الله عليه - على ذلك ، وأوقعه في قلبه .

فرحل إلى جبل الخرّوبة بالعساكر بأسرها ، وذلك في يوم الأربعاء [4] السابع والعشرين من جُمادى الآخرة سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وترك بقية من العسكر في تلك المنزلة كاليَزَك ، مقدار ألف فارس ، يتناوبون بحفظ النوبة ، هذا والكتب متواصلة من عَكّا ومنا إليها على أجنحة الطيور ، وأيدي السُّبَّاح [5]، والمراكب اللطاف ، تخرج ليلاً ، وتدخل سرقة من العدوّ .

عُدنا إلى أخبار ملك الألمان ، هذا وأخبار العدوّ الواصل من الشمال متواصلة وقلّة خيله وعُدَده ، وما قد عَراهم من المرض والموت ، وأنهم قد اجتمعوا في أنطاكية ، وأنهم ينفقون في الرَّجَّالة ، وأن أصحابنا عسكر حلب يتخطّفون حشّاشتهم وعلاّفتهم ومن يخرج منهم .

---

(1) في طبعة مصر : وأعيانهم . انظر الصحيفة السابقة حول هوية هذا الكونت هنري .
(2) في طبعة مصر : عزمهم .
(3) في طبعة مصر : بطلب .
(4) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .
(5) في طبعة مصر : السيّاح ، وهو غلط واضح .

[102 و] ذكر كتاب وصل من قسطنطينية
يسّر الله فتحها

وكان بين السُّلطان - رحمة الله عليه - وبين ملك قَسْطَنْطينيّة مراسلةٌ ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى الباب السُّلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة في جواب رسول كان أنفذه السُّلطان - رحمة الله عليه - إليه بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية .

فمضى الرّسول ، وأقام الخطبة ، ولُقي باحترام عظيم وإكرام زائد ، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعاً [1] من المؤذنين والقرّاء ، وكان يوم دخولهم إلى قَسْطَنْطينيّة يوماً عظيماً من أيام الإسلام شاهده جمعٌ كثير من التجار ، ورقي الخطيبُ المنبر ، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار ، وأقام الدَّعوة الإسلامية العباسية ، ثم عاد ، فعاد معه الرّسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك ، فأقام مدّة .

ولقد شاهدتُه يبلغ الرسالة ، ومعه ترجمان يترجم عنه ، وهو شيخٌ أحسن ما يُفرض أن يكون من صُوَر المشايخ ، وعليه زيُّهم الذي يختصُّ بهم ، ومعه كتاب وتذكرة ، والكتاب مختوم بذهب .

ولما مات ، وصل إلى ملك القسطنطينية خبرُ وفاته ، فأنفذ هذا الرّسول في تتمة ذلك ، ووصل معه [102 ظ] الكتاب في جواب ذلك وصُوْرة ما فُسّر من الكتاب الواصل منه ووصفه : أنه كتابٌ مدروج عَرْضاً ، وهو دون عرض كتاب بغداد ، مترجماً في ظاهره وباطنه بسطرين ، بينهما فُرْجة ، وُضع فيها الختم ، والختم في ذهب مطبوع كما يُطبع الخاتم في الشمع ، على ختمه صُوْرة ملك ، وزن الذهب خمسة عشر ديناراً ، مضمون السطرين المكتوبين ما هذا صُوْرته :

---

(1) بالأصل : وجمع ، والتصويب من طبعة مصر .

«من إيْسَاكيوُس الملك المؤمن بالمسيح الإله ، المتوَّج من الله المنصُوْر العالي أبداً ، أفعقوس [1] المدَبَّر من الله القاهر الذي لا يُغلب ، ضابط الرُّوم بذاته أنكليوس إلى النّسيب سلطان مصر صلاح الدِّين» .

فهذا صُوْرة ما كتب عليه من التّرجمة باطناً وظاهراً وأما ما فُسِّر من الكتاب فهذا :

«المحبّة والمودّة ، وقد وصل خطّ نسبتك الذي أنفذتَ إلى مُلكي ، وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفّي ، وحزنّا حيث أنه توفي في بلد غريب ، ومَا قُدّر أن يتم كما رسم له مُلكي ، وأمره أن يتحدث مع نسبتك ، ويقول في حضرتك ، ولا بدّ لنسبتك أن تهتَم بإنفاذ رسول إلى مُلِكي ليعرَف مُلكي ما بعثتُ إليك [2] مع رسولي المتوفى .

وأما القماش الذي خلّفه ووُجد بعد موته يُنفذ إلى مُلكي لنعطيه أولاده وأقاربه ، وما أظن أنه سمَّع نسبتك أخباراً ردية ، وأنه قَد سار في بلادي الألمان [103 و] ، وما هو عجب فإن الأعداء [3] يرجفون بأشياء كذب [4] على قدر أغراضهم [5] ، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذّوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلأَّحي بلادي [6] ، وقد خسروا كثيراً من المال والدّواب والرَّحل والرِّجال ، ومات منهم كثير ، وقتلوا ، وتلفوا ، وبالشدّة قد تخلّصوا من أيدي أجناد بلادي ، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدّة كثيرة ، ولا يقدرون ينفعون جنسهم ، ولا يضرّون نسبتك .

---

(1) في طبعة مصر : أففقوس . واسم إمبراطور بيزنطة آنذاك : إسحاق الثاني أنجيلوس .

(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(3) من المفيد هنا ملاحظة مدى امتعاض البيزنطيين الأرثوذوكس ، من الصَّليبيين اللاتين ، الذين عاثوا في بلادهم خراباً . وهذا كما رأينا آنفاً حول موقف كاغيكوس الأرمن .

(4) في طبعة مصر : مكذوبة .

(5) مكان هذا اللفظ بياض بالأصل ، وقد أضيف عن طبعة مصر .

(6) في طبعة مصر : أكثر مما أوذي فلاحو بلادك . ونص الأصل أصح .

وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيتَ الذي بيني وبينك ، وكيف ما عرفتَ لُملكي شيئاً من المقاصد والمهمات ، ما ربح مُلكي من محبَّتك إلا عداوة الفرنج وَجنسهم ، ولا بُدَّ لنسبتك كما قد كتبتَ لُملكي في كتابك الذي قد نفّذت إلينا من إنفاذ رسول حتى يعرّفني جميع ما قد كتبتُ إليك في القديم من الحديث ، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن ، ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعتَ بهم ، فإن إدبارهم على قدر نيّتهم وآرائهم .

وكُتبَ في أيام سنة ألف وواحد وخمسمائة [1]» .

فوقف - رحمة الله عليه - على هذه الترجمة ، وأكرم الرّسول ، وأحسن مثواه ، وكان شيخاً حَسَنَ الخُلق ، مهيباً ، عارفاً بالعربية والرُّومية والفرنجية [2] .

ثم إن الفرنج - لعنهم الله تعالى - اشتدّوا في حصار [103 ظ] البلد ومضايقته لما حدث لهم من القوّة بوصول الكُنْدُهْري ، فإنه وصل [3] على ما ذُكر - والله أعلم - في عشرة آلاف مقاتل ، ووصلهم نجدة أخرى في البحر قويت بها قلوبهم ، ولزّوا البلد بالقتال .

ذكر حريق المنجنيقات التي للعدوّ المخذول

وذلك أن العدوّ لما أحسَّ في نفسه بقوّة ، بسبب توالي النّجد عليهم ، اشتدّ طمعهم ، وسلّطوا عليه المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لا يُعطل رميُها ليلاً ولا نهاراً ، وذلك في أثناء رجب من سنة ست وثمانين وخمسمائة .

---

(1) وهذا بحسب التّقويم الشرقي المتداول في بيزنطة ، لا التّقويم الغريغوري الفرنجي .
(2) المقصود بالرُّومية اللغة اليونانية ، أما الفرنجية فهي اللاتينية أو الفرنسية القديمة .
(3) بالأصل : أنفق ، والتصويب من طبعة مصر .

ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدوّ وتعلّق طمعه بهم ، حركتهم النخوة الإسلامية ، وكان مقدّموه حينئذ : أما والي البلد وحارسه فالأمير الكبير بهاء الدِّين قَرَاقُوش ، وأما مُقدَّم العسكر فالأمير الإِسْفَهْسَلار [1] الكبير حسام الدِّين أبو الهيجاء ، وكان رجلاً ذا كرم وشجاعة ، وقُدْمَة في عشيرته ومضاء في عزيمته . فاجتمع رأيهم على أنهم يخرجون إلى العدوّ ، فارسهم وراجلهم ، عن غرّة وغفلة منهم . ففعلوا ذلك ، وفُتحت الأبواب ، وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب .

ولم يشعر العدوّ إلا والسيف فيهم حاكم عادل ، وسهم قضاء الله وقدره فيهم نافذ [104 و] خاذل ، وهجم الإسلام على الكفر في منازله ، وأخذ بناصية مناضله ، ورأس مقاتله ، ولما ولج المسلمون خيام العدوّ ذهلوا عن المنجنيقات وحراستها ، وحفظها وسياستها ، فوصلت شُهُب الزرّاقين المقذوفة وجاءت عوائد الله في نصرة دينه المألوفة ، فلم تكن ساعة حتى اضطرمت فيها النيران ، وتحرّق منها بيدها ما شيد الأعداء في المدّة الطويلة في أقرب آن ، وقُتل من العدوّ في ذلك اليوم سبعون فارساً ، وأُسر خلق عظيم .

وكان من جملة الأسرى رجلٌ مذكورٌ منهم ، ظفر به [واحد] من آحاد الناس ولم يعلم بمكانته ، فلما انفصل الحرب سأل الفرنج عنه هل هو حيٌّ أم لا ، فعرف الذي هو عنده عند سؤالهم أنه رجل كبير ، وخاف أن يُغلب عليه ويُرَدَّ إليهم بنوع مصانعة أو على وجه من الوجوه ، فسارع وقتله ، وبذل الفرنج فيه أموالاً كثيرة ، ولم يزالوا يشتدّون في طلبه ويحرصون عليه حتى رُميت إليهم جثّته ، فضربوا بنفوسهم الأرض ، وحثَوا على وجوههم التراب ، ووقعت عليهم بسبب ذلك خَمْدَةٌ عظيمة ، وكتموا أمره ، ولم يُظهروا مَنْ كان ، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم ، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون ويقتلون ويأسرون إلى ليلة شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة .

---

(1) الكلمة فارسية : سِپَهْسَلار (تُلفظ : Sipah-salâr) ، ومعناها : قائد الجيش .

وكان [104 ظ] الكُنْدُهْري قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل – على ما نقل الجواسيس والمستأمنون – ألفاً وخمسمائة دينار ، وأعدّه ليقدمه إلى البلد ، ومنع من حريقه ذلك اليوم كونه بعيداً عن البلد ، ولم يقدم بعد إليه .

فلمّا كانت الليلة المباركة المذكورة خرج الزرّاقون والمقاتلة ، والله يحفظهم من كل جانب ، والله يكلؤهم ، فساروا من تحت ستر الله حتى أتوا المنجنيق المذكور ، وأضرموا فيه النار ، فاحترق من ساعته ، ووقع الصياح من الطائفتين ، وذُهل العدوّ ، فإنه كان بعيداً من البلد ، وخاف أن يكون قد أُحيط به من الجوانب ، وكان نصراً من عند الله ، وأُحرق بلهيبه منجنيقٌ لطيف إلى جانبه .

ذكر الحيلة في إدخال بُطْسَة بَيْرُوت إلى البلد

وذلك أنه – رحمة الله عليه – كان قد أعدَّ بَيْرُوت بُطْسَة ، وعمَّرها ، وأودعها أربع مائة غرَّارة من القمح ، ووضع فيها من الجبن والميرة والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة ، وكان الفرنج – خذلهم الله – قد أداروا مراكبهم حول عكّا ، حراسةً لها عن أن يدخلها مركبٌ للمسلمين ، وكانت قد اشتدّت حاجة مَنْ فيها إلى الطعام والميرة .

فركب في بُطْسَة بَيْرُوت جماعةٌ من المسلمين ، وتزيّوا بزي الفرنج ، حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البُطْسَة ، بحيث [105 و] تُرى من بُعد وعلّقوا الصُّلبان ، وجاؤوا قاصدين البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدوّ ، فخرجوا إليهم ، واعترضوهم في الحرّاقات [1] ، وقالوا : «نراكم قاصدين البلد» ، واعتقدوا أنهم منهم فقالوا : «ولم تكونوا قد أخذتم البلد ؟» ، فقالوا : «لا ، لم نكن نأخذ البلد بعد» ، فقالوا : نحن نردُّ القُلُوع إلى العسكر ، ووراءنا بُطْسَة أخرى

---

(1) في طبعة مصر : الحرّاقات والشواني .

في هوائنا ، فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد ، وكان وراءهم بُطْسَة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين المعسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها لينذروها ، فاشتدّت البُطْسَة الإسلامية في السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد ، وسلمتْ ولله الحمد ، وكان فرحاً عظيماً ، فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد ، وكان ذلك في العشر الأخير من رجب [1] من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة .

ذكر قصة العوّام عيسى
رحمه الله

ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها أن عوّاماً مُسلماً كان يقال له عيسى [2] ، وكان يدخل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً ، على غرّةٍ من العدوّ ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدوّ . وكان ذات ليلة شدّ على وسطه ثلاثة أكياس ، فيها ألف دينار وكُتبٌ للعسكر ، وعَامَ في البحر [105 ظ] فجرى عليه ما أهلكه ، وأبطأ خبره عنا ، وكانت عادته أنه إذا دخل البلد طار طيرٌ عرّفنا بوصوله ، فأبطأ الطير ، فاستشعر الناسُ هلاكه .

ولما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر في البلد ، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً ، فافتقدوه فوجدوه عيسى العوّام ، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب ، وكان الذهب نفقة للمجاهدين ، فما رؤي مَنْ أدّى الأمانة في حال حياته وقد أدّاها بعد وفاته إلا هذا الرّجل ، وكان ذلك في العَشر الأخير من رجب أيضاً .

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(2) استفاض خبر هذه العوّام الجسور ، حتى لقد ظنّه بعض كتّابنا المعاصرين «قائداً من قوّاد صلاح الدّين» . وعلى أي حال ، فيبقى ذكره خالداً ، وليس من المستهجن أبداً أن نجد بين أفراد الوطن من يفوقون في إخلاصهم وتفانيهم كثيراً من كبار القادة والمسؤولين .

ذكر حريق المنجنيقات

وذلك أن العدوّ كان نصب على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السُّور ، وأن حجارتها تواترت حتى أثّرت في السُّور أثراً بَيِّناً ، وخيف من غائلته ، فأخذ سهمان من سهام الجرخ العظيم وأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار ، ثم رميا في المنجنيق الواحد ، فعلقا فيه ، واجتهد العدوّ في إطفاء النار فلم يقدروا على ذلك ، وهبّت ريح شديدة فاشتعل اشتعالاً عظيماً ، واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته ، واشتدّ ناراهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب مكانهما ليحتال في إطفائهما ، وكان يوماً عظيماً اشتدّ فيه فرح المسلمين وساءت عاقبة الكافرين .

[106 و] ذكر تمام حديث الألماني [1]

وكان من حديثه ، أنه بعد أن استقرّ قدمه في أنطاكية - يَسَّر الله فتحها - وأخذها من صاحبها وحكم فيها ، وكان بين يديه فيها ينفّذ أوامره فأخذها منه غيلة وخديعة وأودعها خزانته .

وسار عنها يوم الأربعاء خامس عشري رجب سنة ست وثمانين وخمسمائة متوجِّهاً نحو عكّا ، في جيوشه وجموعه ، على طريق اللاذقية ، حتى أتى طرابلس - يسَّر الله فتحها - . وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المَرْكيس [2] - صاحب صُوْر - ، وكان من أعظمهم حيلة وأشدّهم بأساً ، وهو الأصل في تهيّج الجموع البحرية [3] .

---

(1) نص العنوان في طبعة مصر : ذكر تمام حديث ملك الألمان والحيلة التي عملها المركيز . والمقصود به الدوق فريدريك ابن الإمبراطور فريدريك بارباروسّا الذي مات غريقاً .

(2) هو المركيز البييمونتي كونراد دي مونفيرا Conrad de Montferrat .

(3) في طبعة مصر : الجموع من وراء البحر .

ذكر الحيلة التي عملها المَرْكيس
في جمع الفرنج من وراء البحر

وذلك أنه صَوَّرَ القُدْس في ورقة عظيمة ، وصَوَّرَ فيه صُوْرة القيامة [1] التي لهم يحجّون إليها ويعظّمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي دُفن فيه بعد صلبه بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجّهم ، وهو الذي يعتقدون نزول النُّور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم ، فصَوَّرَ القبر وصَوَّرَ عليه فرساً عليه فارسٌ مسلم راكبٌ عليه ، وقد وطىء قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر [2] .

وأبدى هذه الصُوْرة وراء البحر في الأسواق والمجامع ، والقُسوس يحملونها ، ورؤوسهم [106 ظ] مكشّفة ، وعليهم المُسُوحة [3] ، وينادون بالويل والثُّبور ، وللصُوَرَ عملٌ في قلوبهم ، فإنها أصل دينهم .

فهاجَ بذلك خلائقُ لا يُحصي عددَهُم إلا الله تعالى ، وكان من جُملتهم ملك الألمان وجنوده ، فلقيهم المَركيس ، لأنه أصل استدعائهم إلى هذه الواقعة ، فلما اتصل به قوي قلبُه ، وبصّره بالطُّرُق ، وسلك به السّاحل ، خوفاً من أنه إذا أتى على بلاد حلب المحروسة وحماة المحروسة ثار بهم المسلمون من كل جانب ، وقامت عليهم كلمة الحق من كل صوب .

ومع ذلك لم يسلموا من شنّ الغارات عليهم ، فإن الملك المظفّر - رحمه الله - قصدهم بعساكره ، وجمع لهم جموعاً ، وهجم عليهم هجوماً عظمياً أخذ منه من أطراف عسكره ، وكان قد لحقهم بأوائل عسكره ، ولو لحقه الملك الظاهر بعساكره لقضى عليهم ، ولكن ﴿لكلِّ أجلٍ كتاب﴾ [4] .

---

(1) في طبعة مصر : القمامة .
(2) وهذا كلّه زُور وبُهتان . ومن أراد معرفة رأي الفرنجة في رأفة صلاح الدّين بالمدنيين وتعظيمه للمقدّسات ، فعليه مراجعة حوليّات المؤرخ إرنو *Chronique d'Ernoul* .
(3) في طبعة مصر : المسوح .
(4) سورة الرعد - الآية 38 .

واختلف حزر الناس لهم ، ولقد وقفتُ على بعض كتب الخبيرين بالحرب ، وقد حُزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف ، بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذُكر بمائتي ألف ، فانظر إلى صنع الله مع أعدائه .

ولقد وقفتُ على بعض الكتب ، يُذكر فيه أنهم لما ساروا من اللاذقية يريدون جَبْلَة ، وجدوا في أعقابهم نيفاً وستين فرساً قد عطبت وانتُزع لحمها ، ولم يبقَ فيها إلا العظام ، من شدّة الجوع وضعف [107 و] الخيل (1) ، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطّفهم من حولهم نهباً وقتلاً وأسراً ، حتى أتوا طرابلس - يَسَّر الله فتحها - . ووصل خبره ووصولهم بكرة الثلاثاء من شعبان سنة ست وثمانين .

هذا والسُّلطان - قدّس الله روحه - ثابت الجأش ، راسخ القدم ، لا يدعه ذلك عن حراسة عكّا والحماية لها ، ومُراصدة العسكر النازل بها ، وشنٍّ الغارات عليهم ، والهجوم عليهم في كل وقت ، مُفوِّضاً أمره إلى الله تعالى ، معتمداً عليه ، منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس ، مواصلاً ببرِّه مَنْ يفد إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء .

ولقد كنتُ إذا بلغني هذا الخبر تأثرتُ ، حتى إذا دخلتُ إليه فأجد منه من قوّة النفس وشدّة البأس ما يشرح صدري ، وأتيقّن معه نُصرة الإسلام وأهله .

ذكر وصول البُطَس من محروسة مصر

ولما كان العشر الأوسط من شعبان من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ، كَتَبَ بهاء الدِّين قَرَاقُوش ، وهو والي البلد (2) ، والمقدَّم على الأُصطول وهو الحاجب لؤلؤ ، يذكران للسُّلطان - رحمة الله عليه - : «لم يبقَ بالبلد ميرة إلا قدر

(1) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .
(2) أي عكّا .

يكفي البلد إلى ليلة النصف مـن شعبان لا غير» . ﴿فأسَرّها يوسُفُ في نفسه﴾ [1] [107 ظ] ولم يُبْدها لخاص ولا عام ، خشية الشيوع والبلوغ إلى العدوّ ، ويضعف به قلوب المسلمين .

وكان [السُّلطان] قد كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بُطَس مشحونة بالأقوات والإدام والمِيَر وجميع ما يُحتاج إليه في الحصار ، بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء . وأقلعت البُطس الثلاث من الديار المصرية ولججت في البحر تتوخى النوتيّة بها الريح التي تحملها إلى عكّا ، فطابت لهم الريح حتى ساروا ، ووصلوا إلى عكّا ليلة النصف من شعبان المذكور وقد فنيت الأزواد ، ولم يبق عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم .

وخرج عليها أصطول العدوّ فقاتلها ، والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من السّاحل ، والناس في تهليل وتكبير ، وقد كشف المسلمون رؤوسهم ، يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بتسليمها إلى البلد ، والسُّلطان - رحمة الله عليه - على السّاحل كالوالدة الثّكلى يشاهد القتال ، ويدعو إلى ربّه بنصره ، وقد علم من شدّة القوم ما لم يعلمه غيره ، وفي قلبه ما في قلبه والله يثبته .

ولم يزل القتال يعمل حول البُطَس من كل جانب ، والله يدفع عنها والريح تشتدّ ، والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين ، والدعاء يخرق الحجب ، حتى وصلوا بحمد الله تعالى سالمين إلى ميناء البلد ، وتلقّاهم أهل عكّا تلقّي الأمطار عن جَدْب ، وامتاروا ما فيها ، وكانت ليلة بليال ، وكان دخولها [2] [109 و] عصر يوم الإثنين رابع عشر شعبان المذكور من السنة المذكورة .

---

(1) اقتباس أدبي لطيف للمؤلف من القرآن الكريم ، حيث أن اسم السلطان يوسف أيضاً .

(2) نشير هنا إلى أن الورقة 108 قد جُعلت هنا في غير مكانها ، وهذا غلط من مرقّم الصفحات بالأصل . ومكانها الصحيح يأتي بعد الورقة 172 ، وقد أثبتناها هناك حيث اتصل بها النص واتسق .

ذكر محاصرة برج الذبّان [1]

ولما كان الثاني والعشرون من شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ، جَهَّز العدوّ - لعنه الله - بُطساً متعددة لمحاصرة برج الذُّبّان ، وهو برج في وسط البحر ، مبني على الصخر على باب ميناء عَكّا [2] ، يُحْرَسُ به الميناء ، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدوّ ، فأراد العدوّ أخذه ، ليبقى الميناء بحكمه ، ويمنع دخول شيء من البُطس إليه ، فتنقطع الميرة عن البلد .

فجعلوا على صواري البُطس بُرجاً ، وملأوه حطباً ونفطاً [3] ، على أنهم يُسيِّرون البُطس ، فإذا قاربت برج الذُّبّان ولاصقته ، أحرقوا البرج الذي على الصاري وألصقوه ببرج الذُّبّان ليلقوه على سطحه ، ويقتل مَن عليه من المقاتلة ويأخذوه .

وجعلوا في البُطْسَة وقوداً كثيراً حتى يُلقى في البرج إذا اشتعلت النار فيه ، وعبّوا بُطْسَة ثانية وملؤوها حطباً ووقوداً ، على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البُطَس الإسلامية ، ثم يلهبونها ، فتحترق البُطَس الإسلامية ، وتهلك ما فيها من المير .

وجعلوا في بُطْسَة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل إليهم نُشّاب ولا شيء من آلات السِّلاح ، حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا ذلك القبو فأمنوا ، فأحرقوا ما [109 ظ] أرادوا إحراقه .

وقدّموا البُطْسَة نحو البرج المذكور ، وكان طمعهم يشتدّ حيث كان الهواء مُسْعداً [4] لهم ، فلما أحرقوا البُطْسَة التي أرادوا يحرقون بها بُطَس المسلمين ،

---

(1) في طبعة مصر : برج الذباب .
(2) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .
(3) هذا اللفظ ساقط من طبعة مصر .
(4) في طبعة مصر : مصعداً .

والبُرج الذي أرادوا يحرقون به مَن على البُرج ، فأوقدوا النار ، وضربوا فيها النِّفط ، فانعكس الهواء عليهم كما يشاء الله تعالى وأراد ، واشتعلت البُطسَة والذي كان فيها بأسرها ، واجتهدوا في إطفائها فما قدروا ، وهلك مَن كان بها من المقاتلة إلا من شاء الله تعالى .

ثم احترقت البُطْسَة التي كانت معدّة لإحراق بُطسنا ، ووثب أصحابنا عليها فأخذوهم إليهم ، وأما البُطْسَة التي فيها القبو ، فإنهم انزعجوا وخافوا ، وهمّوا بالرجوع ، واختلفوا واضطربوا اضطراباً عظيماً ، فانقلبت وهلك جميع من كان فيها ؛ لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها ، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى ، وأندر العجائب في نصرة دين الله ، ولله الحمد ، وكان يوماً مشهوداً .

ذكر وصول الألماني إلى عسكرهم المخذول

عُدنا إلى حديث ملك الألمان [1] ، وذلك أنه أقام بطرابلس ، حتى استجمّ عسكره ، وأرسل إلى النازلين على عكّا يخبرهم بقدومه إليهم ، وقد وجموا من ذلك [110 و] لأن المَرْكيس [2] - صاحب صُوْر - هو ربّ مشورته وصاحب دولته ، وكان الملك جفري [3] - وهو ملك السّاحل - بالمعسكر ، وهو الذي يُرجع إليه في الأمور ، فعلم أن مع قدوم ملك الألمان لا يبقى له حكم .

ولما كان العَشْر الأخير من شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ، أزمع رأيه على المسير في البحر ، لعلمه أنه إن لم يركب في البحر نُكب وأُخذت عليه مضايق الطرق ، فأعدّوا المراكب ، وأُنفذت إليه من كل جانب ، ونزل فيها هو وعسكره

---

(1) هو فريدريك فون هُوْهنْشْتَاوفن دوق شفابن ، ابن إمبراطور ألمانيا فريدريك بارباروسّا الذي مات غريقاً ، كما تقدّم ، والذي سيموت قرب عكّا دون عودة لألمانيا .

(2) تقدّم ذكره ، وهو المركيز كونراد دى مونفيراّ .

(3) أي ملك القُدْس گي دى لوزينيان ، الذي فقد مملكته إثر معركة حطّين وفتح القُدْس .

وخيلهم وعدّتهم ، وساروا يريدون العسكر . فلم تمض إلا ساعة من نهار حتى قامت عليهم ريحٌ عاصف ، وثار عليهم الموج من كل مكان ، وأشرفوا على الهلاك ، وهلك منهم ثلاثة مراكب حمَّالة [1] ، وعاد الباقون يرصدون هواءً طيباً .

فأقاموا أياماً حتى طابت لهم الرِّيح ، وساروا حتى أتوا صُوْر - يَسَّر الله فتحها - فأقام المرْكيس والألماني [2] بها ، وأنفذوا بقية العساكر إلى المعسكر النازل على عكّا ، وأقاما بصُوْر إلى ليلة السادس من رمضان من السنة المذكورة . وسار الألماني وحده في البحر حتى وصل معسكرهم غروب الشمس من ذلك اليوم في نفر يسير ، هكذا أخبر الجواسيس والمستأمنون عنهم ، وكان لقدومه وقع عظيم عند الطائفتين .

فأقام أياماً ، وأراد أن [110 ظ] يظهر لقدومه أثر ، فوبّخ القوم على طول مقامهم ، وحسن في رأيه أن يضرب مصافاً مع المسلمين ؛ فخوّفوه من الإقدام على هذا الأمر وعاقبته ، فقال : «لابد من الخروج على اليَزَك لنذوق قتال القوم ، ونعرف مِراسهم ، ونتبصَّر بأمرهم ، فليس الخبر كالعيان» .

فخرج على اليَزَك الإسلامي ، واتّبعه معظم الفرنج راجلهم وفارسهم ، وخرجوا حتى قطعوا الوطاة التي بين تلّهم وتلّ العَيَّاضيّة ، وعلى تلّ العَيَّاضيّة خيام اليَزَك ، وهي نوبة الحلقة السُّلطانية المنصُوْرة في ذلك اليوم ، فوقفوا في وجوههم ، وقاتلوهم وأذاقوهم طعم الموت .

---

(1) الحمّالة : وجمعها حمّالات ، عرّفها ابن مماتي في قوانين الدواوين (ص 339-340) ودوزي (Dozy: *Suppl. Dict. Arab.*) بأنها نوع من السفن المخصصة لنقل مؤونة الجيش وأزواده والصنّاع والخدم الملحقين بالجيش والأسطول . وورد في زبدة كشف الممالك لخليل بن شاهين الظاهري (139-140) : ثم إن العمارة تكمّلت ، وهي خمس قراقير وتسعة عشر عناباً وست حمّالات برسم الخيول .

(2) يذكر المؤلف مرة «الألماني» ومرة «ابن ملك الألمان» ، أي فريدريك فون شفابن . لكن ينبغي التمييز بينه وبين الدوق الألماني لودڤيك فون تورينگن Ludwig von Thuringen ، قائد عمليات حصار عكّا ، الذي حلّ محلّه الكونت الفرنسي هنري دى شامپانيا .

وعرف السُّلطان – رحمة الله عليه – ذلك ، فركب من خيمه بجحفله ، وسار حتى أتى تلّ كيسان ، فلما رأى العدوّ العساكر الإسلامية قد صوّبت نحوه سهام قصدها ، وأتته من كل جانب كقطَع الليل المدلهمّ عاد ناكصاً على عقبه ، وقد قُتل منهم وجُرح خلق عظيم ، والسيفُ يعمل في قفيِّهم وهم هاربون ، حتى وصل المخيّم غروب الشمس من ذلك اليوم ، وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شدّة خوفه .

وفَصَلَ اللّيلُ بين الطائفتين وقد قُتل وجُرح من العدوّ خلق عظيم ، وقُتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان ، وجُرح جماعة كثيرة ، وكانت الكرّة على أعداء الله ، ولله الحمد .

فلما عرف ملك الألمان – لعنه الله – ما جرى عليه وعلى [111 و] أصحابه من اليَزَك الذي هو شرْذمة من العسكر ، وهم جزء من كلٍّ ، رأى أن يرجع إلى قتال البلد ، ويشتغل بمضايقته . فاتّخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ما أهال الناظر إليه من شدّة الخوف على البلد ، واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات ، وخيف منها عليه .

فممّا أحدثوه آلة عظيمة تُسمّى دبّابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبّسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عَجَل تُحرك بها من داخل ، وفيها المقاتلة ، حتى يُنطح بها السُّور [1] ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد ، وهي تُسمّى كَبْشاً ، يُنطح بها السُّور بشدة عظيمة ، لأنه يجرّها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها ، وآلة أخرى ، وهي قبو فيه رجال ، يُسحب كذلك إلا أن رأسها محدّد ، على شكل السكة التي يُحرث بها ، ورأس الكبش مدوَّر ، وهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدّتها وثقلها ، وهي تُسمّى سِنّوْراً [2] . ومن الستائر والسلاليم الكبار الهائلة .

---

(1) بالأصل و في طبعة مصر : الصور .

(2) بالأصل : بسوراً ، والتصحيح من طبعة مصر ، وهذا وصف نادر ودقيق للآلة ، يدل على مدى ما تعاناه ابن شدّاد في رواياته الحيّة بكتابه الرائع هذا .

وأعدّوا في البحر بُطْسَة هائلة ، وصنعوا فيها برجاً بخرطوم ، إذا أرادوا قلبه على السُّور انقلب بالحركات . ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه ؛ فتمشي عليه المُقاتلة ، وعزموا على تقريبه إلى برج الذُّبّان ليأخذوه به .

[111 ظ] ذكر حريق الكبش وغيره من الآلات

وذلك أن العدوّ لما رأى أن آلاته قد تمّت واستكملت ، شرع في الزّحف على البلد ومقاتلته من كل جانب ، وأهل البلد - وفّقهم الله - كلما رأوا ذلك اشتدّت عزائمهم في نصرة دين الله تعالى ؛ وقويت قلوبهم على المصابرة .

ولما كان يوم الإثنين ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة وهو الذي قدمت فيه عساكر الشام . .

ذكر قدوم الملك الظاهر (1) رحمه الله

فقدم الملك الظاهر ولده - صاحب حلب المحروسة - بجحفله وعسكره وهو من كبار أولاده ومُقدّميهم ومهذّبيهم ، وهو يعتمد عليه في كثير من أموره ، قدم في عشية ذلك اليوم وحده مثابرة على خدمة والده ، ومعاجلة في برِّه ، ثم بكَّر وعاد حتى لقي عسكره ، وقدم معهم بكرة الثلاثاء يرتِّب أطلابه ويهذبها ، ففرح والده بمقدمه وسُرَّ به سروراً عظيماً ، رضاء عنه بما رتّب وجمع من العساكر والجحافل .

---

(1) هذه الفقرة كلها غير موجودة في طبعة مصر ، ومكانها هناك نص آخر هو : في أحسن زيّ وأجمل ترتيب وأكمل عدّة ، مع ولده صاحب حلب ، وسابق الدِّين صاحب شيزر ومجد الدِّين صاحب بعلبك . وقول المؤلف عن الملك الظاهر «رحمه الله» ، يعني أنه فرغ من تأليف كتابه بعد وفاته (عام 613 هـ) ، وليس عند وفاة السلطان كما يذكر بعد .

وقدم في ذلك اليوم سابق الدِّين – صاحب شيزر – ، وعزّ الدِّين بن المقدّم ، ومجد الدِّين – صاحب بعلبك – وخلق عظيم من عساكر المسلمين ، قدموا في أحسن زي ، وأجمل ترتيب ، وأكمل عدّة في ذلك اليوم . وكان السُّلطان – رحمة الله عليه – قد الْتَاثَ مزاجُه الكريم بحمًّى صفراوية [112 و] يسيرة ، فركب في ذلك اليوم ، وكان عيداً من وجوه متعددة .

وفي ذلك اليوم ، زحف العدوّ على البلد في خلق لا يحصي عددهم إلا الله تعالى ، فأهملوهم أهل البلد وشجعان المقاتلة الذين فيه ، وذوو الآراء المثقفة من مُقدّمي المسلمين فيه ، حتى نشبت مخاليب أطماعهم في البلد ، وسحبوا آلاتهم المذكورة ، حتى قاربوا أن يُلصقوها بالسُّور ، وتحصَّن منهم في الخندق جماعة عظيمة ، وأطلقوا عليهم سهام الجروخ ، وأحجار المناجيق ، وأقواس الرمي والنيران ، وصاحوا عليهم صيحة الرّجل الواحد ، وفتحوا الأبواب ، وباعوا أنفسهم لخالقها وباريها ، ورضوا بالصفقة الموعود بها ، وهجموا على العدوّ من كل جانب ، وكبسوهم في الخنادق .

وأوقع الله الرعب في قلب العدوّ ، وأعطى ظهره للهزيمة ، وأخذوا مشتدّين هاربين على أعقابهم ناكصين ، يطلبون خيامهم ، والاحتماء بأسوارهم ، لكثرة ما شاهدوا وذاقوا من الجرح والقتل ، وبقي في الخندق خلقٌ عظيم ، فوقع فيهم السيف ، وعجّل الله بأرواحهم إلى النار .

ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدوّ من الخذلان والهزيمة ، هجموا على كبشهم ، فألقوا فيه النّار والنِّفط ، وتمكّنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه ، وأُحرق حريقاً شنيعاً ، وظهر له [112 ظ] لهيب نحو السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، والشكر للقوي الجليل ، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السِّنَّوْر [1] فاحترق ، وعلّق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في السلاسل

---

(1) بالأصل : الستور فاحترقت ، والتصويب من طبعة مصر .

فسحبوه ، وهو يشتعل ، حتى حصّلوه عندهم في البلد ، وكان مركّباً من آلات هائلة عظيمة ، وأُلقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام [1] .

وبلغنا من البلد [2] أنه وُزن ما كان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشامي ، والقنطار مائة رطل ، والرطل الشامي بالبغدادي أربعة أرطال وربع رطل ، ولقد أُنفذ رأسه إلى السُّلطان - رحمة الله عليه - ومثل بين يديه ، وشاهدتُه وقلّبتُه ، وشكله على مثال السُّفُّود الذي يكون بحجر المدار ، قيل إنه يُنطح به فيهدم ما يلاقيه . وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام .

ومما استُدلّ به على سعادة ولده الملك الظاهر حيث اقترن بمجيئه نصرة الإسلام وحريق تلك الآلة المهولة المخوفة ، واتفق له ذلك مرّة أخرى في حريق الأبراج ، وقد سبق شرحها . فالله تعالى يسعد بولده الإسلام ، ويجري نصره بأيامه على أحسن نظام [3] .

ووقع على العدوّ خذلان عظيم ، ورفعوا ما سلم من آلاتهم ، وسكنت حركاتهم التي ضيّعوا فيها نفقاتهم ، وتحيَّرت أبصارُ حيلهم ، واستبشر السُّلطان - رحمة الله عليه - بغرّة ولده ، واستبرك بها حيث وجد [113 و] النصر مقروناً بقدومه مرّة بعد أخرى ، وثانية بعد أولى .

* * * * *

(1) كانت تلك الواقعة في 5 أيار من عام 1190 م . ذكرها مؤرّخو ريتشارد باللاتينية :
Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi, London, 1864, pp. 85-79.

(2) في طبعة مصر : اليزك .

(3) هذه الفقرة كلها من بدايتها ساقطة من طبعة مصر .

ذكر حريق البُطْسَة المعدّة لأخذ برج الذُّبّان [1]

ولما كان يوم الأربعاء خامس عشر رمضان المذكور خرج أصحابنا من الثغر المحروس في شوان على بغتة من العدوّ المخذول ، وضربوها بقوارير نفط فاحترقت ، وارتفع لهيبها في البحر ارتفاعاً عظيماً ، واشتبكت الأصوات بالتهليل والتكبير ، وكفى الله شرَّها ، وردَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وحزن الألمان لذلك حزناً عظيماً ، وغشيتهم كآبة شديدة ، ووقع عليهم خذلان عميم .

ذكر خروج البِرْنْس إلى الغارة
على البلاد الشامية التي تليه [1]

ولما كان يوم الخميس سادس عشر رمضان المذكور من السنة المذكورة - سنة ست وثمانين وخمسمائة - وصل كتاب طائر في طيّ كتاب ، وصل من محروسة حماة ، قد طار به الطائر من محروسة حلب ، يذكر فيه أن البرنس [2] - صاحب أنطاكية - خرج بعسكره نحو القرايا [3] الإسلامية التي تليه لشنّ الغارة عليها ، فبصرت به العساكر ونوّاب الملك الظاهر - ولد السُّلطان - ، فكمنت الكمناء ، وخرجوا عليه ، فلم يشعر بهم إلا والسيف قد وقع فيهم ، فقُتل من عسكرهم خمسة وسبعون [113 ظ] نفراً ، وأُسر منهم خلق عظيم ، واستعصم بنفسه في موضع يُسمّى سبحا ، حتى اندفعوا وساروا إلى بلده ، يَسَّر الله فتحها .

* * * * *

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) هو الأمير بوهيموند الثالث Bohemond III ، صاحب إمارة أنطاكية .

(3) في طبعة مصر : القرى .

ذكر أخذ البُطْستين من العدوّ [1]

وفي أثناء العشر الأوسط ، ألقت الريح بُطستين وفيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة ، قاصدين نحو العدوّ ، فغنمها المسلمون ، وكان العدوّ قد ظفر منا بِبَرْكُوس [2] ، فيه نفقة ورجال ، أراد الدخول إلى البلد ، فأخذوه ، ووقع الظفر بهاتين البُطستين ماحياً لذلك وجابراً .

ولم تزل الأخبار بعد ذلك تتواصل على ألسنة الجواسيس والمستأمنين ، أن العدوّ المخذول قد عزم على الخروج إلى العسكر الإسلامي خروج مصاف ومفاقسة [3] . والتاثَ مزاج السُّلطان - قدّس الله روحه - بحمّى صفراوية ، فاقتضى الحال تأخر العسكر إلى جبل لصيق بجبل شَفْرَعَمّ .

* * * * *

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) في طبعة مصر : بزورق . والبركوس (جمعها براكيس) : نوع من السفن الحربية كانت شائعة بين الشرق والغرب في مياه البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى ، وهي أصغر حجماً من البطسة (تقدّم ذكرها) . جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة (2 : 187) : فأخذوا لهم بركوساً ، وهو مركب صغير . كما ذكر ابن مماتي في قوانين الدواوين (ص 340) : مركب لطيف يستعمل لنقل الماء لخفّته ، وسقه مائة إردبّ . غير أن النصوص الكثيرة التي أوردها ابن شدّاد في كتابه هذا والتي أوردها العماد الأصفهاني في الفتح القسّي تبيّن بوضوح أن البركوس كان يستعمل لركوب الجند والناس عامة ، ويُفهم من هذه النصوص كذلك أن حمولة البركوس الواحد كانت حوالي خمسة وعشرين رجلاً . فقد ذكر العماد (ص 231) : أخذ من الفرنج بركوسان فيهما نيّف وخمسون نفراً . . وفي الخامس والعشرين منه أخذ أيضاً بركوس فيه من الفرنج مقدمون ورؤوس وهم نيّف وعشرون ، منهم أربعة خيالة .

والكلمة معرّبة عن الإيطالية barco ويقابلها بالفرنسية barque وبالإنكليزية bark .

(3) في طبعة مصر : ومنافسة .

ذكر انتقال العسكر إلى شَفْرَعَمّ (1)

ولما عزم السُّلطان – رحمة الله عليه – على التأخر بسبب ذلك الالتياث فعله (2)، وكان انتقاله في عشية الإثنين تاسع عشر رمضان من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة . فنزل على أعلى الجبل ، ونزل الناس على رؤوس التلال للاستعداد للشتاء والاستراحة من الرّحل (3)، وفي ذلك الزمان مرض زين الدِّين يوسف بن زين الدِّين – صاحب [114 و] إربل – مرضاً شديداً بحمّتين مختلفتي الأوقات ، واستأذن في الرواح فلم يُؤذن له ، فاستأذن في الانتقال إلى النَّاصرة ، فأُذن له في ذلك .

ذكر وفاته ، رحمه الله

وأقام بالنَّاصرة أياماً عدّة يمرّض نفسه ، فاشتدَّ به الأمر إلى ليلة الثلاثاء ثامن عشر رمضان من سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ثم توفي – رحمه الله – ، وعنده أخوه مظفَّر الدِّين يشاهده ، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغُربته ، وأنعم السُّلطان على أخيه مظفَّر الدِّين ببلده إربل ، واستنزله عن بلاده التي كانت في يده ، وهي حرّان والرُّها ، وما يتبعهما من البلاد والأعمال ، وضمّ إليه بلد شَهْرَزُوْر أيضاً .

وحلف السُّلطان – رحمة الله عليه – على ذلك ، وقرّر معه أنه إذا تسلّم المواضع سلّم ما كان معه من البلاد ، وهي الرُّها وحرّان وصُمَيْصات والموزر ،

(1) العنوان غير موجود في طبعة مصر . أما شَفْرَعَمّ فذكرها ياقوت في معجمه (3 : 353) : قرية كبيرة ، بينها وبين عكّا بساحل الشام ثلاثة أميال ، بها كان منزل صلاح الدين يوسف بن أيوب على عكّا سنة 586 لمحاربة الفرنج الذين نزلوا على عكّا وحاصروها . قلنا : وفي عصرنا تعرف باسم : شَفَا عَمْرو .

(2) هذه الجملة بأكملها ساقطة من طبعة مصر .

(3) في طبعة مصر : الوحل .

وأعمال جميع ذلك [1]. واستدعى الملك المظفّر تقي الدِّين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلاً مكانه ، جابراً لخلل غيبة مظفَّر الدِّين [2] ، وأقام مظفَّر الدِّين كُوكُبُورُى [3] بن زين الدِّين علي – رحمه الله – بالمعسكر المنصور [4] في نظرة قدوم تقي الدِّين ، ولما كان ضاحي نهار ثالث شوال قدم ، وقد أعاد صحبته معز الدِّين سنجر شاه – صاحب الجزيرة – وهو ابن سيف الدِّين [4] .

ذكر قصة معزّ الدِّين

[114 ظ] وهذا معز الدِّين هو سنجر شاه بن سيف الدِّين غازي بن مودود ابن زنكي ، وهو صاحب الجزيرة إذ ذاك ، وكان من قصته أنه حضر للجهاد ، وقد ذكرتُ تاريخ وصوله ، وأنه أخذ منه الضجر والسآمة والقلق ، بحيث تردّدت رسله ورقاعه إلى السُّلطان – رحمة الله عليه – في طلب الدُّستور ، والسُّلطان يعتذر إليه بأن رُسُل العدوّ متكرّرة في معنى الصُّلح ، ولا يجوز أن تنفضّ العساكر حتى نتبيّن على ماذا ينفصل الحال من سلْم أو حَرْب ، وهو لا يألو جهداً في طلب الدستور .

إلى أن كان يوم عيد الفطر من سنة ست وثمانين ، وحضر سَحْرَة ذلك اليوم في باب الخيمة السُّلطانية ، فاستأذن في الدخول ، فاعتُذر إليه بالتياث كان قد عرى مزاج السُّلطان – رحمة الله عليه – فلم يقبل العُذر ، وكرّر الاستئذان ، فأُذن له في

(1) هذه الفقرة كلها ساقطة من طبعة مصر .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(3) كُوكُبُورُى اسم تركي قديم Gök-Borü ، يعسر على اللفظ العربي ، فآخره ليس بياء ولا هو ألف مقصورة ، وإنما يكتب بألف مقصورة كما كانت العادة في رسم الأسماء التركية المنتهية بحرف علّة ، وحروف العلة في التركية عديدة وتختلف تماماً عن العربية ، وعددها 11 حرفاً أو حركة هي : (a, â, e, i, ı, î, o, ö, u, û, ü) . ومعنى اسم كُوكُبُورُى بالتركية : الذئب الأزرق ، gök تعني لون الأزرق السماوي ، و börü لهجة تركية قديمة تعني الذئب ، غير أن الذئب في التركية الحديثة : kurt كورت .
(4) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

الدُّخول ، فلما مَثُلَ بالخدمة استأذن في الرَّواح شفاهاً ، فذكر له السُّلطان العُذر في ذلك ، وقال : «هذا وقت تَقَدُّم فيه العساكر وتجتمع ، لا وقت تفرّقها !» . فانكبّ على يده وقبّلها كالمودّع له ، ونهض من ساعته وسار ، وأمر أصحابه أن أكفئوا القدور وفيها الطعام ، وقلعوا الخيم وتبعوه .

فلما بلغ السُّلطانَ - رحمة الله عليه - صنيعُه ، أمر بإنشاء مكاتبة إليه يقول فيها :

«إنك أنت قصدتَ الانتماء إليّ ابتداءً ، وراجعتني في ذلك مراراً ، وأظهرتَ الخيفة على نفسك وبلدك [115 و] من أهلك ، فقبلتُكَ وآويتُكَ ونصرتُكَ ، فبسطتَ يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، فنفّذتُ إليك ونهيتُك عن ذلك مراراً فلم تنته ، فاتّفق وقوع هذه الواقعة للإسلام ، فدعوناك ، فأتيتَ بعسكر قد عرفته وعرفه الناس ، وأقمتَ هذه المدّة المديدة ، وقلقتَ هذا القلق ، وتحرّكتَ بهذه الحركة ، وانصرفتَ من غير طيب نفس ، وغير فصل حال مع العدوّ . فانظر لنفسك وابصر من تنتمي إليه غيري ، واحفظ نفسك ممّن يقصدك ، فما لي إلى جانبك التفات» .

وسلّم الكتاب إلى نجّاب [1] ، فلحقه قريباً من طبريّة ، فقرأ الكتاب ولم يلتفت ، وسار على وجهه . وكان الملك المظفّر تقي الدِّين قد استُدعي إلى الغَزاة بسبب حركة مظفَّر الدِّين - على ما سبق شرحه - فلقيه في الطريق في موضع يسمّى عقبة فيق ، فرآه محنَّقاً ، ولم يرَ عليه أمارات حسنة ، وسأله عن حاله ، فأخبره بأمره ، وتعتّب على السُّلطان كيف لم يخلع عليه ، ولم يأذن له في الرّواح .

ففهم الملك المظفّر انفصاله من غير دستور من السُّلطان ، وأنه على خلاف اختياره ، فقال له : « المصلحة لك أن ترجع إلى الخدمة وتلازم إلى أن يأذن لك ،

---

(1) النجّاب جندي من راكبي الهجن ، وهي النُّوق السريعة العدوّ . ومصدر الكلمة من «النجائب» ، أي كرام الإبل وخيارها .

فأنت صبيّ ولا تعلم غائلة هذا الأمر» . فقال : «ما يمكنني الرجوع» . فقال : «ترجع من غير بُدّ[1] ، فليس في الرّواح على هذا الوجه لك راحة أصلاً » . فأصرّ على الرّواح ، فخشن عليه ، وقال : «ترجع من غير اختيارك !» . وكان تقي الدِّين – رحمة الله عليه – شديد [115 ظ] البأس مقداماً على الأمور ، ليس في عينه من أحد شيء .

فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع باختياره ، رجع معه حتى أتى العسكر ، وخرج الملك العادل – ونحن في خدمته – إلى لقاء الملك المظفّر ، فوجدناه معه ، فدخلا به على السُّلطان وسألاه الصفح عنه ، فعفا عنه[2] ، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدِّين ، خشية على نفسه ، فأذن له في ذلك ، فأقام في جواره إلى حين ذهابه .

ذكر طلب عماد الدِّين الدُّستور

وذلك أن عماد الدِّين زنكي[3] عمّ المذكور ألحّ في طلب الدُّستور ، وشكا هجوم الشتاء عليه مع عدم الاستعداد له ، والسُّلطان – رحمة الله عليه – يعتذر إليه بأن الرُّسُل متواترة بيننا وبين العدوّ في الصّلح ، وربما انتظم ، فينبغي أن يكون انتظامه بحضوركم ، فالرأي مشترك . واستأذن في أن يُحمل إليه خيام الشتاء فلم يفعل ، وأن يُحمل إليه نفقة فلم يفعل .

وتكرّرت منه الرُّسُل إلى السُّلطان في المعنى ، والسُّلطان يكرّر الاعتذار ، ولقد كنتُ بينهم في شيء من ذلك . وكان عند عماد الدِّين من العزم على الرَّواح ما يجاوز كل وصف ، وعند السُّلطان – رحمة الله عليه – من مسكه إلى أن يُفصل أمر

---

(1) في طبعة مصر : ترجع عن غير يد .
(2) هذه العبارة سقطت من طبعة مصر .
(3) هو صاحب سنجار عماد الدّين زنكي بن مودود ابن الأتابك عماد الدّين زنكي الشهيد .

بيننا وبين العدوّ ، ما لا يُحدّ . وآل الأمر إلى أن كتب عماد الدِّين بخطه رقعة يطلب فيها الإذن في الرواح ، [116 و] ويلين فيها ويخشن ، فأخذها السُّلطان - رحمة الله عليه - وكتب في ظهرها بيده الكريمة :

مَـنْ ضـاع مثلـي مـن يديـ ـه فليت شعري ما استفادا

فوقف عماد الدِّين عليها ، وانقطعت مراجعته بالكلّية . وتواصلت الأخبار بضعف العدوّ المخذول ، ووقع الغلاء في بلادهم وعسكرهم ، حتى إن الغرّارة من القمح بلغت في أنطاكية ستاً وتسعين ديناراً صُوريّة ، ولا يزيدهم ذلك إلا صبراً وإصراراً وعناداً .

ذكر خروجهم إلى رأس الماء [1]

ولما ضاق بهم الأمر ، وعظم عليهم الغلاء ، وخرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدّة الجوع ، عزموا على الخروج إلينا ، وكان طمعهم بسبب مرض عرا السُّلطان - قدّس الله روحه - فظنوا أنه لا يستطيع النهوض .

وكان خروجهم يوم الإثنين ، حادي عشر شوّال ، سنة ست وثمانين وخمسمائة ، بخيلهم ورجلهم ، متحمّلين أزواداً وخيماً ، وكان خروجهم إلى الآبار التي استحدثها المسلمون تحت تلّ العجل لما كانوا نزولاً عليه ، وأخذوا معهم عليق أربعة أيام ، على ما قيل .

فأُخبر - رحمة الله عليه - بخروجهم على هذا الوجه ، فأمر اليَزَك أن ينزاح من بين أيديهم إلى تلّ كيسان ، وكان اليَزَك على تلّ العَيَّاضيّة ، وكان نزول العدوّ على الآبار بعد صلاة [116 ظ] العصر من اليوم المذكور ، وباتوا تلك الليلة ، واليَزَك حولهم جميع الليل .

---

(1) موقع في حوران يُعرف في عصرنا باسم نبع الثريّا ، تشرب منه بلدة الشيخ مسكين .

فلما طلع الصبح جاء من اليَزَك من أخبره - رحمة الله عليه - بأنهم قد تحركوا للركوب ، وكان - رحمه الله - قد أمر الثَّقْل في أول الليل أن يسير إلى النَّاصرة والقَيْمون ، فرحل الثَّقْل وبقي الناس - وكنتُ من جملة مَنْ أقام في خدمته - وأمر العسكر أن يركب ميمنةً وميسرةً وقلباً تعبئة القتال .

وركب - رحمة الله عليه - وصاح الجاووش بالناس فركبوا ، وساروا حتى وقف على جبل من جبال الخرّوبة ، وسارت المَيْسَرَة حتى بلغ آخرها الجبل ، وسارت المَيْمَنَة حتى بلغ آخرها إلى النهر وقريب البحر [(1)] .

فكان في المَيْمَنَة ولده الملك الأفضل - صاحب دمشق - وولده الملك الظاهر - صاحب حلب - ، وولده الملك الظافر - صاحب بُصرى - ، وولد [(2)] عزّ الدِّين - صاحب الموصل - علاء الدِّين خُرَّم شاه ، ثم الملك العادل أخوه في طرفها ، ويليه قريب منه حسام الدِّين لاجين والطواشي قايماز النجمي ، وعزّ الدِّين جُرْديك النُّوري ، وحسام الدِّين بشارة - صاحب بانياس - وبدر الدِّين دلدرم [(3)] - صاحب تلّ باشر - الياروقي ، وجمعٌ كثيرٌ من الأمراء .

وكان في المَيْسَرَة عماد الدِّين زنكي - صاحب سنْجَار - وابن أخيه معزّ الدِّين - صاحب الجزيرة - ، وفي طرفها الملك المظفّر تقي الدِّين ابن أخيه . وكان عماد الدِّين زنكي غائباً بنفسه مع الثَّقْل لمرض كان به ، وبقي عسكره . وكان في المَيْسَرَة سيف الدِّين علي المشطوب ، وجميع المهرانية [117 و] والهكّارية [(4)] ، وخشترين ، وغيرهم من الأمراء الأكراد . وفي القلب الحلقة السُّلطانية .

---

(1) النص في طبعة مصر : وابتدأت الميمنة بالمسير ، فسارت حتى بلغ آخرها الجبل ، وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها النهر بقرب البحر . .

(2) في الأصل : وولده عز الدِّين . والتصحيح عن طبعة مصر .

(3) الاسم تركي ، محرّف عن يلدرم Yıldırım ، وتعني : الصاعقة .

(4) المهرانيّة والهكاريّة من عشائر الأكراد المعروفة في منطقتي الجزيرة والموصل . راجع كتاب خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، لمحمد أمين زكي بك ، الطبعة الثانية ، بغداد 1961 .

وتقدّم السُّلطان – رحمة الله عليه – أن يخرج من كل عسكر جمعٌ من الجاليش [1] ، وأن يدوروا حول العدوّ واليَزَك معهم ، وأخفى بعض الأطلاب وراء التلال ، عساهم يجدون غرّة من العدوّ .

ولم يزل عدوّ الله يسير والناس يقاتلونهم من كل جانب ، وهو سائر على شاطىء النهر من الجانب الشرقي ، حتى أتى رأس العين ، وداروا حوله حتى عبروه إلى الجانب الغربي ، ونزلوا والقتال يتلقف منهم الأبطال ، ويصرع منهم الرجال . وكان نزولهم على تلّ هناك ، وضربوا خيامهم ممتدة منه إلى النهر ، وجُرح منهم في ذلك اليوم خلق عظيم ، وقُتل منهم أيضاً جماعة . وكانوا إذا جُرح منهم واحد حملوه ، وإذا قُتل واحد منهم دفنوه ، وهم سائرون ، حتى لا يتبيّن قتيل ولا جريح ، وكان نزولهم يوم الثلاثاء المذكور بعد الظهر .

وتراجعت العساكر عنهم إلى مواطن المصابرة ومواقف الحراسة ، وتقدّم السُّلطان – رحمة الله عليه – إلى المَيْسَرَة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرها على البحر ، والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقي ، والجاليش يقاتلهم ويضربهم بالنُّشَّاب بحيث لا ينقطع النُّشَّاب عنهم أصلاً . وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال .

وسار هو – رحمة الله عليه – ونحن في خدمته إلى رأس جبل الخرّوبة الذي كان نازلاً عليه في العام [117 ظ] الماضي فنزل في خيمة لطيفة والناس حوله في خيم لطاف بمرأى من العدوّ ، وأخبار العدوّ تتواصل إليه ساعة فساعة إلى الصبح .

ولما كان الصبح في يوم الأربعاء ثالث عشر شوّال ، وصل من أخبر أنهم تحرّكوا للركوب عند الصبح . فركب – رحمة الله عليه – وذلك في صبيحة الأربعاء ثالث عشر شوّال ، ورتّب الأطلاب وسار حتى أتى أقرب جبال الخرّوبة إليهم بحيث يشاهد جميع أحوالهم .

---

(1) سبق أن شرحنا معنى الجاليش ، انظر ما فات .

وكان – رحمه الله – مُلْتاثَ المزاج ، ضعيف القوّة ، قويّ القلب ، ثم بعث إلى العساكر وأمرها بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب ، وأمر الأطلاب أن تحيط بهم بحيث لا تكون قريبة أو بعيدة ، ليكون ردءاً للمقاتلة ، إلى أن تَضَاحَى النهار .

وسار العدوّ على شاطىء النهر من الجانب الغربي يطلب جهة خيمه ، والقتال يشتدّ عليهم من كل جانب ، فاشتدّوا في قتالهم من كل جانب إلا من جانب النهر ، والتحم القتال ، فصُرِع منهم خلقٌ عظيم ، وهم يدفنون قتلاهم ، ويحملون جرحاهم ، وقد جعلوا راجلهم سوراً لهم ، تضرب الناس بالزّنبورك [1] والنُّشَّاب ، حتى لا يترك أحد يصل إليهم إلا بالنُّشَّاب ، فإنه كان يطير عليهم كالجراد ، وخيّالتهم يسيرون في وسطهم بحيث لم يظهر أحد منهم في ذلك اليوم أصلاً ، والكُوْسات تخفق ، والبوقات تنعر ، والأصوات بالتهليل والتكبير ترتفع .

[118 و] هذا والسُّلطان – رحمه الله – يمدّ الجاليش بالأطلاب والعساكر التي عنده حتى لم يبق معه إلا نفرٌ يسير ، ونحن نشاهد الأحوال ، وعَلَمُ العدوّ مرتفع على عَجَلَة هو مغروس فيها ، وهي تُسحب بالبغال ، وهم يذبّون عن العَلَم ، وهو عال جداً كالمنارة ، خُرقتُه بياضٌ ، ملمّعٌ بحُمْرة على شكل الصُّلبان [2] .

(1) الزَّنبورك : نوع من القسيّ القصيرة تُرمى عنها السهام ، يُستعمل لتوتيرها آلية شدّ تتألف من بكرة وعتلة ، وبفضل هذا التصميم الميكانيكي الخاص فإن قوة شد القوس تفوق شد الأقواس الطويلة المعهودة ، وبالتالي فإن نُشّابة الزنبورك تنطلق بسرعة عالية جداً ، مما يجعل قدرة اختراقها كبيرة للغاية . وتتميز قوس الزنبورك بأن لها أخمصاً خشبياً يُسند إلى الكتف كالبندقية . واسم هذه القوس بالفرنسية arbalète وبالإنكليزية crossbow وبالألمانية Armbrust . ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ (12 : 4) عند حديثه عن فتح صهيون عام 584 هـ : «ودام رشق السهام من قسيّ اليد والجرخ والزّنبورك والزّيار» . كما ذكر العماد الأصفهاني في الفتح القسي (ص 168) : «وتوتير الجروخ والزنبوركات وتطيير الناوكات» .

(2) هذا وصف طريف ونادر لعَلَم الجيوش الصَّليبية وطريقة رفعه أثناء المعركة . ومن الجدير بالذكر أن فرسان الدّاوية أيضاً كانوا يتّشحون بمعاطف بيض ذوات صُلبان حُمر ، بينما يتّشح الإسبتارية بمعاطف سود أيام السّلم وحُمر بأيام الحرب ، وعليها صُلبان بيض .

ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه ، حتى وصلوا وقت الظهيرة إلى قبالة جسر دَعُوق ، وقد ألجمهم العطش وأخذ منهم التعب ، وأثختهم الجراح ، واشتدّ بهم الأمر ، وألجمهم العطش من شدّة الحر . ولقد قاتل المسلمون في ذلك اليوم قتالاً شديداً ، وأعطوا الجهاد حقه ، وهجموا عليهم هجوماً عظيماً ، واستداروا بهم كالحلقة ، وهم لا يظهرون من رجّالتهم ، ولا يحملون . وكان الفعل معظمه للحلقة [1] في ذلك اليوم ، فإنهم أذاقوهم طعم الموت ، وجُرح منهم في ذلك اليوم جماعة كإياز الطويل – رحمه الله – ، فإنه قام في ذلك الحرب أعظم مقام يُحكى عن الأوائل ، وجُرح جراحات متعددة وهو مستمرّ على القتال ، وجُرح سيف الدِّين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الإسلام وشجعانه ، وله مقامات متعددة . وجُرح خلق كثير في ذلك اليوم .

ولم يزل الناس حولهم حتى نزلوا ظهيرة نهار ذلك اليوم عند جسر دَعُوق ، وقطعوا الجسر وأخربوه ، خوفاً من عبور الناس إليهم . ورجع [118 ظ] السُّلطان – رحمة الله عليه – إلى تلّ الخَرّوبة ، وأقام عليهم يَزَكاً يحرسهم ، وبات وأخبارهم تتواتر عليه حتى الصباح ، وعزم في تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم . وكتب إلى البلد يعرّفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب ، ونحن من هذا الجانب ، فلم يصل من أهل البلد كتاب ، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب .

ولما كان صباح الخميس رابع عشر الشهر ، وصل مَن أخبر أن العدوّ عليه حركة الرحيل ، فركب السُّلطان – رحمه الله – وطلّب الأطلاب ، وكفّ الناس عن القتال خشية أن يُغتالوا ، فإن العدوّ كان قد قرب من خيمه . وأوقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدوّ حتى وصل إلى خيمه ، وكان ممّن جُرح

(1) المراد بها الحلقة السُّلطانية ، أي الخاص السُّلطاني من المماليك ، وقد قدّمنا القول أن فرق المماليك السُّلطانية كانت أشد فرق الجيش الأيوبي بأساً وتدريباً وحسن مناورات في الحروب . كانوا بمثابة فرق القوات الخاصة ، ويقابلهم في المعسكر الصليبي فرق القوات الداوية Templiers والإسبتارية Hospitaliers .

من مقدّميهم في هذه السرية الكُنْدُهْري [1] والمَرْكيس . وتخلّف ابن ملك الألمان في الخيم مع جمع كثير منهم . ولما دخل العدوّ إلى خيمه كان لهم بها أطلاب مستريحة ، فخرجت على اليَزَك الإسلامي وحملت عليه ، وانتشب القتال بين اليَزَك وبينهم ، وجرى قتال عظيم قُتل فيه من العدوّ وجُرح خلقٌ عظيم ، وقُتل من المسلمين ثلاثة نفر .

وقُتل من العدوّ شخصٌ كبير فيهم مُقدّم عندهم ، وكان على حصان عظيم مُلبّس بالزَّرَد إلى حافره ، وكان عليه لبسٌ لم يُرَ مثله ، وطلبوه من السُّلطان – رحمة الله عليه – بعد انفصال الحرب ، فدفع إليهم جثته ، وطُلب [119 و] رأسه فلم يوجد [2] .

وعاد السُّلطان إلى مخيمه ، وأُعيد الثَّقْل إلى مكانه ، وعاد كل قوم إلى منزلتهم ، وعاد عماد الدِّين وقد أقلعت حُمّاه . وبقي الْتياثُ مزاج السُّلطان ، وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة كونه لا يقدر على مباشرة الأمر بنفسه . ولقد رأيتُه – رحمة الله عليه – وهو يبكي في حالة الحرب ، كيف لم يقدر على مخالطة [3] القوم ، ورأيتُه وهو يأمر أولاده واحداً بعد واحد بمصافحة الأمر ، ومخالطة الحرب ، رحمة الله عليه . ولقد سمعتُ منه وقائل يقول له : «إن الوخم قد عَظُم في مرج عكّا ، بحيث إن الموت قد كثر في الطائفتين» ، فأنشد متمثلاً :

اقتلانـــي ومالكــاً واقتـلا مالكــاً معـــي

يريد بذلك : أنني قد رضيتُ أن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله . وحدث بذلك قوّة عظيمة في نفوس العساكر الإسلامية .

---

(1) تقدّم ذكره ، الكونت هنري دى شامپانيا : le comte Henri de Champagne .

(2) وهذا هو الفارس الإنكليزي رالف أوف آلتا ريپا Ralph of Alta Ripa ، رئيس شمامسة كولتشستر . انظر : S. Runciman: *A History of the Crusades*, iii, 28.

(3) في طبعة مصر : مخالطته .

ذكر وقعة الكمين

ولما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوّال من شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة ، رأى - رحمة الله عليه - أن يصنع للعدو كميناً ، وقوي عزمه على ذلك ، فأخرج جمعاً من كُماة العسكر وشجعانه ، وأبطاله وفرسانه ، وانتخبهم من خلق كثير ، وأمرهم أن يسيروا في الليل ، ويكمنوا في سفح تلّ هو شمالي عكّا ، [119 ظ] بعيداً عن عسكر العدوّ ، عنده كانت منزلة الملك العادل حين وقعت الوقعة المنسوبة إليه ، وأن يظهر للعدو منهم نفرٌ يسير ، وأن يقصدوه في خيمه ، ويحركوه حتى إذا خرج انهزموا بين يديه نحو الكمين [1] .

ففعلوا ذلك ، وساروا حتى أتوا التلّ المذكور ليلاً ، فكمنوا تحته ، ولما علا[2] نهار السبت الثالث والعشرين من شوّال ، خرج منهم نفر يسير على جياد من الخيل ، فساروا حتى أتوا مخيم العدوّ ، ورموهم بالنُّشّاب ، وحرّكوا حميّتهم بالضرب المتواتر . فانتحى لهم مقدار مائتي فارس ، وخرجوا شاكين في السّلاح على خيل جياد ، بعدّة تامة وأسلحة كاملة ، وقصدوهم وليس معهم رجل واحد ، وداخلهم الطمع فيهم لقلّة عدتهم ، فانهزموا بين أيديهم ، وهم يقاتلون وينتقلون [3] ، حتى أتوا الكمين .

فخرج عليهم رجاله ، وثارت عند وصولهم إليه أبطاله ، وصاحوا فيهم صيحة الرّجل الواحد ، وهجموا عليهم هجوم الأُسد على فريستها ، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالاً شديداً ، ثم ولّوا منهزمين فتمكّن أولياء الله منهم ووقعوا فيهم ضرباً بالسيف ، حتى ألقوا منهم جمعاً عظيماً ، واستسلم الباقون للأسر ، فأسروهم ، وأخذوا خليهم وعُدَدهم .

---

(1) في طبعة مصر : نحو المسلمين .
(2) في طبعة مصر : تجلّى .
(3) في طبعة مصر : وهم يقاتلون ويقتلون .

وجـاء البشـير إلـى المعسـكر الإسـلامي ، فـارتفعت الأصـوات بـالتهليل والتكبير ، وركب السُّلطان [120 و] - قدّس الله روحـه - يلتقـي المجاهدين ، وسـار - وكنتُ في خدمته - حتى أتى تلّ كيسان ، فتلقّانا أوائل القوم ، فوقف هنـاك يتلقّـى العائدين من المجاهدين ، والناس يتبرّكون بهم ، ويشكرونهم على حسن صنيعهـم ، وهو - رحمة الله عليه - يعتبر الأسارى ويتصفّح أحوالهم .

وكان ممن أُسر في ذلك اليوم مقدّم عسكر الإفرنسيس ، فإنه كان قد أُنفذ نجـدةً قبل وصوله ، وأُسر خازن الملك أيضاً [1] . وعاد السُّلطان - رحمه الله - بعد تكامل الجماعة إلى مخيّمه فرحاً مسروراً ، وأُحضر الأسـرى عنـده ، وأمر منادياً ينـادي : «ألا إنّ مَنْ أسر أسيراً فليُحْضره» . فأحضر الناس أسراهم ، وكنـتُ حـاضراً ذلـك المجلس ، ولقد أكرم - رحمة الله عليه - المقدّمين منهـم ، وخلـع علـى مُقـدّم عسـكر الإفرنسيس فروة خاصاً ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، فإن البـرد كـان شديداً ، وكان قد أُخذ منهم .

وأحضر لهم طعاماً أكلوه ، وأمر لهم بخيمة نُصبت قريباً مـن خيمتـه ، وكـان يكـارمهم في كـل وقـت ، ويحضـر المقـدَّم علـى الخُوان في بعـض الأوقـات ، وأمـر بتقييدهم وحَمْلهم إلى محروسة دمشق ، فحملوهـم إليهـا مُكرمـين . وأذن لهـم في أن يراسلوا أصحابهم ، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثيـاب وغيرها ، ففعلوا ذلك وساروا إلى محروسة دمشق .

* * * * *

---

(1) لم نجد في المصادر الأوروبية عن الحروب الصَّليبية اسم مقـدّم عسـكر الإفرنسـيس وخـازن الملك المأسورين في هذه الوقعة ، مع الأسف . وكنا - كما تقدّم - قد قابلنـا أكـثر أسـماء القادة الفرنجة الذين ذكرهم ابن شدّاد في كتابه هـذا ، فوجدنـا مـا يـوازي ذلـك في مصـادر المؤرخين الصَّليبيين أنفسهم . وإن دلّ هذا علـى شـيء ، فإنما على دقـة مؤلفنـا وصـدق روايتـه وموثوقيتهـا ، سـواء علـى صعيـد مؤلفينـا المسـلمين ، أو علـى محيـط المؤلفـات المختصة بتاريخ الحروب الصَّليبية من الطرفين المشاركين فيها كليهما .

ذكر [120 ظ] عَوْد العساكر من الجهاد

ولما هجم الشتاء ، وهاج البحر ، وأُمن العدوّ أن يضرب مصافاً [1] ، وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدّة الأمطار وتواترها ، أذن السُّلطان – قدّس الله روحه – للعساكر الإسلامية في العَوْد إلى بلادها ، لتأخذ نصيباً من الراحة ، وتجمّ خيولها إلى وقت العمل .

فكان أول من سار عماد الدِّين صاحب سنْجَار ، لما كان عنده من القلق في طلب الدُّستور [2] ، وكان مسيره يوم الإثنين خامس عشر شوّال سنة ست وثمانين وخمسمائة . وسار عقيبه في ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه صاحب الجزيرة ، هذا بعد أن أُفيض عليهما من التشريف والإنعام والتحف ما لم يُنعم به على غيرهما .

وسار علاء الدِّين ابن صاحب الموصل ، في مستهلّ ذي القعدة من السنة المذكورة ، مشرّفاً مكرّماً ، معه التحف والطرائف .

وتأخّر من العساكر الملك المظفّر تقي الدِّين إلى أن دخلت سنة سبع وثمانين . وتأخر أيضاً ولده الملك الظاهر حتى دخلت السنة المذكورة ، وسار ولده الملك الظاهر إلى محروسة حلب ضاحي نهار الأربعاء تاسع المحرّم سنة سبع وثمانين . وسار الملك المظفّر [3] في ثالث صفر منها ، ولم يبق عند السُّلطان إلا نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاص .

---

(1) يتّضح لمن يدرس تاريخ الحروب الصليبية في الشّام ، أن فصل الشتاء كان يفرض نوعاً من هُدنة إلزامية ، تنجم عن سوء الأحوال الجويّة التي تعيق تحركات الجيوش .

(2) وهذا لرغبته في العود إلى إمارته سريعاً ، لئلا يطمع في مُلكها طامع .

(3) أي إلى حماة ، التي أسّس مملكتها الأيوبية هذا الملك المظفّر تقي الدِّين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب . كان من كبار قادة البيت الأيوبي ، وكان أثيراً لدى عمّه السُّلطان صلاح الدين ، ناب عنه بمصر ، ثم أعطاه عمّه حماة سنة 582 هـ فسكنها ثم لما توفي عام 587 هـ دُفن بها . ذكر أبو الفداء في تاريخه (3 : 80) : كان المظفّر ركناً عظيماً من أركان البيت الأيوبي ، وكان عنده فضل وأدب ، وله شعر حسن . راجع وفيات الأعيان لابن خلّكان ، 3 : 456 ؛ وتاريخ ابن الوردي ، 2 : 103 .

ذكر [121 و] وفود زلفندار عليه
رحمة الله عليه [1]

وكان وفوده عليه في أثناء شهر ذي القعدة سنة ست وثمانين ، فتلقّاه وأكرم مثواه ، وصنع [2] له طعاماً يوم قدومه ، وباسَطَهُ مُباسطة عظيمة ، وكانت حاجته أن يوقّع له بإعادة أملاك كانت في يده ثم انتُزعت ، من أعمال نصيبين والخابور ، فوقّع بإعادتها إلى يده ، وأجرى الأمر فيها بعد ذلك على وفق الشريعة المطهّرة ، وخلع عليه وشرّفه ، وسار فرحاً مسروراً شاكراً لأياديه .

ذكر اشتغال السُّلطان - رحمه الله -
بإدخال البَدَل إلى البلد

ولما هاج البحر و أُمنت غائلة مراكب العدوّ ، ورُفع ما كان له في البحر من الشواني إلى البرّ ، اشتغل السُّلطان - رحمة الله عليه - في إدخال البَدَل إلى عكّا ، وحمل المير والذخائر والنفقات والعُدَد إليها ، وإخراج مَن كان بها من الأمراء ، لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر ، وملازمة القتال ليلاً ونهاراً .

وكان مُقدَّم البَدَل الداخل من الأمراء الأمير سيف الدِّين علي المشطوب [3] ، دخل في يوم الأربعاء سادس عشر المحرّم من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

---

(1) لم يُذكر هذا العنوان في طبعة مصر ، وإنما ورد النص متصلاً بما سبقه هكذا : وفي أثناء ذي القعدة سنة ست وثمانين ، وفد عليه زلفندار ، فتلقّاه . . إلخ .

(2) في طبعة مصر : وصنع .

(3) وسيبقى المشطوب على رأس الحامية التي تولّت الدّفاع عن عكّا بكل بطولة وفداء ، حتى سقوطها في تموز عام 1191 م ، كما سيقابل ملك فرنسا فيليب أوگست ، ويجابهه بغاية الجرأة والإباء ، فيسطّر لنا بحروف من ذهب أسمى معاني الرّجولة الحقّة .

وفي ذلك اليوم خرج المقدّم الذي كان بها ، وهو الأمير حسام الدِّين أبو الهيجاء ، وأصحابه ومَن كان بها من الأمراء [121 ظ] ودخل مع المشطوب خلقٌ من الأمراء [1] وأعيان من الخلق ، وتقدّم إلى كل من دخل أن يصحب معه ميرة سنة كاملة . وانتقل الملك العادل بعسكره إلى حَيْفَا على شاطىء النهر ، وهو الموضع الذي تُحمل منه المراكب وتدخل إلى البلد ، وإذا خرجت تخرج إليه ، فأقام ثَمَّ يحثّ الناس على الدخول ، ويحرس المِيَر والذخائر ، لئلا يتطرق إليها من العدوّ مَن يتعرضها .

وكان ممّا دخل إليها سبع بُطَس مملوءة ميرة ، وذخائر ونفقات ، كانت وصلت من محروسة مصر محمّلة ، قدّ تقدّم السُّلطان بتعبئتها من مدّة مديدة ، وكان دخولها يوم الإثنين ثاني ذي الحجة من السنة الخالية . فانكسر منها مركبٌ على الصَّخر الذي هو قريب الميناء ، فانقلب كل مَنْ في البلد من المقاتلة إلى جانب البحر [1] لتلقي البُطَس وأخذ ما فيها . ولما علم العدوّ انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر أخذوا غرّتهم ، واجتمعوا في خلق عظيم [1] ، وزحفوا على البلد من جانب البرّ زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار ، وصعدوا في سلم واحد ، فاندقَّ بهم السلّم كما شاء الله تعالى ، وتداركهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، وعادوا خائبين خاسرين .

وأما البُطَس فإن البحر هاج هيجاً عظيماً ، وضُرب بعضها ببعض على الصخر ، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم ، [122 و] قيل كان عددهم ستين نفراً ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت كفت البلد سنة كاملة ، وذلك بتقدير العزيز العليم ، ودخل على المسلمين من ذلك وهنٌ عظيم ، وحُرج السُّلطان بذلك حرجاً شديداً ، واستخلف ذلك في سبيل الله ، وما عند الله خيرٌ وأبقى ، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد والظّفر به .

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

ذكر وقوع قطعة من السُّور [1]
فهي العلامة الثانية

ولما كانت ليلة السبت سابع ذي الحجة من السنة الخالية ، قضى الله وقدّر بأن وقع من السُّور قطعة عظيمة ، فوقعت بثقلها على الباشورة [2] فهدمت أيضاً منها قطعة عظيمة .

فداخل العدوّ الطمع ، وهاج للزحف هيجاً عظيماً ، وجاؤوا إلى البلد كقطع الليل المدلهمّ من كل جانب ، فتحايا الناس في البلد وثارت هممهم ، فقتلوا من العدوّ وجرحوا خلقاً عظيماً ، وقاتلوهم قتالاً شديداً ، حتى ضرسوا وآيسوا من أن ينالوا خيراً . ووقفوا كالسدّ في موضع القطعة الواقعة ، وجمعوا جميع من في البلد من البنائين والصناع ، ووضعوهم في ذلك المكان ، وحموهم بالنُّشَّاب والجروخ والمناجيق ، فما مرّت إلا ليال يسيرة حتى انتظمت ، وعاد بناؤها أحسن ما كان وأقواه وأتقنه ، والحمد لله .

ذكر الظَّفَر بمراكب العدوّ

وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا ، وقالوا للسُّلطان : [122 ظ] «نحن نخوض البحر في براكيس ، ونكسب من العدوّ ، ويكون [الكسبُ] بيننا وبين المسلمين» . فأذن لهم في ذلك ، وأعطاهم بركوساً ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه ، وظفروا بمراكب للتجار من العدوّ ، وهي قاصدة

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) في طبعة مصر : ونقلها على الباشورة . والباشورة هي الحائط الظاهري من الحصن ، يختفي وراءه الجند عند القتال ، ويقابلها في الفرنسية تعبير le Bastion . انظر قاموس راينهارت دوزي : Dozy, R.: *Supplément aux Dictionnaires Arabes* . أما الجسم الرئيسي للسُّور فيتألف من جدران طويلة صلبة تُدعى «البَدَنَات» وتدعمها الأبراج .

إلى عسكرهم ، وبضائعهم معظمها فضّة مُصاغة وغير مُصاغة ، فوقع عليها ، وقاتلوهم حتى أخذوهم ، وكسبوا منهم مالاً عظيماً ، وأسروهم وأحضروهم بين يدي السُّلطان - رحمة الله عليه - ، وذلك في ثالث عشر ذي الحجّة من السّنة المذكورة ، وهي سنة ست .

ولقد كنتُ حاضراً ذلك المجلس ، وكان من جملة ما أحضروه مائدة فضة ، وعليها مكبّة مخرّمة من فضة ، فأعطاهم السُّلطان - رحمه الله - الجميع ، ولم يأخذ منهم شيئاً ، وفرح المسلمون بنصر الله عليهم بأيديهم .

ذكر موت ابن ملك الألمان
لعنه الله

وذلك أن العدوّ لما دخل الشتاء عليهم ، وتواترت الأنداء واختلفت الأهواء ، وخمَ المرج وخماً عظيماً ، ووقع فيهم بسبب ذلك مَوتَان عظيم ، وانضمّ إلى ذلك الغَلاء الشديد ، وانسدّ عليهم البحر الذي كان يجيئهم منه المير من كل جانب . فكان يموت منهم في كل يوم المائة والمائتان على ما قيل ، وقيل أكثر من ذلك .

ومرض ابن ملك الألمان [1] مرضاً عظيماً ، وعرض له مرض الجوف ، فهلك به في ثاني عشرين ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وحزن الفرنج عليه

---

(1) فريدريك دوق شڤابن Friedrich von Schwaben ابن الإمبراطور فريدريك بارباروسّا . وكانت وفاته في 20 كانون الثاني عام 1191 م ، فأضحى الجند الألمان محرومين من قائدهم ، على الرغم من قدوم ابن عمه ليوبولد دوق النمسا . وسبب مرض العديد في معسكر الفرنجة على أبواب عكّا ، هي المجاعة التي نجمت عن حصار قوات السلطان صلاح الدِّين . ونحا الفرنجة باللائمة على المركيز كونراد دى مونفيراّ صاحب صور لعدم إنجادهم ، ثم انقلبت الأحوال في آذار عند وصول النجدات واقتراب وصول ملك الإنكليز ، وانفراج قوّات الصَّليبيين المحاصرة لعكّا ، التي كانت بدورها قد طُوِّقت من قبل جيش السّلطان النّاصر صلاح الدّين .

حُزناً عظيماً ، وأُشعل له [123 و] نيران هائلة ، بحيث لم يبق لهم خيمة إلا وأُشعل فيها النّاران والثلاثة ، بحيث بقي عسكرهم كله ناراً تقد ، وفرح المسلمون بموته بمثل ما حزن الكفار بفقده .

وهلك منهم كبير يُقال له الكُنْد ينباط [1] ، ومرض الكُنْدُهْري وأشفى على الهلاك [2] .

وفي الرابع والعشرين منه ، أُخذ منهم بركوسان [3] فيهما نيف وخمسون نفراً . وفي الخامس والعشرين منه أُخذ منهم أيضاً بركوسٌ كبير ، وأُخذ جميع ما كان فيه ، وكان من جملة ما كان فيه ملوطة مكلّلة باللؤلؤ ، هي من تفاصيل الملك ، وقيل كان في البركوس ابن أخته ، وأُخذ أيضاً ، ولله الحمد .

ذكر غارة أسد الدِّين

وهذا أسد الدِّين هو شيْرْكُوْه بن ناصر الدِّين محمد بن أسد الدِّين شيْرْكُوْه الكبير [4] ، وهو صاحب حمص ، وكان من حديثه أن السُّلطان – رحمة الله عليه – كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الفرنج بطرابلس ، ويأخذ نفسه بحراسة المسلمين والفلاحين في تلك الناحية ، وأنه قيل له : إن أهل طرابلس قد أخرجوا دشارهم وخيلهم إلى مرج هناك وأبقارهم ودوابهم ، وأنه قرّر مع عسكره قصدهم .

---

(1) هو الكونت تيبو دى بلوا Thibaud de Blois ، ومات في هذا الوباء أيضاً أخوه الكونت ستيفان دى سانسير Stéphane de Sancerre . راجع :
S. Runciman: *A History of the Crusades*, iii, 32.

(2) أي الكونت هنري دى شامپانيا ، المذكور مراراً عديدة في كتابنا هذا . بلغ المرض به من الشدّة أسابيع عديدة ، بحيث أضحت حياته ميؤوساً منها ، ثم تعافى .

(3) تقدّم ذكر القارب المعروف بالبركوس في المتن ، وشرحنا معناه .

(4) يريد بشيْرْكُوْه الكبير عمّ السّلطان النّاصر صلاح الدين ، أسد الدين شيْرْكُوْه بن شاذي ابن مروان ، توفي بمصر عام 564 هـ .

فخرج على غرّة منهم ، وهجم على دشارهم فأخذ منهم أربعمائة رأس من الخيل ، ومائة رأس من البقر ، فهلك من الخيل أربعون ، وسلم الباقي ، وعاد إلى البلد ، ولم يفقد من أصحابه أحداً ولله الحمد . ووصل الكتاب بذلك في رابع صفر سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

وفي [1] [123 ظ] ليلة هذا اليوم ألقت الرّيح مركباً للعدو على الزِّيب [2] فكسرته ، وكان فيه خلق عظيم ، فبصر بهم أصحابنا ، فوثبوا عليهم ، وأخذوهم عن آخرهم . ولقد حضرتُ وقد عُرض منهم على السُّلطان - رحمة الله عليه - خمسة عشر نفراً .

وليلة هلال ربيع الأول من هذه السنة خرج أصحابنا من البلد ، وهجموا على العدوّ وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا منهم من خيمهم جمعاً عظيماً ، منهم اثنتا عشرة امرأة على ما قيل .

ذكر وقائع عدّة في سنة سبع [3]

وفي ثالث ربيع الأول كان اليَزَك للحلقة السُّلطانية ، وخرج من العدوّ إليهم خلق عظيم ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، قُتل فيها من العدوّ جماعة ، وقُتل منهم رجل كبير على ما قيل . ولم يُفقد من المسلمين إلا خادم كان للسُّلطان - رحمة الله عليه - يُسمّى قَرَاقُوش ، وكان شجاعاً عظيماً ، له وقعات عظيمة كثيرة ، استُشهد في ذلك اليوم ، رحمه الله .

---

(1) هذه الفقرة بأكملها ساقطة من طبعة مصر .
(2) تقدّم ذكرها مسبقاً ، عرّفها ياقوت في معجم البلدان (3 : 162) بأنها قرية كبيرة على ساحل بحر الشام قريب عكّا . كما ذكر الرّحالة ابن جُبير الأندلسي عام 580 هـ ، في رحلته (ص 277) : حصن الزّاب وقرية إسكندرونة . قلنا : وهذا الحصن كان عمّره الصليبيون وسمّوه بالفرنسية : Scandélion سكاندليون ، نسبة للإسكندرونة .
(3) في طبعة مصر : في هذه السنة .

ولما كان يوم السبت تاسع ربيع الأول سنة سبع ، بلغ السُّلطان – رحمه الله – أن العدوّ تخرج منه طائفة وينفسحون لبعدنا عنهم ، فاقتضى رأيه – رحمه الله – أن أنفذ أخاه الملك العادل ، وفي خدمته خلق عظيم من العساكر الإسلامية ، وأمره أن يكمن للعدو وراء التلّ الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به .

وسار هو وجمع من كبار أهله وأصحابه ، فأكمن وراء تلّ العَيَّاضيّة ، فكان ممّن كان معه من كبار أهله الملك المظفّر تقي الدِّين ، وابنه [124 و] ناصر الدِّين محمد ، والملك الأفضل ولده ، ومعه من صغار أولاده الملك الأشرف محمد ، والملك المعظم تُوْرَانْشَاه ، والملك الصالح إسماعيل ، وكان من المعمّمين القاضي الفاضل ، والديوان ، وكنتُ في الصُّحبة في ذلك اليوم .

وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد ، وناوشوا العدوّ وباسطوه فلم يخرج في ذلك اليوم ، وكأنه كان قد وشي إليهم بجليّة الأمر [1] ، إلا أن ذلك اليوم لم ينفكّ إلا بنوع نصر ، فإنه وصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون نفراً من أسارى الفرنج ، كان قد أخذوا في بَيْرُوت ، وسُيِّروا إليه – رحمه الله – فوصلوا في ذلك اليوم إلى ذلك المكان .

ولقد شاهدتُ منه رقّة قلب ورحمة في ذلك اليوم لم يُر أعظم منها – رحمه الله – وذلك أنه كان فيهم شيخٌ كبير طاعن في السن ، لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق له قوّة إلا مقداراً يتحرك بها لا غير ، فقال للترجمان : «سَلْهُ : ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذه السن ؟ وكم من ههنا إلى بلاده ؟» فقال : «أما بلادي فبيني وبينها مسيرة عدّة أشهر ، وأما مجيئي فإنما كان للحجّ إلى القيامة [2]» . فرقّ له السُّلطان – قدّس الله روحه – ومَنَّ عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدوّ .

---

(1) في طبعة مصر : بحلية الأمراء .

(2) في طبعة مصر : القمامة .

ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير ، فلم يفعل ، فسألتُه - رحمه الله - عن سبب المنع ، وكنتُ حاجبهم فيما طلبوه ، فقال : «لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدِّماء ويهون [124 و] عليهم ذلك ، وهم الآن لا يفرّقون بين المسلم والكافر» . ولا يخفى ما في طيّ ذلك من الرأفة والرحمة للمسلمين ، رأف الله به ورحمه [1] .

ولما أيس من خروج العدوّ عاد إلى المخيم في عشية ذلك اليوم ، وهو الأحد عاشر ربيع الأول سنة سبع ، فرحاً مسروراً [1] .

ذكر وصول العساكر الإسلامية ومَلك الإفرنسيس

ومن ذلك الوقت انفتح البحر وطاب الزمان ، وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين . وكان أول مَنْ قدم من عساكر المسلمين علم الدِّين سليمان ابن جَنْدَر من أمراء الملك الظاهر ولده صاحب حلب ، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً له وقائع ، ذا رأي حسن ، والسُّلطان يحترمه ويكرمه ، وله قديم صُحبة .

ثم قدم بعده مجد الدِّين بن عزّ الدِّين فَرُّوخْشَاه بن شاهنشاه ، وهو صاحب بعلبك [2] . قدما في ربيع الأول من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة [1] .

وتتابعت بعد ذلك العساكر الإسلامية من كل صوب .

---

(1) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

(2) هو حفيد أخي السُّلطان الناصر ، اسمه الملك الأمجد مجد الدّين بهرام شاه ابن عزّ الدّين فرّوخ شاه داود بن شاهنشاه . وهو منّا بمثابة الجار ، فتربته تقع على بعد بضعة عشرات من الأمتار من منزلنا الكائن بين بستان الجارية وبستان العلامة من بساتين الصالحية ، في منطقة كانت وقفاً يُعرف باسم «بستان الأمجدية» ، بزقاق الصخر قرب قصر الضيافة بأسفل أبي رمّانة . واليوم يُشيّد (بأرض الوقف) فندق Four Seasons العتيد !

وأما عسكر العدوّ المخذول ، فإنهم كانوا يتواعدون الـيَزَك ومن يقاربهم من عساكر المسلمين بقدوم مَلك الفَرَنْسِيْس [1] ، وكان عظيماً عندهم ، مقدّماً محترماً من كبار ملوكهم ، ينقاد إليه الموجودون في العسكر بأسرهم ، بحيث إذا حضر حكم على الجميع .

ولم يزالوا يتواعدونا بقدومه حتى قدم - لعنه الله - في ست بُطَس تحمله وتحمل ميرته ، وما يحتاج إليه من الخيل وخواص أصحابه . وكان قدومه يوم السبت [125 و] ثالث عشرين ربيع الأول من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

نادرة وبشارة

وكان قد صحبه من بلاده بازٌ عظيم عنده ، هائل الخلق ، أبيض اللون ، نادر الجنس ، وكان يعزّه ويحبّه حبّاً عظيماً ، فشذّ الباز من يده وطار وهو يستجيئه ولا يجيبه ، حتى سقط على سور عكا ، فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السُّلطان -رحمه الله- ، وكان لقدومه روعة عظيمة واستبشار عظيم بالظفر . ولقد رأيتُه ، وهو يضرب إلى البياض ، مشرق اللون ، ما رأيتُ بازاً أحسن منه . فتفاءل المسلمون بذلك ، وبذل الفرنج فيه ألف دينار ، فلم يُجابوا .

وقدم بعد ذلك كند فرند [2] ، وكان مقدّماً عظيماً عندهم مذكوراً ، كان حاصر حماة وحارم في عام الرَّملة .

* * * * *

---

(1) أي الملك فيليب أوگست Philippe Auguste المعروف بالملك فيليب الثاني ، الذي سبق ريتشارد قلب الأسد بوصوله إلى المعسكر الصّليبي المحاصر لعكّا بسبعة أسابيع ، وذلك في 20 نيسان من عام 1191 م .

(2) هو فيليپ كونت فلاندر Philippe de Flandres ، وكان قدومه للمشرق المرة الأولى عام 1177 م ، وقد مات في صيف 1191 م أثناء حصار عكّا الآتي ذكره .

واقعة نادرة [1]

ولما كان الثاني عشر من ربيع الآخر ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وصل كتاب من اللاذقية يُخبَر فيه أنه كان جماعة من المستأمنين [2] قد أُعطوا براكيس ، ليكسبوا عليها في البحر من العدوّ ؛ فأخذوها ونزلوا في جزيرة قبرص في عيد لهم ، وقد اجتمع جمع كثير من أهل الجزيرة في بيعة قريبة من البحر ، وأنهم صلّوا معهم صلاة العيد ، وأنهم لما فرغوا من الصلاة ، ضربوا على كل مَنْ كان في البيعة من الرّجال والنساء ، وأخذوهم عن آخرهم حتى القسّ ، وحملوهم وألقوهم في مراكبهم وساروا بهم حتى أتوا اللاذقية .

[125 ظ] وكان من جملة من كان سبع وعشرون امرأة ، وأموال عظيمة اقتسموها ، فوصل إلى كل واحد على ما قيل أربعة آلاف درهم من الفضّة النقرة .

وقدم بعد ذلك بدر الدِّين شحنة دمشق في سابع عشر ربيع الآخر .

وهجم أصحابنا على غَنَم للعدوّ ، فأخذوها ، وكان عددها مائة وعشرين رأساً ، فركب في طلبها الفارس والراجل ، فلم يظفروا منها بشيء ، ولله الحمد .

* * * * *

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) المستأمنون هم قوم من المسيحيين اللاتين ، الوافدين مسبقاً إلى بلاد الشام خلال الحملة الصَّليبية الأولى ، والذين خالطوا المسلمين وتعايشوا معهم ، فدعاهم غُلاة الصَّليبيين بالأمهار *les poulains* تهكّماً . ولقد تعاهد بعضهم مع أمراء المسلمين وقادتهم على القيام بعمليات حربية أو استطلاعية أو استخباراتية ضدّ الصَّليبيين اللاتين ، فكان لهم دور لا يُستهان به في عضد المسلمين بحروبهم ضدّ هؤلاء الغزاة . ولا يخفى أن في ذلك دليلاً واضحاً على اتّساع شقة الخلاف بين هؤلاء وبين الغزاة ، برغم دعواهم الدِّينية الواحدة . ومثلهم كان أبناء البلاد العرب المسيحيين ، الذين آثروا الوقوف في صفّ أبناء بلادهم المسلمين ، رغم اختلاف الدِّين ، في وجه الغزاة الغرباء ، كائنين مَنْ كانوا .

ذكر خبر ملك الأنكتار
لعنه الله

وهذا ملك الأنكتار [1] شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قويّ الهمّة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون الفرنسيس عندهم في المُلك والرُّتبة ، لكنه أكثر مالاً منه ، وأشهر في الحرب والشجاعة .

وكان من خبره أنه لما وصل إلى جزيرة قبرص ، لم يَرَ أن يتجاوزها إلا وأن تكون له ، وفي حكمه . فنازلها وقاتلها ، فخرج إليه صاحبها ، وجمع له خلقاً عظيماً ، وقاتله قتالاً شديداً ، فأنفذ الأنكتار إلى عسكرهم يستنجد منهم الجماعة ، ليعينوه على مقصوده ، فأنفذ إليه الملك جفري [2] أخاه ومعه مائة وستون فارساً ، وبقي الفرنج على عكّا منتظرين ما يكون بين الطائفتين منهم [3] .

ولما كان يوم الأحد سَلْخ ربيع الآخر من سنة سبع ، وصلت كتب من بَيْرُوت تُخبر أنه قد أُخذ من مراكب الأنكتار القاصدة نحو عسكر [126 و] العدوّ خمس مراكب ، وطَرَّادة فيها خلق عظيم ، رجال ونساء وميرة وأخشاب وآلات وغير ذلك ، وفيها أربعون فرساً ، وكان ذلك فتحاً عظيماً ، استبشر به المسلمون .

* * * * *

---

(1) المقصود بالأنكتار الملك ريتشارد قلب الأسد Richard Cœur-de-Lion ، ملك إنكلترا .
واسم الأنكتار في المصادر العربية المعاصرة له مصدره من الفرنسية : Roi d'Engleterre .

(2) يريد المؤلف بجفري ملك مملكة القُدْس (التي انهارت في حطّين قبل 4 أعوام) گي دى لوزينيان Guy de Lusignan ، أما اسم جفري فهو يصحّ على أخيه Geoffroi .

(3) حول احتلال ريتشارد لجزيرة قبرص ، انظر كتاب : الحروب الصَّليبية ، صراع الشرق والغرب ، لرنيه گروسّيه (ص 77) ، الذي ترجمناه عن الفرنسية مؤخراً . ولقد عيّن ريتشارد على قبرص الملك گي نفسه ، ثم تصاعدت في المشرق حدّة الشجار بين الملكين ريتشارد الإنكليزي وفيليپ أوگست الفرنسي ، على تعيين ملك جديد لمملكة القُدْس (في عاصمتها عكا) ، فناصر ريتشارد الملك الأسبق گي دى لوزينيان ، أما فيليپ فناصر كونراد دى مونفيرا صاحب صُور ، الذي سيتم اغتياله في صُور لاحقاً .

ولما كان يوم الخميس رابع جُمادى الأولى سنة سبع ، زحف العدوّ إلى البلد ، ونصبوا عليه مناجيق سبعة . ووصلت كتب من عكّا بالاستنفار العظيم ، والتماس شغل العدوّ عنهم ، فأعلم السُّلطان - رحمه الله - العساكر بالعزم على الرحيل لمضايقة العدوّ ومقاربته ، وأصبح على المسير إلى جهة العدوّ .

فسار حتى وقف على الخرّوبة ، ورتّبَ العساكر ميمنة وميسرة وقلباً ، ثم أنفذ من كشف حال العدوّ وحال خنادقهم ، هل فيها كمين للعدو أم لا ، فعادوا وأخبروا بخلوها من الكمين . فسار بنفسه ومعه نفر يسير من مماليكه حتى أتى خنادقهم ، وصعد تلاً كان يُعرف بتل الفضول ، هو قرب العدوّ ، مشرفٌ على خيمه ، وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها ، وما هو بطّال . ثم عاد سائراً إلى مخيمه ، وأنا في خدمته ، رحمه الله .

وفي صبيحة هذه الليلة أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر ، قد أخذوه من أمه وسرقوه .

ذكر قصّة الرَّضيع [1]

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدوّ فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له [126 ظ] ثلاثة أشهر ، وساروا به حتى أتوا به إلى خيمة السُّلطان - رحمه الله - وعرضوه عليه . وكان كلّ ما يأخذونه يعرضونه عليه ، فيخلع عليهم ويعطيهم ما أخذوه .

ولما فقدته أمّه باتتْ مستغيثةً بالويل والثُّبور في طول تلك الليلة ، حتى وصل خبرُها إلى ملوكهم ، فقالوا لها : «إنه رحيمُ القلب ، وقد أذنّا لكَ في الخروج

(1) هذه إحدى أروع فقرات الكتاب ، كنّا كلّما قرأناها فاضت بالدّمع أعيننا المرّة تلو المرّة .

إليه ، فاخرجي واطلبيه منه ، فإنه يردّه عليك» . فخرجت تستغيث إلى اليَزَك الإسلامي ، فأخبرتهم بواقعتها بترجمان كان يترجم عنها ، فأطلقوها وأنفذوها إلى السُّلطان .

فأتَتْه وهو راكبٌ على تلّ الخَرّوبة ، وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم ، فبكَتْ بُكاءً شديداً ، ومرّغت وجهها في التراب . فسأل عن قصتها ، فأخبروه ، فرقّ لها ، ودمعتْ عينُه ، وأمر بإحضار الرضيع ، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق ، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري ، وأخذه منه . ولم يزل واقفاً – رحمة الله عليه – حتى أُحضر الطفل ، وسلَّم إليها [1] . فأخذته وبكَتْ بُكاءً شديداً وضمّته إلى صدرها ، والناس ينظرون إليها ويبكون ، وأنا واقفٌ في جُملتهم ، فأرضعته ساعة . ثم أمَرَ بها ، فحُملت على فرس ، وأُلحقت بعسكرهم مع طفلها .

فانظر إلى هذه الرَّحمة الشاملة لجنس البشر . اللّهم ، إنك خلقته رحيماً فارحمه رحمة واسعة من عندك ، يا ذا الجلال والإكرام . فانظر إلى شهادة الأعداء له بالرقة والكرم [127 و] والرأفة والرحمة .

ومليحةٌ شَهدتْ لها ضَرَّاتُها   والحُسنُ ليسَ لحقّه من ناكر

* * * * *

وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدِّين بن البُلْنْكَري ، وكان مقدّماً عظيماً من أمراء الموصل ، وصل مفارقاً لهم طالباً خدمة السُّلطان – رحمة الله عليه – ولما عاد السطان إلى مخيمه لم يمكث إلا ساعة حتى وصله الخبر بتجديد الزَّحف على عكّا ، فعاد وركب من ساعته ، وسار نحو البلد ، فوصل وقد انفصل الحرب بدخول الليل بين الطائفتين .

---

(1) هذا هو العملاق الناصر ، الرّجل الشهم البطل الكريم ، فأين منه باقي الرجال ؟

ذكر انتقال السُّلطان – رحمه الله – إلى تلّ العَيَّاضيّة [1]

ولما كان صبيحة الثلاثاء تاسع جُمادى الأولى ، بلغ السُّلطانَ – رحمة الله عليه – أن الفرنج قد ضايقوا البلد ، وركّبوا عليه المناجيق ، فأمر الجاووش أن صاح بالناس ، وركب لركوبه العسكر : راجلهم وفارسهم ، وسار حتى أتى الخرّوبة ، وقوّى اليَزَك بتسييره جماعة من العسكر المنصُوْر إليه .

فلم يخرج العدوّ ، واشتدّ زحفهم على البلد ، فضايقهم – رحمه الله – مضايقة عظيمة حتى قاتلهم قتالاً شديداً ، وهجم عليهم في خنادقهم ، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزَّحف ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور ، وعاد العدوّ إلى خيمه ليأسه من أمر البلد .

وعاد السُّلطان – رحمة الله عليه – إلى خيمة لطيفة ضُربت له هناك ، يستظلّ بها من الشمس ، فنزل لصلاة الظهر والاستراحة ساعة ، وقوّى اليَزَك ، وأمر الناس بالعود إلى المخيَّم لأخذ جزء من [127 ظ] الراحة . وكنتُ في خدمته – رحمه الله – فبينما هو كذلك إذ وصل من اليَزَك مَنْ أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزَّحف لما أحسُّوا بانصرافه عنهم أشدّ ما كانوا أولاً ، فأمَرَ مَنْ تبع الناس وأمرهم بالعَوْد ، فتراجعت العساكر إلى جهة العدوّ المخذول أطلاباً أطلاباً ، وأمرهم بالمبيت على أخذ لأمة الحرب ، وأقام هو هناك على عزم المبيت .

وفارقتُ خدمته آخر نهار الثلاثاء ، وعُدتُ إلى الخيمة ، وبات هو – رحمه الله – وجميع العسكر على تعبئة القتال طول الليل ، وأمرَ طائفة منهم بمضايقة العدوّ .

---

(1) تل العيّاضية : ذكره المؤلف آنفاً بكتابه هذا (ص 197) : تلّ العيّاضيّة وهو تلّ قبالة تلّ المصلّبين ، مشرف على عكّا .

ثم سار العسكر أواخر ليلة الأربعاء عاشر جُمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وخمسمائة إلى تلّ العَيَّاضيّة ، قبالة العدوّ ، وضُربت له عليه خيمة لطيفة ، وأمر الناس أن ينزلوا على التلّ حوله على العادة في منازلهم العام الماضي ، لكن جرائد ، مع بقاء الثَّقْل على الخرّوبة [1].

ونازل العدوّ في ذلك اليوم أجمع بالقتال الشديد ، والضرب المبرح المتواتر ، الذي لا يفتر ، شغلاً لهم عن الزَّحف على البلد من جميع جوانبهم ، وهو بنفسه – رحمه الله – يدور بين الأطلاب ، ويحثّهم على الجهاد ويرغّبهم فيه ، كل ذلك لشغل العدوّ عن مضايقة البلد .

ولما رأى العدوّ تلك المنازلة العظيمة ، والملازمة الهائلة ، خاف من الهجوم على خيمهم ، فتراجعوا عن الزَّحف ، واشتغلوا بحفظ الخنادق ، وحراسة الخيم . ولما [128 و] رأى فتورهم عن الزَّحف ، عاد إلى خيمه في تلّ العَيَّاضيّة ، ورتّبَ على خنادقهم مَنْ يخبره بحالهم ساعة فساعة ، إذا رجعوا إلى الزَّحف [2]. كل ذلك والعدوّ على إصراره في مضايقة البلد والزَّحف عليه .

ذكر الشروع في مضايقة البلد

وقد بلغ من مضايقتهم البلد ، ومبالغتهم في طمّ خندقه ، أنهم كانوا يُلقون فيه موتى دوابهم بأسرها ، وآل الأمر حتى كان يلقون فيه موتاهم ، وقالوا : كان إذا جُرح منهم واحد جراحة مُؤْيِسَة مُثْخَنَة ألقوه فيه .

بهذا جميعه تواصلت كتب أصحابنا من البلد .

---

(1) في طبعة مصر : كل ذلك دفعاً للعدو عن مضايقة البلد والزَّحف عليه .
(2) هذه الفقرة ساقطة من طبعة مصر .

وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساماً : قسم ينزلون إلى الخندق ، ويقطّعون الموتى والدّواب التي يلقونها فيه قطعاً ، ليسهل نقلها ، وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبّون عنهم ويدفعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار .

وأخذ منهم التعب والنَّصَب ، وتواترت شكايتهم من ذلك ، وهذا ابتلاء لم يُبْلَ بمثله أحد ، ولا يصبر عليه جَلد ، وكانوا يصبرون ، والله مع الصَّابرين . هذا والسُّلطان - رحمة الله عليه - لاَ يقطع الزَّحف عنهم ، والمضايقة على خناقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً حتى يشغلهم عن البلد .

وصوّبوا منجنيقاتهم إلى برج عين البقر ، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلاً ونهاراً حتى أثّرت فيه الأثر البيّن ، وكلما [128 ظ] ازدادوا في قتال البلد ازداد السُّلطان في قتالهم ، وكبس خنادقهم ، والهجوم عليهم ، حتى خرج منهم شخص يطلب من يتحدّث معه ، فلما أُخبر السُّلطان بذلك قال : «إن كان لكم حاجة فليخرج منكم واحدٌ يحدّثنا ، فأمّا نحن فليس لنا إليكم شُغلٌ» .

ودام ذلك متّصلاً اللَّيل مع النهار حتى وصل الأنكتار .

ذكر وصول ملك الأنكتار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر جُمادى الأولى ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، قدم ملك الأنكتار [1] الملعون بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها .

وكان لقدومه روعة عظيمة ، وصل في خمسة وعشرين شانياً مملوءة بالرجال والسِّلاح والعدد ، وأظهر الفرنج سروراً عظيماً بقدومه وفرحاً شديداً ، حتى أنهم

(1) أي ريتشارد قلب الأسد ، كما ذكرنا قبل صحائف يسيرة .

أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة في خيامهم فرحاً به ، ولقد كانت تلك النّيران مهولة عظيمة ، تدل على نجدة عظيمة كثيرة ، وكان ملوكهم يتواعدونا به [1] . وكان المستأمنون [2] منهم يخبرون عنهم أنهم متوقفون بما يريدون يفعلونه من مضايقة البلد إلى حين قدومه ، فإنه ذو رأي في الحرب مجرّب [3] .

وأثّر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة ، هذا والسُّلطان – رحمة الله عليه – يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والاتكال على الله تعالى ، ومَنْ يتوكل على الله فهو حسبه .

ذكر غريق البُطْسَة الإسلامية

وهي العلامة الثالثة على أخذ البلد .

ولما كان السادس عشر من جُمادى الأولى من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وصلت بُطْسَة من بَيْرُوت ، عظيمة هائلة ، مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال الأبطال المقاتلة . وكان السُّلطان – رحمه الله – قد أمر بتعبئتها في بَيْرُوت وتسييرها ، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً ، حتى تدخل إلى البلد مراغمة للعدو ، وكان عدّة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً .

---

(1) الواقع أنه قدم في ذلك الحين كل من الملكين فيليپ أوگست وريتشارد ، وكانت تلك بداية الحملة الثالثة ، كما قدّمنا القول .

(2) ذكرنا أن المستأمنين هم من المسيحيين اللاتين ، المتعاونين مع المسلمين ضد الصّليبيين .

(3) هذا ما جرى بالفعل ، وعكّا لم تسقط إلا عند مجيء ريتشارد وقيادته لعمليات الحصار . حتى أن خطّ المعارك الحربية في عام 1191 م تغيّر برمّته عند مجيئه ، فمُني المسلمون بعدّة كسرات على يديه في العام ذاته ، في عكّا أولاً ، ثم أرسوف وبعدها يافا ، ثم لم يُحرزوا عليه نصراً مُبيناً إلى أن كان صلح الرّملة . ويعزو مؤرخو الغرب ذلك إلى تقدّم صلاح الدّين في العمر ، مما أفقده شيئاً من نشاطه ومضائه ، وتدهور صحّته . غير أن الهمّ الأكبر لصلاح الدّين كان الحفاظ على بيت المقدس ، التي بقيت فعلاً بأيدي المسلمين ما بعد نصر حطّين على الدوام ، ما خلا فترة بسيطة بين 1229–1244 م .

فاعترضها الأنكتار الملعون في عـدّة شـوان ، قيـل كـان في أربعـين قُلعاً ، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها ، واشتدّوا في قتالها . وجرى القضاء بأن وقف الهواء ، فقاتلوها قتالاً عظيماً ، وقُتل من العدوّ عليها خلق عظيم ، وأحرقوا على العدوّ شانياً كبيراً فيه خلق ، فهلكوا عن آخرهم .

وتكاثروا على أهل البُطْسَة ، وكان مقدّمهم رجلاً جيداً شجاعاً ، مجرَّباً في الحرب ، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم ، ورأى أنهم لابدّ وأن يُقتلوا ، قال : «والله لا نُقتل إلا عن عزّ ، ولا نُسلم إليهم من هذه البُطْسَة شيئاً» . فوقعوا في البُطْسَة من جوانبها بالمعاول يهدمونها ، ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبواباً ، فامتلأت ماءً ، وغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير وغير ذلك ، ولم يظفر العدوّ منها بشيء أصلاً . وكان اسم المقدّم [129 ظ] يعقوب ، من رجال حلب ، رحمه الله [1] .

وتلقّف العدوّ بعض مَنْ كان فيها ، وأخذوه إلى الشواني من البحر ، وخلّصوه من الغرق ، ومثّلوا به ، وأنفذوه إلى البلد ليُخبرهم بالوقعة . وحزن الناس لذلك حزناً شديداً ، والسُّلطان - رحمة الله عليه - يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله تعالى ، والصبر على بلائه ، والله لا يُضيع أجر المحسنين .

ذكر حريق الدبّابة

وذلك أن العدوّ المخذول كان قد اصطنع دبّابة عظيمة هائلة ، بأربع طبقات : الطبقة الأولى من الخشب ، والثانية من الرّصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النُّحاس ، وكانت تعلو على السُّور ، وتركب فيها المقاتلة . وخاف أهل البلد

(1) لا ريب أن هذه الأخبار البطوليّة لا تشعرنا اليوم بالفخر بقدر ما تشعرنا بالخجل ، فأين نحن في عصرنا من أمثال أولئك الرّجال ؟ ! فلنتخيّل موضع يعقوب هذا واحداً من أهل عصرنا الذين لا فخر لهم إلا بالمال ولا اعتزاز إلا بالتجارة . . يا للعار .

منها خوفاً عظيماً ، وحدّثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدوّ ، وكانوا قد قرّبوها من السُّور بحيث لم يبق بينها وبين السُّور إلا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد برأي العين .

وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها ليلاً ونهاراً بالنفط ، حتى قدّر الله حريقها واشتعال النار فيها ، وظهر لها ذؤابة نار نحو السماء ، واشتدّت الأصوات بالتكبير والتهليل ، ورأى الناس ذلك جبراً لذلك الوهن ، ومحواً لذلك الأثر ، ونعمةً بعد نقمة ، وإيناساً بعد يأس ، وكان ذلك في يوم غريق البُطْسَة ، فوقع من المسلمين موقعاً وكان مسلّياً لحزنهم وكآبتهم .

[130 و] ذكر وقعات عدّة

ولما كان يوم الجمعة تاسع عشر جُمادى الأولى ، زحف العدوّ على البلد زحفاً عظيماً ، وضايقوه مضايقةً شنيعة ، وكان قد استقرّ بيننا وبينهم أنه متى زحف العدوّ عليهم دقّوا كُوسهم ، فضربوا كُوسهم ، فأجابه كُوس السُّلطان - رحمه الله - وركبت العساكر وضايقهم السُّلطان - رحمه الله - من خارج ، وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم في خيامهم ، وتجاوزوا خنادقهم ، وأخذوا القدور من أثافيها . وحضر من الغنيمة المأخوذة من خيامهم شيء عند السُّلطان - رحمة الله عليه - وأنا حاضرٌ .

ولم يزل القتال يعمل ، حتى أيقن العدوّ أنه قد هُجم عليه وأُخذ ، فتراجعوا عن قتال البلد ، وشرعوا في قتال العسكر ، وانتشب الحرب بينهم . ولم تزل ناشبة حتى قام قائم الظهيرة ، وغشي الناس من الحرّ أمر عظيم من الجانبين ، فتراجعت الطائفتان إلى خيامهم ، وقد أخذ منهم التعب والحرّ ، وانفضّ القتال في ذلك اليوم .

وقعة أخرى [1]

ولما كان يوم الإثنين ثالث عشرين جُمادى الأولى سنة سبع وثمانين ، دقّ كُوس البلد فجاوبه كُوس السُّلطان - رحمه الله - وثار القتال بين الطائفتين ، ولجَّ العدوّ في مضايقة البلد ثقةً منه أن الناس لا يهجمون على خيمهم ، وأنهم يهابونها ، فكذّب العسكر ظنونهم وهجموا الخيم أيضاً ونهبوا منها ، [130 ظ] فتراجع العدوّ إلى قتالهم ، ووقع الصائح فيهم ، فلحقوا جماعة من المسلمين عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم ، وجرى بينهم وقعة عظيمة قُتل فيها اثنان من المسلمين وجُرح جماعة ، وقُتل جماعة من العدوّ .

وأعجب ما في هذه الوقعة ، أنه كان وصل في ذلك اليوم رجل كبير مذكور من أهل مازندران يريد الغزاة ، فوصل والحرب قائمة ، فلقي السُّلطان ، واستأذنه في الجهاد ، وحمل حملة عظيمة استُشهد فيها - رحمه الله - في تلك الساعة .

ولما رأى العدوّ دخول المسلمين إلى خنادقهم وتوغلهم إلى داخل أسوارهم ، حرّكتهم الحميّة ، وبعثتهم النخوة ، فركب فارسهم صحبة راجلهم ، وخرجوا إلى ظاهر أسوارهم ، وحملوا على المسلمين حملة الرّجل الواحد ، فثبت المسلمون لهم ثبوتاً عظيماً لم يتحركوا عن أماكنم ، والتحم القتال من الجانبين ، واشتدّ الضرب من الطائفتين ، فصبر المسلمون صبر الكرام ، ودخلوا في الحرب باقتحام .

فلما رأى العدوّ ذلك الصبر المُعجز ، والإقدام المزعج ، أنفذ رسولاً في غضون ذلك ، فاستؤذن له في الوصول ، فأذن له فوصل الرّسول أولاً إلى الملك العادل - رحمه الله - فاستصحبه ، ووصل به إلى الخدمة السُّلطانية ، ومعه أيضاً الملك الأفضل ، فأدّى الرسالة ، وكان حاصلها : أنَّ ملك الأنكتير يطلب الاجتماع بالسُّلطان .

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

فلما سمع السُّلطان – رحمة الله عليه – تلك الرسالة أجاب عنها في الحال من غير[131 و] تفكّر ولا تروٍّ ، بأن قال : «الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، وإذا أراد ذلك فلابدّ من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولابد من ترجمان نثق فيه في الوسط ، يُفْهِم كلٌّ واحد منا ما يقول الآخر ، فليكن الرّسول بيننا ذلك التّرجمان ، فإذا استقرّت القاعدة وقَع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى» .

وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت ثامن عشري جُمادى الأولى ، خرج العدوّ راجلهم وفارسهم على المسلمين من جانب البحر شمالي البلد [1] ، وعلم السُّلطان – رحمه الله – ذلك ، فركب وركب العسكر . وانْتَشَبَ القتال بين الطائفتين ، وقُتل من المسلمين بدوي وكردي ، وقُتل من العدوّ جماعة ، وأسروا واحداً بلبسه وفرسه ، ومثل بين يدي السُّلطان – رحمه الله . ولم يزل القتال يعمل حتى حال الليل بين الطائفتين .

وقعة أخرى

ولّما كان الأحد تاسع عشري جُمادى الأولى ، خرج من العدوّ رَجَّالة كثيرة على شاطئ النهر الحلو ، فلقيهم طائفة من اليَزَك وجرى بينهم قتال عظيم ، ووصلت رَجَّالة من المسلمين ، والتحم الحرب فأسروا مسلماً ، وقتلوه وأحرقوه ، وأسر المسلمون منهم واحداً فقتلوه وأحرقوه .

---

(1) يريد عكّا ، التي طال حصارها منذ عام 586 هـ ، حتى سقطت في 17 جُمادى الثاني من عام 587 هـ ، الموافق لـ 21 تموز سنة 1191 م ، كما سيمرّ أدناه .

ولقد رأيتُ النارين تشتعلان في زمان واحد .

ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد باستفحال أمر العدوّ ، والشكوى من ملازمتهم [131 ظ] قتالهم ليلاً ونهاراً ، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الأنكتير الملعون .

ثم مرض مرضاً شديداً أشفى فيه على الهلاك ، وجُرح الإفرنسيس ، ولا يزيدهم ذلك إلا إصراراً وعُتُوّاً .

ذكر هرب خادمين للملك

وكان من حديثهما أنهما كانا لأخت ملك الأنكتير [1]، وكانا مُسلمَيْن في الباطن ، لأن إقامتهما كانت في صقلية في خدمة صاحبها ، وكانت هي زوجة صاحب صقلية ، فلما مات ومرّ أخوها بالبلد أخذها وصحبها معه إلى العسكر ، ولما وصل الخادمان إلى العسكر ، وقاربا المسلمين هربا إلى العسكر الإسلامي ، وقبلهما السُّلطان - رحمه الله - وأنعم عليهما إنعاماً عظيماً .

* * * * *

(1) قول المؤلف بالعربية : «الأنكتير» أقرب إلى صواب نطقها من «الأنكتار» كما كان يذكر أعلاه ، فالكلمة منقولة عن اللغة الفرنسية : le Roi d'Angleterre «لوروا دانگلتير» ، أي ملك إنكلترا . وكنا ذكرنا أن السبب في كتابتها «الأنكتار» هو أن من ترجمها للعربية كان غالباً بعض من يتحدّث الفرنسية من أبناء ساحلنا ، فلمّا كانت الألف لديهم تُنطق مُمالة - كما في طرطوس أو بيروت - فقد ظنّها من نقلها بالكتابة ألفاً مُمالة ، وهي ليست كذا بل ياء ممالة ، كان الأولى تركها ياءً . وإلى يومنا نرى الأسماء الأجنبية تُكتب في لبنان بطريقة عجيبة ومضحكة : پيار ، جيزال ، ميشال !

ذكر هرب المَرْكيس إلى صُوْر

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جُمادى الأولى ، قوي استشعار المَرْكيس من أنه إن أقام قبضوا عليه ، وأعطوا صُوْر للملك القديم [1] ، الذي كان قد أسره السُّلطان – رحمه الله – لما عاناه من الأسر في نصرة دين المسيح . فلما صحّ ذلك عنده هرب إلى صُوْر ، وأنفذوا خلفه قسوساً ليردّوه ، وسار في البحر حتى أتى صُوْر ، وشقّ ذلك عليهم وعظم لديهم فإنه كان ذا رأي وشجاعة وخبرة .

ذكر قدوم بقية عساكر المسلمين

ولما كان يوم الثلاثاء سلخ جُمادى الأولى ، قدم فيه عسكر سنْجَار يقدمه مجاهد الدِّين [132 و] يرنقش ، فلقيه السُّلطان – رحمه الله – واحترمَه وكان ديِّناً عاقلاً محباً للغزو . وأنزله السُّلطان – رحمه الله – في المَيْسَرة ، بعد أن كرّمه وأنزله في خيمته ، وفرح بقدومه فرحاً شديداً في ذلك الوقت .



(1) أي گي دي لوزينيان . وفي غضون الحملة الصَّليبية الثالثة ، اشتجر النزاع على تاج «مملكة القُدْس» ، أو لنقل بالأحرى عكّا ، ما بين الملك السابق گي دى لوزينيان ، الذي يعضده الملك ريتشارد قلب الأسد ، وبين المركيز كونراد دى مونفيراً سيّد صور ، الذي كان يحظى بدعم الملك فيليپ أوگست خصم ريتشارد اللدود . ولمّا وقف البارونات الصَّليبيون من گي موقف العداء (حيث لم يغفروا له ما قد جنته يداه في كارثة حطّين) ، فقد عوّضه ريتشارد بجزيرة قبرص (عام 1192 م) . في أثناء ذلك ، خلا السبيل للمركيز كونراد دى مونفيراً ، الذي كان قد تزوّج من الوريثة الأخيرة لأسرة القُدْس الحاكمة ، وهي الأميرة إيزابيل Isabelle ، فأعلن ملكاً ؛ ولكن القدر لم يمهله ، فقد لقي مصرعه مغتالاً في صور بدسّ من ريتشارد كما يبدو (في 28 نيسان 1192 م) . ثم بعده تم تنصيب الكونت هنري دى شامپانيا (الذي يذكره ابن شدّاد باسم الكُنْدُهري) ملكاً للقدس (أي عكّا طبعاً) بين 1192–1197 م ، بعد أن تزوّج من إيزابيل ذاتها .

ثم قدم بعد ذلك قطعةً عظيمة من عسكر مصر المحروسة كعَلَم الدِّين كُرْجي ، وسيف الدِّين سُنْقُر الدَّوَادار ، وجماعة كثيرة . ثم قدم بعد ذلك علاء الدِّين ابن صاحب المَوْصل في عسكره ، فلقيه السُّلطان - رحمة الله عليه - بالخرّوبة ، ونزلوا هنا إلى بكرة الغد من اليوم الثاني ، من شهر جُمادى الآخر من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

وأصبح سائراً حتى أتى بجحفله قبالة العدوّ ، فعرض عسكره هناك ، وأنزله السُّلطان - رحمه الله - في خيمته ، وحمل له من التحف ، وقدّم له من اللّطائف [1] ما يليق بكرمه ، وأنزله في المَيْمَنَة .

وفي يوم الجمعة ثالث جُمادى ، قدمت طائفة من عسكر مصر أيضاً ، واشتدّ مرض الأنكتير بحيث شغل الفرنج مرضه وشدّته عن الزَّحف ، وكان ذلك خيرةً عظيمة من الله تعالى ، فإن البلد كان قد ضعف مَن فيه ضعفاً عظيماً ، واشتدّ بهم الخناق شدّة عظيمة ، وهدمت المنجنيقات من السُّور مقدار قامة الرّجل .

هذا ، واللُّصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ، ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم ، ويأخذون الرِّجال في عافية ، [132 ظ] بأن يجيئوا إلى الواحد وهو نائمٌ فيضعوا السِّكين على حلقه ويوقظوه ، ويقولون [2] له بالإشارة : «إن تكلّمتَ ذَبَحْناك !» ، ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين . وجرى ذلك مراراً كثيرة .

وعساكر المسلمين تجتمع ويتواتر وصولها من كل جانب ، حتى تكامل وصولُها .

* * * * *

---

(1) اللّطائف هي الهدايا والتّقدمات .

(2) يورد المؤلف عدّة أفعال معطوفة ، بصيغة المضارع بعد «أن» الناصبة ، فينصب بعضها ثم يترك البعض الآخر مرفوعاً . غير أننا تركنا عبارته كما هي ، لم نغيّرها .

ذكر خروج رُسُلهم إلى السُّلطان

رحمه الله

كنتُ قد ذكرتُ خروج رسول منهم يلتمس من جانب الأنكتار أنه يجتمع بالسُّلطان ، وذكرتُ عُذر السُّلطان عن ذلك ، وانقطع الرّسول وعاد معاوداً في المعنى ، وكان حديثه مع الملك العادل - رحمه الله - ثم هو يلقيه إلى السُّلطان ، رحمه الله . فاستقرّ بالآخرة أنه رأى أن يأذن له في الخروج ، ويكون الاجتماع في المرج ، والعساكر محيطة بهما ، ومعهما ترجمان .

فلما أذن في ذلك تأخر الرّسول أياماً عدّة ، يحمل تأخّره على مرضه ، واستفاض أن ملوكهم اجتمعوا إليه ، وأنكروا عليه ذلك ، وقالوا : «هذه مخاطرةٌ بدين النَّصْرانية» . ثم بعد ذلك وصل رسوله يقول : «لا تَظُنّنَّ تأخُّري بسبب ما قيل ، فإن زمام قيادي مفوض إليّ وأنا أحكم ولا يُحكم [عليّ] ، غير أنّي في هذه الأيام اعترى مزاجي الّتياثٌ ، منعني من الحركة ، فهذا كان العُذر في التأخير لا غير ، وعادة الملوك إذا تقاربتْ منازلُهم أن يتهادوا ، [133 و] وعندي ما يصلح للسُّلطان ، وأنا أستخرج الإذن في إيصاله إليه» .

فقال له الملك العادل : «قد أذن لك في ذلك ، بشرط قبول المجازاة على الهدية» . فرضي الرّسول بذلك وقال : «الهدية شيء من الجوارح قد جُلبت من وراء البحر ، وقد ضَعُفَتْ ، فيحسُن أن يُحمل إلينا طيرٌ ودجاجٌ حتى نُطعمها فتقوى ونحملها» . فداعبه الملك العادل - رحمه الله - وكان فقيهاً فيما يُحدّثهم به ، وقال : «الملكُ قد احتاج إلى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منّا بهذه الحجّة ؟» .

ثم انفصل حديث الرسالة بالآخرة على أن قال الرّسول : «ما الذي أردتم منا ؟ إن كان لكم حديثٌ فتحدّثوا به حتى نسمع» ، فقيل له : «عن ذلك نحن ما طلبناكم ، أنتم طلبتمونا ، فإن كان لكم حديثٌ فتحدّثوا به حتى نسمعه» .

وانقطع حديث المراسلة إلى يوم الإثنين سادس جُمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فخرج رسول الأنكتار الملعون إلى السُّلطان - رحمة الله عليه - ، ومعه إنسان مغربي قد أسروه من مدّة طويلة ، وهو مُسلم قد أهداه إلى السُّلطان - رحمه الله - ، فقبله ، وأحسن إليه ، وأطلقه ، وأعاد الرّسول مشرّفاً مكرّماً إلى صاحبه ، وكان غرضهم بتكرار الرسائل تعرُّف قوّة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرُّف ما عندهم من ذلك أيضاً [1] .

[133 ظ] ذكر خبر قوّة زحفهم على البلد ومضايقته

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب ، ويثقلوا [2] أحجارها ، واختصروا من القتال على هذا القدر ، حتى خلخلوا سور البلد ، وأضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسَّهر أهل البلد لقلّة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدّة لا ينامون أصلاً ، لا ليلاً ولا نهاراً ، والخلق الذين عليهم عددٌ كثير يتناوبون على قتالهم ، وهم نفرٌ يسيرٌ قد تقسّموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسُّفُن . ولم يزل الضرب بالمنجنيقات ، حتى تخلخل السُّور وتقلقل بنيانُه .

ولمّا أحسَّ العدوّ بذلك ، شرعوا في الزَّحف من كل جانب ، وانقسموا أقساماً ، وتناوبوا فرقاً ، كلّما تعب قسم استراح ، وقام غيره مقامه . وشرعوا في ذلك شُرُوعاً عظيماً براجلهم وفارسهم ، وذلك في يوم الثلاثاء سابع جُمادى الآخر ، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرَّجَّالة والمقاتلة ليلاً ونهاراً .

(1) هنا ينبغي الإشارة إلى أن السلطان لم يلتق ريتشارد البتّة ، بخلاف الشائع لدى البعض .
(2) في طبعة مصر : وتنقلوا .

فلمّا علم السُّلطان ذلك بأخبار من شاهده ، وإظهار العلامة التي بيننا وبين البلد ، وهي دقّ الكُوس ، ركب وركب العسكر بأسرهم [1] ، وجميع الرَّاجل والفارس ، ووَعَدَهُم ورَغَّبهم ، وزحف على خنادق القوم ، حتى دخل فيها العسكر عليهم [2] .

وجرى في ذلك اليوم [134 و] قتالٌ عظيم من الجانبين ، وهو – رحمه الله – كالوالدة الثَّكلى يتحرّك بفرسه من طُلْب إلى طُلْب ، ويحثُّ الناس على الجهاد . ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه دفعتين في ذلك اليوم ، والسُّلطان – رحمه الله – يطوف بين الأطلاب وينادي بنفسه : «يا للإسلام» ، وعيناه تذرفان بالدّمع ، وكلّما نظر إلى عكّا وما حلّ بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المُصاب العظيم ، اشتدّ في الزَّحف والحثّ على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتَّة ، وإنما شرب أقداح مشروب كان يُشير بها الطبيب [3] .

وتأخرتُ عن حضور هذا الزَّحف ، لما عراني من مرض شوَّش مزاجي ، فكنتُ في الخيمة في تل العَيَّاضيّة ، وأنا أشاهد الجميع . ولما هجم الليل ، عاد – رحمه الله – إلى الخيمة بعد عشاء الآخرة ، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ، فنام لا عن غفو .

ولما كان سَحَر تلك الليلة أمر الكُوس أن دقّ ، وركبت العساكر من كل جانب ، وأصبحوا على ما أمسوا عليه .

وفي ذلك اليوم ، وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : «إنا قد بلغ منا العجزُ إلى غاية ما بعدها إلا التّسليم ، ونحن في الغد – يعني ثامن جُمادى الآخرة – إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ، ونسلّم البلد ، ونشتري مجرد رقابنا» .

---

(1) في طبعة مصر : إليهم .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(3) نالت أعباء الجهاد ومتاعبه من صحّة صلاح الدِّين ، وبعد سنتين يتوفى عن 57 عاماً .

وكان هذا أعظم خبر وَرَدَ على المسلمين وأنكاه في قلوبهم ، فإن عكّا [134 ظ] كانت قد احتوت على جميع سلاح السّاحل والقُدْس ودمشق وحلب ومصر أيضاً ، وجميع البلاد الإسلامية ، واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام ، كسيف الدِّين المشطوب ، وبهاء الدِّين قَرَاقُوش ، وغيرهما ؛ وكان بهاء الدِّين قَرَاقُوش مُلزماً بحراستها منذ نزل العدوّ المخذول عليها .

وأصاب السُّلطان – رحمه الله – من ذلك ما لم يصبه بشيء غيره ، وخيف على مزاجه التشوّش ، وهو لا يقطع ذكر الله ، والرجوع إليه في جميع ذلك ، صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً ، و ﴿الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ . فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم ، فصاح في العساكر الإسلامية الصائح ، وركبت الأطلاب واجتمع الراجل والفارس ، واشتد الزَّحف في ذلك اليوم ، ولم يساعد العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدوّ ، فإن الرَّجَّالة من الفرنج وقفوا كالسُّور المُحكم البناء بالسِّلاح والزَّنْبُورك والنُّشَّاب ، من وراء أسوارهم ، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم ، فثبتوا وذبُّوا غاية الذَّبّ .

وقد حكى بعض من دخل عليهم أسوارهم ، أنه كان هناك راجل واحد إفرنجي ، وأنه صعد سور خندقهم ، واستدبر للمسلمين ، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة ، وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم ، وقال إنه وقع فيه زُهاء خمسين سهماً وحجراً وهو يتلقّاها ، [135 و] ولا يمنعه ذلك عمّا هو بصدده من الذَّبّ والقتال ، حتى ضربه زرَّاقٌ مُسلمٌ بقارورة نفط فأحرقه .

ولقد حكى لي شيخ عاقل جندي أنه كان من جُملة من دخل ، قال : «وكان داخل سورهم امرأة عليها مُلُوطة خضراء ، فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى جرحت منا جماعة ، وتكاثرنا عليها ، وقتلناها ، وأخذنا قوسها وحملناه إلى السُّلطان – رحمه الله – فعجب من ذلك عجباً عظيماً» . ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين إما قتلاً وإما جرحاً ، حتى فَصَلَ الليل بين الطائفتين .

ذكر ما آل أمر البلد إليه من الضعف
ووقوع المراسلة بين أهل البلد والفرنج

ولما اشتدّ زحفهم على البلد ، وتكاثروا عليه من كل جانب وتناوبوا عليه ، وقلّت رجال البلد وخيّالته ، بكثرة القتل منهم ، وقلّة البدل الذي يدخل إليهم ، ضعفت نفوس أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك ، واستشعروا الضعف والعجز عن الدَّفع ، وتمكّن العدوّ من الخنادق فملأوها ، وتمكّنوا من سُور البلد الباشورة ، فنقبوه وأشعلوا فيه النار بعد حشو النقب ، ووقعت بَدَنَة من الباشورة .

ودخل العدوّ إلى الباشورة ، وقُتل منهم فيها زُهاء مائة وخمسين نفراً وصاعداً عن ذلك ، وكان منهم ستة أنفس من [135 ظ] كبارهم ، فقال لهم واحد [منهم] : «لا تقتلوني حتى أُرحِّل الفرنج عنكم بالكلّيّة» ، فبادر رجل من الأكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية . وفي الغد ناداهم الفرنج : «احفظوا الستة ، فإنا نُطلقكم كلُّكم بهم» ، فقالوا : «قد قتلناهم» . فحزن الفرنج لذلك حُزناً عظيماً ، وأبطلوا الزَّحف بعد ذلك أياماً ثلاثة [1] .

وبَلَغَنَا أن سيف الدِّين المشطوب خرج بنفسه إلى ملك الفرنسيس ، وهو كان مقدّم الجماعة في المرتبة [2] ، خرج إليه بأمان وقال : «إنّا قد أخذنا منكم بلاداً عدّة ، وكنا نهجم البلد وندخل فيه ، ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وأكرمناهم ، ونحن نسلِّم البلد ، وتعطينا الأمان على أنفسنا» . فأجابه بأن «هؤلاء الملوك الذين أخذتموهم منّا ، وأنتم أيضاً مماليكي وعبيدي ، فأرى فيكم رأيي» .

---

(1) حول هذا الموضوع راجع كتاب رنيه گروسّيه المذكور أدناه . وسنرى كيف أن الصَّليبيين سيثأرون لقتلاهم بإعدام جميع سكان عكّا المسلمين عن بُكرة أبيهم . انظر :
Grousset, R.: *Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem.*

(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

ويلغنا بعد ذلك أن المشطوب أغلظ له في القول ، وقال أقاويل كثيرة في ذلك المقام ، منها : «إنّا ما نسلِّم البلد حتى نُقتل بأجمعنا ، ولا يُقتل واحد منّا حتى يَقتُل خمسين نفساً من كباركم»[1] . وانصرف عنه .

ولمّا دخل المشطوب البلد بهذا الخبر ، خاف جماعة ممن كان في البلد ، فأخذوا لهم بَرْكُوساً ، وهو مركب صغير[2] ، وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الإسلامي ، وذلك في ليلة الخميس التاسع من جُمادى الآخرة سنة سبع وثمانين[2] ، وكان فيهم من المعروفين [136 و] أرسك ، وابن الجاولي الكبير ، وسُنْقُر الوشاقي ؛ فأما أرسك وسنقر فإنهما لمّا وصلا العسكر المنصور تغيّبا ، ولم يُعرف لهما مكان ، خشيةً من نقمة السُّلطان ، وأما ابن الجاولي فإنه ظُفر به ورُمي به في الزَّرَدْخَاناه .

وفي سَحْرة تلك الليلة ، ركب السُّلطان - رحمه الله - مُشعراً أنه يريد كبس القوم ، ومعه المَسَاحي وآلات طمّ الخنادق ، فما ساعده العسكر على ذلك[3] ، وتخاذلوا عن ذلك ، وقالوا : « نُخاطر بالإسلام كلّه ، ولا مصلحة في ذلك» .

وفي ذلك اليوم ، خرج من الأنكتار رسلٌ ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجاً ، وذكروا أن مُقدَّم الإسبتاريّة يخرج في الغد - يعني الجمعة - يتحدَّث ويتحدّثون معه في معنى الصُّلح ، غير أن السُّلطان - رحمة الله عليه - أكرمهم ، ودخلوا سوق العسكر ، وتفرّجوا فيه ، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم .

---

(1) حيّا الله المشطوب وإباءه ، الذي لم يتلعثم أمام ملك فرنسا ولم يهن ، برغم ضعف عكّا والكثرة الغامرة للأعداء حولها . ألا هكذا فلتكن الرجال !

(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(3) تُجمع المصادر الأوروبية على أن سقوط عكّا كان ناجماً عن سببين : أولاً ، الضخامة الهائلة لقوات الصّليبيين المتحالفة ، القادمة من أنحاء فرنسا وإيطاليا وألمانيا وإنكلترا . ثانياً ، تقاعس بعض قوّات صلاح الدِّين وعدم التزامها بأوامره - وهذا ما يؤيّده نصّ المؤلف هنا - ، بيد أن السبب عائد لطول فترة مناجزتهم للعدوّ ، وانعدام المؤن والنّجد عنهم ، فيما كان الصّليبيون يحظون دوماً من أوروبا بالدعم الكبير والنجدات المتوالية عبر البحر . وطيلة حكم السلطان صلاح الدِّين للشام (570-589 هـ) ، لم تفتر همّته عن مواصلة ضرب الغزاة ، حتى كَسَرَ شوكتهم في حطّين قبل سقوط عكّا بـ 4 سنين .

وفي ذلك اليوم تقدَّم إلى صارم الدِّين قايماز النَّجْمي حتى يدخل هو عليهم ، وترجَّل جماعة من أمراء الأكراد كالجَنَاح إلى أسوارهم وأصحابه – وهو أخو المشطوب – ولفيفُهُم ، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج [1] . ونصب قايماز عَلَمه بنفسه على سورهم ، وقاتل عن العَلَم قطعة من النهار .

وفي ذلك اليوم ، وصل عزّ الدِّين جُرْديك النوري ، وصل وسوق الزَّحف قائم ، فترجَّل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً ، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهاداً عظيماً .

ولَمّا كان يوم الجمعة العاشر من جُمادى الآخرة ، أصبح [136 ظ] القوم ساكتين من الزَّحف ، والعساكر الإسلامية مُحدقة بهم ، وقد باتوا ليلتهم شاكين في السِّلاح ، راكبين ظهور خيلهم ، منتظرين عسى يمكنهم مساعدة إخوانهم المقيمين بعكّا ، يهجمون على طرف من الفرنج ، فيكسرونهم ، ويخرجون يحمي بعضهم بعضاً ، ويخرقون العسكر ، وتجاويهم العساكر من الجانب ، فيسلم من يسلم ، ويؤخذ من يؤخذ .

فلم يقدروا على الخروج ، وكان قد ثبت ذلك معهم ، فلم يتهيأ لهم في تلك الليلة خروج ، بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان ، فأخبروا العدوّ بذلك ، فاحتاطوا عليهم وحرسوهم حراسة عظيمة .

ولما كان يوم الجمعة العاشر ، خرج منهم رسل ثلاثة ، واجتمعوا بالملك العادل ، وتحادثوا معه ساعة زمانية ، وعادوا إلى أصحابهم ، ولم ينفصل الحال في ذلك اليوم ، وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج في قبالة العدوّ المخذول ، وباتوا على مثل ذلك .

---

(1) كذا في الأصل ، والنص في طبعة مصر : وفي ذلك اليوم تقدَّم إلى صارم الدِّين قايماز النَّجْمي حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم ، وترجَّل جماعة من أمراء الأكراد كالجَنَاح وأصحابه – وهو أخو المشطوب – ، وزحفوا حتى وصلوا أسوار الإفرنج .

ولما كان السبت الحادي عشر من جُمادى الآخر ، لبست الفرنجية بأسرها لباس الحرب ، وتحرّكوا حركة عظيمة بحيث اعتُقد أنه ربما كان مصافاً ، واصطفّوا ، وخرج من الباب الذي تحت القبّة زهاء أربعين نفساً ، واستدعوا جماعة من المماليك ، وطلبوا منهم العَدْل الزَّبَدَاني [1]. وذُكر أنه صاحب صيدا [2]، طليق السُّلطان – رحمه الله – ، فحضر العَدْل ، وجرى مبادئ أحاديث في معنى إطلاق العسكر الذي بعكّا ، واشتطّوا فيما طلبوا اشتطاطاً عظيماً ، وتصرّم نهار السبت ولم ينفصل حال .

ذكر كُتُب وصلت من البلد

ولما كان يوم الأحد ثاني عشر جُمادى الآخر ، وصل من البلد كتب يقولون فيها : «إنا قد تبايعنا على الموت ، ونحن لا نزال نقاتل حتى نُقتل ، ولا نسلّم هذا البلد ونحن أحياء ، فأبصروا كيف تصنعون في شَغْل العدوّ عنا ، ودفعه عن قتالنا ، فهذه عزائمنا ، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدوّ أو تلينوا له ، فأما نحن فقد فات أمرُنا» .

وذكر العوّام الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل [الصّوت] ظن الفرنج أن عسكراً عظيماً قد عبر إلى عكّا وسلم ، وصار فيها ، قال : «وجاء إنسان فرنجي فوقف تحت السُّور ، وصاح إلى بعض من على السُّور ، وقال له : بحق دينك إلا أخبرتني كم عدد العسكر الذي دخل إليكم البارحة – يعني ليلة السبت – وكان قد وقع في الليل صوتٌ ، وانزعج الطائفتان ، ولم يكن له حقيقة ، فقال : «ألف فارس» . فقال : «لا ، لكنه دون ذلك ، أنا رأيتُهم وهم لابسون ثياباً خُضراً» .

---

(1) قال ياقوت في معجمه (3 : 130) أثناء ذكره لكُورة الزبداني المعروفة غربي دمشق : وإليها يُنسب العَدْل الزَّبَدَاني الذي كان يترسّل بين صلاح الدين يوسف بن أيّوب والفرنج .
(2) هو رُنو گارنييه ، صاحب صيدا وشقيف أرنون ، الذي كان حبسه السّلطان بدمشق .

ثم تتابعت العساكر الإسلامية وتواصلت ، واندفع كيد العدوّ عن القوم في تلك الأيام ، بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ ، فقدم يوم الثلاثاء رابع عشرة سابقُ الدِّين صاحب شيزر ، ويوم الأربعاء خامس عشره بدر الدِّين دلْدرم ، ومعه تُركمان كثير ، كان قد أنفذ إليه السُّلطان - رحمه الله - ذهباً [137 ظ] أُنفق فيهم [1] ، ويوم الخميس سادس عشره أسد الدِّين شيْرْكُوْه .

واشتدّ ضعف البلد وكثرت ثغر سوره ، وجاهد المقيمون فيه ، وبنوا عوض الثُّلْمَة سوراً من داخلها ، حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه .

واشتدّ ثبات الفرنج - لعنهم الله - على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أماناً حتى يُطلق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين ، وتُعاد البلاد السّاحلية إليهم ، وبُذل لهم تسليم البلد وما فيه دون مَن فيه فلم يفعلوا ، وبُذل لهم في مقابل كل واحد من الذين في البلد واحداً من أُسرائهم مقابله فلم يفعلوا ، وبُذل لهم أيضاً مع ذلك صليب الصَّلَبُوت فلم يفعلوا . واشتدّ عتوُّهم ، واستفحل أمرهم ، وضاقت الحيل عنهم ومكروا ، ومكر الله ، والله خير الماكرين .

ذكر حديث مصالحة أهل البلد ومُصانعتهم عن نفوسهم

ولمّا كان يوم الجمعة سابع عشر جُمادى الآخرة ، خرج العَوّام من الثغر ، ونَطَقَتْ كُتُبُه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وكثرت الثغر ، وعجزوا عن الحفظ والدَّفع ، ورأوا عين الهلاك ، وتيقّنوا أنه متى أُخذ البلد عَنْوَةً ضُرِبت أعناقهم عن آخرهم ، وأُخذ جميع ما فيه من العُدَد والأسلحة والمراكب وغير ذلك .

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

ذكر استيلاء العدوّ على عكّا
- يسّر الله فتحها -

ولمّا وقف السُّلطان - رحمة الله عليه - على كتبهم ، وعلم مضمونها ، أنكر ذلك إنكاراً عظيماً وعَظُم عليه هذا الأمر ، وجَمَع أرباب المشورة من أرباب دولته وأكابرها ، وعرّفهم ذلك وشاورهم فيما يصنع ، واضطربت به آراؤه ، وتقسّم فكره ، وتشوّش حاله .

وعزم على أن يكتب في تلك اللّيلة مع العوّام ، ويُنكر عليهم المُصالحة على هذا الوجه ، وهو في مثل هذا الحال .

فما أحسّ المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكُفر وصُلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد ، وذلك في ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جُمادى الآخر ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة [1] .

وصاح الفرنج صيحة واحدة ، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتدّ حزن الموحّدين ، وانحصر كلام العُقلاء من الناس في تلاوة : ﴿إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾ . وغشي الناس بهتة عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر [138 ظ] الصِّياح والعَويل والبُكاء والنَّحيب ، وكان لكلّ قلب حظٌّ في ذلك ، على قدر إيمانه ، ولكل إنسان نصيبٌ من هذا الحظّ على قدر ديانته ونخوته .

---

(1) يوافق ذلك يوم 21 تموز من عام 1191 م ، بعد حصار تجاوز السنة . وكانت معاهدة الاستسلام تنص على أن تستسلم عكّا بكل ما تشتمل عليه ، وبسفنها ومستودعاتها الحربية ، وينبغي أن يؤدّى للفرنج مائتا قطعة من الذهب ، فضلاً عن أربعمائة أخرى تُبذل للمركيز كونراد وحده . كما تقرّر إطلاق سراح ألف وخمسمائة أسير مسيحي ، مع مائة أسير من ذوي الرّتب ، بعد ذكر أسمائهم ، وينبغي كذلك ردّ صليب الصَّلَبوت للفرنج . فإذا تمّ كل ذلك ، جرى الإبقاء على حياة المدافعين .
غير أن ريتشارد الخائن الخسيس ، عمد بعد ذلك - كما سنرى - إلى إعدام كامل سكان عكّا من المسلمين ، بعد أن كان ضمن سلامتهم ؛ وسطّر للتاريخ فصلاً لا يمحوه الدّهر ، ليقارن من يقرأه بين نذالته ووضاعته ، وبين شهامة بطلنا الخالد ورجولته .

وانقشعت الحال على أنه استقرّت تلك القاعدة بين أهل البلد وبين الفرنج على ذلك الحال المتقدِّم ، وأن المركيس [1] الملعون دخل البلد ومعه أربعة أعلام للملوك [2] ، وأخذ عوضه رهناً محمد بن باريك - رحمه الله - وكان شجاعاً من شُجعان الإسلام - رحمه الله - ، فنَصَبَ المركيس عَلَماً على القلعة ، وعَلَماً على مئذنة الجامع في يوم الجمعة ، وعَلَماً على بُرج الدَّاويّة ، وعَلَماً على بُرج القتال ، عوضاً عن عَلَم الإسلام .

وحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد ، وجرى على أهل الإسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجّب من الحياة معه .

ومثلتُ بخدمة السُّلطان - رحمة الله عليه - وهو أشدُّ حالة من الوالدة الثَّكلى والوَلِهَة الحَيْرى ، فسلَّيْتُه بما تيسَّر من التسلية وأذكرتُه الفكر فيما قد استقبله من الأمر في معنى البلاد السَّاحلية والقُدْس الشَّريف ، وكيفية الحال في ذلك ، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد ، وذلك في ليلة السبت الثامن عشر منه .

وانفصل الحال على أن رأى التأخّر عن تلك المنزلة مصلحةً ، فإنه لم يبق غرضٌ في المضايقة . فتقدّم بنقل الأثقال إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشَفْرَعَمّ ، [139 و] وأقام هو جريدةً - رحمة الله عليه - في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدوّ وحال أهل البلد .

---

(1) أي المركيز كونراد دى مونفيراً ، صاحب صُور ، الذي يعود إليه فضل الحفاظ على هذه المدينة ، القاعدة التي استعملها الصَّليبيون لإعادة احتلال عكّا ، عاصمتهم الجديدة .

(2) في طبعة مصر : ومعه أعلام الملوك . والواقع أن نصب هذه الأعلام قد أسفر عن أزمة سياسية بين الصَّليبيين أنفسهم ، فتذكر المصادر اللاتينية أن كونراد قد دخل عكّا ومعه لواؤه ولواءا ملك فرنسا فيليبٍ وملك إنكلترا ريتشارد . فاتّخذ ريتشارد له مقرّاً في القصر الملكي السابق ، قرب السُّور الشمالي للمدينة ، بينما استقرّ فيليب في دار الدَّاويّة السابقة الواقعة على البحر قرب طرف شبه الجزيرة . وكان أن طالب دوق أوستريا ، باعتباره قائداً للجيش الألماني ، بمكانة لائقة به ، فرفع لواءه إلى جانب لواء ريتشارد ، ثم بادر العسكر الإنكليز فنزعوه وألقوا به في الخندق أسفل المدينة . راجع :
Itinerarium, p. 243; Ernoul, pp. 274-5; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 175-6.

فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصَّباح [1] ، وأقام هو جريدةً راجياً من الله تعالى أنه ربّما حملهم غرورُهم وجهلُهم بالخروج إليه ، والهجوم عليه ، فينال منهم غرضاً ، ويلقي نفسه عليهم ، ويعطي الله النصر لمن يشاء . فلم يفعل العدوّ شيئاً من ذلك ، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد ، والتمكّن منه .

فأقام - رحمه الله - إلى بُكرة التاسع عشر من الشهر ، وانتقل سَحْرَة تلك الليلة إلى الثَّقْل .

وفي ذلك اليوم خرج منهم ثلاثة نَفَر ، ومعهم الحاجب أَقُوْش ، صاحب بهاء الدِّين قَرَاقُوش [2] ، فكان لسانه ؛ مستنجزين ما وقع عليه عقد الصُّلح من المال والأسرى ، فأقاموا ليلة مُكرّمين ، وساروا إلى دمشق يبصرون الأسارى . فكان مسيرهم يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من جُمادى الآخرة .

وأنفذ السُّلطان - رحمة الله عليه - رسولاً إلى الفرنج ، يسأل منهم كيف جَرَت الحال ، ويستعلم كم مدّة تحصيل ما وقعت عليه المصالحة ، واستقرّت عليه المُهادنة .

ذكر وقعة جرت في أثناء ذلك

ولما كان يوم الخميس سلخ جُمادى الآخر ، خرج الفرنج من جانب البحر شمالي البلد ، ومن جانب القبّة ، وانتشروا انتشاراً عظيماً ، راجلهم وفارسهم ، وضربوا [139 ظ] أطلاباً للقتال ، فأخبر اليَزَك بذلك السُّلطان - رحمة الله عليه - ، فدق الكُوْس وركب ، وأنفذ إلى اليَزَك ، وقوّاه برجال كثيرة ، وتوقف حتى ركبت العساكر الإسلامية واجتمعوا .

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

(2) قَرَاقُوش اسم تركي : Kara-kuş ، معناه : الطير الأسود .

فوقع بين اليَزَك وبين العدوّ وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العسكر باليَزَك ، وكان اليَزَك قد قوي بمَنْ أُنفذ إليه ، فحملوا على العدوّ حملة عظيمة ، فانكسر العدوّ من بين أيديهم ، وانهزمت الخيّالة ، وأسلمت الرَّجَّالة ، وظنوا أن وراء اليَزَك كميناً ، فاشتدّوا نحو خيامهم ، فوقع اليَزَك في الرَّجَّالة ، فقتل منهم زهاء خمسين نفراً ، وجُرح خلق عظيم ، ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا خنادقهم .

وفي ذلك اليوم وصل رسل الفرنج ، الذين بُعثوا إلى دمشق لتفقد حال أُسرائهم ، ووصل معهم من مميّزي أُسرائهم أربعة نفر ، ووصل منهم في عشيّته أيضاً رُسُلٌ إلى السُّلطان في تحرير أمر الأسارى والمسلمين الذين كانوا بعَكّا .

ولم تزل الرُّسُل تتردّد بين الطائفتين ، حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ذكر خروج ابن باريك

وفي ذلك اليوم خرج حسام الدِّين حسين بن باريك المهراني ، ومعه اثنان من أصحاب الأنكتار ، فأخبر أن ملك الفرنسيس سار إلى صُور - يسَّر الله فتحها - [140 و] وذكروا شيئاً من تحرير أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصَّلَبُوت وأنه هل هو في العسكر أو حُمل إلى بغداد ؟

فأُحضر صليب الصَّلَبُوت (1) ، وشاهدوه وعظَّموه ، ورموا نفوسهم إلى الأرض ، ومرَّغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعاً عظيماً لم يُرَ مثله ، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السُّلطان - رحمة الله عليه - إلى أن يكون ما وقع عليه القرار يُدفع في تُرُوْم (2) (أي نجوم) ثلاثة ، كل شهر ترم .

---

(1) وكان بحوزة فريدريك أسقف عكّا في معركة حطّين ، فقُتل وانتُزع منه .

(2) التّرم كلمة عامية تعني المدّة المحدّدة ، وهي موجودة في اللاتينية بالمعنى نفسه .

ثم أرسل السُّلطان – رحمه الله – إلى الفرنسيس رسولاً سار إليه إلى صُوْر – يسَّر الله فتحها – بهدايا سنية ، وطيب كثير وثياب جميلة [1] . وعاد ابن باريك ورفيقه إلى الأنكتار [2] .

وفي صبيحة يوم السبت العاشر من رجب ، انتقل السُّلطان – رحمة الله عليه – بحلقته وخواصه إلى تل مُلاصق لشَفْرَعَمّ ، ونزلت العساكر في منازلهم على حالهم ، وهو قريب من منزلته الأولى ، ليس بينهما إلا الوادي .

ولم تزل الرُّسُل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك التّرم ؛ وهو الصَّليب ، ومائة ألف دينار ، وألف وستمائة أسير [3] . وأنفذوا ثقاتهم ، وشاهدوا الجميع ماعدا الأسارى المعينين من جانبهم ، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ، ولم يكلّموهم حتى يحصلوا .

ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزَّمان ، حتى انقضى التّرم الأول [140 ظ] فكان انقضاؤه في ثامن عشر رجب . ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك ، فقال لهم السُّلطان : «إما أن تُنفذوا إلينا أصحابنا ، وتتسلّموا الذي عُيِّن لكم في هذا التّرم ، ونعطيكم رهائن على الباقي ، تصل إليكم في تُرُومكم الباقية ، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلّمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا» .

فقالوا : «لا نفعل شيئاً من ذلك ، بل تسلّمون إلينا ما يقتضيه هذا التّرم ، وتقنعون بأماننا حتى نُسلّم إليكم أصحابكم» . فأبى السُّلطان – رحمه الله – ذلك ، لعلمه أنهم إن تسلّموا المال والصَّليب والأسرى ، وأصحابنا عندهم ، لا يُؤمَن غدرهم ، ويكون وَهَن الإسلام عند ذلك عظيماً لا يكاد ينجبر .

(1) جرت العادة في تلك العصور أن الملوك كانوا يتهادون فيما بينهم ، برغم الحرب .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(3) في طبعة مصر : وستمائة أسير .

ذكر إخراج الفرنج خيامهم

ولمّا رأوه – رحمة الله عليه – قد امتنع من ذلك ، أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مُبرزين ، وذلك في نهار الأربعاء الحادي والعشرين من رجب ، من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وكان الذي برز ملك الأنكتار ، ومعه خلقٌ عظيم من الخيَّالة والرَّجَّالة والتُّرْكُبْلي [1] .

ذكر قتل المسلمين الذين بعكّا رحمة الله عليهم

ولما رأى الأنكتار الملعون توقُّف السُّلطان – رحمة الله عليه – في بذل المال والأسارى والصَّليب ، غَدَرَ بأسارى المسلمين ، وكان قد صالحهم وتسلَّم البلد منهم على أن يكونوا [141 و] آمنين على نفوسهم على كل حال ، وأنه إن دفع السُّلطان إليهم ما استقرَّ أطلقهم بأموالهم وذراريهم ونسائهم ، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرِّق وأخذهم أسارى .

فغدر بهم الملعون ، وأظهر ما كان أبطن ، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسارى على ما أخبر به عنه أهل ملّته فيما بعد . وركب هو وجميع عسكر الفرنجية ، راجلهم وفارسهم [والتَّرَاكُبْلي] ، في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع عشرين رجب ، من سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وساروا حتى أتوا الآبار التي

---

(1) كان جيش مملكة القُدْس اللاتينية يتألف من الجنود الإقطاعيين غير النظاميين ، كما كان الحال في فرنسا آنذاك . وكان يتضمن كذلك فرساناً ومرتزقة يُنتقون بالأخص من سكان سورية الفرنجية ، فضلاً عن قوى الخيالة الخفيفة ، المسماة (التُرْكُبْلية *les Turcoples*) ، والمؤلفة من مسيحيي البلاد . وكما نرى ، فقد دخلت هذه العبارة كمصطلح في لغة كتّاب العربية ومؤرّخيها في ذلك العصر . راجع : الحروب الصَّليبية ، صراع الشَّرق والغرب ، لرنيه گروسّيه ، ترجمة أحمد إيبش ، دار قتيبة بدمشق 2002 ، ص 98 .

تحت تل العَيَّاضيّة ، وقدّموا خيامهم إليها ، وساروا حتى توسَّطوا المرج بين تل كيسان والعَيَّاضيّة .

ثم أحضروا من الأسارى المسلمين مَنْ كتب الله شهادته في ذلك اليوم ، وكانوا زُهاء ثلاثة آلاف مسلم ، وأثقوهم في الحبال ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم صَبْراً طعناً وضرباً بالسيف [1] - رحمة الله عليهم - واليَزَك الإسلامي يشاهدهم ، ولا يعلم ماذا يصنعون لبُعْدهم عنهم .

وكان اليَزَك قد أنفذ إلى السُّلطان - رحمة الله عليه - وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليَزَك مَنْ قَوَّاهُ . وبعد أن فرغوا منهم ، حمل المسلمون عليهم ، وجرت بينهم حربٌ عظيمة قُتل فيها وجُرح من الجانبين . ودام القتال إلى أن فصل الليل بين [141 ظ] الطائفتين .

وأصبح المسلمون يكشفون الحال ، فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم وعرفوا مَنْ عرفوه منهم ، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم وكآبة شديدة ، ولم يُبقوا من المسلمين إلا رجلاً معروفاً مُقدَّماً أو قويّاً أيّداً للعمل في عمائرهم . وذُكر لقتلهم أسباب ، منها : أنهم قتلوهم في مقابلة مَنْ قُتل منهم ، وقيل : إن الأنكتار كان عزم على المسير إلى عَسْقَلان للاستيلاء عليها ، فما رأى أن يُخلِّف تلك العدَّة في البلد وراءه ، والله أعلم [2] .

---

(1) استفاضت المؤلفات التاريخية الأوروبية بذكر مزايا ريتشارد ملك إنكلترا ومآثره البطولية وشجاعته ، حتى غدا مثالاً للفروسية في القرون الوسطى . . لا عدمت الفروسية سفيهاً من أمثاله ! فأين هي البطولة في إعدام 3000 أسير أعزل من السِّلاح ، وقعوا في الأسر بعد أن أرهقهم الحصار قرابة السنة والنصف ، كانوا فيها مثالاً للبطولة والرجولة الحقّة ؟ إنه ينبغي أن يلحق بريتشارد النَّذل كل العار ، ويضحي رمزاً للعهر لا للفروسية .

(2) نقل أبو شامة المقدسي في كتابه الروضتين في أخبار الدّولتين (2 : 189) عن العماد الأصفهاني في كتابه البرق الشامي ، أن صلاح الدِّين طلب إلى فرسان الدّاويّة ، الذين يثق بهم برغم كرهه لهم ، أن يضمنوا شروط المعاهدة ، غير أنهم رفضوا ضمانها لعلمهم أن ريتشارد سوف ينقضها . وبالنتيجة لم يعد صليب الصَّلبوت إلى اللاتين .

ذكر انتقال العدوّ إلى طرف البحر
من جانب الغرب

ولما كان يوم الخميس تاسع عشرين من رجب ركبت الفرنجية بأسرها ، وقلعت خيامهم ، وحملوها على دوابهم ، وساروا حتى قطعوا النهر إلى الجانب الغربي ، وضربوا الخيام على طريق عَسْقَلان ، وأظهروا العزم على المسير على شاطىء البحر . وأمر الأنكتار بباقي الناس أن يدخلوا إلى البلد ، وكانوا قد سدّوا ثغره وثلمه ، وأصلحوا ما استرمّ منه .

وكان مقدّم العسكر الخارج السائر الأنكتار [1] – لعنه الله – وجمع عظيم من الخيّالة والرَّجّالة .

ذكر مسيرهم إلى جهة عَسْقَلان

ولما كان يوم الأحد مستهلّ شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، اشتعلت نيران العدوّ في سَحْرَة ذلك اليوم ، وعادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم .

وأخبر اليَزَك بحركتهم ، [142 و] فأمر السُّلطان الثَّقْل أن يُرفع حتى يبقى الناس على ظهر ، ففعل الناس ذلك . وهلك من الناس قماش كثير ، وحوائج كثيرة من السُّوقة ، لم يكن معهم ظهر يحمل جميع ما عندهم ، لأن كل إنسان كان يحصّل ما يحتاج إليه في أشهر ، وكل واحد من السُّوقة عنده ما ينقله من منزل إلى منزل في مرار متعدّدة ، لكن هذا المنزل لم يمكن أن يتخلّف فيه أحد لقُربه من الفرنج الذين بعكّا ، والخوف منهم .

---

(1) أضحى ريتشارد القائد الأوحد للحملة الصّليبية الثالثة ، إثر رحيل الملك فيليب إلى فرنسا في 2 آب 1191 م .

ولّما أن علا النهار شرع العدوّ في السير على جانب البحر ، وتفرّقوا قطعاً ثلاثة كل قطعة تحمل نفسها ، وقوّى السُّلطان - رحمة الله عليه - اليَزَك ، وأنفذ معظم العساكر تسير قُبالتهم ، فمضوا وقاتلوهم قتالاً شديداً . وأنفذ ولده الملك الأفضل يخبره أنه «انقطع طائفةٌ منهم عن الرِّفقة [1] ، وقد لززناهم [2] بالقتال حتى قد عادوا يطلبون خيامهم ، فلو قُوِّينا لأخذناهم» .

فسيَّر السُّلطان - رحمه الله - خلقاً عظيماً من العسكر ، وسار هو بنفسه حتى أتى أوائل الرَّمل ، وأمر الثَّقْل أن يسير على الطريق إلى القيمون ، وسار هو - وأنا في خدمته - حتى أتينا أوائل الرمل . فلقينا الملك العادل ، وأخبر السُّلطان أن تلك الطائفة قد التحقت بالطائفة الأولى ، ومعظم القوم قد عبروا نهر حيفا ، ونزلوا ، والباقون قد لحقوهم ، وليس للمسير خلفهم حاصل إلا إتعاب الخيل وضياع النُّشَّاب لا غير .

فتراجع السُّلطان [142 ظ] - رحمه الله - عن القوم لما تحقّق ذلك ، وأمر طائفة من العسكر تسير وراء الثَّقْل ، تُلحق ضعيفَهم بقويهم ، وتكفّ عنهم من يلتحق بهم من العدوّ من الطماعة . وسار هو حتى وصل إلى القيمون - وأنا في خدمته - حتى أتى القيمون عصر ذلك النهار ، فنزل وقد ضُرب له الدّهليز ، وشقّة دائرة حوله لا غير ، واستحضر الجماعة ، وأكلوا شيئاً ، واستشارهم فيما يفعل .

المنزل الثاني :

فاتفق رأي الجماعة على أنهم يرحلون بُكرة غد هذا ، وقد رتّب حول الفرنج يَزَكاً يبيتون حوله يرقبون أمره . ولما كان صباح الإثنين ثاني شعبان المذكور رحَّل السُّلطان - رحمة الله عليه - الثَّقْل ، وأقام هو يترصّد أخبار العدوّ ، فلم يصله منها

---

(1) في طبعة مصر : الموافقة .

(2) في طبعة مصر : نازلناهم .

شيء إلى أن علا النهار . فسار في أثر الثَّقْل حتى أتى قرية يقال لها الصَّبَّاغين ، فجلس ساعة يترقَّب أخبار العدوّ ، فلم يصله خبر . وكان قد نزل علم الدِّين سليمان بن جَنْدَر في منزلته بالأمس [1] ، وخلّف جُورديك قريب العدوّ ، وبعث خلقاً عظيماً باتوا قريب العدوّ ، فلم يصله خبر أصلاً ، فسار حتى أتى الثَّقْل ، وهو في منزلة يقال لها عيون الأساود .

ولما بلغنا المنزل ، رأى – رحمة الله عليه – خيماً فسأل عنها ، فقيل إنها خيم الملك العادل ، فعدل لينزل عنده ، وسرنا نحن ونزلنا في خيمنا ، فأقام عنده ساعة ، ثم أتى خيمته ، وفُقد الخبز في هذه المنزلة بالكلّية ، [143 و] وغلا الشعير حتى بلغ الربع درهماً ، وبلغ البُقْسُماط رطل بدرهمين .

ثم أقام السُّلطان – رحمه الله – حتى عبر وقت الظهر ، ثم ركب وسار إلى موضع يُسمّى الملاّحة ، يكون منزلاً للعدوّ إذا رحل من حيفا ، وكان قد سبق لتفقّد المكان ، وأنه هل يصلح للمصافّ أم لا ، وتفقّد أراضي قيسارية بأسرها إلى الشَّعْرا . وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء الآخرة ، وقد أخذ منه التعب ، وكنتُ في خدمته ، وسألتُه عما بلغه من خبر العدوّ فقال : «وصل إلينا مَنْ أخبرنا من أصحابنا أنه ما رحل العدوّ من حيفا إلى عصر يومنا هذا – يعني يوم الإثنين ثاني شعبان – ، وها نحن مرتقبون أخبارهم ، ويكون العمل بمقتضاها» .

وبات تلك الليلة ، وأصبح مقيماً بتل الزّلزلة ينتظر العدوّ ، ونادى الجاووش بالعكسر للعرض ، فركب الناس على ترتيب المصاف وأهبته ، وخرجوا عن الخيم ، واصطفّوا ميمنة وميسرة وقلباً ، وكان – بحمد الله – على ما يؤثر أولياء الإسلام . ثم عاد إلى خيمه ، وعاد الناس [1] وقد علا النهار ، ونزل السُّلطان – رحمة الله عليه – في خيمته ، وأخذ نصيباً من الراحة بعد الغداء ومثول جماعة من الأمراء بخدمته ، وأخذ رأيهم فيما يصنعون .

---

(1) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

ثم صلّى الظهر وجلس يُطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى عشاء الأخيرة من مائة دينار إلى مائة وخمسين وزائداً [143 ظ] وناقصاً ، فما رأيتُ أفسح صدراً منه ولا أبسطَ وجهاً في العطاء .

واتفق الرأي على رحيل الثَّقْل في عصر ذلك اليوم إلى مَجْدَل يَابَا .

المنزل الثالث :

وكان نزول الثَّقْل بمجدل يابا بُكرة ، وأقام هو بالمنزل جريدةً إلى الصباح ، ورحلوا إلى جهة العدوّ ، فرحل الثَّقْل من وقت العشاء ، ولم يبقَ من الناس المقيمين مع السُّلطان إلا خفَّ من الأقشمة . وبات في منزلته إلى الصّباح يوم الأربعاء رابع شعبان سنة سبع وثمانين [1] ، وركب وسار إلى رأس النهر الجاري إلى قَيْسَاريّة ، ونزل جريدةً هناك ، وبلغ البُقْسُماط إلى رطل بأربعة دراهم في تلك المنزلة ، والشَّعير الرُّبع بدرهمين ونصف ، والخُبز لم يوجد أصلاً .

ونزل في خيمته قريب صلاة الظهر ، وأكل خبزاً وصلّى الظهر ، وركب إلى طريق العدوّ لتجديد ارتياده في ضرب المصاف ، ولم يعد إلى أن دخل وقت العصر ، فجلس ساعة ، وأخذ جزءاً من الراحة ، ثم عاد وركب وأمر الناس بالرحيل ، ورمى خيمته ، ورمى الناس خيامهم في أواخر نهار الأربعاء رابع شعبان سنة سبع .

المنزل الرابع :

وكان الرحيل إلى رابية متأخرة عن تلك الرابية لكنها في المنزل أيضاً ، فنزل هناك الثَّقْل ، وعاد هو من ركوبه – رحمه الله – بُعيد المغرب . وفي ذلك المنزل أُتي باثنين من [144 و] الفرنج قد تخطّفهم اليَزَك من العدوّ ، فأمر بضرب رقابهما ، فقُتلا ، وتكاثر الناس عليهما بالسّيوف تشفّياً .

---

(1) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

ثم بات هناك ، وأصبح مقيماً بالمنزلة لأنه لم يصحّ عن العدوّ رحيل ، وأنفذ إلى الثَّقْل حتى يعود إليه في تلك الليلة مما طرأ على الناس من الضيق في المأكل والقضيم [1] . وركب - رحمة الله عليه - في وقت عادته ، وساروا إلى جهة العدوّ ، وأشرف على قيسارية ، وعاد إلى الثَّقْل قريب الظهر ، وقد وصله الخبر أن العدوّ لم يرحل بعدُ من المَلاَّحة . وأُحضر عنده اثنان أيضاً قد أُخذا من أطراف العدوّ ، فقُتلا أيضاً شرّ قتلة ، وكان في حدّة الغيظة [2] لما جرى على أسرى عكّا .

ثم أخذ جزءاً من الراحة ، وجلس بعد صلاة الظهر ، وحضرتُ عنده وقد أُحضر بين يديه من العدوّ فارسٌ مذكور قد أُخذ ، وهيئته تُخبر عن أنه متقدّم فيهم ، فأُحضر ترجمان ، ويحث منه عن أحوال القوم ، وسأله : «كيف يَسْوى الطعام عندكم؟» ، فقال : «أول يوم رحلنا من عكّا كان الإنسان يشبع بستة قراطيس ، ثم لم يزل السعر يغلو حتى صار يشبع بثماني قراطيس» . وسُئل عن سبب تأخرهم في المنازل فقال : «لانتظار وصول المراكب بالرجال والميرة» . فسُئل عن القتلى والجرحى في يوم رحيلهم ، فقال : «كثير» . فسُئل عن الخيل التي هلكت في ذلك اليوم فقال : «مقدار أربعمائة فرس» .

فأمَرَ بضرب عنقه ، [144 ظ] ونهى عن التمثيل به ، فسأل الترجمان عمّا قال السُّلطان - رحمه الله - فأخبره بما قال ، فتغيّر تغيّراً عظيماً . وقال : «أنا أخلّص لكم أسيراً من عَكّا» . فقال له - رحمه الله - : «بل أميراً» . فقال : «لا أقدر على خلاص أمير» .

فشفع الطّمع فيه وحُسن خلقته ، فإني ما رأيتُ أتمّ خلقة مع تَرَف في الأطراف ورفاهية ، فأمَرَ أن يُترك الآن ويؤخَّر ، فصُفِّد ، وعاتبه على ما بدا منهم من الغدر بقتل الأسرى ، فاعترف بأنه قبيح ، وأنه لم يجر إلا برضا الملك وحده .

---

(1) القضيم : ما تأكله الدّواب من العشب الأخضر أو التبن الجاف .

(2) في طبعة مصر : الضيقة .

ثم ركب السُّلطان – رحمة الله عليه – بعد صلاة العصر على عادته . هذا كله في يوم الخميس خامس شعبان . وبعد أن نزل السُّلطان – رحمه الله – أمَرَ بقتل الفارس المذكور ، فقُتل ؛ وأُتي بعده باثنين فأمر بقتلهما ، فقُتلا .

وبات في ذلك المنزل تلك الليلة ، وذُكر له في السَّحَر أن العدوّ قد تحرك نحو قَيْسارية ، وقارب أوائلهم البلد ، فرأى أن يتأخر من طريق العدوّ منزلاً آخر .

المنزل الخامس :

فرحل ، ورحل الناس إلى تلّ قريب من التلّ الذي كنا عليه ، فنزل الناس ، وضُربت الخيام ، ومضى – رحمه الله – يرتاد الأراضي الكائنة في طريق العدوّ ، لينظر أيها أصلح للمصاف ، ونزل قريب الظهر ، واستدعى أخاه الملك العادل ، وعَلَم الدِّين سليمان بن جَنْدَر ، وأخذ رأيهما فيما يصنع ، وأخذ جزءاً من الراحة ، وأذّن الظهر ، فصلّى وركب للتشرّف [145 و] على العدوّ ، وتنسُّم أخباره .

وأتاه اثنان من الفرنج قد نُهبا ، فأمر بقتلهما ، فقُتلا . ثم أُتي باثنين آخرين ، فقُتلا أيضاً ، وذلك في يوم الجمعة سادس شعبان المذكور . وجيء في أواخر النهار باثنين فقُتلا أيضاً .

وعاد من الرُّكوب آخر النهار صلاة المغرب ، فصلّى وجلس على عادته ، واستدعى أخاه الملك العادل – رحمه الله – وصرف الناس وخلا به إلى هَدْي [1] من الليل . ثم بات ، وأصبح ونادى الجاووش لعرض الحلقة لا غير ، وركب إلى جهة العدوّ ، ووقف على تلول مشرفة على قَيْسارية ، وكان العدوّ قد وصل إليها نهار الجمعة ، ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار ، ثم نزل وأكل الطعام ، وركب إلى أخيه ، وعاد بعد صلاة الظهر ، وأخذ جزءاً من الرّاحة ، وجلس فتوضّأ وصلّى .

---

(1) في طبعة مصر : هزيع .

وأُتي بأربعة عشر من الفرنج وامرأة فرنجية بينهم أسيرة ، وهي بنت فارس مذكور ، ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها ، فأُطلقت المسلمة ، ودُفع الباقون إلى الزَّرَدْخَاناه . وهؤلاء أُتي بهم من بَيْرُوت ، أُخذوا في ركب من جملة عدد كثير قُتلوا . كل ذلك في نهار السبت سابع شعبان ، وهو في المنزلة ينتظر رحيل العدوّ المخذول ، مجمعاً على لقائه إذا رحل .

المنزل السادس :

ولما كان صبيحة يوم الأحد الثامن من شعبان [145 ظ] سنة سبع ، ركب السُّلطان – رحمة الله عليه – على عادته ، ثم نزل فوصل مَنْ أخبر أن العدوّ على حركة ، وكانت الأطلاب قد باتت حول قيسارية في مواضعها . فأمر بمدّ الطعام ، وأطعم الناس .

فوصل ثان وأخبر أن القوم قد ساروا ، فأَمَرَ بالكُوْس فدُقّ ، وركب – رحمه الله – وركب الناسُ معه ، وسار وسرتُ في خدمته حتى أتى عسكر العدوّ ، فصفّ الأطلاب حوله وأَمَرَ بقتالهم ، وأخرج الجاليش ، فكان النُّشَّاب بينهم كالمطر .

وكان عسكر العدوّ المخذول قد ترتّب ، فكانت الرَّجَّالة حوله كالسّور وعليهم الكُبورة [1] الثخينة ، والزَّرَديات السابغة المحكمة ، بحيث يقع فيهم النُّشَّاب ولا يتأثرون [2] ، وهم يرمون بالزَّنْبُورَك ، فيجرح خيول المسلمين وخيّالتهم ورجّالتهم . ولقد شاهدتُهم وينغرز في ظهر الواحد منهم النُّشَّابة والعشرة ، وهو يسير على هيئته من غير انزعاج .

وثمّ قسم آخر من الرَّجَّالة مستريح ، يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح ،

(1) في طبعة مصر : اللُّبود .
(2) في طبعة مصر : ولا يتأخرون .

واستراح القسم العَمَّال [1] . هذا والخيّالة في وسطهم لا يخرجون عن الرَّجَّالة إلا في وقت الحملة لا غير ، وقد انقسموا أيضاً ثلاثة أقسام : الأول الملك العتيق جُفري وجماعة السّاحلية معه في المقدّمة ، والأنكتار والفرنسيسية [146 و] معه في الوسط ، وأولاد الستّ أصحاب طَبَرَيَّة وطائفة أخرى في الساقة . وفي وسط القوم برجٌ على عَجَلة ، وعَلَمُهم على ما وصفته من قبل [2] يسير أيضاً في وسطهم على عَجَلة كالمنارة العظيمة .

هذا ترتيب القوم على ما شاهدتُه ، وأخبر به من خرج منهم من الأسرى والمستأمنين .

وساروا على هذا المثال وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين ، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنُّشَّاب ، ويحرّكون عزائمهم حتى يخرجوا ، وهم يحفظون أنفسهم حفظاً عظيماً ، ويقطعون الطريق على هذا الوضع ، ويسيرون سيراً رفقاً ، ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر . إلى أن أتوا المنزل ، ونزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرَّجَّالة ، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيامهم ، لقلّة الظَّهر عندهم . فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان [3] ولا نفع ، وكان منزلهم قاطعاً نهر قيسارية ، يسَّر الله فتحها .

المنزل السابع :

ولما كانت صبيحة الإثنين التاسع من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وصل مَن أخبر أن العدوّ قد ركب سائراً . فركب السُّلطان – رحمة الله عليه – أول الصبح ، وطلّب الأطلاب ، وأخرج من كل طُلْب جاليشاً ، وسار يطلب القوم ، فأتيناهم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أقسام ، فطاف الجاليش حولهم من كل

---

(1) في طبعة مصر : المقاتل .
(2) انظر ما تقدّم ، ص 258 .
(3) في طبعة مصر : دين .

جانب ولزّوهم [146 ظ] بالنُّشّاب وهم سائرون على المثال الذي حكيتُه ، وكلّما ضعف قسم عاونه الذي يليه وهم يحفظ بعضهم بعضاً ، والمسلمون مُحدقون بهم من ثلاثة جوانب ، والقتال عليهم شديد . والسُّلطان - رحمه الله - يقرِّب الأطلاب ، ورأيتُه يسير بنفسه بين الجاليش ونُشّاب القوم يتجاوزه ، وليس معه إلا صبيّان بجنيبين لا غير ، وهو يسير من طُلْب إلى طُلْب ، يحثّهم على التقدّم ويأمرهم بمضايقة القوم ومقاتلتهم ، والكُوْسات تخفق ، والبوقات تنعر ، والصِّياح بالتهليل والتكبير يرتفع .

هذا والقوم على أتم ثبات على ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حملات كثيرة ، ورجّالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزّنْبُورَك والنُّشّاب . ولم يزل الناس حولهم يقاتلونهم من كل جانب ، ويحملون عليهم وهم ينكرّون بين أيديهم ثم يعكرون عليهم ، إلى أن أتوا إلى نهر يقال له نهر القصب ، فنزلوا عليه ، وقد قام قائم الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم ، فإنهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس من أمر يتمّ معهم ، ورجعوا عن قتالهم .

وفي ذلك اليوم قُتل من فرسان الإسلام وشجعانه إياز الطويل [1] ، بعض مماليك السُّلطان - رحمة الله عليه - وكان قد قتل فيهم ، وقتل خلقاً من خيالتهم وشجعانهم ، وكانت قد استفاضت شجاعته بين العسكرين [147 و] بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدّقت أخبار الأوائل ، وصار بحيث إذا عرفه الفرنج في موضع تجافوا عنه . تَقَنْطَر به فرسُه ، فاستُشهد في ذلك اليوم ، ودُفن على تلّ مُشرف على البركة [2] ، وحزن المسلمون عليه حزناً عظيماً ، وقُتل عليه مملوك له .

ونزل السُّلطان بالثَّقْل على البركة ، وهو موضع تجتمع فيه مياه كثيرة ، وأقام - رحمة الله عليه - في تلك المنزلة إلى بعد صلاة العصر ، أطعم الناس خبزاً ،

---

(1) في طبعة مصر : شجاع اسمه إياز الطويل .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

واستراحوا ساعة . ثم رحل بعد صلاة العصر ، وأتى نهر القصب ، فنزل عليه أيضاً ، فكنا نشرب من أعلاه ، والعدوّ يشرب من أسفله ، ليس بيننا إلا مسافة يسيرة . وبلغ الشّعير في هذه المنزلة الربع بأربعة دراهم ، والخبز موجود كثيراً وسعره رطل بنصف درهم .

وأقام ينتظر رحيل الفرنج حتى يرحل في مقابلتهم ، وباتوا تلك الليلة هناك وبتنا أيضاً .

ذكر وقعة جرت

وذلك أن جماعة من العسكر الإسلامي كانوا يتشرّفون [1] على العدوّ ، فصادفوا جماعة منهم غير مسلحين يتشرّفون أيضاً على العسكر الإسلامي ، فظفروا بهم ، وهجموا عليهم وجرى بينهم قتال عظيم ، فقُتل من العدوّ جماعة ، وأحسّ بهم عسكر العدوّ فثار إليهم منهم جماعة واتصل الحرب ، وقُتل من المسلمين نفران ، وأُسر من العدوّ ثلاثة .

ومثلوا بخدمته - رحمة الله عليه - [147 ظ] فسألهم عن الأحوال ، فأخبروا أن ملك الأنكتار كان قد حضر عنده بعكّا اثنان بدويان ، وأنهما أخبراه بقلّة عدد العسكر الإسلامي ، وتشذّبه ، وأن ذلك هو الذي أطمعه حتى خرج ، وأنه لما كان بالأمس - يعني يوم الإثنين - رأى من المسلمين قتالاً عظيماً ، واستكثر الأطلاب ، وأنه جُرح أمس زُهاء ألف نفس ، وقُتل جماعة ، وأن ذلك هو الذي أوجب إقامته اليوم حتى يستريح عسكره ، وأنه لما رأى ما أصابهم بالأمس من القتال العظيم ، ورأى كثرة المسلمين أحضر البدويين عنده ، وواقفهما [2] ، وضرب أعناقهما .

---

(1) في طبعة مصر : مشرفين .
(2) أي استجوبهما وتبيّن الحقيقة منهما .

وأقمنا في ذلك اليـوم في تلـك المنزلـة ، لإقامـة العـدوّ بهـا ، وهـو يـوم الثلاثـاء العاشر من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

المنزل الثامن :

ولما كان ظهيرة نهار الثلاثاء المذكور ، ورأى السُّلطان - رحمه الله - الرحيل والتقدّم إلى قُدَّام العدوّ ، فدُقّ الكُـوْس ، ورحـل ورحـل النـاس ، ودخـل في شَعْرا أرسوف حتى توسّطها إلى تـلّ عنـده قريـة تسـمى دير الرّاهـب فنزل هنـاك ، ودهـم الناس الليل ، فتقطعوا في الشّعرا .

وأصبح مقيمـاً ينتظر بقيـة العسـاكر إلى صبـاح الأربعـاء ، الحـادي عشـر مـن شعبان المذكور ، وتلاحقت العساكر الإسلامية ، وركب يرتاد موضعاً يصلح للقتال ولقاء العدوّ ، وأقام ذلك اليوم أجمع هنـاك . ومـن أخبار العـدوّ في ذلـك اليـوم أنه أقام [148 و] على نهر القصب في ذلك اليوم أيضاً ، وأنه لحقه نجدة من عكّا في ثمـاني بُطَس كبار ، ويَزَك الإسـلام حوله يواصلون بالأخبار المتجدّدة لهـم ، وجـرى بـين اليَزَك وبين حَشّاشة [1] العدوّ قتال ، وجُرح من الطائفتين .

ذكر مُراسلة جرت في ذلك اليوم

وذلك أن العدوّ المخذول طلب من اليَزَك مَنْ يتحدث معه ، وكان مقدّم اليَزَك علم الدِّيـن سـليمان بـن جَنْـدَر ، فإنهـا كـانت نوبتـه ، فلمـا مضـى إليهـم مَـنْ يسـمع كلامهم كان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معه ، فاستأذن ، ومضى .

وبات تلـك الليلـة في اليَزَك - أعنـي ليلـة الخميس - ، وتحدّثـوا معـه ، وكـان حاصل حديثهم : «أنّا قد طال بيننا القتال ، وأنه قُتل من الجانبين الرجال الأبطـال ،

---

(1) الحشّاشة هم من يجمعون العشب لإطعام الدّواب .

وأنا نحن جئنا في نصرة فرنج السّاحل ، فاصْطَلحوا أنتم وهم ، وكلٌ منا يرجع إلى مكانه» .

وكتب السُّلطان – رحمة الله عليه – إلى أخيه الملك العادل – رحمه الله – في صبيحة يوم الخميس الثاني عشر من شعبان من سنة سبع رقعة يقول له فيها : «إن قدرتَ أن تطاول الفرنج في الحديث ، فلعلهم يقومون اليوم ، حتى يلحقنا التُركمان ، فإنهم قد قربوا منا» . وفي ذلك اليوم اجتمع الملك العادل بالأنكتار الملعون ، فكان الترجمان بينهما ابن الهَنْفَري [1] .

ذكر اجتماع الملك العادل والأنكتار

ولما طلبوا الملك العادل – رحمه الله – أذن له – رحمة الله عليه – في المضي إليهم ، فسار حتى [148 ظ] أتى اليَزَك ، ولما عرف الأنكتار وصوله إلى اليَزَك طلب الاجتماع به ، فأجابه إلى ذلك ، واجتمعا بنجوة من أصحابهما . وكان يُترجم بينهما ابن الهَنْفَري ، وهو من فرنج السّاحل من كبارهم ، ورأيتُه يوم الصُّلح ، وهو شابٌ حَسَنٌ ، إلا أنه محلوق اللحية – على ما هو شعارهم – .

وكان الحديث الجاري بينهما أن الأنكتار شرع في ذكر الصُّلح ، وأن الملك العادل قال له : «أنتم تطلبون الصُّلح ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السُّلطان» . فقال الأنكتار له : «القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفون إلى بلادكم» [2] . فأخشن له الجواب ، وجرتْ مُنافرةٌ اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهما .

---

(1) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر . أما ابن الهَنْفَري المذكور فهو الكونت همفري الرابع سيّد تبنين Humphrey IV, seigneur du Toron ، الذي كان أسر في حطّين ثم استرد حرّيته مقابل تسليم الكرك للسّلطان . وكان أحسن من يتكلّم العربية بين الصّليبيين .

(2) أية وقاحة هي هذه ! يتحدّث ريتشارد وكأنما كان وقومه أصحاب البلاد الأصليين .

ولّما أحسّ السُّلطان - رحمه الله - برحيلهم ، أمر الثَّقْل بالرحيل ، وقدّم عليهم أمير أسلم [1] . ووقف هو ، وعَبّأ الناس تعبئة القتال ، ووقف يتنسّم ما يرد إليه من أخبار العدوّ [2] . وسار الثَّقْل الصغير أيضاً حتى قارب الثَّقْل الكبير . ثم ورد أمر السُّلطان - رحمه الله - بعودهم إليه ، فعادوا ، ووصلوا وقد دخل الليل ، وتخبّط الناس في تلك الليلة تخبُّطاً عظيماً .

واستدعى أخاه الملك العادل ، لتعريفه ما جرى بينه وبين الملك ، وخلا به لذلك ، وذلك في ليلة الجمعة ثالث عشر شعبان من سنة سبع وثمانين وخمسمائة . وأما العدوّ فإنه سار ونزل على موضع يسمّى البركة أيضاً ، مشرف على البحر .

وأصبح السُّلطان - رحمه الله - في يوم الجمعة ، فأمر الثَّقْل فسار إلى قرية تسمى بركة . فأقام السُّلطان - رحمه الله - فطلّب [149 و] الأطلاب في مكانه [3] ، متطلّعاً إلى أخبار العدوّ . فأُحضر عنده اثنان من الفرنج قد تخطّفهما اليَزَك ، فأمَرَ بضرب أعناقهما فقُتلا . ووصل من أخبر أن العدوّ لم يرحل اليوم من منزلته تلك .

فنزل السُّلطان - رحمة الله عليه - في تلك المنزلة أيضاً ، واجتمع بأخيه الملك العادل - رحمه الله - يتحدثان في هذا الأمر ، وما يُصنع مع [4] العدوّ المخذول . وبات تلك الليلة في تلك المنزلة .

* * * * *

(1) هذه الجملة غير موجودة في طبعة مصر .
(2) هذه الجملة غير موجودة في طبعة مصر .
(3) هذه العبارة غير موجودة في طبعة مصر .
(4) في الأصل : من ، والتصويب بحسب ما يقتضيه السياق .

ذكر وقعة أرسوف
وهي التي أنكت في قلوب المسلمين

ولما كان يوم السبت رابع عشر شعبان ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، بلغ السُّلطان - رحمة الله عليه - أن العدوّ قد تحرّك للرحيل نحو أرسوف . فركب ورتَّب الأطلاب للقتال ، وعزم في ذلك اليوم على مصافّة القوم ومصادمتهم ، وأخرج - رحمة الله عليه - الجاليش من كل طُلْب . وسار العدوّ حتى قارب شعرا أرسوف وبساتينها ، فأطلق عليهم الجاليش النُّشَّاب ، ولزّتهم الأطلاب من كل جانب ، والسُّلطان - رحمة الله عليه - يقرِّب الأطلاب ويوقف بعضها ليكون ردءاً ، وضايق العدوّ مضايقة عظيمة . والتحم القتال واضطرمت ناره من الجانبين ، وقُتل منهم وجُرح .

فاشتدوا في السَّير عساهم يبلغون المنزلة فينزلون ، واشتد بهم الأمر ، وضاق بهم الخناق ، والسُّلطان - رحمة الله عليه - [149 ظ] يطوف من المَيْمَنَة إلى المَيْسَرَة يحثُّ الناس على الجهاد . ولقيتُه مراراً وليس معه إلا صبيّان بجنيبين لا غير ، ولقيتُ أخاه وهو على مثل [هذه] الحال والنُّشَّاب يتجاوزهما - رحمة الله عليهما . ولم يزل الأمر يشتدّ بالعدوّ ، وطمع المسلمون فيهم طمعاً عظيماً ، حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساتين أرسوف ، ثم اجتمعت الخيالة وتواصلوا [1] على الحملة خشية على القوم ، ورأوا أنهم لا ينجيهم إلا الحملة .

ولقد رأيتُهم وقد اجتمعوا في وسط الرَّجَّالة ، وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وفرج لهم رَجَّالتهم ، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها ، فحملت طائفةٌ على المَيْمَنَة ، وطائفة على المَيْسَرَة ، وطائفة على القلب ؛ فاندفع الناس بين أيديهم .

---

(1) في الأصل : تواضعوا ، والتصويب من طبعة مصر .

واتّفق أنّي كنتُ في القلب ، ففرَّ القلب فراراً عظيماً ، فنويتُ التحيُّز إلى المَيْسَرَة ، وكانت أقرب إليّ ، فوصلتها وقد انكسرت كسرةً عظيمة . فنويتُ التحيُّز إلى المَيْمَنَة ، فرأيتُها وقد فرَّت أشدّ فراراً من الكل [1] .

فنويتُ التحيُّز إلى طُلْب السُّلطان - رحمه الله - وكان ردء الأطلاب كلّها كما جرت العادة ، فأتيتُه ولم يُبق السُّلطان فيه إلا سبعة عشر مقاتلاً لا غير ، وأخذ الباقين إلى القتال ، لكن الأعلام كلها باقية ثابتة [2] والكوس يدق لا يفتر .

وأما السُّلطان - رحمة الله عليه - فإنه لما رأى ما نزل بالمسلمين من هذه النازلة ، سار [150 و] حتى أتى طُلْبه ، فوجد فيه هذا النَّفَر القليل ، فوقف فيه والناس يفرُّون من الجوانب ، وهو يأمر أصحاب الكُوس بالدق بحيث لا يفترون ، وكلّما رأى فارّاً يأمر مَنْ يحضره عنده . وفي الجملة ما أقصر المسلمون بفرارهم ، فإن العدوّ حمل حملة ففرُّوا ، ثم وقف خوفاً من الكمين ، فوقفوا وقاتلوا ؛ ثم حمل حملة ثانية ، ففرُّوا وهم يقاتلون في فرارهم ، ثم وقف فوقفوا ؛ ثم حمل حملة ثالثة ، حتى بلغ إلى رؤوس رواب هناك ، وأعالي تلول ، ففرُّوا إلى أن وقف العدوّ فوقفوا .

وكان كل من رأى طُلْب السُّلطان واقفاً والكوس يدق يستحي أن يجاوزه ، ويخاف غائلة ذلك فيعود إلى الطُّلْب . فاجتمع في الطُّلْب خلقٌ عظيم ، ووقف العدوّ قُبالتهم على رؤوس التلول والروابي ، والسُّلطان - رحمه الله - واقف في طُلْبه ، والناس يجتمعون عليه ، حتى أتت العساكر بأسرها . وخاف العدوّ أن يكون في الشعرا كمين ، فتراجعوا يطلبون المنزلة .

وعاد السُّلطان إلى تلّ في أوائل الشعرا ، ونزل عليه في خيمة ، ولقد كنتُ في خدمته - رحمة الله عليه - أُسَلِّيه وهو لا يقبل السَّلو ، وظُلِّل عليه بمنديل ، وسألناه

---

(1) في طبعة مصر نقص فادح بالنص عمّا هو هنا .
(2) إضافات يسيرة من طبعة مصر .

أن يطعم شيئاً ، فأُحضر له شيء لطيف ، فتناول منه شيئاً يسيراً . وبعث الناس خيولهم إلى السَّقي ، فإن المكان كان بعيداً منهم ، وجلس ينتظر الناس من العود [150 ظ] من السَّقي ، والجرحى يُحضرون بين يديه ، وهو يتقدّم بمداواتهم وحملهم (1) .

وقُتل في ذلك اليوم رَجّالة كثيرة ، وجُرح جماعة من الطائفتين . وكان ممّن ثبت الملك العادل - رحمة الله عليه - ، والطَّواشي قايماز النَّجْمي ، والملك الأفضل ولده ، وصُدم في ذلك اليوم وانفتح دُمَّل كان في وجهه ، وسال منه دمٌ كثير على وجهه ، وهو صابرٌ محتسب في ذلك كله - رحمة الله عليه - . وثبت ذلك اليوم طُلْب المَوْصل ومُقدَّمه علاء الدِّين ، وشكره السُّلطان على ذلك .

وتفقَّد الناس بعضهم بعضاً ، فوُجد قد استُشهد جماعة من العسكر ، عُرف منهم (2) : أمير شكار مُوْسَك (3) ، وكان رجلاً شجاعاً معروفاً ؛ وقايماز العادلي ، وكان مذكوراً ؛ وأقوش (4) ، وكان شجاعاً ، أسف السُّلطان - رحمة الله عليه - عليه . وجُرح خلقٌ كثير وخيول كثيرة ، وقُتل من العدوّ جماعة ، وأُسر واحد وأُحضر ، فأمَرَ - رحمه الله - بضرب عنقه ، فقُتل . وأُخذت منهم خيولٌ أربعة .

وكان قد تقدَّم - رحمه الله - إلى الثَّقْل أن يسير إلى العَوْجَا (5) ، وذكر أن المنزل يكون على العَوْجَا ، فاستأذنتُه وتقدّمتُه إلى المنزل ، وجلس هو - رحمه الله - ينتظر اجتماع العساكر وما يرد من أخبار العدوّ ، وكان العدوّ قد نزل على أرسوف ، قبليّها .

---

(1) هل تُرانا - ليت شعري - نرى في أيامنا حاكماً يتقدّم بمداواة الجرحى وحملهم بيده ؟
(2) في طبعة مصر : منهم شخصان .
(3) في طبعة مصر : أمير كبير مملوك .
(4) في الأصل : أبعوش ، وفي طبعة مصر : ليفوش . وكل هذا لا يستقيم ، ولعل ما أثبتناه هو الصواب في نظرنا ، فأقوش من أسماء المماليك المعروفة ، Ak-kuş : الطير الأبيض .
(5) في طبعة مصر : العوجاء ، والجاري في نُطق اسمها بالعاميّة بغير الهمزة . ذكر ياقوت في معجمه (4 : 167) : العَوْجاء نهر بين أرسوف والرَّمْلة من أرض فلسطين من السَّواحل .

المنزل التاسع :

وسرتُ بعد صلاة الظهر حتى أتيتُ الثُّقْل ، وقد نزل [151 و] قاطع النهر المعروف بالعَوْجَا في منزلة خضرة طيّبة نضرة على جانب النهر ، ووصل السُّلطان - رحمه الله - إلى المنزلة أواخر النهار ، وازدحم الناس على القنطرة ، فنزل على تل مشرف على النهر ، ولم يعبر [1] إلى الخيمة ، وأمر الجاويش [2] أن ينادي في العسكر بالعبور إليه . وكان في قلبه من الوقعة أمرٌ لا يعلمه إلا الله تعالى ، والناس بين جرّيح الجسد ، وجريح القلب .

وأقام السُّلطان إلى سَحْرَة ليلة الأحد الخامس عشر من شعبان ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ودُقّ الكوس ، وركب وركب الناس ، فسار راجعاً إلى جهة العدوّ ، حتى وصل إلى قريب من أرسوف ، وصفّ الأطلاب للقتال ، رجاء خروج العدوّ ومسيره حتى يصادمه ، فلم يرحل العدوّ في ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراح ، فأقام - رحمة الله عليه - قُبالتهم إلى آخر النهار ، وعاد إلى منزلته التي بات فيها ، فبات بها ليلة الإثنين السادس عشر [3] .

ولما كانت صبيحة الإثنين ، دُقّ الكوس ، وركب وركب الناس ، وسار نحوهم ، ووصل خبر العدوّ وقد رحل طالباً جهة يافا ، فقاربهم - رحمة الله عليه - مقاربةً عظيمة ، ورتّب الأطلاب ترتيب القتال ، وأخرج الجاليش ، وأحدق العسكر الإسلامي بالقوم ، وألقوا عليهم من النُّشّاب ما كاد أن يسدّ الأفق ، وقاتلوهم قتال الحنق . وقصد - رحمة [151 ظ] الله عليه - تحريك عزماتهم على الحملة ، حتى إذا حملوا ألقى الناس عليهم وقصدوهم [4] ، ويعطي الله النصر لمن يشاء .

---

(1) في طبعة مصر : ولم يعد .
(2) سبق ورود هذا المصطلح مراراً ، وشرحنا معناه في محلّه ، فليُنظر .
(3) الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(4) الكلمة مضافة من طبعة مصر .

فلم يحملوا ، وحفظوا نفوسهم ، وساروا مصطفّين على عادتهم حتى أتوا نهر العَوْجَا ، وهو النهر الذي منزلنا أعلاه ، فنزلـ[ـوا] في أسفله ، وعبر بعضهم إلى غربي [1] النهر ، وأقام الباقون من الجانب الشرقي . ولما عُلم نزولهم تراجع الناس عنهم ، وعاد السُّلطان إلى الثَّقْل ، فنزل - رحمة الله عليه - في خيمته ، وأطعم الطعام . وأُتي بأربعة من الفرنج قد أخذتهم العرب ، ومعهم امرأة فدُفعوا إلى الزَّرَدْخاناه [2] .

وأقام بقية اليوم في تلك المنزلة ، يكتب الكُتُب إلى الأطراف باستحضار بقية العساكر ، وحضر من أخبر أنه قُتل من العدوّ يوم أرسوف خيول كثيرة ، وأنه تتبّعها العرب وعدّوها فزادت على مائة ، وجُرح أيضاً من المسلمين خيلٌ كثيرة [3] . وأمَرَ السُّلطان - رحمة الله عليه - أن رحلتْ الجمال ، وتقدّمتْ إلى الرَّمْلة وباتت بها وبات هو - رحمة الله عليه - في تلك المنزلة .

المنزل العاشر :

ولما كان يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، صلّى الصبح - رحمة الله عليه - ورحل ورحل معه الثَّقْل الصغير ، وسار يريد الرَّمْلة ، وأُتي باثنين من الفرنج فأمر بضرب أعناقهما . ووصل من اليَزَك الإسلامي مَنْ أخبر أن العدوّ رحل يريد يافا [4] ، وسار السُّلطان - رحمه الله - إلى أن [152 و] أتى الرَّمْلة ، ونزل في الثَّقْل الكبير . وأُتي باثنين من الفرنج أيضاً ، فسألهم عن أحوال القوم ، فذكروا أنهم ربما أقاموا بيافا أياماً ، وفي أنفسهم عمارتها وإشحانها بالرِّجال والعُدَد .

---

(1) في الأصل : وعبر بعضهم النهر . والتصويب من طبعة مصر .
(2) أي إلى الحبس ، والكلمة فارسية ، تعني بالأصل مخزن الدروع والسِّلاح .
(3) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(4) في طبعة مصر : رحل من يافا .

وأحضر السُّلطان - رحمة الله عليه - أرباب مشورته وشاوَرَهم في أمر عَسْقَلان ، وأنها هل تخرب أم تبقى . واتّفق الرأي على أن يتخلَّف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر قريباً من العدوّ ليعرف أخباره وإيصالها ، وأن يسير هو - رحمه الله - يخرِّب عَسْقَلان خشية من أن يستولي عليها الفرنج وهي عامرة ، فيُتلفوا مَنْ بها من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القُدْس الشَّريف - يسَّر الله فتحه [1] - ، ويقطعوا بها طريق مصر المحروسة .

وخشي السُّلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكّا ، وما جرى على من كان مُقيماً بها ، وتجافى الناس عن الدخول إلى عَسْقَلان ، وادُّخرت القوة في عسكر الإسلام لحفظ القُدْس المحروس ؛ فتعيَّن لذلك كلّه خراب عَسْقَلان . فسار الثَّقْل والجمال من أول الليل ، وتقدَّم - رحمه الله - إلى ولده الملك الأفضل ، أن سار عقيب الثَّقْل نصف الليل ، وسار هو - رحمة الله عليه - وأنا في خدمته ، سَحْرَة ليلة الأربعاء .

المنزل الحادي عشر :

وهو على عَسْقَلان

ولما كان يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، [152 ظ] وصل السُّلطان - رحمه الله - إلى يُبْنَى ، فنزل بها وضحًى ، وأخذ الناس راحة ، ثم رحل - رحمة الله عليه - وسار حتى أتى أرض عَسْقَلان بعد صلاة

(1) هذه العبارة هنا ذات مغزى كبير ، فهي تدلّ على أن ابن شدّاد كتبها في عام 626 هـ . ففي هذا العام (الموافق لـ 1229 م) عُقدت هُدنة بين الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني والملك الكامل الأيوبي ، تسلّم الصّليبيون بموجبها القُدْس ، إلى أن انتزعها منهم الخوارزمية عام 1244 م . وهذا يدلّ بالنتيجة أن المؤلف ظلّ يعدّل في كتابه إلى أن تمّ نسخه في عام 626 هـ ، أما فراغه من جمعه عند وفاة السُّلطان الناصر عام 589 هـ ، فهو في مُسَوَّدته .

العصر ، وقد ضُربتْ خيمته بعيداً منها شمالي البلد في أرض طيّبة حسنة [1] ، فبات هناك مهموماً بسبب خراب عَسْقَلان ، وما نام تلك الليلة إلا قليلاً .

ولقد دعاني إلى خدمته سَحَراً ، وكنتُ فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل ، فحضرتُ ، وبدأ الحديث في معنى خرابها ، وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في ذلك ، وأنا في خدمتهما . وطال الحديث في المعنى ، ولقد قال لي ، رحمة الله عليه : «والله ، لئن أفقد أولادي كلّهم ، أحبُّ إلى من أن أهدم منها حجراً واحداً ، ولكن إذا قضى الله بذلك لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع ؟» .

ذكر خراب عَسْقَلان

ثم استخار الله تعالى ، فأوقعَ الله في نفسه إن المصلحة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها عن الفرنج ، فاستحضر الوالي بها قَيْصَر [2] ، وهو من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم ، فأمره أن يضع فيها المعْوَل ، وذلك في سَحْرَة ليلة الخميس التاسع عشر من شعبان ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة . ولقد رأيتُه وقد اجتاز بالسُّوق والوطاق بنفسه ، يستنفر الناس للخراب ، وقسَّم السُّور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة [من الناس] والعسكر بَدَنَة معلومة وبُرجاً معلوماً يخربونه .

ودخل الناس البلد ، ووقع الضجيج والبُكاء ، وكان بلداً نضراً خفيفاً على القلب ، مُحكم الأسوار عظيم البناء ، مرغوباً في سكناه ، فلحق الناس عليه حزنٌ عظيم ، وعظم عويل أهله وبكاؤهم على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا في بيع ما لا

---

(1) في طبعة مصر نقص متوال بعدّة جمل . والأصل الذي بين يدينا أكمل بلا شك .
(2) في الأصل : قيصير ، والتصويب من طبعة مصر . وهو عَلَم الدِّين قَيْصَر ، ولاّه السُّلطان على الدَّاروم ، وسيرد ذكره مراراً فيما يلي .

يمكن حمله ، وبيع ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد ، ورمى الناس أقمشتهم بالثمن البخس ، حتى بيع اثنا عشر طيراً من الدجاج بدرهم واحد .

واختبط البلد ، وخرج أهله إلى العسكر المنصور بذراريهم ونسائهم ، خشية أن يهجم الفرنج البلد ، ويذلوا في الكرى أضعاف ما يساوي ، قومٌ إلى مصر ، وقومٌ إلى الشام ، وقوم يلبثون إذا لم يقع لهم كرى ، وجرت أمور عظيمة ، وفتنة هائلة ، لعلها لم تختصّ بالذين ظلموا . وكان هو بنفسه وولده الملك الأفضل يستعملان الناس في الخراب والحثّ عليه ، خشية أن يسمع العدوّ فيحضر ولا يمكن خرابها . وبات الناس في الخيم على أتم حال من التعب والنَّصَب .

وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل مَنْ أخبر أن الفرنج تحدّثوا معه في الصُّلح ، وأنه خرج إليه ابن الهَنْفَري ، وتحدث معه في المعنى ، وأنه طلب جميع البلاد السّاحلية ، فرأى السُّلطان – رحمه الله – أن ذلك مصلحة ، لما رأى في نفوس الناس من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة ، [153 ظ] وكثرة ما علاهُم من الدُّيون [1] ، وكتب إليه يسمح له في الحديث في ذلك ، ففوّض أمر ذلك إلى رأيه .

وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان على الإصرار من الخراب ، واستعمال الناس فيه وحثِّهم عليه ، وأباحهم الهُري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله ، وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج ، وأمر بحريق البلد ، فأُضرمت النار في بيوته وآدره ، فاضطرمت النار فيه ، ورفض أهله بواقي أقمشتهم للعجز عن نقلها ، والأخبار تتواتر من جانب العدوّ بعمارة يافا .

---

(1) هذه ناحية هامة ينبغي الإشارة إليها هنا ، وذلك أن صلاح الدين الذي حكم بالشام 19 عاماً (570–589 هـ) لم يكفّ عن مناجزة الصّليبيين ، علماً أن موارد أوروبا كلها كانت متاحة أمامهم ، فكلما لزم الأمر قدمت إليهم معونات هائلة من الجيوش والإمدادات والمؤن ، بينما تبقى إمدادات السّلطنة ومواردها البشرية محدودة لا يمكن تعويض خسائرها أبداً . والناحية الأخرى الهامة ، هي أن كافة حكام الشام في تلك الفترة حرصوا على حماية المدن العواصم الداخلية من مخاطر الغزو ، كدمشق وحلب وحماة وحمص ، اللواتي لم يتمكن الغزاة من احتلالهن على الإطلاق ، برغم ما بذلوا .

وكتب الملك العادل يخبر أن القوم لم يعلموا بخراب البلد ، وكتب إلى الملك العادل أن «سوِّف القوم ، وطوِّل الحديث معهم ، لعلّنا نتمكن من خراب البلد» . وأمر بحشو أبراج البلد بالأحطاب ، وأن تُحرق .

وأصبح يوم السبت الحادي والعشرون ، فركب - رحمة الله عليه - يحثُّ الناس على الحريق ، ودام على ذلك يستعمل الناس في التخريب ، ويطوف عليهم بنفسه يحثُّهم على ذلك ، حتى التاث مزاجه التياثاً قوياً ، امتنع بسببه من الركوب والغذاء يومين ، وأخبار العدوّ تتواصل إليه في كل وقت ، ويجري بينهم وبين اليَزَك والعسكر القريب وقعات وقلبات ، والأخبار تتواصل إلينا وهو يواظب على الحثّ على الخراب ، ونقل الثَّقْل إلى قريب البلد ، ليعاونوا الغلمان والحمالين وغيرهم في ذلك .

فخُرِّب من السُّور معظمه ، وكان [154 و] عظيم البناء ، بحيث أنه كان عرضه في مواضع تسعة أذرع ، وفي مواضع عشرة أذرع ، وذكر بعض الحجّارين للسُّلطان وأنا حاضر أن عرض البرج [1] الذي ينقبون فيه مقدار رمح . ولم يزل الخراب والحريق يعمل في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان المذكور .

وعند ذلك وصل من جُرْديك كتابٌ يذكر فيه أن القوم تفسَّحوا وصاروا يخرجون من يافا ويُغيرون على البلاد القريبة منها ، فلو تحرّك السُّلطان فلعله يبلغ منهم غرضاً في غرَّتهم ، فعزم على الرحيل ، وعلى أن يخلِّف في عَسْقَلان حجّارين ومعهم خيلٌ تحميهم ويستنهضونهم [2] في الخراب . ثم رأى أن يتأخر بحيث يُحرق البُرج المعروف بالإسبتار ، وكان برجاً عظيماً مُشرفاً على البحر كالقلعة المنيعة ، ولقد دخلتُه وطُفْتُهُ ، فرأيتُ بناءه أحكم بناء يُفرض أن يكون ، لا تعمل فيه المعاول ، وإنما أراد أن يحرقه حتى يبقى بالحريق قابلاً للخراب ويعمل الهدم فيه .

---

(1) في طبعة مصر : السُّور . وكل هذه الأبنية من عمل الفرنجة الذين احتلوها عام 548 هـ .
(2) بالأصل : مستقصون . والتصويب من طبعة مصر .

وأصبح يوم الإثنين مستهلّ رمضان ، سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، أمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصه ، ولقد رأيتُه يحمل الخشب هو وخواصه لحريق البرج ، ولم يزل الناس ينقلون الخشب ويحشونه في البرج حتى امتلأ ، ثم أُطلقت فيه النار فاشتعل الخشب ، [154 ظ] وبقيت النار تشتعل فيه يومين بليلتيهما .

ولم يركب السُّلطان - رحمة الله عليه - في ذلك اليوم تسكيناً لمزاجه . وعرض لي أيضاً تشوُّش مزاج اقتضى انقطاعي عنه في ذلك اليوم ، وقد تردَّد إليَّ من يسأل عن مزاجي من عنده ثلاث مرات [1] ، مع اشتغال قلبه - رحمه الله - بذلك المُهمّ . فالله تعالى يرحمه ، فلقد ماتت محاسن الأخلاق بموته ، رحمه الله .

ذكر نزوله بيُبْنَى

ورحل تلك الليلة ، وهي ليلة الثلاثاء ثاني رمضان ، من سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وكان رحيله نصف الليل ، خشية على مزاجه من الحرّ . وصلّينا الصبح ، ووصل هو - رحمة الله عليه - يُبْنَى [2] ضاحي نهار الثلاثاء ، وبدأ فنزل في خيمة أخيه الملك العادل ، واستعلم منه أخبارهم ساعةً ، ثم ركب ونزل في خيمته . وبات تلك الليلة في تلك المنزلة .

---

(1) لا يمكن تخيّل شهامة أو سموّ أخلاق عند الحكام والسلاطين أكثر مما كان لدى السُّلطان الناصر صلاح الدين أبداً ، فهو برغم كل ما ألمّ به من مرض وهموم وأعباء ، لا يُهمل تفقّد أحوال مرؤوسيه بكلِّ مودّة وتواضع واهتمام . ولقد وَرَدَ في الحديث الشريف : مَنْ لانَتْ أخلاقُهُ وَجَبَتْ مَحَبَّتُه .

(2) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر ، وإنما مكانه : ذكر رحيله إلى الرَّملة . أما يُبْنَى فذكرها ياقوت في معجم البلدان (5 : 428) : يبنى ، بالضم ثم السكون ونون وألف : بُلَيْدٌ قرب الرَّملة . قلنا : تقع جنوبي يافا وغربي اللُّدّ ، وتُعرف اليوم باسم : يبنة . أما الصَّليبيون فسمّوها بالفرنسية : Ibelin إيبلان .

ذكر رحيله إلى الرَّمْلة

وأصبح في يوم الأربعاء ثالث رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة راحلاً إلى جهة الرَّمْلة ، فسار حتى أتاها ضاحي نهار ، ونزل بالثَّقْل الكبير هناك نزول إقامة ، ورتّب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً ، وأطعم الناس الطعام ، ثم أخذ جزءاً من الرَّاحة .

وركب بين صلاتي الظهر والعصر ، فسار إلى لُدّ ، فرآها ورأى بِيْعَتَها [1] وعظَم بنائها ، فأمر بخرابها وخراب قلعة الرَّمْلة أيضاً ، ووقع الخراب في المَوضعين في ذَلك اليوم [155 و] وفرّق الناس فرقاً لتخريب المكانين ، وأباح ما فيهما من التبن والشعير في الأهراء السُّلطانية ، وأمر من كان فيهما من المقيمين بهما إلى الانتقال إلى المواضع العامرة ، وما كان بقي في المكانين إلا نفر يسير ، وظلّ الناس يخرّبون إلى أن أمسى المساء . ثم عاد إلى خيمته .

وأصبح يوم الخميس رابع رمضان ، وأقام الحجّارين في المكانين ورتّب عليهم من يستخدمهم في ذلك ، وهو يتردّد إليهم في الأصائل حتى جاء وقت المغرب ، فمدّ الطعام وأفطر الناس ، وانفصلوا إلى خيامهم .

ووقع له أن يسير خفية في نفر يسير يشاهد أحوال القُدْس الشَّريف - يسَّر الله خلاصه [2] - فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة ، فبات فيها حتى أتى الصّباح وصلّى ، وسار حتى أتى القُدْس الشَّريف - خلّصه الله تعالى - في يوم الجمعة خامس رمضان المذكور ، وخلّف أخاه الملك العادل - رحمه الله - في العسكر يحثّ الناس على الخراب ، فصلّى الجمعة ، وأقام ذلك اليوم يتصفح أحوال القُدْس في عمارته وميرته وعدّته ورجاله وغير ذلك .

---

(1) البِيْعَة : الكاتدرائية أو الكنيسة .

(2) هذه المرّة الثانية التي يرد فيها مثل هذه العبارة في النص ، وكنا ذكرنا أعلاه أنها وُضعت في نفس السنة التي تم فيها الفراغ من نسخ المخطوط ، أي عام 626 هـ = 1229 م .

وظفر في ذلك اليوم غلمان الطواشي قايماز بنَفَر من النَّصَارى ، ومعهم كُتُبٌ قد كتبها الوالي إلى السُّلطان قريبة التاريخ ، يذكر فيها إعواز البلد للغلّة والعُدّة والرجال ، وأرادوا حملها إلى العدوّ ، فوقف على الكتب ، وضُربت [155 ظ] رقاب من كانت معهم . وما زال يتصفَّح أحوال المكان ، ويأمر بسدّ خلله إلى يوم الإثنين ثامن رمضان .

ولما كان الإثنين خرج سائر العسكر بعد صلاة الظهر ، فبات في [بيت] نوبة . وفي هذا اليوم وصل مُعزّ الدِّين قَيْسَر شاه – صاحب مَلَطية [1] – ابن قليج أرْسْلان ، وافداً عليه مستنصراً به على إخوته وأبيه ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده منه . فلقيه الملك العادل – رحمه الله – قاطع لُدّ ، واحترمه وأكرمه ، ثم لقيه بعده ولد السُّلطان الملك الأفضل ، وضُربت خيمته قريباً من لُدّ .

وفي ذلك اليوم ، خرج من العدوّ حَشّاشة فحَمَلَ عليهم اليَزَك ، ووصل الخبر إلى عسكرهم ، فخرج في نُصرتهم خيّالة ، وجرى بينهم وبين اليَزَك قتال . وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم الأنكتار ، وأن مسلماً قصد طعنه ، فحال بينه وبينه فرنجي ، فقُتل الفرنجي وجُرح هو . هكذا ذُكر والله أعلم [2] .

ذكر عوده إلى العسكر [3]
رحمه الله

ولما كان يوم الثلاثاء ، تاسع رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وصل – رحمه الله – إلى العسكر ولقيه الناس مستبشرين بقدومه ، ولقيه ابن قليج أرْسْلان ، فنزل له واحترمه وأكرمه ، ونزل في خيمته – رحمة الله عليه – وأقام

(1) مَلَطية مدينة معروفة شرقي تركيا الحالية ، إلى الغرب من ديار بكر .
(2) تذكر بعض المصادر الفرنجية شيئاً قريباً من ذلك ، لكن أيضاً ليس على وجه التحقيق .
(3) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

يحثّ على الخراب ، وتتواصل أخبار العدوّ إليه ، ويقع بينهم وبين اليَزَك وقعات ، وتسرق [156 و] العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم .

ذكر وصول رسول المَرْكيس

وفي غضون ذلك وصل رسول من المَرْكيس يذكر أنه يصالح الإسلام بشرط أن يُعطى صَيْدا وبَيْرُوت على أن يُجاهر الفرنجَ بالعداوة ، ويقصد عكّا ويحاصرها ويأخذها منهم ، واشترط أن يبذل له السُّلطان - رحمة الله عليه - اليمين على ذلك ابتداءً ، فسَيَّر إليه العَدْل النَّجيب [1] ، وحمل الإجابة إلى ملتمسه لقصد فصله عن الفرنج ، فإنه كان خبيثاً ملعوناً ، وكان قد استشعر منهم أخذ بلده ، وهي صُوْر ، منه ، فانحاز عنهم ، واستعصم بصُوْر وهي منيعة . فقُبل ذلك القول منه بهذا السبب [2] .

وسار النَّجيب العَدْل مع رسوله في يوم الجمعة ثاني عشر رمضان من السنة المذكورة ، واشترط عليه أن يبدأ بمحاصرة القوم وحصار عكّا وأخذها ، وإطلاق من بها ومن بصُوْر من الأسارى ، وعند ذلك يُسلَّم إليه الموضعان . وفي عشيّة ذلك اليوم خرج رسول الأنكتار إلى الملك العادل في تحريك سلسلة الحديث في الصُّلح .

---

(1) هو العَدْل الزَّبَداني الذي تقدّم ذكره (ص 295) ، وهنا ما يدلّ أن اسمه كان نجيب الدِّين .

(2) سبق أن ذكرنا قيام تنافس محموم على عرش مملكة القُدْس اللاتينية الثانية ، التي أضحت عاصمتها الجديدة عكّا . كان هذا التنافس ما بين المركيز المذكور ، كونراد دى مونفيرا ، وبين ملك القُدْس السابق گي دى لوزينيان . واستفحل الخلاف أكثر فأكثر بسبب تأييد فيليپ ملك فرنسا لكونراد ومعه الجنويون ، وميل ريتشارد ملك إنكلترا لگي ومعه البيزيون ، وكانت بين الملكين عداوة معروفة برغم قرابتهما الوثيقة . فلمّا رحل فيليب عن المشرق في آب 1191 م ، فقد كونراد نصيره وخشي ريتشارد ، فلذا نراه هنا يلجأ إلى مُهادنة المسلمين . والذي تم فيما بعد أن گي اكتفى بجزيرة قبرص ، وآل عرش القُدْس إلى هنري ابن أخت ريتشارد ، بعد أن لقي كونراد مصرعه مُغتالاً بدسّ من الأخير .

ذكر رحيل السُّلطان من الرَّمْلة

رحمه الله [1]

ولما كان يوم السبت الثالث عشر من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، رأى السُّلطان – رحمة الله عليه – أن يتأخر بالعسكر إلى الجبل ، ليتمكن الناس من إنفاذ دوابهم إلى العلوفة ، فإنا كنا على الرَّمْلة قريبين من العدوّ ، وما يمكن التفريط في [156 ظ] الدّواب خشية المهاجمة . فرحل – رحمة الله عليه – ونزل على تلّ متصل بجبل النّطرون بالثَّقْل الكبير وجميع العسكر ما عدا اليَزَك على العادة ، وذلك بعد خراب الرَّمْلة ولُدّ ، ولما نزل هناك في ذلك اليوم دار حول النّطرون ، وأمر بتخريبها ، وكانت قلعة منيعة حصينة من القلاع المذكورة ، فشرع في خرابه .

وتردّدت الرُّسُل بين الملك العادل والأنكتار يذكرون عنه أنه قد سلَّم أمر الصُّلح إلى الملك العادل ، وأخلد إليه ، وخرج منه عشرة أنفس إليه إلى اليَزَك ، فأخبروه بأخبار طيّبة ، كتب بها إلى السُّلطان – رحمة الله عليه – في عشية الأربعاء سابع عشر رمضان من سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ذكر موت الإفرنسيس [2]

فكان مما أخبر به الملك العادل أن ملك الإفرنسيس مات ، وكان موته في أنطاكية عن مرض عرض له ، وأن الأنكتار عاد إلى عكّا ، وكان سبب عوده إلى عكّا أنه صحّ عنده مراسلة المَرْكيس للسُّلطان – رحمة الله عليه – وبلغه أن المَرْكيس

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر . أما عن موت ملك فرنسا فيليب أوگست ، فليس الأمر بصحيح ، فقد بقي على العرش حتى وفاته عام 1223 م (620 هـ) . وهو أصلاً لم يكن بأنطاكية ، فقد كان أبحر عائداً إلى فرنسا في مطلع آب عام 1191 م ، بعدما اشتجر الخلاف بينه وبين ريتشارد في عكّا .

قد انتظم الحال بيننا وبينه ، وأنه قد استقرّت القاعدة على عكّا ، فعاد هو إلى عكّا لفسخ هذه المصالحة ، واسترجاع المَرْكيس إليه .

وأقام الملك العادل في اليَزَك ، وركب السُّلطان - رحمه الله - يوم الخميس الثامن عشر من الشهر ، وسار السُّلطان - رحمة الله عليه - إلى اليَزَك ، واجتمع [157 و] بأخيه الملك العادل في لُدّ ، وسأل منه الأخبار ، وعاد إلى المخيم وقت العصر ، وأُتي باثنين من الفرنج قد تخطّفهما اليَزَك ، فأخبرا بصحّة موت الإفرنسيس وعود الأنكتار إلى عكّا .

ذكر مسير الملك العادل إلى القُدْس الشَّريف يسَّر الله خلاصه ووصول خبر وفاة قزل بن إلدكز

ولما كان يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، اقتضى الحال تفقُّد أحوال القُدْس والنظر في عمائره ، وكان الملك العادل قد عاد من اليَزَك ، وعلم بُعْد مُقدَّمي الفرنج عنا ، فرأى أن يكون هو الذي يسير إلى القُدْس ، فسار في ذلك [اليوم] لهذا الغرض .

وفي تاريخ هذا اليوم ، وصل كتاب من الملك المظفَّر تقي الدِّين - رحمه الله - يُخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن إيلدكز قفز عليه أصحابه فقتلوه ، وقيل : إن ذلك كان من تحت يد زوجته تعصّباً للسُّلطان طُغْرُل ، وجرى بسبب قتله في بلاد العجم خبطٌ عظيم . وكان قتله - على ما بلغنا - في أوائل شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، والله تعالى أعلم .

* * * * *

ذكر عَوْد الملك العادل
رحمه الله
من القُدْس الشَّريف (1)

ولما كان يوم الأحد حادي عشري رمضان ، قدم الملك العادل من القُدْس قُبيل العصر .

وفي تاريخ هذا اليوم وصل كتاب [157 ظ] من الدِّيوان العزيز النبوي (2) يذكر فيه قصد الملك المظفّر تقي الدِّين خلاط ويُظهر فيه العناية التامة ببكتمر ، ويشفع فيه في حسن بن قَفْجَاق ، ويتقدَّم بإطلاقه ، وكان قد قبض عليه مظفَّر الدِّين [ابن زين الدِّين] بإربل المحروسة ، ويتقدَّم بمسير القاضي الفاضل إلى الدِّيوان لبتٍّ حال وفصل أمر . فسيَّر الكتاب إلى الفاضل ليقف عليه ، وكتب إلى الملك المظفَّر بذَلك .

ذكر أخبار يَزَك كان على عكّا
وقضية لصوص دخلوا في خيام العدوّ

ولما كان يوم الإثنين الثاني والعشرين من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، أحضر اللصوص فرساً وبغلة قد دخلوا إلى خيم العدوّ وسرقوهما منهم ، وكان قد دَيْوَن (3) - رحمة الله عليه - ثلاثمائة لصّ من شُلُوح العرب يدخلون ويسرقون منهم أموالهم وخيولهم ، ويسرقون الرجال أحياء .

وذلك أنه يكون الواحد منهم نائماً ، فيوضع على حلقه الخنجر ، ثم يوقظ فيرى الشِّلح والخنجر في يده ، وقد وضعه في نحره ، فيسكت ولا يتجاسر أن

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(2) أي ديوان الخليفة العبّاسي في بغداد ، الذي كان آنذاك الناصر لدين الله ابن المستضيء .
(3) في طبعة مصر : رتّب . وأما دَيْوَن فتعني : جَنَّدَ .

يتكلّم ، فيُحمل وهو على هذا الوضع إلى أن يخرج من الخيمة ، ويؤخذ أسيراً ، وتكلّم منهم جماعةٌ فنُحروا ، فصار من أصابه ذلك سَكَتَ واختار الأسر على القتل ، وداموا على ذلك مدّة طويلة إلى انتظام الصُّلح .

وفي تاريخ ذلك اليوم ، وصل من اليَزَك المرتَّب [158 و] على عكّا في موضع يقال له الزِّيب خبر أسارى مع رسول من اليَزَك ، أخبر أنهم خرجوا من عكّا وتفسّحوا ، وأن اليَزَك حمل عليهم فأسر منهم أحداً وعشرين نفساً ، وأن الأسارى أخبروهم بصحة عَوْد الأنكتار إلى عكّا ، وأنه مريض بها ، وأخبروا عن ضعف أهل عكّا وفقرهم وقلة الميرة عندهم .

وفي هذا التاريخ وصلت للعدوّ مراكب عدّة قيل إنها وصلت من عكّا ، وأن فيها الأنكتار قد عاد بجماعة عظيمة ليقصد عَسْقَلان ويعمرها ، وقيل ليقصد القُدْس ، والله أعلم .

ذكر خبر وصول الأسارى المذكورين [1]

ولما كان يوم الأربعاء ، الرابع والعشرون من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وصل الأسارى من الزّيب ، وكان وصولهم مفرجاً للمسلمين مبشراً بكل خير . وفيه وصل رسول قزل كان قد سيَّره قبل وفاته ، ورسول ابن أخيه إينانج [2] . وفي عشيته وصل رسول من الأنكتار ومعه حصان إلى الملك العادل في مقابلة هدية كان أنفذها إليه .

* * * * *

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) إينانج اسم تركي قديم : Yınanç ، وفي التركية الحديثة : İnanç ، ويعني : مؤمن .

ذكر وفاة حسام الدِّين بن لاجين [1]

فيه وصل خبر وفاته بمحروسة دمشق لمرض كان اعتراه ، وصعب على السُّلطان – رحمة الله عليه – موته وشقَّ عليه . وفيه وصل كتاب من سَامه [2] يذكر فيه أن البْرَنْس – لعنه الله – أغار على جَبْلَة واللاذقية ، وأنه كُسر كسرةً عظيمة ، [158 ظ] قُتل منه جماعة ، وعاد إلى أنطاكية مخذولاً .

ذكر دخول رسول الملك العادل إلى الأنكتار

ولما كان يوم الجمعة سادس عشري رمضان سنة سبع وثمانين ، كان اليَزَك للعادل ، فطلب الأنكتار رسوله ، فأنفذ إليه الصَّنيعة ، وهو كاتبه ، كان شاباً حسناً ، فوصل إليه وهو في يازُوْر ، وصل إليه وقد خرج جمع كثير من الرَّجَّالة ، وانبثّوا في تلك الأرض . فاجتمع به وسيَّر معه زماناً طويلاً ، وحدّثه في معنى الصُّلح ، وقال : «لا أرجع عن كلام تحدَّثتُ به مع أخي وصديقي – يعني الملك العادل رحمه الله –» ، وذكر له كلاماً عاد إلى الملك العادل وأخبره به ، وكتبه في رقعة ، وأنفذها إلى السُّلطان ، رحمه الله .

فوصلت قبيل العصر من اليوم المذكور ، وكان يتضمن :

«إنك تسلِّم عليه ، وتقول له : إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد ، وخرجت من يد الفريقين بالكلّية ، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القُدْس والصَّليب

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) هو الأمير سامه الجبلي أحد قوّاد السّلطان ، وصاحب حصن كوكب . حول أخباره راجع البداية والنهاية لابن كثير (حوادث سنة 655 هـ) ؛ وانظر أدناه ص 420 .

والبلاد ، والقُدْس فمتعبّدنا ما ننزل عنه ، ولو لم يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن ، وأما الصَّليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم ، وهو عندنا عظيم ، فيَمُنُّ به السُّلطان علينا ، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم» .

ولما [159 و] وقف السُّلطان – رحمة الله عليه – على هذه الرسالة ، استدعى أرباب المشورة من دولته ، واستشارهم في جواب ذلك . والذي رآه السُّلطان – رحمه الله – في جواب ذلك أن قال :

«القُدْس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبيّنا ومجتمع الملائكة ، فلا يُتصَوَّر أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفُّظ بذلك بين المسلمين . وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها [(1)] ، لضعف مَنْ كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها مادام الحرب قائماً ؛ وما في أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغلّه وننتفع به . وأما الصَّليب فهلاكه عندنا قُرْبَةٌ عظيمة ، ولا يجوز لنا أن نفرّط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها» .

وسار هذا الجواب إليه مع الواصل منه .

ذكر هرب شيْرْكُوْه بن باخل الكردي من عَكّا
وكان فيها أسيراً

ولما كان أواخر نهار الجمعة سادس عشري رمضان المذكور ، وصل شيْرْكُوْه ابن باخل الزّرزاري [(2)] ، وهو من جملة الأمراء المأسورين بعكّا – يسَّر الله فتحها – وكان من قصَّته أنه هرب ليلة الأحد الحادي والعشرين من شهر رمضان ، وذلك أنه

(1) حيّا الله الناصر الأمين على ممتلكات الأمّة ومقدّساتها ، الذي لم يهن ولم يفرّط بشيء .
(2) هذا اللفظ غير موجود في طبعة مصر .

كان ادّخر لـه حبلاً في مخدّتـه ، وكـان الأمير حسـين [159 ظ] ابـن بـاريك - رحمـه الله - ادّخر له حبلاً في بيت الطهارة ، فاتّفقا على الهرب ، ونزلا مـن طاقـة كـانت في بيت الطهارة ، وانحدرا من السُّور الأول ، وعبر شيْرْكُوْه من الباشورة أيضاً ، وكـان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبـل ، ونـزل شيْرْكُوْه سليماً ، فـرآه وقـد تغيّر مـن الوقعة ، فكلّمه فلم يجبه ، وحرّكه فلم يتحرك ، فهزّه عساه ينشط ويسـير معـه فلـم يقدر ، فعلم أنه إن أقام عنده أُخذا جميعاً ، فتركه وانصرف .

واشتدّ هرباً في قيوده ، حتى أتى تـلّ العَيَّاضيّة وقـد طلـع الصُّـبح ، فـأكمن في الجبل حتى علا النهار ، وكسر قيـوده ، وسـار ، وستر الله تعـالى عليـه ، حتـى أتـى المعسكر المنصُوْر في ذلك الوقت .

ومُثّل بخدمة السُّلطان - قدّس الله روحه - وكان من أخبـاره أن سـيف الدِّيـن المشطوب ضيِّق عليه ، وأنه قطـع عـن نفسـه قطيعـة عظيمـة مـن خيـل وبغـال وأنـواع أموال ، وأن ملك الأنكتار - خذله الله تعـالى - أتـى عكّا ، وأخـذ كـل مـن كـان لـه بها من خدمه ومماليكه وأقمشته ، ولم يُبق له فيهـا شـيئاً ، وأن فلاّحـي الجبـل يمدّونـه بالميرة مدّاً عظيماً ، وأن طُغْرُل السِّلاحدار أخذ خـواص مماليك السُّـلطان - قـدّس الله روحه - وهربوا قبل هروب شيْرْكُوْه .

ذكر رسـالة سيِّرني فيها الملك العادل
إلى السُّلطان - قدّس الله روحه - مع جماعة من الأمراء

[160 و] وذلك أنه لما كان يوم الإثنين التاسـع والعشرون مـن شـهر رمضـان ، استدعاني الملـك العـادل في صبيحتـه ، وأحضـر جماعـة مـن الأمـراء : عَلَـم الدِّيـن سليمان ، وسابق الدِّين ، وعزّ الدِّين بن المقدّم ، وحسام الدِّين بشـارة ، وشـرح لنـا ما عاد به رسوله من الأنكتار المخذول من الرِّسالة والكلام ، وذلـك أنـه ذكـر أنـه قـد استقرّت القاعدة على أن يتزوّج الملك العادل بأخت الأنكتار - وكان قـد اسـتصحبها

معه من صقَلّيَة – فإنها كانت زوجة صاحبها ، وكان قد مات ، فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلّيَة [1] .

فاستقرّت القاعدة على أن يزوِّجَها من الملك العادل ، وأن مستقرّ ملكهما يكون بالقُدْس الشَّريف وأن أخاها يعطيها بلاد السّاحل التي في يده من عكّا إلى يافا وعَسْقَلان وغير ذلك ويجعلها ملكة السّاحل ، وأن السُّلطان – قدّس الله روحه – يعطي الملك العادل جميع ما في يده من بلاد السّاحل ويجعله ملك السّاحل ، ويكون ذلك مضافاً إلى ما في يده من البلاد والإقطاع وأنه يُسلِّم إليه صليب الصَّلَبُوت ، وتكون القرايا للدّاويّة والإسبتاريّة ، والحصون لهما ، وأسرانا يُفكّ أسرهم ، وكذلك أساراهم ، وأن الصُّلح يستقرّ على هذه القاعدة ويرحل ملك الأنكتار طالباً بلاده في البحر وينفصل الأمر .

[160 ظ] هكذا ذكر رسول الملك العادل له عن الملك . ولما عرف ذلك الملك العادل بنى عليه أنه استحضرنا عنده ، وحملنا هذه الرسالة إلى السُّلطان – قدّس الله روحه – ، وجعلني المتكلم فيها والجماعة يسمعون ، ويعرض عليه هذا الحديث . فإن استصوبه ورآه مصلحة له وللمسلمين شهدنا عليه بالإذن في ذلك والرّضى به ، وإن أباه شهدنا عليه أن الحال في الصُّلح قد انتهى إلى هذه الغاية ، وأنه هو الذي رأى إبطاله .

فلما مثلنا بالخدمة السُّلطانية عرضتُ عليه الحديث ، وتلوتُ عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين ، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة ، معتقداً أن ملك الأنكتار لا يوافق على ذلك أصلاً ، وأن هذا منه هزوٌ ومكر ، فكرّرتُ عليه الرضى بذلك ثلاث مرات ، وهو يصرّح ويشهد على نفسه بالرّضا به ، فلما تحقّقنا ذلك منه عدنا إلى الملك العادل فعرّفناه ما قال ، وعرّفه الجماعة أني كرّرتُ عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه ، وأنه أصرّ على الإذن في ذلك ، واستقرّت القاعدة عليه .

---

(1) هي جوانا Joanna ملكة صقلية . أما العادل فقد أحبّه الفرنجة وسمّوه : Saphadin .

ذكر عَوْد الرّسول إلى الأنكتار
بالجواب عن هذه الرسالة

ولما كان يوم الأربعاء ثاني شوّال ، سار ابن النحّال رسولاً من جانب السُّلطان – قدّس الله روحه – ومن جانب الملك العادل . فلما وصل إلى مخيم العدوّ ، وأنفذ عرّف الملك [161 و] بقدومه ، أنفذ إليه أن الملكة عرض عليها أخوها حديث النكاح فتسخّطت من ذلك ، وغضبت بسببه ، وأنكرت ذلك إنكاراً عظيماً ، وحلفت بدينها المغلّظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك ، وكيف تمكّن مسلماً من غشيانها ؟ ثم قال أخوها : «إن كان الملك العادل يتنصّر فأنا أتمّ ذلك ، وإن رضيتْ فأنا أفعل ذلك» .

وترك باب الكلام مفتوحاً ، فكتب الملك العادل إلى السُّلطان – رحمة الله عليه – وعرّفه ذلك .

ذكر أخذ مركب مشهور للفرنج
يُسمّى المسطّح وكان عظيماً عندهم (1)

ولما كان يوم السبت خامس شوّال فيه ، وصل الخبر أن الأصطول الإسلامي استولى على مراكب الفرنج ، وفيها مركب يعرف بالمُسَطَّح ، قيل : إنه كان فيه خمسمائة نفر أو زائد على ذلك ، وأنه قُتل منهم خلق عظيم واستبقوا منهم أربعة نفر كبار مذكورين ، وسُرّ المسلمون بذلك ، وضُربت بشائر النَّصر ، ونعق بوق الظفر ، ولله الحمد والمنّة .

* * * * *

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

ذكر اجتماع الرأي من الأمراء
بين يدي السُّلطان - قدّس الله روحه -

ولما كان يوم الأحد سادس شوّال جمع السُّلطان - قدّس الله روحه - أكابر الأمراء وأرباب الآراء من دولته ، وشَاوَرهم كيف يصنع إن خرج العدوّ ، وكان قد تواصلت الأخبار عنهم أنهم قد اتفقوا على الخروج إلى العسكر الإسلامي . فانفصل الرأي بين ذوي الآراء من المسلمين على أنهم يقيمون [161 ظ] في منزلتهم بعد تخفيف الأثقال ، فإن خرج الفرنج كانوا على لقائهم .

وفي عشية هذا اليوم استأمن من الفرنج اثنان على فرسين ، وأخبرا أن العدوّ على عزم الخروج في يوم الثلاثاء ، وأنهم زُهاء عشرة آلاف فارس ، وذُكر أنهم لا يعرفون قصدهم . وهرب أسيرٌ مسلمٌ من جانبهم وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرَّمْلة ، ثم فيها يتفقون على موضع يقصدونه .

ولما تحقّق السُّلطان - قدّس الله روحه - ذلك ، أمر الجاووش أن ينادي بالعسكر المنصُوْر حتى يتجهز جريدةً ، وشُدت الرايات ، وحقّق عزمه على أنه يقف قُبالة القوم إن خرجوا ، وسار في يوم الإثنين مؤيداً منصُوْراً حتى أتى قبلي كنيسة الرَّمْلة ليلاً ، فخيَّم هناك وبات ليلته .

ذكر خروج الفرنج عن يافا

ولما كانت صبيحة يوم الثلاثاء ثامن شوّال ، رتَّب الأطلاب للقتال ، وسلَّم اليَزَك للملك العادل ، فتبعه من يريد من الغزاة ، وكان وصل جماعة من الرُّوم يريدون الغَزاة [1] ، فخرجوا في جملة من خرج ، فلما وصلوا إلى خيام الفرنج

(1) هذا خبر نادر للغاية حول مشاركة قوّات بيزنطية إلى جانب المسلمين في محاربة اللاتين ، وهو يعكس أن الخلاف المذهبي بينهم كان يصل إلى حدّ الحرب والقتال .

– خذلهم الله تعالى – هجم عليهم المماليك السُّلطانية ، لقوة جأشهم ، وأُنسهم بقتالهم ، وثقتهم بمراكبهم وعُدَدهم ، ورموا عليهم النُّشَّاب . فرآهم الغزاة والواصلون من الرُّوم ، فاغترُّوا بإقدامهم ووافقوهم في فعلهم ، وقاربوا عسكر العدوّ . فلمّا رأى الفرنج تلك المضايقة والمنازلة ، [162 و] ثارت هممهم وحرّكتهم نخواتهم ، فركبوا من داخل الخيام وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وحملوا في جمع كثير ، فنجا من سبق به جواده وقدرت في القدم نجاته ، وظفروا بجماعة ، قتلوا منهم ثلاثة نفر على ما قيل . ونقلوا خيامهم إلى يازُورْ .

وأقام السُّلطان في تلك الليلة بمنزله إلى الصباح .

ذكر وفاة الملك المظفّر
رحمة الله عليه

ولما كان يوم الجمعة حادي عشر شوّال ، ركب السُّلطان – قدّس الله روحه – إلى جهة العدوّ ، فأشرف عليهم ثم عاد .

وأمرني بالإشارة إلى أخيه الملك العادل بأن يحضر معه علم الدِّين سليمان ابن جَنْدَر ، وسابق الدِّين بن الداية ، وعزّ الدِّين بن المقدّم ، فلما مَثُلَ الجماعة بخدمته أمر خادماً أن أخلى المكان عن سوى الحاضرين ، وكنتُ في جملتهم ، وأمره بإبعاد الناس عن الخيمة .

ثم أخرج كتاباً من قباه ، وفضّه ووقف عليه ، وبدرت دموعه – رحمه الله – وغلبه البكاء والنحيب ، حتى وافقناه من غير أن نعلم السبب ما هو ، وفي أثناء ذلك ذكر أنه يتضمن وفاة الملك المظفّر – رحمة الله عليه – فأخذ الجماعة في البكاء حتى أتوا بوظيفته [1] .

---

(1) كان المظفّر أثيراً لدى عمّه السّلطان ، فقد تربّى في حجره بعد استشهاد أبيه شاهنشاه .

ثم أذكرتُه بالله تعالى وإمضاء[1] قضائه وقدره فقال : «أستغفر الله ، وإنّا لله وإنا إليه راجعون» . ثم قال : «المصلحةُ كَتْمُ ذلك وإخفاؤه [162 ظ] لئلا يتّصل بالعدوّ ونحن مُنازلوه» . ثم أحضر الطعام ، وأكل الجماعة ، وانفصلوا .

وكان الكتاب الواصل المتضمن نعيه هو غير الكتاب الواصل إلى حماة بنعيه في طيّ كتاب وصل من النائب بها . وكانت وفاته في طريق خلاط عائداً إلى ميّافارقين ، فحُمل ميتاً حتى وصل إلى ميّافارقين ، ثم عُملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماة ، وحُمل إليها ودُفن ، وزرتُ ضريحه - رحمة الله عليه - وكانت وفاته يوم الجمعة تاسع عشر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، رحمة الله عليه .

ذكر كتاب وصل من بغداد

ولما كان يوم السبت الثاني عشر من شوّال من السنة المذكورة ، وصل من دمشق كتاب من النوّاب بها ، في طيِّه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوي - مجّده الله تعالى - يتضمَّن فصولاً ثلاثة : الأول : الإنكار على الملك المظفّر في مسيره إلى بِكْتَمِر ، وبولغ فيه حتى قيل إن الديوان العزيز لا يُسلمه .

والفصل الثاني : يتضمَّن الإنكار على مظفَّر الدِّين في مَسْك حسن ابن قَفْجَاق ، والأمر بإعادته إلى الكرخاني ، وبولغ فيه حتى قيل فيه : إن الديوان العزيز لم يأذن لغيره في سكناها ؛ وكان من قصة حسن بن قفجاق أنه قصد أُرْمِيَة إلى السُّلطان طُغْريل ، فإنه كان نزل به في بيوته[2] لما هرب من ديار العجم ، واستنصر به ، وتزوّج أخته ، ووقع في ذهنه أنه يكون أتابكه ، ويملك به [163 و] البلاد .

---

(1) في طبعة مصر : وانتهاء .

(2) في طبعة مصر : في معونته .

فقصدوا أُرْمِيَة [1] ، فقتل أهلها على ما قيل ، وسبى نساءهم وذَرَاريهم ، وتعرّض للقوافل ، وكان معقله الكَرْخَاني . فلما وجد السُّلطان طُغْرل قوّته تركه وانصرف عنه ، وعاد هو إلى بلاده ، وأظهر الفساد في الأرض ، والتعرّض للقوافل على ما قيل . فاستعطفه مظفَّر الدِّين – صاحب إربل – حتى عاد إليه وانخرط في سلك أصحابه ، وقبض عليه . فأنفذ الديوان العزيز ذلك في معناه ، لاستيلاء مظفَّر الدِّين على بلاده ، ولعله يشفع إلى الديوان ، فاقتضت عاطفته ذلك في حقه .

وأما الفصل الثالث : فكان يتضمَّن التقدّم بإحضار القاضي الفاضل إلى الديوان العزيز رسولاً ليقرّر معه قواعد ، وتُكشف [2] إليه أسباب .

هذا كان مضمون الكتاب . وأما الجواب عنه فإن السُّلطان – قدّس الله روحه – أجاب :

عن الفصل الأول : «بأنا لم نأمره بشيء من ذلك ، وإنما عبر ليجمع العساكر ويعود إلى الجهاد ، فاتّفق أسباب اقتضت ذلك ، وقد أمرناه بالعَوْد عنه» .

وأما الفصل الثاني فأجاب عنه : بأن عرَّفهم حال ابن قفجاق وما تصدّى له من الفساد في الأرض ، وأنه قد تقدّم إلى مظفَّر الدِّين حتى يحضره معه إلى الشام ، فيُقطعه فيه ، ويكون ملازماً للجهاد .

وأما الفصل الثالث : فإنه اعتذر عن القاضي [163 ظ] الفاضل بأنه كثير الأمراض ، وقوته تضعف عن الحركة إلى العراق .

فكان هذا حاصل الجواب .

---

(1) أُرمية : مدينة تاريخية في شمال غرب إيران ، تعرف في عصرنا باسم : رضائية . ذكرها ياقوت في معجم البلدان (1 : 159) : مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان . . وهي فيما يزعمون مدينة زرادُشت نبي المجوس . رأيتُها في سنة سبع عشرة وستمائة ، وهي مدينة حسنة كثيرة الخيرات ، واسعة الفواكه والبساتين ، صحيحة الهواء كثيرة الماء . إلا أنها غير مرعيّة من جهة السُّلطان لضعفه ، وهو أُزبك بن البَهْلَوان بن إِلْدكز .

(2) في طبعة مصر : وييسر .

ذكر وصول صاحب صَيْدا
رسولاً من جانب المَرْكيس

ولما كان يوم الثلاثاء خامس عشر شوّال من السنة المذكورة ، وصل مَنْ أخبر بوصول صاحب صَيْدا [1] من جانب المَرْكيس صاحب صُوْر [2] . وكان قد جرى بيننا وبينهم أحاديث متردّدة ، حاصلها أنهم ينقطعون عن الفرنج ونُصرتهم ، ويصيرون معنا عليهم ، بناءً على فتنة كانت جرت للمَرْكيس مع الملوك بسبب امرأة تزوّجها كانت زوجة لأخي الملك جفري [3] ، وفسخ نكاحها بأمر اقتضاه دينهم ، واضطربت آراؤهم فيه .

فخاف المَرْكيس على نفسه ، فأخذ زوجته وهرب من تحت الليل إلى صُوْر ، وأخلد إلى السُّلطان - قدّس الله روحه - والاعتضاد به ، وكان في ذلك مصلحة للمسلمين ، لانقطاع المَرْكيس عن الفرنج ، فإنه كان من أشدّهم بأساً ، وأعظمهم للحرب مراساً ، وأثبتهم في التدبير أساساً ، وحيث اتصل خبر وصول هذا الرّسول بالسُّلطان - قدّس الله روحه - أمر بإجلاله واحترامه ، فضُربت خيمة ، وضُرب حولها شقّة ، ووُضع فيها من الطّرح والفرش ما يليق بعظمائهم وملوكهم ، وأمر بإنزاله في الثَّقْل ليستريح ، ثم يجتمع به .

---

(1) هو رُنو سيّد صيدا وأرنون : Renaud Garnier, Seigneur de Sidon et du Beaufort .

(2) أي المركيز كونراد دى مونفيراً Conrad de Montferrat ، المتقدّم ذكره مراراً وتكراراً . وكنا قد استفضنا بذكر أسباب الخلاف الناشب بين قادة الحملة الصَّليبية الثالثة ، على من سيكون ملك القُدْس (أي عكّا) المقبل . فيبدو أن كونراد قد فضّل الاتفاق مع السُّلطان صلاح الدين ، المعروف بنبله ووفائه بعهوده ، على الوثوق بعدوّه اللّدود ريتشارد ، المعروف بانتهازيته وخيانته للعهود . أما المرأة التي تزوّجها كونراد ، فهي إيزابيل Isabelle ، وريثة عرش مملكة القُدْس . والذي جرى بعد ذلك ، أن الملك ريتشارد أذعن بتولية كونراد ملكاً ، فتم إعلان ذلك في 20 نيسان 1192 م ، ثم في 28 منه تم اغتياله ، كما سيذكر ابن شدّاد . وتوجّهت أصابع الاتّهام بالطبع إلى ريتشارد ، وآل العرش - بما فيه إيزابيل الحسناء - إلى ابن أخته الكونت هنري دى شامپانيا (الكُنْدُهْري) .

(3) لم تكن إيزابيل زوجة شقيق الملك گي (يسمّيه جفري) ، بل شقيقة زوجته الملكة سيبيل .

ذكر واقعة الكمين
التي استُشهد فيها إياز المهراني
قدّس الله روحه

[164 و] ولما كان سادس عشر شوّال من السنة المذكورة ، أمر السُّلطان – قدّس الله روحه – الحلقة أن كمنت للعدوّ في بطون أوداد هناك ، واستصحبوا جمعاً من العرب ، فلما استقرّ الكمين في موضعه ظهرت العرب على جاري عاداتها في مناوشتها العدوّ ، فكان العدوّ يخرج منه جماعة للاحتشاش والاحتطاب قريباً من مخيمه ، فبصر العرب بهم فضربوا عليهم ، ووقع الحرب بينهم ، وثار الصياح . فسمع الفرنج ، فركب منه جمع من الخيّالة ، وطلبوا جهة الصوت ، وانهزم العرب من أيديهم إلى جهة الكمين والعدوّ يتبعهم طمعاً فيهم ، حتى قاربوا الكمين ؛ وخرج الكمين عليهم ، وصاحوا بهم صيحة الرّجل الواحد ، فانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم .

واتصل الخبر بالعدوّ ، فركب منهم خلق عظيم ، وقصدوا نحو الوقعة ، والتحم القتال ، واشتدّ الأمر ، وقُتل جمع من الطائفتين وجُرح وأُسر جمعٌ من العدوّ وأُخذ منهم خيلٌ كثيرة .

كان سبب انفصال الحرب أن السُّلطان – قدّس الله روحه – حَسَبَ مثل هذا الواقع ، فأنفذ أمير آخُرْ أسْلَم [1] ، وسيف الدِّين يازْكُج ، ومَنْ يجري مجراهم ، ردءاً للكمين ، وقال : «إذا رأيتُمُ الغَلَبَة على الكمين فاظهروا» . فلما رأوا الكثرة من جانب العدوّ خرجوا على العدوّ بخيلهم ورَجلهم ، ولما رأى العدوّ الأطلاب الإسلامية قد صوّبت نحوه أعنّة خيولها [164 ظ] ولّوا الأدبار نحو خيامهم ، والسيف يعمل في قفيّهم ، حتى دخلوا الخيام ، وانفصل الحرب قبيل الظهر من نهار الأربعاء سادس عشر شوّال .

---

(1) أمير آخُر : رتبة إدارية ، يتولى صاحبها شؤون إصطبلات السّلطان وخيله .

وكان السُّلطان – قدّس الله روحه – قد ركب متشرّفاً أخبار الكمين ، وكنتُ في خدمته ، فكان أول من وصل الوقعة جماعة من العرب ، ومعهم خمسة أرؤس من الخيل ، قد أخذوها من الوقعة ، وانفصلوا قبل انفصال الحرب .

ثم مازالت الطلائع تتواتر ، والبشائر تتواصل ، وقُتل في الوقعة من العدوّ – على ما قيل – زُهاء ستين نفراً ، وجُرح من المسلمين جماعة ، وقُتل من المعروفين من المسلمين جماعة ، منهم إياز المهراني – رحمة الله عليه – وكان شجاعاً معروفاً ، وجاولي غلام الغيدي ، وسار مصرع [1] إياز المُعَظَّمي ، وجُرح عدّة جرائح ، وحُمل إلى المسلمين ، وأُسر من العدوّ فارسان معروفان ، واستأمن اثنان بخيولهما وعدّتهما .

وعاد السُّلطان – رحمه الله – إلى خيمته فرحاً مسروراً مُعوِّضاً من قُتل فرسُه ، متلطِّفاً بالجريح ، مترحِّماً على الشهيد .

وفي بقية اليوم المذكور ، وصل رسول الأنكتار إلى الملك العادل ، يعتبه على الكمين ويطلب الاجتماع به ، فاستأذن ، فأذن له ، فسار إليه .

ذكر ما جرى للملك العادل والأنكتار واجتماعهما

ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر شوّال من السنة المذكورة ، سار الملك العادل [165 و] إلى اليَزَك ، وضُربت له فيه نَوْبَتِيّة عظيمة ، وسار معه من الأطعمة والتجمُّلات والتحف ما جرت العادة أن يُحمل من الملك إلى ملك ، وهو إذا تجمّل في ذلك لا يُغلب [2] .

(1) كذا بالأصل ، والعبارة غير مفهومة ، يبدو أن فيها تصحيفاً كما يتضح .
(2) كان الملك العادل قد التقى بريتشارد مراراً ، أما السّلطان فلم يقابله أبداً .

وسار الأنكتار إلى خيمته ، وحضر عنده على ما قيل ، واحترمه احتراماً عظيماً [1] ، ووصل مع الأنكتار شيء من طعامهم الذي يختصّون به ، فأتحف به الملك العادل على وجه المطايبة ، فتناول منه الملك العادل ، وتناول هو وأصحابه الواصلون معه من طعام الملك العادل ، وقدّم إليه ما كان حمل إليه ، وتحادثا معظم ذلك النهار ، وتفاصلا عن توادٍّ ومطايبة ، ومحبة أكيدة .

ذكر الرسالة التي أنفذها الأنكتار إلى السُّلطان - قدّس الله روحه - في معنى الاجتماع به وجوابها

وفي ذلك اليوم سأل من الملك العادل أن يلتمس له من السُّلطان - قدّس الله روحه - الاجتماع به ، والمثول بين يديه ، ولما وصلت هذه الرسالة شَاوَر السُّلطان - قدّس الله روحه - الجماعة في الجواب ، فما منهم مَنْ وقع له ما وقع له - رحمة الله عليه - وذلك أنه قال له :

«الملوك إذا اجتمعوا يَقْبُح منهم المخاصمة بعد ذلك ، فإذا انتظم أمرٌ حَسُنَ الاجتماع ، والاجتماع لا يكون إلا لمفاوضة في مُهمّ ، وأنا لا أفهم بلسانك ، وأنت لا تفهم بلساني ، ولابدّ من ترجمان بيننا ، تثق به وأثق به ، فليكن ذلك [165 ظ] الترجمان رسولاً حتى يستقرّ أمرٌ ، وتستتبّ قاعدة ، وعند ذلك يكون الاجتماع الذي يعقبه الوداد والمحبّة» .

قال الرّسول : «ولما سمع الأنكتار ذلك استعظم هذا الجواب ، وعلم أنه لا يقدر على بلوغ غرض إلا بالدخول تحت المراضي السُّلطانية» .

---

(1) ذكرنا أن ريتشارد أحب الملك العادل واحترمه ، وكان يناديه Saphadin ، نسبة للقبه «سيف الدين» . وكان العادل ديبلوماسياً حاذقاً ، أنيق الصورة والحديث والتهذيب .

ذكر حضور صاحب صَيْدا بين يدي السُّلطان
- قدّس الله روحه -
وأداء الرسالة والحديث الذي وصل فيه

ولما كان يوم السبت ، تاسع عشر شوّال من السنة المذكورة ، جلس السُّلطان - قدّس الله روحه - واستحضر صاحب صَيْدا لسماع رسالته وكلامه [1] ، فحضر وحضر معه جماعة وصلُّوا معه ، وكنتُ حاضراً المجلس ، وأكرمه - رحمة الله عليه - إكراماً عظيماً ، وحادثهم وقدّم بين أيديهم ما جرت به العادة .

ولما رُفع الطعام خَلي بهم ، وكان حديثه في أن السُّلطان يصالح المَرْكيس صاحب صُوْر ، وكان قد انضمّ إليه جماعة من أكابر الفرنجية ، منهم صاحب صَيْدا وغيره من المعروفين ، وقد سبقت قصته .

وكان من شرط الصُّلح معه إظهار عداوته للفرنج البحرية ، وكان سبب ذلك شدّة خوفه منهم ، وواقعة وقعت له معهم بسبب الزوجة ، وبذل له السُّلطان - قدّس الله روحه - الموافقة على شروط قصد بها - رحمة الله عليه - الإيقاع بينهم ، وأن ينفلّ بعضهم .

فلمّا سمع السُّلطان - قدّس الله روحه - رسالته ، وعده [166 و] بأن يردّ عليه الجواب فيما بعد ، وانصرف عنه في ذلك اليوم .



(1) ذكرنا سلفاً فحوى الموضوع ، وسبب لجوء المركيز كونراد صاحب صور إلى مهادنة المسلمين . وسنرى أن ريتشارد سيعمد قريباً إلى ممالئة كونراد من جهة ، بتعيينه ملكاً ؛ وعقد صلح مع صلاح الدين من جهة أخرى .

ذكر وصول رسول الأنكتار

ولما كانت عشية ذلك اليوم ، وصل رسول ملك الأنكتار وهو ابن الهَنْفَري ، وهو من أكابرهم وملوكهم ومن أولاد ملوكهم [1] ، وصل رسولاً وفي صحبته شيخ كبير منهم ، ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة ، فأحضره السُّلطان – قدّس الله روحه – عنده وسمع كلامه .

وكانت رسالته أن الملك يقول : «إني أحبّ صداقتك ومودّتك ، وأنت قد ذكرتَ أنك أعطيتَ هذه البلاد السّاحلية لأخيك ، فأريد أن تكون حَكَماً بيني وبينه ، وتقسم البلاد بيني وبينه ، ولابُدَّ وأن يكون لنا عُلقة بالقُدْس الشَّريف ، ومقصودي أن تقسم البلاد ، بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ، ولا عليّ لوم من الإفرنجية» .

فأجابه في الحال بوعد جميل ، ثم أذن لهم في العود في الحال ، وتأثروا بذلك تأثراً عظيماً . وأنفذ وراءهم مَن سألهم عن حديث الأسارى ، وكان منفصلاً عن حديث الصُّلح ، فقالوا : «إن كان الصُّلح فعلى الجميع ، وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء» .

وكان غرضه – قدّس الله روحه – يفسخ قاعدة الصُّلح ، فإنّه التفتَ إلي في [آخر] المجلس بعد انفصالهم ، وقال لي : «متى صالحناهم لم تؤمن غائلتُهم ، فإني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر ، ويقوى الفرنج ، والمصلحة [166 ظ] ألا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من السّاحل ، أو يأتينا الموت» .

---

(1) تقدَّم ذكر ابن الهَنْفَري مراراً في كتاب ابن شدّاد هذا ، وهو الكونت همفري الرابع سيِّد تبنين Humphrey IV, seigneur du Toron ، كان من بين أسرى وقعة حطِّين ، وكان يُختار دوماً للترجمة بين ريتشارد والملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب ، لأنه كان أحسن من يجيد العربية بين الفرنج . ذكر ابن شدّاد آنفاً (ص 315) : «وكان يُترجم بينهما ابنِ الهَنْفَري ، وهو من فرنج السّاحل من كبارهم ، ورأيتُه يوم الصُّلح ، وهو شابٌ حَسَنٌ ، إلا أنه محلوق اللحية على ما هو شعارهم» .

هذا كان رأيه - قدّس الله روحه - وإنما غُلب على الصُّلح ، قدّس الله روحه .

ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصُّلحين صلح الملك وصلح المَرْكيس صاحب صُوْر

ولما كان يوم الإثنين حادي عشرين شوّال ، جَمَعَ السُّلطان الأمراءَ والأكابرَ وأرباب المشورة ، وذكر لهم القاعدة التي التمسها المَرْكيس ، واستقرّ الأمر من جانبه عليها ، وهي أخذ صَيْدا ، وأن يكون معنا على الفرنج ، ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة ، وذكر لهم ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصُّلح ، وهي أن يكون له من القرايا السّاحلية مواضع معينة ، ويكون لنا الجبليات بأسرها ، أو تكون القرايا كلها مناصفة ؛ وعلى هذين القسمين يكون لهم أقسّاء في بِيَع القُدْس الشَّريف وكنائسه .

وكان الأنكتار قد خيَّرنا بين هذين القسمين ، فشرح - قدّس الله روحه - الحال في القاعدتين للأمراء ، واستنبط آراءهم في ترجيح إحدى الجانبين : الأنكتار والمَرْكيس ، وترجيح أحد القسمين المذكورين من جانب الملك ، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن مع الملك ، فإن مُصَافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطوهم بعيدة ، صحّته غير مأمونة الغائلة .

وانفضّ الناس وبقي الحديث متردّداً في الصُّلح ، والرُّسُل تتواصل [167 و] في تقرير قواعد الصُّلح ، وأصل القاعدة : أن الملك قد بَذَلَ أخته للملك العادل بطريق التزويج وأن تكون البلاد السّاحلية الإسلامية والفرنجية لهما . فأما الفرنجية فلها من جانب أخيها والإسلامية للملك العادل من جانب السُّلطان (1) .

(1) أهم سبب دعا ريتشارد إلى طلب الصُّلح كان خشيته على مُلكه بإنكلترا من أخيه جون ، الذي كان طامحاً إلى احتجان المملكة لنفسه ، بالتواطؤ مع ملك فرنسا .

وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى أن قال : «إن معاشر دين النصرانية أنكروا عليّ وضع أختي تحت مُسلم بدون مشورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ومقدّمه ، وها أنا أسيِّر إليه رسولاً يعود في ثلاثة أشهر ، فإن أذن فبها ونعمت ، وإلا زوّجتك ابنة أختي ، وما أحتاج في إذنه في ذلك» .

هذا كله وسوق الحرب قائم ، والقتال عليهم ضربة لازب ، وصاحب صَيْدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ، ويشرف على الفرنج وقتال المسلمين لهم ، وهم كلّما رأوه تحركوا لطلب الصُّلح خوفاً من أن ينضاف المَرْكيس إلى المسلمين ، وعند ذلك تنكسر شوكتُهم ، ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة خامس عشر شوّال من السنة المذكورة .

ذكر رحيله إلى تلّ الجزر
قدّس الله روحه

ولما كان يوم الجمعة أصبح السُّلطان - قدّس الله روحه - على عزم الرحيل ، وأحضر أرباب الرأي ، وشاوَرَهم في جواب رسالة القوم ، وعرض عليهم حديثهم وذكر ما عندهم في ذلك ، وأحضر الرُّسُل ، وكان ابن [167 ظ] الهَنْفَري يترجم بينه - قدّس الله روحه - وبين البحريين .

واستقرّت القاعدة على أن يُنفذ معهم رسولين من جانبه واحد ، ومن جانب الملك العادل الآخر ، لأن الحديث كان يتعلّق به . وكان من جملة رسالتهم أن البابا إن أذن في هذا العقد تمّ ، وإن لم يأذن فيه زوّجنا الملك العادل بابنة أخت [1] الملك ، وهي بكر .

---

(1) في طبعة مصر : ابنة أخي الملك . وابنة أخت ريتشارد هي إليانور كونتيسة مقاطعة بريتاني في شمال غرب فرنسا Eléanore de Bretagne .

وذكروا أن من دينهم أن البابا إنما يُحتاج إلى استئذانه في تزويج الثيّب من بنات الملوك [1] ، وأما الأبكار فيزوِّجها أهلها .

وكان الجواب عن ذلك أنه «إن كان عقدٌ فيكون على هذه ، لأنه سبق الحديثُ فيها ، ونحن لا نرجع عمّا قُلناه» [2] .

وانفصل الحال على ذلك ، وسارت الرُّسُل إلى خيم الملك العادل ، ليتجهّز رسول السُّلطان - قدَّس الله روحه - ويلحقهم . ثم وصل بعد ذلك من اليَزَك من أخبر أن الفرنج قد انتشر منهم راجلٌ كثير ، وخرجوا عن الأسوار التي لهم ، ولم يظهر لخروجهم غائلة .

وسار - قدَّس الله روحه - إلى تل الجَزَر [3] لارتياد المنزل [4] ، وتبعه الناس في الرحيل . فما كان الظهر إلا ووصل الناس إلى السُّلطان - قدَّس الله روحه - فنزلنا بتلّ الجَزر . ولما عرف الفرنج - خذلهم الله - بعَوْد السُّلطان ، رحلوا عائدين ، وأقام السُّلطان بتل الجَزر ، ثم رحل إلى جهة القُدْس الشَّريف ، ورحل الفرنج إلى جهة بلادهم .

واشتدّ الشتاء ، وعظمت الأمطار ، وسار السُّلطان إلى القُدْس الشَّريف ، وأعطى العسكر دستوراً . وأقمنا بالقُدْس في ذلك الشتاء أجمع ، وعاد العدوّ إلى بلاده ، وأرصد الأنكتار في يافا عساكر [5] ، ثم عاد إلى عكّا ينظر في أحوالها .

---

(1) وذلك أن الطلاق في مذهب الكاثوليك حرام ، والأشد حُرمة منه هو الزواج بمطلّقة ، الذي يُعتبر مقارباً للزنا .

(2) هذه الكلمات ساقطة من طبعة مصر .

(3) سمّي الصّليبيون هذا التل بالفرنسية : مونجيزار Montgisard ، وكانت جرت بينه وبين تل الصّافية (بلانش گارد Blanche-Garde) في 25 تشرين الثاني 1177 م معركة بين الصّليبيين وقوّات صلاح الدين ، انتهت بانتصار الفرنج بقيادة ملك القُدْس بودوان الرابع . انظر ما تقدّم أعلاه ص 121 (ذكر كسرة الرّملة) ؛ وراجع : الحروب الصّليبية ، صراع الشرق والغرب ، للمؤرخ الفرنسي رنيه گروسّيه ، ترجمة وتعليق أحمد إيبش ، ص 72 .

(4) في طبعة مصر : اليَزَك .

(5) في طبعة مصر : ووصل الأنكتار وعساكره إلى يافا .

وأقام مدَّة ، ثـم وصـل منه رسـول يقـول : «إن الملك يقـول : إنـي أوثـر الاجتمـاع بالملك العادل أخي ، ففيـه مصلحـة تعـود علـى الطـائفتين ، فقـد بلغنـي أن السُّلطان فَوَّضَ أمر الصُّلح إلى أخيه الملك العادل» .

فعقـد السُّـلطان - قـدَّس الله روحـه - مشـورةً في مضـيّ الملـك العـادل ، واتفق الرأي على أنه يمضي بحيث يجتمع بعساكرنا التي في الغَوْر وكَوْكَب وتلك النواحي ، ويحدّثه ويقول له : «إن الحديث قد جرى بيننا مراراً ، وما أسفر عن مصلحة ، فإن كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات ، فلا حاجة إلى الحديث ، وإن كان الغرض بتُّ حال ، فقارب الأمر ، وأنا لا أجتمع بك إلا أن أرى ما يُقارب فصل الحال» .

وقرَّر مع الملك العادل أنه إن رأى ما يمكن فصل الحال عليه فَصَلَه ، وإلا طاوله وماطله إلى أن تصل العساكر من الأطراف ، فالتمس الملك العادل تذكرةً تتضمَّن نهي ما ينفصل الحال عليه . فكتب معه تذكرة ذكر فيها المناصفات ، وذكر فيها من أمر بيروت أنه إن أصرَّ على طلبها اشترط خرابها [168 ظ] ولا تُعَمَّر ، وكذلك القاقون ، وإن التمسوا عمارة وغر أجيب [1] ، ويُعطى صليب الصَّلَبُوت ، ويكون للقُمامة قَسٌّ ، ويُفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السِّلاح .

وكان الحامل على ذلك ما أخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة ، وكثرة الدُّيون والبُعد عن الأوطان ، فإن من الناس من كان لا يفارق السُّلطان ، ولا يمكنه طلب دستور منه .

* * * * *

(1) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر ، وردت في الأصل كذا ، وهي غير مفهومة .

ذكر مسير الملك العادل

رحمه الله

وكان مسيره من القُدْس الشَّريف عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ثم وصل كتابه من بيسان يُخبر أنه لقيه ابن الهَنْفَري مع الحاجب أبي بكر رسولاً من الأنكتار يقول : «إنا قد وافقنا على مقاسمة البلاد ، وأنَّ كل من في يده شيءٌ فهو له ، فإن كان ما في أيدينا زائداً أخذتم في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصّنا ، وإن كان ما في أيديكم أكثر فعلنا كذلك ، ويكون القُدْس لنا ، ولكم فيه الصَّخرة» . هكذا كان مضمون الكتاب .

فأوقف السُّلطان عليه الأمراء ، فاستصوب ذلك الأمير أبو الهيجاء ، ورأوا أن مَنْ قال هذا المقال [1] يوافق على ما مضى عليه الملك العادل ، وهو مصلحة . وسار الجواب إلى الملك العادل في ذلك .

ولما كان يوم الثلاثاء الخامس عشر من ربيع الأول [2] وصل الحاجب أبو بكر ، صاحب الملك العادل ، يخبر أن الأنكتار الملعون سار إلى يافا من عكّا ، وأن الملك العادل ما رأى أن يجتمع [169 و] به إلا عن قاعدة منفصلة ، وأنه جرى بين هذا الحاجب وبين الأنكتار مفاوضات كثيرة ، حاصلها أنه نزل على أن تكون الصخرة لنا والقلعة في أيدينا ، والباقي مناصفة ، وأن لا يكون في البلد منهم مقدَّم مذكور ، وأن تكون قرايا القُدْس وباطنه مناصفة .

* * * * *

(1) في طبعة مصر : ورأوا من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل .
(2) في طبعة مصر : ولما كان حادي عشر ربيع الأول .

ذكر عَوْد الملك العادل من الغَوْر [1]

ثم قدم الملك العادل في سادس عشر ربيع الأول ، ولقيه السُّلطان - قدَّس الله روحه - واجتمعا ، وحكى ما سبق من الخبر .

ذكر غارة الفرنج
خذلهم الله تعالى [2]

وفي بقية ذلك اليوم ، وصل مَنْ أخبر أن الفرنج أغاروا على حلَّة عرب قريبة من الدَّارُوم ، وأنهم أخذوا منهم جماعة ، وأخذوا منهم زُهاء ألف رأس غنم ومواشي [3] . فعظم ذلك على السُّلطان ، وشقَّ عليه ، فسيَّر جماعة فلم يلحقوهم .

ذكر انفصال رسول المَرْكيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صَيْدا رسولاً من جانب المَرْكيس ، يلتمس الصُّلح مع المسلمين . فاشترط - رحمة الله عليه - شروطاً ، منها : أن يقاتل جنسه ويباينهم . ومنها : أن كل ما أخذه من البلاد الفرنجية بعد الصُّلح بانفراده تكون له ، وما نأخذه نحن بانفرادنا يكون لنا ، وما نتفق نحن وهو على أخذه يكون له نفس البلد ، ويكون لنا ما فيه من أسارى المسلمين ، وغير ذلك من الأموال .

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(2) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(3) هذا اللفظ غير موجود في طبعة مصر .

ومنها : أن يطلق لنا كل [169 ظ] أسير في مملكته . ومنها : أنه إن فوَّض إليه الأنكتار أمر البلاد لأمر يجري بينهم ، كان الصُّلح بيننا وبينه على ما استقرّ بيننا وبين الأنكتار ، ما عدا عَسْقَلان وما بعدها ، فإنه لا يدخل في الصُّلح ، فتكون السّاحليات له وما في أيدينا لنا ، وما في الوسط يكون مناصفة .

وسار رسوله على هذه القاعدة .

* * * * *

ذكر وصول العساكر الإسلامية في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة [1]

فأول من وصل أسد الدِّين شيْرْكُوْه بن محمد بن شيْرْكُوْه ، وكان وصوله يوم الإثنين ثامن عشري ربيع الأول من السنة المذكورة ، وصل جريدةً مُقدَّماً على عسكره .

ذكر خروج سيف الدِّين بن المشطوب من الأسر

وكان وصوله إلى القُدْس الشَّريف يوم الخميس مستهلّ جُمادى الآخرة ، ودخل على السُّلطان - قدّس الله روحه - بُغتةً ، وعنده أخوه الملك العادل - رحمه الله - فنهض إليه واعتنقه ، وسُرَّ به سروراً عظيماً ، وأخلى المكان ، وتحدّث بطرف من أحاديث العدوّ ، وسُئل عن حديث الصُّلح ، فذكر أن الأنكتار سكت عنه .

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

وفي هذا اليوم ، كتب السُّلطان إلى ولده الملك الأفضل حتى يسير إلى قاطع الفُرَات يتسلّم البلاد من الملك المنصُوْر ابن الملك المظفّر ، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف من السُّلطان على نفسه ، وأظهر ذلك ودخل في إمرة الملك العادل ، وسيَّر إلى الملك العادل حتى يتحدَّث في أمره ، وكان هو المتحدث[170 و] له .

وكان ذلك قد شقّ على السُّلطان - رحمة الله عليه - وأثار عليه مغيظة عظيمة ، كيف فُتح هذا الباب من أهله [1] ، ولم يكن أحدٌ من أهله خاف منه ولا طلب يمينه . وهذا كان السبب في توقُّف الأنكتار في الصُّلح ، وأنه ظن أن هذا خلاف يُكدِّر على السُّلطان شرب الغزاة ، ويحرجه إلى الموافقة على ما لا يرضى .

فنفَّذ إلى الملك الأفضل أن يسير إلى البلاد ، وكتب إلى الملك الظّاهر بحلب المحروسة «أن أخاه إن احتاج إلى معونة عاونه» ، وجهزه بحملة كبيرة ، وسار باحترام عظيم حتى وصل حلب المحروسة ، وأكرمه أخوه الملك الظّاهر إكراماً عظيماً ، وعمل له ضيافة تامة ، وقدّم بين يديه تقدمة سنية .

وعدنا إلى حديث العدوّ .

ذكر عَوْد رسول صُوْر

ولما كان سادس ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة [2] ، وصل يوسف من جانب المَرْكيس يجدِّد حديث الصُّلح ، ويقول : قد انفصل الحال على شيء بينه وبين الفرنجية ، فإن نجز في هذه الأيام سارت الفرنسيسية في البحر ، وإن تأخر بطل الحديث في الصُّلح مع المَرْكيس بالكلّيّة .

---

(1) في طبعة مصر : كيف يكون هذا الأمر من أهله .

(2) هذا التاريخ يوافق 21 نيسان 1192 م ، وكان المركيز سُمِّي ملكاً يوم البارحة 20 منه ، غير أنه سرعان ما لاقى حتفه بعد 8 أيام فقط من تولّيه ، كما سيذكر ابن شدّاد أدناه .

فرأى السُّلطان – قدّس الله روحه – الصُّلح مع المَرْكيس مصلحة ، لاشتغال قلبه من جانب الشرق ، وخاف أن يتصل ابن تقي الدِّين ببكْتَمر ، فيحدث من ذلك ما يشغل الخاطر عن الجهاد ، فجاب إلى ما [170 ظ] يلتمس المَرْكيس ، وكتب مع صاحبه مواصفة على نعت ما تقدّم ، وسار العدل في جواب يوسف الرّسول ، وذلك بعد صلاة الجمعة تاسع ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين .

ذكر قتل المَرْكيس الملعون

ولما كان سادس عشر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين ، وصل من العَدْل الرّسول المُنفذ إلى المَرْكيس كتابٌ يذكر فيه أنه قُتل ، وعجّل الله بروحه إلى النار [1] . وكان صُوْرة قتله أنه تغدّى يوم الثلاثاء ثالث عشره عند الأسقف ، ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين ، وكان خفيفاً من الرجال ، فما زالا يضربان فيه حتى عجّل الله بروحه إلى النار .

ومُسك الشخصان ، فسُئلا عن هذا الأمر ، ومن وضعهما عليه ، فقالا : «إن الأنكتار وضعنا عليه» . وقام بالأمر اثنان فحفظا القلعة ، إلى أن اتّصل الخبر بالملوك واعتمدوا الأمر وتدبير المكان .

---

(1) جاء مقتل صاحب صور المركيز كونراد دي مونفيراً في نفس الوقت الذي اختار فيه السُّلطان صلاح الدين الصُّلح معه ، مؤثراً إيّاه على صلح الملك ريتشارد ، خصم كونراد اللّدود . ومن المفارقات الغريبة التي تدعو إلى كل شك ، أن ريتشارد أذعن فجأة تحت ضغط بارونات الأرض المقدّسة ، فرضي بتعيين كونراد ملكاً على عرش مملكة القُدْس اللاتينية الثانية ، في عاصمتها الجديدة عكّا ؛ لا بل وأرسل إليه في صور ابن أخته الكونت هنري دي شامپانيا ليبلغه النبأ . وكان المفترض تتويجه في عكّا بعد أيام ، فإذا به يُقتل في 28 نيسان . ألقيت التهمة على شيخ الجبل راشد الدين سنان زعيم الحشيشية ، ولكن المنطق يشير بكل قوة إلى ريشارد ، صاحب المصلحة في قتله لسببين : انفراده بالصُّلح مع صلاح الدين ، ورغبة ريتشارد باحتجان عرش القُدْس لأسرته دون سواها .

ذكر تتمة خبر الملك المنصُوْر
وما جرى له

وذلك أنه لما بلغه مَوْجدة السُّلطان - قدّس الله روحه - عليه ، أنفذ إلى الملك العادل رسولاً يستشفع به ليطيّب قلب السُّلطان عليه ، ويقترح أحد قسمين : إما حَرّان والرُّها وصُمَيْصات ، وإما حماة ومَنْبج وسَلَميّة والمعرّة ، مع كفالة إخوته .

وراجع الملكُ العادلُ السُّلطانَ - رحمة الله عليه - مراراً فلم يفعل ذلك ، ولم [171 و] يُجَبْ إلى شيء منه . فكثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء ، وهُزَّتْ شجرةُ كَرَمه ، فرجع إلى خلقه النبوي رضي الله عنه ، وحلف له على حرّان والرُّها وصُمَيْصَات ، على أنه إذا عبر الفُرَات أعطي المواضع التي اقترحها ، ويكفل إخوته ، ويتخلى عن تلك المواضع التي في يده ، ودخل تحت ضمان ذلك ، وكفله الملك العادل .

ثم التمس الملك العادل خطّ السُّلطان - رضي الله عنه - فأبى ، وألحّ عليه ، فخرّق نسخة اليمين في تاسع عشري ربيع الآخر ، وانفصل الحال وانقطع الحديث . وقد كنتُ أتردد بينهما في ذلك ، وأخذ من السُّلطان الغيظ كيف يُخاطَب [بـ] ـمثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاده .

ذكر تقدّم رسول الرّوم

ولما كان مستهلّ جُمادى الأولى ، وصل رسول من قسطنطينية الكبرى ، والتُقي بالإكرام والاحترام ، ومَثُل بالخدمة السُّلطانية في الثالث من جُمادى الأولى [1] .

---

(1) يتّضح لنا ، من خلال كتاب ابن شدّاد هذا ، أن العلاقات السياسية ما بين السّلطان النّاصر والدّولة البيزنطية كانت في أرقى مستوياتها ، بغية مواجهة الخطر اللاتيني المشترك .

وكانت رسالته تشتمل على مطالب ، منها : صليب الصَّلَبُوت . ومنها : أن تكون القُمامة بيد أقسَّاء من جانبه ، وسائر كنائس القُدْس . ومنها : أن يقع الاتفاق معه على أن يكون عدوّ من عاداه وصديق من صادقه . ومنها : أن يُوافَق على قصد جزيرة قبرص . فأقام إلى يومين ، ثم سيَّر معه رسولاً يقال له : ابن البزَّار من الديار المصرية . وأجيب بالمنع عن جميع مقترحاته ، وقيل[171 ظ] له إن الصَّليب قد بَذَل فيه ملك الكُرْج مائتي ألف دينار ، فلم يُجب إلى ذلك .

ذكر ما جرى للملك العادل في البلاد التي هي قاطع الفُرَات

وذلك أنه لما سار الملك الأفضل رقَّق الملك العادل قلب السُّلطان على ابن تقي الدِّين ، وكثر الحديث في معناه ، وأنفذني السُّلطان لمشَاوَرة الأمراء في خدمة الملك العادل في أمره ، فجمعتُهم في خدمته ، وذكرتُ لهم ما أرسلني فيه إليهم .

فانتدب الأمير حسام الدِّين أبو الهيجاء للجواب ، وقال : «نحن عبيده ومماليكه ، وذاك صبيّ ، وربما حمله خوفه أن انضاف إلى جانب آخر ؛ ونحن فما نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفّار ، فإن أرادنا نقاتل المسلمين صالحَ الكفّار وسرنا إلى ذلك الجانب ، وقاتلناه بين يديه ، وإن أراد منا ملازمة الغزاة صالحَ المسلمين وسامحهم» .

وهذا كان جواب الجميع ، فرقَّ السُّلطان – قدّس الله روحه – وجُدِّدت نسخة يمين لابن تقي الدِّين – رحمه الله – وحلف له بها ، وأعطاه خطّه بما استقرّ من القاعدة . ثم إن الملك العادل – رحمه الله – التمس من السُّلطان – رحمة الله عليه – البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدِّين بعد انتقاله ، وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها ، وكنتُ الرَّسولَ بينهما .

وكان آخر ما استقرّ أنه يتسلّم تلك البلاد ، وينزل [172 و] عن كل ما هو شامي الفُرَات ، وما قطعها ما عدا الكَرَك والشَّوْبَك والصَّلْت والبَلْقاء ، وخاصة بمصر بعد النزول عن خبزه ، وعليه في كل سنة ستة آلاف غرّارة غلّة تحمل إلى السُّلطان من الصّلت والبلقاء إلى القُدْس ، والمغلّ في السنة المذكورة في مواضعه له ، ومغلّ قاطع الفُرَات للسُّلطان في هذه السنة أيضاً .

وأخذ خط السُّلطان – رحمة الله عليه – بذلك ، وسار بنفسه ليصلح ابن تقي الدِّين ويطيّب قلبه . وكان مسيره في ثامن جُمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ذكر استيلاء الفرنج على الدَّارُوم

وكان الفرنج – خذلهم الله تعالى – لما رأوا أن السُّلطان – رحمة الله عليه – قد أعطى العساكر دستوراً ، وتفرَّقت العساكر عنه نزلوا على الدَّاروم طمعاً فيه ، وكان بيد علم الدِّين قَيْصَر ، وفيه نوابه .

ولما كان يوم السبت تاسع جُمادى الأولى ، سنة ثمان وثمانين ، اشتدَّ زحف العدوّ على المكان راجلاً وفارساً ، وكان الأنكتار الملعون قد استنقذ من نوبة عكّا نقّابين جبليين [1] ، فتمكنوا من نقب المكان ، وأحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مُهلةً بحيث يشاورون السُّلطان – رحمة الله عليه – فلم يمهلوهم ، واشتدُّوا في القتال عليه ، فأخذوه عَنْوَةً ، واستُشهد فيه من قَدَّر الله له ذلك ، وأُسر من قَدَّر [172 ظ] له ذلك ، وكان ذلك ﴿قَدَراً مقدوراً﴾ [2] .

---

(1) في الأصل : حلبيين . والتصويب من طبعة مصر .

(2) لم يتعلّم ريتشارد القذر من مروءة صلاح الدين شيئاً ، فكان مصير حامية الدّاروم أن لقي أكثر أفرادها مصرعهم بحدّ السيف ، وعلِّق بعضهم على شُرُفات الحصن .

ذكر قصدهم لمجدل يابا

ولما استولى الفرنج على الدّاروم ، ساروا بعد أن قرّروا أمره ، ووضعوا فيه من اختاروه له ، حتى نزلوا على منزلة يقال لها الحَسَي ، وهو قريب من جبل الخليل عليه السلام ، وذلك في رابع عشر جُمادى الأولى [1] .

فأقاموا عليه ، ثم تأهّبوا لقصد حُصن يقال لـه مَجْدَل يَابَا ، فأتوه جريدةً ، وخلّفوا خيامهم في منزلتهم ، وكان بها عسكر إسلامي ، فلقيهم وجرى بينهم قتال عظيم ، وقُتل من العدوّ كُنْدٌ مذكور فيما بينهم ، واستُشهد من المسلمين فارس واحد ، وكان سبب قتله أنه وقع رُمحه ، فنزل ليأخذه فمنعه فرسه الرّكوب ، فبادروه وقتلوه ، وعادوا إلى خيامهم بقية اليوم خائبين ، ولله الحمد .

ذكر وقعة جرت في صُوْر

ولما كان سادس عشر جُمادى ، وصل كتاب من حسام الدّين بشارة يذكر فيه أنه تخلّف [108 و] في صُوْر مائة راكب ، وانضم إليهم من عكّا مقدار خمسين . وطمعوا فخرجوا لشنّ الغارة على البلاد الإسلامية ، فوقع عليهم العسكر المُرصد لحفظ البلاد من ذلك الطرف ، وجرى بينهم قتال شديد ، قُتل من العدوّ خمسة عشر نفراً ، ولم يُقتل من المسلمين أحد . وعادوا خائبين خاسرين ، ولله الحمد .

---

(1) الواقع أن استيلاء الصّليبيين بسهولة على حصن الدّاروم ، وهو آخر حصن لصلاح الدين على السّاحل الفلسطيني ، رفع من روحهم المعنوية ، فأعدّوا خطّة (هي الثانية) للزحف على بيت المقدس . وتجمّعت جيوش الصّليبيين في عسقلان تمهيداً للهجوم ، غير أن الأخبار المقلقة التي بلغت ريتشارد من إنكلترا ، حملته على إلغاء الهجوم ، ولزم فراشه مريضاً . لكنه تنازل عن عزمه على مغادرة المشرق عائداً إلى بلاده . انظر :
Itinerarium, pp. 356-65; Ambroise, cols. 252-9; Runciman, op. cit., iii, p. 67.

ذكر قدوم العساكر الإسلامية إلى الجهاد

ولما رأى السُّلطان - قدّس الله روحه - ما جرى من العدوّ من التبسّط ، سَيَّر إلى العساكر من سائر الأطراف أن تُسابق إلى الحضور ، فكان أول قادم بدر الدِّين دلدرم مع خلق كثير من التُركمان ، ولقيه السُّلطان - قدّس الله روحه - واحترمه .

ذكر قدوم ابن المُقدَّم

[108 ظ] ووصل بعده عزّ الدِّين بن المقدّم في سابع عشر جُمادى الأولى بعسكر حسن وأطلاب جيدة ، ورحَّب به السُّلطان - رحمة الله عليه - واحترمه .

ذكر حركة العدوّ من الحَسَى

وأما العدوّ فإنه رحل من الحَسَى ، ونزل على مفرق طرق ، منها طريق عَسْقَلان ، وطريق إلى بيت جبريل ، وإلى غير ذلك من الحصون الإسلامية ؛ ولما بلغ السُّلطان - قدّس الله روحه - ذلك ، أمَرَ العساكر أن سارت نحوه ، فخرج أبو الهيجاء ، وبدر الدِّين دلدرم [1] ، وابن المقدّم وتتابعت العساكر ؛ وتخلّف هو - رحمة الله عليه - في القُدْس لنوع التياث كان عرض له .

فلما أحسَّ العدوّ المخذول بظهور العساكر الإسلامية إليه عاد خائباً خاسراً ناكصاً على أعقابه ، ووصلت الكُتُب من الأمراء يخبرون برحيل العدوّ إلى عَسْقَلان خائباً خاسراً ، ولله الحمد والمنّة .

* * * * *

---

(1) كنا ذكرنا أن الاسم تركي : Yıldırım ، ومعناه : صاعقة . وصاحبه تركماني كما ذُكر .

ذكر تعبئة العدوّ لقصد القُدْس الشَّريف

ولما كان يوم السبت ثالث عشري جُمادى الأولى [173 و] وصل قاصد من العسكر يُخبر أن العدوّ قد خرج في راجله وفارسه وسواد عظيم ، وخيَّم على تلّ الصافية (1) ، فسَيَّر السُّلطان – قدّس الله روحه – إلى العَساكر الإسلامية ينذرها ويحذّرها ، ويستدعي الأمراء جريدةً إلى عنده ، ليعقدوا رأياً فيما يقع العمل بمقتضاه .

فوصل ورحل العدوّ من تلّ الصافية إلى جانب النّطرون ، فنزل شماليه ، وذلك في سادس عشري جُمادى الأولى . وكان قد سار من عرب الإسلام جماعة للغارة على يافا ، فوصلوا عائدين من غير علم بحركة العدوّ ، فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون ، فوقعت عليهم عساكر العدوّ ، وأخذوهم ، وهرب منهم ستة نفر ، فوصلوا إلى السُّلطان ، وأخبروه الخبر ؛ ووصلت الجواسيس وأصحاب الأخبار من جانب العدوّ ، يخبرون أنه يقيم بالنّطرون لنقل الأزواد والآلات التي تدعو الحاجة إليها في الحرب ، فإذا حصل عندهم ما يحتاجون إليه قصدوا القُدْس الشَّريف (2) .

وفي يوم الأربعاء وصل منهم رسول صحبة غلام كان للمشطوب عندهم ، تحدّث في معنى قَرَاقُوش ، ويتحدثون في معنى الصُّلح .

---

(1) سمّى الصَّليبيون هذا التل بالفرنسية : بلانش گارد Blanche-Garde .

(2) الواقع أن جيوش الصَّليبيين ، طيلة الحملة الصَّليبية الثالثة بقيادة الملك ريتشارد ، ظلّت عاجزة عن إلقاء حصار قوي حول المدينة ، التي لم يُكتب لهم البتّة رؤيتها طيلة حياة السُّلطان . أما ريتشارد ، الذي أرّقه هاجسان اثنان : عجزه عن دخول القدس ، وأخبار اضطراب مُلكه في إنكلترا ؛ فسيضطر بعد فترة غير بعيدة إلى استجداء الصّلح من السُّلطان ، بشروطه الكاملة غير منقوصة . ثم غادر ريتشارد المشرق إلى غير رجعة في 9 تشرين الأول 1192 م ، ليمضي بعدها سنة و 3 أشهر في سجون أعدائه في أوروبا ؛ ثم يلقى حتفه بسهم طائش في قلعة ليموزين عام 1199 م .

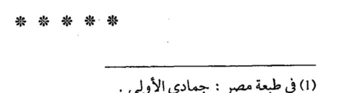
ذكر نزولهم في بيت نوبة
وهو موضع وطاة بين جبال ، بينه وبين القُدْس مرحلة

فرحلوا من النّطرون يوم الأربعاء سابع عشرين ربيع الأول [1] ، ونزلوا ببيت [173 ظ] نوبة . ولما عرف السُّلطان – رحمة الله عليه – ذلك استحضر الأمراء وضرب مشوراً فيما يفعل ، وكان خلاصة الرأي أن تُقسم الأسوار على الأمراء ، ويخرج ببقية العساكر جريدةً إلى جهة العدوّ ، فإذا عرف كل قوم موضعهم من السُّور واستعدوا له ، فإن دعت الحاجة إليهم خرجوا ، وإن دعت الحاجة إلى ملازمة مواضعهم لازموها . فكُتبت الرِّقاع وسُيِّرت إلى الأمراء .

ذكر وقعة جَرَت

وكان طريق يافا سابلة بمن ينقل الميرة إلى العدوّ المخذول ، فأمر السُّلطان – قدّس الله روحه – مَنْ في اليَزَك أن يعمل معهم ما يمكنه ، وكان في اليَزَك بدر الدِّين دلدرم ، فكمن حول الطريق كميناً فيه جماعة جيدة ، فمرَّ بهم جمعٌ من خيّالة العدوّ يحمون قافلة تحمل ميرة ، فاستضعفهم ، فحملوا عليهم ، وجرى قتال عظيم كانت الدائرة فيه على العدوّ ، وقُتل ثلاثون نفراً ، وأُسر جماعة .

ووصل الأسارى يوم السبت تاسع عشري جُمادى الأولى إلى القُدْس الشَّريف ، وكان لدخولهم وَقْعٌ عظيم ، وجرى على العدوّ من ذلك وَهَن عظيم ، وقويت قلوب اليَزَكية ، وانبعثت هممهم حتى حملوا على العسكر ، ونزلوا إلى أطراف الخيم ، ولله الحمد .



* * * * *

(1) في طبعة مصر : جمادى الأولى .

ذكر وقعة أخرى [1]

ولما علم المسلمون كون القوافل لا تنقطع ، خرج جماعة وأخذوا معهم عرباً [213 و] كثيرة ، وكمنوا كميناً ؛ واجتازت القافلة ومعها جمع كثير ، فخرجت العرب على القافلة ، فتبعتهم الخيّالة ، فاندرجوا بين أيديهم منهزمين نحو المسلمين ، فخرجت الأتراك عليهم ، فأخذوا منهم وقتلوا ، وجُرح من الأتراك جماعة ، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث جُمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ذكر أخذ قافلة مصر
حرسها الله تعالى

وكان قد تقدّم السُّلطان - قدّس الله روحه - إلى عسكر مصر بالمسير ، وأوصاهم بالاحتراز والاحتياط عند مقاربة العدوّ ، وأقاموا ببلبيس أياماً ، حتى اجتمعت القوافل إليهم ، واتصل خبرهم بالعدوّ المخذول ، ثم ساروا طالبين البلاد ، والعدوّ يترقب أخبارهم ، ويتوصل إليهم بالعرب المفسودين .

ولما تحقّق العدوّ خبر القَفل أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل ، وركب في ألف راكب مرافقين ألف راجل [2] ، وأمر العسكر بالاحتياط والتحفّظ ، وسار حتى أتى تلّ الصافية ، فبات ، ثم سار حتى أتى تلّ الصافية ثم علّف على خيله فيه ، وسار حتى أتى ماء يقال [3] له الحَسَى .

* * * * *

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .
(3) في طبعة مصر : يقابل .

واتصل خبر نهضة العدوّ ، فأنفذ وأخبر القافلة ، وكان المندوب لذلك أمير آخُرْ أسْلَم ، وأَلْطُنْبُغا العادلي ، وجماعة من الفرسان المذكورين ، وأمرهم أن يبعدوا بالثَّقْل في البرية ، ويبعدوهم [174 ظ] عن العدوّ مهما أمكن ، فاتفق أن العسكر وصل الحَسَى قبل وصول العدوّ إليه فلم يقيموا عليها ، وساروا حتى اتصلوا بالقفل والعسكر المصري ، فأتوا بالقفل على ذلك الطريق ، ثقةً منهم بأنهم لم يجدوا في الطريق ذاعراً ، ولا أحسُّوا فيه بمخوف ، فرغبوا في قرب الطريق ، وسلكوا بالناس على هذا الطريق .

فوصل الناس إلى ماء يقال له الخُويلفة ، وتفرَّق الناس لأجل الماء ، فأخبرت العرب العدوّ بذلك وهو نازل برأس الحَسَى ، فقام من وقته وسرى حتى أتاهم قبيل الصبح ، وكان مقدَّم العسكر المصري فَلَك الدِّين أخو الملك العادل لأمه ، فأشار أسْلَم بالمسير ليلاً ، قطعاً للطريق واستظهاراً بالصعود إلى الجبل ، فخاف فَلَك الدِّين أنه إن رحل في الليل جرى في الليل أمرٌ على القافلة لتبدّدها ، فنادى في الناس ألا يرحلوا إلى الصباح .

وأما الأنكتار الملعون ، فإنه بَلَغَنا أنه لما بلغه الخبر لم يصدّق به ، فركب مع العرب بجمعٍ يسير ، وسار حتى أتى القَفْل وطاف حوله في صُوْرة عربي ، ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره .

وكانت الكبسة قريبة الصباح ، فبُغت الناس ، ودفع بخيله ورَجله ، فكان الشجاع الأيِّد القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه ، وانهزم الناس إلى جهَة القَفْل ، والعدوّ يتلوهم ، فلما رأوا القَفْل أعرضوا [175 و] عن قتال العسكر ، وطلبوا القفل ، فانقسم القَفْل ثلاثة أقسام : قسم قصدوا الكَرَك مع جماعة من العرب وعسكر الملك العادل ، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب ، وقسم استولى عليهم [العدوّ] فساقهم بجمالهم وأحمالها وجميع ما معهم . وكانت وقعة شنعاء لم يُصب الإسلام بمثلها من مدّة مديدة .

وكان في العسكر المصري جماعة من المذكورين ، كحسين الجراحي ، وفَلَك الدِّين ، وبني الجاولي وغيرهم من المذكورين ، وقُتل من العدوّ مائة فارس على رواية ، وعشرة أنفس على رواية ، ولم يُقتل من المسلمين معروف سوى الحاجب يوسف ، وابن الجاولي الصغير فإنهما استُشهدا إلى رحمة الله تعالى ، وكان للسُّلطان – قدّس الله روحه – حمْلٌ مع أيبك العزيزي فقاتل دونه وسلم ؛ وتقدّم عند السُّلطان بسبب ذلك [1] .

وتبدّد الناس في البرية ، ورموا أموالهم ، وكان السّعيد منهم من نجا بنفسه . وجمع العدوّ ما أمكنه جمعه من الخيل والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال وكلّف الجمالين خدمة الجمال ، والخَرْبَندية خدمة البغال ، والسّاسة خدمة الخيل ، وسار في جحفل من غنيمة يطلب عسكره ، فنزل على الخويلفة ، وسقى منها ، ثم سار حتى أتى الحَسَى .

ولقد كان حكى من كان أسيراً معهم أن في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السُّلطاني قد قصدهم ، فتركوا [175 ظ] الغنيمة وانهزموا ويعدوا عنها زماناً ، فلما انكشف لهم أن العسكر لم يلحقهم ، عادوا إلى الرَّحْل . وهرب في تلك الغيبة جمع من الأسارى المسلمين ، وكان الحاكي منهم ، فسألتُه : «بكم حزرتم الجمال والخيل؟» . فأخبر أن الجمال كانت تناهز ثلاثة آلاف جمل ، والأسارى خمسمائة ، وازنها عدّة الخيل ، أخبر بذلك جماعة .

وكانت هذه الوقعة صبيحة الثلاثاء حادي عشر جُمادى الآخر سنة ثمان وثمانين . ووصل [الخبر] إلى السُّلطان – قدّس الله روحه – في عشية ذلك اليوم بعد عشاء الآخرة وكنتُ جالساً في خدمته ، ووصل بالخبر شاب من الإصطبلية ، فما مرَّ بالسُّلطان خبرٌ أنكى منه في قلبه ولا أكثر تشويشاً منه لباطنه . وأخذتُ في تسكينه وتسليته وهو لا يكاد يقبل التّسلية .

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

وكان أصل القضية أن أمير آخُرْ أسْلَم أشار عليهم أنهم يصعدون الجبل وينزلون ، فلم يفعلوا ، فصعد هو الجبل وأصحابه ، فلما وقعت الكبسة كان هو على الجبل لم يصل إليه أحد من العدوّ ، ولم يشعروا به . ولما انهزم المسلمون تبعهم خيالة الفرنج ، وأقام الرَّجَّالة منهم يستولون على ما تخلَّف من المسلمين من الأقمشة ، فلما تحقّق أمير آخُرْ أن الخيّالة قد بعدت عن الرَّجّالة نزل إليهم بمن معه من الخيل ، وكبسوهم من حيث لم يشعروا ، وقتلوا منهم جماعة ، وغنموا منهم دواباً من جملتها بغل كان تحت هذا القاصد ، ثم سار [176 و] العدوّ يطلب خيامهم ، وكان وصولهم إلى مخيمهم في سادس عشر جُمادى الآخر .

وكان يوماً عندهم أُظهر فيه من السرور وأسبابه ما لا يمكن وصفه ، وأعادوا خيمهم إلى الوطاة على بيت نوبة ، وصحَّ عزمهم على القُدْس ، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تقلّ الميرة والأزواد الواصلة من مصر مع عسكرها ، ورتّبوا جماعة من [1] لُدّ يحفظون الطريق على من ينقل الميرة ، وأنفذوا الكُنْدُهْري إلى صُوْر وطرابلس وعكّا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القُدْس [2] .

ولما عرف السُّلطان – قدّس الله روحه – ذلك منهم ، عمد إلى الأسوار فقسَّمها على الأمراء ، وتقدّم إليهم بتهيئة أسباب الحصار ، وأخذ في إفساد المياه ظاهر القُدْس ، فأخرب الصهاريج والجباب ، بحيث لم يبقَ حول القُدْس ما يُشرب أصلاً ، وأطنب في ذلك إطناباً عظيماً ، وأرض القُدْس لا يُطمع في حفر بئر فيها ما يعين في جمعها ، لأنها جبل عظيم وحجر صلب ، وسيَّر إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد .

---

(1) في طبعة مصر : على .

(2) كان الصَّليبيون بعد احتلالهم للدّاروم – وهو آخر حصن كان للسُّلطان على السّاحل الفلسطيني – قد ارتفعت روحهم المعنوية ، وزاد في ذلك ظفرهم بقافلة مصر . فراحوا يعدّون العدّة لحصار القُدس في حزيران من عام 1192 م ، ثم تراجعوا كما سيأتي أدناه .

ذكر قدوم الملك الأفضل

وكان لمّا استقرَّت القاعدة مع الملك العادل في عبوره البلاد الفُراتيّة ، سَيَّر إلى الملك الأفضل يأمره بالعَوْد من قصد تلك البلاد ، وكان قد وصل إلى حلب المحروسة . فلمّا وصله أمر السُّلطان [176 ظ] بالعَوْد ، عاد مع انكسار في قلبه وتشوُّش في باطنه ، فوصل إلى دمشق معتباً ، ولم يحضر إلى خدمة السُّلطان . فلما اشتدَّ خبر الفرنج سَيَّر إليه وطلبه ، فما وسعه التأخُّر ، فسار مع من كان قد وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق .

وكان وصوله في يوم الخميس تاسع عشر جُمادى الآخر ، ولقيه السُّلطان قريباً من العازريّة ، وترجَّل له جَبْراً لقلبه وتعظيماً لأمره ، وسار في خدمته أخواه الملك الظافر وقُطب الدِّين [1] في ظاهر القُدْس من جهة العدوّ .

ذكر عَوْد العدوّ إلى بلادهم
وسبب ذلك

ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جُمادى الآخر ، أحضر السُّلطان - قدّس الله روحه - الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبو الهيجاء بمشقّة عظيمة ، وجلس على كرسي في خدمة السُّلطان ، وحضر المشطوب والأسديّة بأسرهم ، وجماعة الأمراء .

ثم أمرني أن أكلّمهم وأحثّهم على الجهاد ، فذكرتُ ما يسَّر الله من ذلك ، وكان مما قلتُه : «إن النبي صلّى الله عليه وسلم لما اشتدَّ به الأمرُ بايعه الصحابة - رضي الله عنهم - على الموت في لقاء العدوّ ، ونحن أولى من تأسّى به ، صلّى الله

---

(1) هو قطب الدّين الفضل أبو المظفّر موسى ، أحد أبناء السُّلطان صلاح الدين ، ولد بمصر 573 هـ .

عليه وسلّم ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ، فلعل ببركة هذه النيّة يندفع هذا العدوّ» .

فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه ، ثم شرع السُّلطان - قدّس الله روحه - بعد أن سكَتَ زماناً في صُوْرة مُفكِّر ، والناس [177 و] سكوت ، كأن على رؤوسهم الطير ، ثم شرع وقال : «الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومَنَعَتُه ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلّقة في ذممكم ، فإن هذا العدوّ مَنْ له من المسلمين من تلقّاه إلا أنتم ؟ فإن لويتم أعنّتكم [1] - والعياذ بالله - طوى البلاد كطيّ السِّجلِّ للكتاب ، وكان ذلك في ذمّتكم فإنكم أنتم الذين تصدَّيتُم لهذا ، وأكلْتُم مال بيت المال ، فالمسلمون في سائر البلاد متعلّقون بكم ، والسلام» .

فانتدب لجوابه سيف الدِّين المشطوب ، وقال : «يا مولانا : نحن مماليكك وعبيدك ، وأنت الذي أنعمت علينا وكبّرتنا ، وعظّمتنا وأعطيتنا ، وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك ، والله ما يرجع أحدٌ منا عن نُصرتك إلى أن يموت» . فقال الجماعة مثل ما يقول .

فانبسطت نفسه بذلك المجلس ، وطاب قلبه ، وأطعمهم ثم انصرفوا . ثم انقضى يوم الخميس على أشدّ حال من التأهب والاهتمام ، حتى كان العشاء الآخرة ، واجتمعوا في خدمة السُّلطان على العادة ، وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل ، وهو غير منبسط على عادته ، ثم صلّينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدُستور العام ، فصلّينا وأخذنا في الانصراف .

فاستدعاني - رحمة الله عليه - فلما جلستُ في خدمته قال لي : «علمتَ ما الذي تجدد ؟» فقلت : «وما الذي [177 ظ] تجدّد ؟» قال : «إن أبا الهيجاء أنفذ إلي اليوم وقال : إنه اجتمع عندي جماعة المماليك والأمراء ، وأنكروا علينا موافقتنا

(1) في طبعة مصر : فإن ولّيتم بأنفسكم .

لك على الحصار والتأهب له ، وقالوا : لا مصلحة في ذلك ، فإنا نخاف أن نُحْصَر ويجري علينا ما جرى على أهل عكّا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع ، والرأي أن نلقي مصافاً ، فإن قدّر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ، ومضى القُدْس ، وقد انخفضت بلاد الإسلام بعساكرها مدّة بغير القُدْس» .

وكان – رحمة الله عليه – عنده من القُدْس أمرٌ عظيم لا تحمله الجبال ، فشقَّ عليه هذه الرسالة .

وأقمتُ تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله – رحمه الله – وكان مما قالوه في الرسالة : «إنك إن أردتنا فتكون معنا أو بعض أهلك ، حتى نجتمع عنده ، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك ، والأتراك لا يدينون للأكراد» [1] . وانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدِّين ابن فَرُّوْخْشَاه – صاحب بعلبك – ، وكان – رحمه الله – تحدّثه نفسه بالمقام ، ثم منعه رأيه عنه ، لما فيه من خطر للإسلام .

فلما قارب الصبح ، أشفقتُ عليه وخاطبتُه في أن يستريح ساعة ، لعلَّ العين تأخذ حظّها من النوم [2] ، وانصرفتُ عنه إلى داري ، فما وصلتُ إلا والمؤذّن قد أذّن ، فأخذتُ في أسباب الوضوء ، فما فرغتُ إلا والصبح قد طلع ، وكنتُ أصلّي [178 و] الصبح معه – رحمة الله عليه – في غالب الأحوال .

وقصدتُ إلى خدمته وهو يجدّد الوضوء ، فصلّينا ، ثم قلتُ له – رحمة الله عليه – : «قد وقع لي واقع أعرضُه» فأذن فيه ، فقلت : «المولى في اهتمامه وما قد

---

(1) كانت زعامة العالم الإسلامي في العصور الوسيطة قد دانت لما يُعرف بـ «الأعاجم» ، من التُّرك والكُرد غالباً . فكان لهؤلاء الأعاجم فضل حمل راية الجهاد ضد الغزاة الصَّليبيين والتَّتار والمغول في آن واحد ، منذ عهد السّلاجقة التركمان فالأتابكة والزنكيين الأتراك فالأيوبيين الأكراد فالمماليك البحرية الأتراك والبُرجيّة الجركس .

(2) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

حمّل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه ، وقد عجزتْ أسبابه الأرضية ، فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى ، وهذا يوم جُمعة ، وهو أبرك أيام الأسبوع ، وفيه دعوة مستجابة – في صحيح الأحاديث – ونحن في أبرك موضع نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا ؛ فالسُّلطان يغتسل للجمعة ، ويتصدّق بشيء خفية ، بحيث لا يُشعر أنه منك ، وتصلّي بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيهما ربّك ، وتفوِّض مقاليدَ أمرك إليه ، وتعترف بعجزكَ عما تصدّيتَ له ، فلعل الله يرحمَكَ ، ويستجيبَ دعاءك» .

وكان – رحمة الله عليه – حسن العقيدة ، تام الإيمان ، يتلقّى الأمور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ؛ ثم انفصلنا فلما كان وقت الجمعة صلّيت إلى جانبه في الأقصى ، وصلّى ركعتين ، ورأيتُه ساجداً وهو يذكر كلمات ، ودموعه تتقاطر على مُصَلاّه – رحمه الله – [1].

ثم انقضت الجمعة بخير ، فلما كان عشيّتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة جُورديك ، وكان في اليَزَك يقول فيها : «إن القوم ركبوا بأسرهم ، ووقفوا في البرّ على ظهر [2] ، ثم عادوا إلى خيامهم ، وقد سَيَّرنا جواسيس تكشف أخبارهم» .

[178 ظ] ولما كان صبيحة يوم السبت وصلت رقعة أخرى ، يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القُدْس ، والرَّحيل إلى بلادهم . فذهبَ الفرنسيسية إلى الصعود إلى القُدْس ، وقالوا : «نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القُدْس ، ولا نرجع دونه» ، وقال الأنكتار : «إن هذا الموضع قد أُفسدت مياهُه ، ولم يبق حوله ماء أصلاً فمن أين نشرب؟» ، فقالوا له : «نشرب

---

(1) تتفّق بهذا المعنى شخصية السُّلطان القوي الصُّلب الحازم ، والتقيّ الورع ، في آن واحد . ويرسم لنا الكتاب صورة رائعة للسُّلطان المجاهد الذي لم يعرف الرّاحة والدّعة يوماً .

(2) في طبعة مصر : وقفوا في التلّ وقت الظهيرة . وعبارة «على ظهر» ، تعني أنهم كانوا ممتطين ظهور جيادهم ، جاهزين للكرّ .

من مـاء نقـوع ، وبينـه وبـين القُدْس مقـدار فرسـخ» . فقـال : «كيـف نذهـب إلـى السَّقي ؟» ، فقالوا : «ننقسم قسمين : قسمٌ يركب إلى السَّقي مع الدّواب ، وقسمٌ يبقى على البلد في المنزلـة ، ويكـون الشـرب في اليـوم مرة» . فقـال الأنكتـار : «إذاً يُؤخذ العسكر البرّاني الذي يذهب مع الدّواب ، ويخرج عسكر البلد على البـاقين ، ويذهب دين النَّصرانية !» .

فانفصل الحال على أنهـم حكّمـوا ثلاثمائـة مـن أعيـانهم ، وحكّـم الثلاثمائة اثني عشر منهم ، وحكَّم الإثنا عشر ثلاثةً منهم ، وقد باتوا على حكم الثلاثة ، فمـا يأمرونهم به يُفعل . فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرّحيل ، فلم يمكنهم المخالفة .

وأصبحوا في بُكـرة الحـادي والعشـرين مـن جُمـادى الآخـر راحلـين إلـى نحـو الرَّمْلة ، وعلى أعقابهم – ولله الحمد – ناكصين ، ووقف عسكرهم شاكاً في السِّلاح إلى أن لم يبقَ في المنزلة إلا الآثار . ثم نزلوا بالرَّمْلة وتواتر الخبر بذلك .

فركب السُّلطان – قدّس الله روحه – وركب الناس ، وكان يوم سـرور وفـرح ولكن السُّلطان – قدّس الله [179 و] روحه – خاف على مصر المحروسة [1] لما حصلوا عليه من الجمال والظهر ، وكان قد ذكَرَ الأنكتار مثل هذا الحديث مراراً [2] .

---

(1) كان الصَّليبيون قد حاولوا بالفعل احتلال مصر مراراً عديدة ، كـانت أولاهـا بقيـادة ملـك القُدْس أموري Amaury مرتـين عـام 1164 و 1167 م ، فتصـدّى لهـم في الأولـى شـيركوه عمّ صلاح الدين ، وفي الثانية هزمهم صلاح الدين بنفسه . ثم بعد وفاة صلاح الديـن ، أعاد الصَّليبيّون الكرّة في حملتهم الصَّليبية الخامسة ، بقيادة ملك القُدْس جـان دى بريـين Jean de Brienne ، فاحتلّوا دمياط عام 1219 م ، وكاد الملك العـادل أبـو بكـر بـن أيـوب يضطر لتسليمهم القُدْس مقابل دمياط ، لـولا أنـه عـاد فهزمهـم عـام 1221 م . ثـم أعـاد الصَّليبيون المحاولة في حملتهم الصَّليبية السابعة ، بقيادة الملك لويس التاسـع Louis IX ، الـذي احتـل دميـاط في عـام 1249 م ، فهزمـه المـماليك السُّـلطانية شـرّ هزيمـة في معركـة المنصورة عام 1250 م وأسروه ، فكان ثالث ملك صليبي يقع في أسر المسلمين ، مـن بعـد گي دى لوزينيان وبودوان الثاني . هذا ، ولم يتمكن الغزاة الصَّليبيـون أبـداً مـن احـتلال مصر ، التي قامت فيها إثر معركة المنصورة دولـة سـلاطين المـماليك ، إيذانـاً بانهيـار دول الفرنجة في الشام بسقوط عكّا ، آخر معاقل الصَّليبيين ، على أيديهم عام 1291 م .

(2) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

ذكر رسالة الكُنْدُهْري

ولما فرغ بالُ السُّلطان برحيل العدوّ ، استحضر رسول الكُنْدُهْري لسماع رسالته . فحضر بين يديه - رحمة الله عليه - وأذن له في أداء الرّسالة ، فقال : «إن الكُنْدُهْري يقول : إن الأنكتار قد أعطاني البلاد السّاحلية ، وهي الآن لي ، فأعد لي بلادي حتى أصالحك ، وأكون أحد أولادك» .

فغضب السُّلطان لذلك غضباً عظيماً بحيث أنه كاد يبطش به ، فأُقيم من بين يديه ، فسأل أن يُمهل ليقول كلمة أخرى ، فأذن له في ذلك ، فقال : «يقول : إن البلاد في يدك ، فما الذي تعطيني منها ؟» . فانتهره وأقامه .

ولما كان اليوم الثالث والعشرون من جُمادى الآخرة ، استُحضر الرَّسول ، وكان جوابه : «يكون الحديث بيننا في صُوْر وعَكّا على ما كان مع المركيس» .

ثم وصل بعد ذلك الحاجي [1] يوسف صاحب المشطوب من الفرنج ، وذكر أن الأنكتار أحضره وأحضر الكُنْدُهْري ، وأخلى المجلس ، وقال له : «تقول لصاحبك بأنّا قد هلكنا نحن وأنتم ، والأصلح حَقْنُ الدِّماء ، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني ، بل للمصلحة ، ويكون هو الواسطة بيننا وبين السُّلطان ، ولا تغترّ بتأخُّري عن منزلي ، فالكبش يتأخَّر لِيَنْطَح» . وأحضر مع الحاجي [1] شخصين يسمعان الكلام من [179 ظ] المشطوب ، وكان ظاهر الحال الكلام في معنى إطلاق بهاء الدِّين قَرَاقُوش ، وباطنه في معنى الصُّلح .

وأخبر الحاجي أنهم رحلوا عن الرَّمْلة قاصدين يافا ، وأنهم على غاية الضعف والعجز عن قصد مكان [آخر] . فاستُحضر المشطوب من نابلس لسماع الرسالة ، فحضر ، وكان الجواب : «إنّ الكُنْدُهْري قد أُعطي عكّا ، ونحن نصالحه على ما لَهُ ، ويتركنا والأنكتار في بقيّة البلاد» .

---

(1) في طبعة مصر : الحاجب . وحاجي بالصيغة الكردية يعني الحاج .

وقعة جرت على عكّا [(1)]

وذلك أنه كان - رحمة الله عليه - قد جعل في مقابلة عكّا عسكراً خشية خروج العدوّ إلى تلك النواحي التي تليهم ، فلما كان يوم الأحد الثاني والعشرون من جُمادى الآخر ، خرج العدوّ المخذول من عكّا غائرين على ما يليها من البلاد والرَّساتيق [(2)] ؛ فثارت عليهم الكمينات من جوانب ، وكان قد شعر العسكر الإسلامي بخروجهم ، فكمن لهم ، فأخذوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة ، ولله الحمد .

ذكر عَوْد رسولهم في معنى الصُّلح

ولما كان يوم الجمعة السادس والعشرون من جُمادى الآخر ، عاد رسولهم صُحبة الحاجي يوسف ، وقد حَمَّل الحاجي يوسف رسالة يؤدّيها بحضور صاحبهم وهي :

«إن الملك - يعني الأنكتار - يقول : إنه راغبٌ في مودَّتكَ وصداقتكَ ، وإنه لا يريد أن يكون فرعوناً [ا] يملك الأرض ، ولا يُظَنُّ ذلك فيك ؛ ولا يجوز لك أن تُهلكَ المسلمين كلَّهم ، ولا يجوز أن أُهلكَ الفرنج كلهم ، وهذا ابن أختي الكُنْدُهْري قد مَلَّكْتُهُ هذه الديار ، [180 و] وسلّمتُه إليك ، يكون هو وعسكره بحُكمكَ ، ولو استدعيتَهُم إلى الشَّنق [(3)] سمعوا وأطاعوا» .

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) الرَّساتيق : مفردها رُستاق ، وهو تعريب الكلمة فارسية : رُوْسْتَا ، أي السَّواد والقُرى المحيطة بالمدن . راجع : المُعرَّب للجواليقي ؛ والألفاظ الفارسية المعرَّبة للسيّد أدّي شير الكلداني ، ص 71 .

(3) في نسخة الأصل : إلى الشَّرق . وما أثبتناه هو ما جاء في طبعة مصر ، والذي يناسب سياق المعنى أكثر .

ويقول : «إنَّ جماعةً من الرُّهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس ، فما بخلتَ عليهم بها ، وأنا أطلبُ منك كنيسةً ، وتلك الأمور التي كانت تُضيق صدرَك مما كان يجري في المراسلة مع الملك العادل قد قلتُ بتركها وأعرضتُ عنها ، ولو أعطيتَني مقرعة أو قربة قبلتُها وقَبَّلْتُها [1] .

فلما سمع السُّلطان هذه الرسالة ، جمع أرباب الرأي وأصحاب مشورته ، وسألهم عما يكون جواب هذه الرسالة ، فما منهم إلا من أشار بالمحاسنة ، وعقد الصُّلح ، لما قد أخذ المسلمين من الضَّجَر والتَّعب ، وعلاهُم من الدُّيون . واستقرَّ الحال على هذا الجواب :

«إنَّك إذا دخلتَ معنا هذا الدخول فما ﴿جَزَاءُ الإحسان إلاَّ الإحسان﴾ . ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي ، وسيبلغك ما أفعلُ في حقّه من الخَيْر ، وأنا أعطيتُك أكبر الكنائس وهي القُمامة [2] ، وبقية البلاد نقسمها : فالسّاحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا ، وما بين العَمَلَين يكون مُناصفةً ، وعَسْقَلان وما وراءها يكون خراباً ، لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قُراها تكون لكم ؛ والذي كنت أكرهُهُ حديثُ عَسْقَلان [3]» .

وانفصل الرَّسول طَيِّبَ النفس ، وذلك في ثاني يوم قدومه ، وهو الثامن [180 ظ] والعشرون من جُمادى الآخر من سنة ثمان . واتَّصل الخبر أنهم بعد وصول الرَّسُول إليهم راحلون إلى جهة عَسْقَلان ، طالبين جهة مصر .

---

(1) في طبعة مصر : ولو أعطيتني قرية أو خربة قبلتُها .
(2) القُمامة ، في مصطلح كتّاب القرون الوسطى ، هي كنيسة القيامة بالقُدس الشَّريف .
(3) وسبب ذلك أن الفرنج أعادوا احتلال السّاحل الفلسطيني برمّته من بعد فتوح حطّين ، في حملتهم الثالثة ، إثر استعادتهم لعكّا وعَسْقَلان والدّاروم . فأما ما وراء عَسْقَلان ، في جنوبي السّاحل الفلسطيني ، فيفضي إلى غزّة والعَريش ثم مصر ، التي يخشى عليها صلاح الدين من أطماع الغزاة الصّليبيين . فمن هنا جاء إصراره على تخريبها بالأمس القريب ، مع التأكيد الآن على بقائها منطقة منزوعة السِّلاح وخالية من التحصينات ، لئلا يستخدمها الصّليبيون نقطة انطلاق لغزو مصر ، قاعدة السَّلطنة الأيوبية .

ووصل يوم الجمعة السابع والعشرون من جُمادى الآخر رسول من جانب قُطب الدِّين بن قليج أرسلان يقول : «إن البابا قد وصل إلى قَسْطَنْطينيّة في خَلْق لا يعلم عددُهم إلا الله تعالى» . وقال الرسول : «إني قتلتُ في الطريق اثني عشر فارساً» ، ويقول : «تقدَّم إلى من يتسلّم بلادي منّي ، فإني قد عجزتُ عن حفظها» . فلم يصدِّق السُّلطان هذا الخبر ولم يكترث به [1] .

ذكر عَوْد رسول الفرنج ثالثاً

ولما كان عشيّة الأحد التاسع والعشرون من جُمادى ، وصل الحاجي صاحب المشطوب ، ومعه جُفري رسول الملك ، وقال : «إن الملك شكَر إنعام السُّلطان» ، وقال : «الذي أطلبه منك أن يكون لنا في القُدْس عشرون نَفَراً ، وأن مَنْ سكن من النَّصارى والفرنج في البلد لا يُتعرَّض إليهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها السّاحليات والوطاة ، والبلاد الجبلية لكم» .

وأخبرنا الرسول من عند نفسه مُناصحةً : «قد نزلوا عن حديث القُدْس ، ما عدا الزِّيارة ، وإنما يقولون ذلك تصنُّعاً ، وأنهم راغبون في الصُّلح ، وأن الأنكتار لا بُدَّ له من الرَّواح إلى بلده» . وأقام يوم الإثنين سَلْخ الشهر ، وكان معه في هذه الدَّفعة بازيان هدية [181 و] للسُّلطان .

---

(1) من المستبعد تماماً آنذاك قيام أي تحالف سياسي أو عسكري بين الصَّليبيين اللاتين الكاثوليك ، وبين الرّوم البيزنطيين الأرثوذوكسيين . ناهيك عن أن الحركة الصَّليبية منذ بداياتها الأولى ، كانت تنظر بعين الطمع إلى ابتلاع أملاك بيزنطة في المشرق ، على اعتبارها كياناً هرطقياً منشقاً (انفصلت عن الكنيسة الرّومانية في عام 879 م) . فلذا قام قائد الحملة الأولى گودفروا دي بويّون في عام 1097 م بمحاصرة القسطنطينية ، وتبعه في محاولات مشابهة كل من أمير أنطاكية بوهيموند الأول (1107 م) ، وملكا صقلية روجيه الثاني (1147 م) وگيّوم الثاني (1185 م) ؛ إلى أن أفلح الصَّليبيون في احتلال بيزنطة في حملتهم الرابعة ، وأقاموا بها إمبراطورية لاتينية دامت 55 عاماً (1204–1261 م) .

فاستحضر الأمراء بأسرهم ، وشاوَرَهُم فيما يكون الجواب لهذه الرسالة ، وانفصل الحال على هذا الجواب ، وهو :

«أن القُدْس ليس لكم فيه حديث سوى الزِّيارة» ، فقال الرسول : «وليس على الزُّوار شيء يؤخذ منهم ؟» فعلم من هذا القول الموافقة ، «وأما البلاد كعَسْقَلان وما وراءها فلا بُدَّ من خَرَابه» ، فقال الرسول : «قد خسر الملك على سورها مالاً جزيلاً» ، فسأل المشطوب السُّلطان - رحمة الله عليه - أن يجعل مزارعها وقراها في مقابلة خسارته ، فأجاب . «وأنَّ الدَّارُوم وغيره يُخرب ، ويكون بلدها مُناصفةً ، وأما باقي البلاد فتكون لهم من يافا إلى صُوْر بأعمالها ، ومهما اختلفنا في قرية كانت مُناصفة» . فهكذا كان جواب رسالته .

وسار في يوم الثلاثاء مُستهلّ رجب سنة ثمان وثمانين ، ومعه الحاجي يوسف . وكان قد طَلَبَ رسولاً مذكوراً يُحلِّفه إن استقرَّت القاعدة ، فأخَّر السُّلطان - رحمة الله عليه - تسيير الرَّسول إلى حين استقرار القاعدة ، وأنفذ لهم هديةً حسنة في جواب هديتهم ، وما كان - رحمه الله - يُغلب في الهدايا .

ذكر عَوْد الرسول

وكان عَوْدُهُ وقد مضى من اللّيل هزيع من ليلة الثالث من شهر الله رجب ، فحضر الحاجي ليلاً ، وأخبر السُّلطان [181 ظ] بالخبر ، وحضر الرَّسول في بُكرة الخميس الثالث من رجب ، وأدَّى الرسالة ، وهي [1] :

«إن الملك يسألك ، ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأيُّ قَدْر لها عند مُلكك وعظمتك ؟ وما سبب إصراره عليها إلا أن الفرنج لم

(1) رسالة مليئة بالمكر والحَذلقة ، يبغون كامل السّاحل الشامي صُلحاً بكل صفاقة ، أملاً بوفاة السُّلطان عمّا قليل ، فيعودون لغزو القُدس ومُدن الداخل الشامي بأسرها !

يسمحوا بها ، وقد ترك القُدْس بالكلّية ، لا يطلب أن يكون فيه رُهبان ولا قُسوس إلا في القيامة وحدها ، فتترك له أنتَ هذه البلاد ، ويكون الصُّلح عاماً ، فيكون لهم كل ما في أيديهم من الدَّارُوم إلى أنطاكية ، ويسلم ما في أيديكم ، وينتظم الحال ويروج ، وإن لم ينتظم الصُّلح فإن الفرنج ما يمكِّنونه من الرَّواح ، ولا يمكنه مخالفتهم» .

فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغَرَض ، باللِّين تارة ، والخشونة أخرى ، وكان – لعنه الله – مضطراً إلى الرَّواح ، وهذا عمله مع اضطراره ، والله المسؤول في أن يكفي المسلمين شرَّه ، فما بَلَوْنا أعظمَ حيلةً ، ولا أشدَّ إقداماً منه [1] .

ولمّا سمع السُّلطان – رحمة الله عليه – هذه الرسالة ، أحضر الأمراء وأرباب الرأي من دولته ، وسألهم عن الجواب ما يكون ، فكان خلاصة الرأي هذا الجواب ، وهو : «إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث [2] ، ورُسُلنا عندهم ، فإن عادوا بما نُريد أدخلناهم في الصُّلح ، وإلا فَلا ، وأما البلاد التي يسألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه ، وإلاّ فلا قَدْرَ لها [3] ، [182 و] وأما سور عَسْقَلان فيأخذ في مقابلة ما خسر عليه لُدّاً في الوطاة» .

وسَيَّر الرَّسول صبيحة الجمعة رابع رجب ، سنة ثمان وثمانين .

---

(1) هذه شهادة قيّمة وصريحة للمؤلف في ريتشارد وبراعته الحربية .

(2) أسلوب موفّق في الديبلوماسية ، فقد ركن المفاوضون المسلمون إلى ربط موافقتهم على الصُّلح مع مملكة القُدس اللاتينية (أي عكّا طبعاً ، دعك من التسمية الرمزية) ، بإدخال إمارة أنطاكية فيها ؛ وذلك لكسب مواقف أقوى ، ولطرح ذرائع موضوعية أكبر . ومعلوم أن السّلطنة الأيوبية آنذاك كانت تواجه أربع دول صليبية في المشرق ، هي : مملكة القُدس ، إمارة أنطاكية ، كونتيّة الرُّها ، كونتيّة طرابلس . وهذه الدول كانت مستقلّة عن بعضها ، برغم ما كان يربطها أحياناً من علاقات .

(3) بنفس الأسلوب التهكّمي السّاخر ، يلجأ المفاوضون المسلمون إلى أن «هذه البلاد لا قَدْرَ لها» ولكن المسلمين لا يوافقون «على دفعها إليه» ، كما كان الفرنج بكل براءة وبساطة يطلبون : «وأيّ قَدْر لها عند مُلكك وعظمتك ؟» . فالجواب من جنس السؤال ، للتنصّل من مطالبهم الفجّة ، ولئلا يضيع كل جهاد المسلمين دون جدوى .

ذكر قدوم ولده الملك الظّاهر [1]
صاحب حلب

ولما كان السبت الخامس من رجب ، وصل ولده الملك الظّاهر - عزّ نصره [2] - وكان كثير المحبة له والإيثار لجانبه ، لما يراه فيه من إمارات السعادة وصفات الكفاية وتوسُّم المُلك ، فخرج السُّلطان - قدَّس الله روحه - إلى لقائه ، فلقيه في قاطع العَازَريّة ، فإنه وصل على الغَوْر ، ونزل له عند لقائه ، واحترمه وأكرمه وضمَّه إليه وقَبَّل بين عينيه ، ونزل في دار الإسبتار .

ذكر عَوْد الرسول رابعاً

ولما كان يوم الأحد السابع من رجب ، وصل الحاجي يوسف وحده ، وذكر أن الملك قال له : «لا يمكننا أن نُخرِّب من عَسْقَلان حجراً واحداً ، ولا يُسمع عنا في البلاد مثل ذلك ، وأما البلاد فحدودها معروفة لا مُناكرة فيها» .

وعند ذلك ، تأهَّب السُّلطان - رحمة الله عليه - للخروج إلى جهة العدوّ ، وإظهار القوَّة ، وشدَّة العزم على اللقاء [3] .

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(2) إضافة من طبعة مصر ، وهي تدلّ على أن المؤلف كتبها قبل وفاة الملك الظّاهر غازي ابن السُّلطان صلاح الدين ، في عام 613 هـ .

(3) هذه كانت خير وسيلة لتقوية الموقف على الأرض ، وكسب التفوّق السياسي في أثناء المفاوضات الديبلوماسية . وسنرى كيف أن السُّلطان سيُسارع إلى اقتحام يافا ، التي لم تنجُ إلا بشقّ الأنفس ، فاعترف ريتشارد بدهشته للقوّة والسرعة التي استطاع فيها صلاح الدين احتلال المدينة في البداية . وهذا ما أدّى بالنتيجة إلى ركون الفرنج إلى صلح الرَّمْلة مع السُّلطان بشروط أنسب . أما ريتشارد ، فكانت تؤرِّقه أخبار احتجان أخيه جون لُلكه في إنكلترا ، وتواطئه مع الملك فيليب على أملاكه في فرنسا بإقليم Bretagne .

ذكر تبريزه
- رحمة الله عليه -

ولما كان العاشر من رجب ، بلغ السُّلطان - رحمة الله عليه - أن الفرنج - خذلهم الله تعالى - قد رحلوا طالبين نحو بَيْرُوت ، فبرز من القُدْس إلى منزلة يقال لها [182 ظ] الجيب ، وكان قدوم الملك العادل من البلاد الفُرَاتية في بُكرة الجمعة الحادي عشر من رجب ، فدخل الصَّخرة ، وصلّى عندها ، ثم توجَّه يتبع السُّلطان .

ثم إن السُّلطان رحل من الجيب إلى بيت نوبة ، وبعث إلى العسكر في القُدْس ليحثّهم على الخروج واللحوق به ، ولحقتُ السُّلطان في بيت نوبة ، فإني كنتُ قد تخلّفتُ عنه ليلة الاستعداد .

ثم رحل في الأحد ثالث عشر إلى الرَّمْلة ، فنزل بها ضاحي نهاره على تلال بين الرَّمْلة ولُدّ ، وأقام بها بقية الأحد .

ولما كان صبيحة الإثنين رابع عشر ، ركب جريدةً حتى أتى يازُوْر وبيت دَجَن [1] ، وأشرف على يافا ، ثم عاد إلى منزلته ، وأقام بهابقية يومه ، وجمع أرباب مشورته وشاوَرهم في النزول على يافا ، واتّفق الرأي على ذلك [2] .

* * * * *

---

(1) في طبعة مصر : بيت جبرين .
(2) وذلك لاستغلال فرصة ابتعاد القوات الصَّليبية شمالاً باتجاه بيروت ، وعدم وجود حشود كبيرة عند يافا ، التي تقع في الجهة المعاكسة لحركة الحملة الصَّليبية . فبيروت تقع إلى الشمال من عكّا (عاصمة مملكة القُدس) ، بينما تقع يافا إلى الجنوب منها ، على بعد متقارب ، وعكّا بينهما في الوسط . والمسافة بين بيروت ويافا تتجاوز 220 كيلومتراً .

ذكر حصار يافا

ولما كان صباح الثلاثاء خامس عشر ، رحل طالباً جهة يافا ، فخيّم عليها ضاحي نهاره ورتّب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً ، وكان على البحر وطرف المَيْسَرَة أيضاً على البحر والسُّلطان في الوسط ، وكان صاحب المَيْمَنَة ولدُه الملك الظّاهر ، وصاحب المَيْسَرَة أخوه الملك العادل ، والعساكر فيما بينهما .

ولما كان سادس عشر من الشهر ، زحف الناس إليها واستحقروا أمرها استحقاراً عظيماً . ثم رتَّبَ السُّلطان – رحمة الله عليه – الناس للقتال ، وأحضر [183 و] المنجنيقات ، وركّبها على أضعف موضع في السُّور مما يلي الباب الشرقي ، وكان في ذلك اليوم على جذم من حائط قبالة المنجنيقات [1] ، وأطلق النقّابين في السُّور .

وارتفعت الأصوات وعَظُمَ الضجيج ، واشتدّ الزَّحف ، وأخذ النقّابون النقب من شمالي الباب الشرقي إلى الزاوية طول البَدَنَة ، وكان قد هدم المسلمون ذلك المكان في الحصار الأول ، وبناه الفرنج ، وتمكّن النقّابون من النقب ، ودخلوا فيه ، ولم يشك الناس في أخذ البلد في ذلك اليوم ، هذا وأمر العدوّ في زيادة ، وكان الملك في عكّا قد توجه إلى نحو بَيْرُوت ، وهذا الذي حمل السُّلطان على نزوله على يافا .

ثم انفصل ذلك اليوم عن قتال شديد قد ضَرِس العدوّ منه ، وظهر من العدوّ من الشدّة والحماية والذبّ والمنعة ما أضعف قلوبَ الناس ، هذا والنقابون قد تمكّنوا من النقب ؛ فلما قارب الفراغ أخذ العدوّ في خسف النقب عليهم ، فخسفوه في مواضع عدّة ، فخاف النقّابون ، وخرج منهم جماعة وتفاتر الناس عن القتال ، وعلموا أن أمر البلد مُشكل ، وأنه يحتاج إلى زيادة عمل في أخذه .

---

(1) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

فعزم السُّلطان – قدّس الله روحه – عزمه مثله ، وأمر النقابين أن يأخذوا النقب في بقية البَدَنَة من البرج إلى الباب ، وأمر المنجنيقات أن تُضرب [183 ظ] قُبالة البَدَنَة المنقوبة ، ففعلوا ذلك .

وأقام السُّلطان تلك الليلة هناك إلى أن مضى من الليل مقدار ثلثه ، وعاد إلى الثَّقْل ، وكان الثَّقْل بعيداً عن البلد على تلّ قبالته . وأصبحت المنجنيقات وقد أُقيم منها اثنان ، وأُقيم الثالث في بقية النهار وأصبح السُّلطان على القتال والزَّحف ، فلم يجد من الناس غير الفتور بسبب نصب المنجنيقات ظناً منهم أن المنجنيقات لا تعمل إلا بعد أيام .

فلما علم السُّلطان – قدّس الله روحه – من الناس التَّفاتُر والتواكل حملهم على الزَّحف ، والتحم القتال ، واشتدّ الأمر ، وأذاقوا العدوّ مُرَّ الأمر ، وأشرف البلد على الأخذ ، وأيقنت [1] النفوس به وطمعت في ذلك طمعاً شديداً ، وضعف العدوّ ؛ إلا أنه جُرح من المسلمين جماعة بالنُّشَّاب والزَّنْبُورَك من البلد ، فمنهم الحاجب أبو بكر وختلخ – والي بعلبك – ، وأصيب بعينه ، وطُغْرُل التاجي ، وسَرَا سُنْقُر في وجهه ، وهما من مقرَّبي المماليك ، وإياز جركس في يده ، وهو من كبارهم [2] .

ولما رأى العدوّ المخذول ما قد حلّ بهم ، أرسلوا رسولين نصرانياً وفرنجياً يطلبان الصُّلح ، ويتحدَّثان فيه ، فطلب السُّلطان منهم قاعدة القُدْس وقطيعته [3] ، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن يُنْظَروا إلى يوم السبت الذي هو تاسع عشر رجب ، فإن جاءتهم نجدة وإلا تمّت القاعدة على ما [184 و] استقرّ . فأبى السُّلطان الإنظار ، فعاد الرّسول ، ثم رجعوا يسألونه في الإنظار ، فأبى ذلك [4] .

---

(1) في طبعة مصر : فاتفقت .
(2) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .
(3) أي دفع 10 دنانير عن كل رجل ، و 5 عن المرأة ، ودينار عن الطفل ، ليخرجوا أحراراً .
(4) بالطبع لا مصلحة له بالانتظار ، لئلا تدركهم النجدات ، غير أن هذا ما حصل للأسف .

وتَفَاتَرَ الناس عن القتال بسبب تواصل الرُّسُل ، سُكوناً إلى الدَّعة على جاري العادة . فأمر السُّلطان النقّابين بحشو النقوب بعد انتهابها ، ففُعل ذلك ، ووُضعت النار فيه ، فوقع بعض البَدَنَة ؛ وكان العدوّ قد عرف وقوع النار في النُّقب ، وعلم أن ذلك المكان يقع ، فعمد إلى أخشاب عظيمة ، وهيَّأها خلف ذلك المكان ، فلما وقع ذلك المكان ألهب النيران ، فمنعت من الدخول في الثُّلمة .

فأمَرَ السُّلطان الناس ، فزحفوا وضايقوا القوم مضايقة عظيمة ، ولله درُّهم من رجال قتال ، ما أشدّهم وأعظم بأسهم [1] ، فإنهم مع هذا كله لم يغلقوا لها باباً ، وما زالوا يقاتلون خارج الأبواب . ولم يزل الناس في أعظم قتال إلى أن فصل الليل بين الطائفتين ، ولم يُقدَر على البلد في ذلك بعد حرق النقوب في باقي البَدَنَة :

وضاق صدر السُّلطان لهذا الأمر ، وتَقَسَّم فكرُه ، وندم كيف لم يُجبهم إلى الصُّلح [2] . وبات تلك الليلة في المخيم ، وقد عزم على أن يقيم تمام خمسة مناجيق ، يضرب بها البَدَنَة الضعيفة بسبب النقوب والنيران والخسف من جانبهم .

ذكر فتح يافا وهي أول الفتح الثاني
وما جرى عليها من الوقائع

[184 ظ] ولما كان يوم الجمعة ثامن عشر رجب سنة ثمان وثمانين ، أصبحت المنجنيقات وقد نُصبت ، وحجارتها قد جُمعت من الأوادي والأماكن البعيدة لعُدم الحجر في ذلك المكان ، وظلّت ترمي البَدَنَة المنقوبة . وزحف السُّلطان – قدّس الله روحه – ، وزحف ولده الملك الظّاهر زحفاً شديداً ، وزحف عسكر الملك العادل من المَيْسَرَة ، فإنه كان مريضاً ، وارتفعت الأصوات ، وضُربت الكُوْسات ،

---

(1) هذه شهادة صريحة وجريئة من المؤلف في الأعداء ، والاعتراف بالحق لا يُعيب أحداً .
(2) لو كان أجابهم ، لانتظروا النجدة ثلاثة أيام ، ثم كانوا قاوموا بعدها أياماً أخرى ، إلى أن تأتيهم النجدات . وما فعله السُّلطان كان عين الصّواب ، بمباشرة القتال .

وخفقت البوقات ورمت المنجنيقات [1] ، وأجابهم الويل من كل جانب ، واشتدّ عزم النقابين في إيقاد النار ، فما ارتفع من النهار ساعتان إلا ووقعت البَدَنَة ، وكان وقعها كوقع الواقعة ، ونادى الناس : «ألا وإن البَدَنَة قد وقعت ، فلم يبق من له أدنى إيمان إلا وزحف ، ولا قلب من العدوّ إلا رَعَدَ ورَجَفَ» .

هذا وهم على القتل أشدّ وأحزم ، وعلى الموت أعزّ وأكرم ، وذاك أن البَدَنَة لما وقعت علا غبار مع دخان وأظلم الأفق ، وعميت عين النهار ، وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام النار ، فلما انكشفت الظلمة ، ظهرت أسنّةٌ قد نابت مناب الأسوار ورماحٌ قد سدّت الثُّلمة حتى عن نفوذ الأبصار ، ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم ، وسداد حركاتهم وسكناتهم . ولقد رأيتُ رجلين على ممشى السُّور يمنعان المتسلق فيه [185 و] من جهة الثُّلْمَة ، وقد أتى أحدَهما حجرُ المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل ، وقام رفيقُه مقامه متصدّياً لمثل ما لحقه ، أسرع من لمح البصر ، بحيث لم يفرِّق بينهما إلا ناقدٌ بصير .

ولما رأى العدوّ ما قد آل الأمرُ إليه ، سيَّر رسولين إلى السُّلطان - قدّس الله روحه - يلتمسان الأمان ، فقال - رحمه الله - : «الفارسُ بفارس [2] ، والتُّركُبْلي بمثله [3] ، والرَّاجل بالرَّاجل ، والعاجز فعلى قطيعة القُدْس» .

فنظر الرّسول ، ورأى القتال على الثُّلمة أشدّ من إضرام النار ، فسأل السُّلطان أن يُبطل القتال إلى أن يعود . فقال : «ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ، لكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم ينحازون إلى القلعة ويتركون الناس يشتغلون بالبلد ، فما بقي دونه مانع» .

---

(1) في نسخة الأصل : وخفقت المنجنيقات . والتصحيح عن طبعة مصر .

(2) يعني على مبدأ تبادل الأسرى ، والعاجز يترتّب عليه دفع البَدَل المالي ، بحسب قطيعة القُدس المذكورة أعلاه : 10 دنانير عن كل رجل ، و 5 عن المرأة ، ودينار عن الطفل .

(3) تقدَّم ذكر التُّركُبْليّة ، وهم نوع من الخيّالة الرِّدفاء ، كانوا يتألفون في العادة من المرتزقة من أبناء البلاد المسيحيين . والتسمية من الفرنسية : *les Turcoples* .

فعاد الرّسول بهذه الرسالة ، فانحاز عدوّ الله إلى قلعة يافا ، بعد أن قُتل منهم جماعةٌ عظيمة . ودخل الناس البلد عَنْوَةً ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة ، وأثاثاً وبقايا قماش مما نُهب من القافلة المصرية . واستقرّت القاعدة على الوجه الذي قرّره السُّلطان .

ولمّا كان عصر يوم الجمعة المبارك ، وصل السُّلطانَ - رحمة الله عليه - كتابٌ من قايماز النَّجْمي ، وكان في طريق الغَوْر [1] لحمايته من عسكر العدوّ الذي في عكّا ، يُخبر فيه : أن الأنكتار لما سمع خبر يافا أعرض عن [185 ظ] قصد بَيْرُوت ، وعاد إلى قصد يافا . فاشتدّ عزم السُّلطان على تتمة الأمر وتسلّم القلعة ، وكنتُ ممن لم يرَ الأمان ، لأنه قد لاح أخذُهم ، وكان الناس لهم مدّة لم يظفروا من العدوّ بمغنم يوثبهم عليه ، فكان أخذهم عَنْوَةً مما يبعث همم العسكر ، غير أن الأمان وقع واتفق الصُّلح ، فكنتُ بعد ذلك ممن يحثّ على إخراج العدوّ من القلعة وتسلّمها خوفاً من لُحُوق النجدة [2] .

وكان السُّلطان - قدّس الله روحه - يشتدّ حرصه [3] ، غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن امتثال الأمر ، وأخذ منهم الحديد وشدّة الحر ودخان النار ، بحيث لم يبق لهم استطاعةٌ على الحركة . وأقام السُّلطان يحثّهم إلى هَدْيٍ من اللّيل ، فلما رأى ما قد نزل بالناس من التعب ، ركب وسار إلى خيمته إلى الثَّقْل ؛ وسرنا في خدمته ، وعدتُ إلى خيمتي ، وعندي من القلق ما أقلقني عن النوم .

ولما كان سَحَرَةُ تلك الليلة ، سمعنا بوق الفرنج وقد نَعَقَ ، فعلمنا بوصول النَّجدة ، فاستدعاني السُّلطان - رحمة الله عليه - من وقته وقال : «لا شكّ أن النَّجدة قد وصلت في البحر ، وعلى السّاحل من عساكر الإسلام من يمنعهم

---

(1) في طبعة مصر : في طرف العدوّ . وهو غلط واضح .

(2) يتضح من كلام المؤلّف أسفه الشّديد على فشل فتح يافا ، من بعد أن تم الأمر بأكمله تقريباً ، ولولا يسير كانت بقيت في أيدي المسلمين وفشل ريتشارد في استعادتها .

(3) في طبعة مصر : يشتهي خروجه .

النُّزول ، والمصلحة أن تسير إلى الملك الظّاهر وتقول له : يقف ظاهر الباب القبلي ؛ وتدخل أنت ومن تراه إلى [186 و] القلعة ، وتخرجوا القوم ، وتستولوا على ما فيها من الأموال والأسلحة ؛ وتكتبها بخطك إلى الملك الظّاهر وهو خارج البلد ، وهو يسيِّرها إلى عندنا» .

وسيَّر معي لتقوية اليد على ذلك [1] عزّ الدِّين جُورديك ، وعَلَم الدِّين قَيْصَر ، ودرياس المهراني . فسرتُ من ساعتي ومعي شمس الدِّين عدل الخزانة ، حتى أتيتُ منزلة ولده الملك الظّاهر ، وهو نائمٌ في شقّته [2] على تلّ قريب البحر في اليَزَك ، وعليه كَزَاغُنْدُه [3] وهو بلأمة حربه - فلا ضيّع الله لهم صَنيعَهُم في نُصرة الإسلام - فأيقظتُه ، وقام والنَّومُ في عينيه ، وسرتُ في خدمته ، وهو يستفهم مني رسالة السُّلطان - رحمه الله - حتى وقف حيث أمَرَ .

ودخلنا نحن إلى يافا وأتينا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج منها ، فأجابوا إلى ذلك ، وتهيّأوا للخروج .

ذكر كيفية بقاء القلعة في يد العدوّ

وكان ذلك في بُكرة السبت تاسع عشر رجب سنة ثمان وثمانين ، ولما أجابوا إلى الخروج قال عزّ الدِّين جُرْديك : «لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطّفوهم» . وكان الناس قد أدخلهم الطمع في البلد . وأخذ عزّ الدِّين يشتدّ في ضرب الناس وإخراجهم ، وهم غير مضبوطين بعُدّة ، ولا محصُوْرين في مكان ، فكيف يمكن إخراجهم !

---

(1) في طبعة مصر : ويسير معي لتقوية البلد على ذلك عزّ الدِّين .

(2) في طبعة مصر : شليته .

(3) الكَزَاغُنْد : كلمة كردية مولّدة تعني الدِّرع الحديدي الذي يقي الصّدر والبطن .

[186 ظ] وطال الأمر إلى أن علا النهار وأنا ألومه ، وهو لا يرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيتُ الوقت يفوت قلتُ له : «إن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في إخراجهم ، والسُّلطان فقد أوصاني بذلك» . فلما عرف السبب في حرصي أجاب إلى إخراجهم ، ومضينا إلى باب القلعة القريب من الباب الذي ولدُه الملك الظّاهر قائم عنده ، فأخرجنا سبعة [1] وأربعين نَفَراً بخيولهم ، وكتبناهم ، وسيَّرناهم .

ولما خرج هذا النَّفَر اشتدّ نفس الباقين ، وحدّثتهم أنفسهم بالعصيان ؛ وكان سبب خروج هؤلاء أنهم استقلّوا بالمراكب التي جاءتهم ، وظنُّوا ألا نجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الأنكتار مع القوم ، ورأوهم وقد تأخروا عن النزول إلى علو النهار فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج . ثم بعد ذلك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركباً ، فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله ، وخرج منهم من أخبرني بتشويش عزمهم وأخذوا الطارقيات والجنويات ، وعلوا على الأسوار وكانت القلعة جديدة لم تُشرَّف بعد .

فلما رأيتُ الأمر قد آل إلى ذلك ، نزلتُ من التلّ الذي كنتُ واقفاً عليه ، وهو ملاصقٌ لباب [187 و] القلعة ، وقلت لعزّ الدِّين وهو واقف مع عسكره في أسفل التلّ مع جمع من الأجناد : «خذوا حذركم ، فقد تغيَّرت عزائمُ القوم» .

فما كانت إلا ساعة ، بحيث صرتُ خارج البلد في خدمة ولده الملك الظّاهر ، وقد ركب القوم خيولهم ، وحملوا من القلعة حملة الرّجل الواحد ، وأخرجوا من كان في البلد من الأجناد ، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد أن يتلف منهم جماعة ، وبقي منهم جماعة في بعض الكنائس من رُعاع [2] العسكر ، مشتغلين بما لا يجوز ، فهجموا عليهم وقتلوا منهم ، وأسروا .

---

(1) في طبعة مصر : تسعة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم ، وسيَّرناهم .
(2) في طبعة مصر : من أتباع العسكر .

وسيَّرني السُّلطان الملك الظّاهر إلى والده السُّلطان – قدّس الله روحه – فعرّفته بالحال ، فأمر الجاووش ونادى في العسكر وضرب الكُوْس للقتال ونفر الناس من كل جانب للغزاة ، وهجموا البلد ، وحُشر العدوّ في القلعة وأيقن بالبوار ، واستبطأوا نزول النجدة إليهم ، وخافوا خوفاً عظيماً ، فأرسلوا بطركهم والقَسْطَلاَن [1] ، وكان خلْقَةً هائلة ، رسولين إلى السُّلطان – رحمة الله عليه – يعتذران إليه مما جرى ، ويسألان القاعدة الأولى ، فخرج الرُّسُل إلى السُّلطان – رحمة الله عليه – والقتال يشتدّ عليهم .

وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحوناً ببيارق المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أُخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت من كل جانب ، وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير .

فلما رأى من في القلعة شدّة [187 ظ] الزّحف عليهم ، وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها ، فإنها بلغت نيفاً وخمسين مركباً ، منها خمسة عشر شانياً منها شاني الملك ، علموا أن النجدة قد ظنُّوا أن البلد قد أُخذ ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح وقفز من القلعة إلى الميناء وكان رملاً فلم يصبه شيء ، واشتدّ عدواً حتى أتى البحر . فخرج له شاني فأخذه إلى شاني الملك فحدّثه الحديث .

فلما تيقَّن الأنكتار ذلك أن القلعة بَعْدُ مع أصحابه اندفع يطلب السّاحل ، فكان أول شاني ألقى من فيه في البرّ شانيه ، وكان أحمر وقُبّته حمراء ، وبيرقه أحمر ، وكان رَنْكه [صورة أسَد] . فما كان إلا ساعة وقد نزل كل من في الشّواني إلى الميناء ، هذا كلّه وأنا أشاهد ذلك . ثم حملوا على المسلمين فاندرجوا بين أيديهم وأخرجوهم من الميناء . وكان تحتي فرس ، فسُقْتُ حتى أتيت السُّلطان ، وأخبرتُه بالخبر ، وبين يديه الرّسولان ، وقد أخذ القلم بيده حتى يكتب لهما الأمان ، فعرّفتُه في أُذُنه ما جرى ، فامتنع من الكتابة وأشغلهم بالحديث .

---

(1) القَسْطَلان : كلمة دخيلة معرّبة عن الإنكليزية castellan : آمر القلعة أو محافظها .

فما كان إلا ساعة حتى فرّ المسلمون نحو السُّلطان ، فصاح في الناس ، فركبوا ، وقبض على الرُّسُل ، وأمر بتأخير الثَّقْل والأسواق إلى يازُوْر ، فرحل الناس ، وتخلّف لهم ثَقْلٌ عظيم مما كان قد نهبوا من يافا ، لم يقدروا على نقله . ووصل الثَّقْل وبقي السُّلطان جريدةً في الليل ، وبات من ليلته هناك .

وخرج الأنكتار إلى [188 و] موضع السُّلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد ، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه ، فعظم سواده ، واجتمع به جماعة من المماليك وجرى بينهم أحاديث ومجانة كثيرة [1] .

ذكر تجديد حديث الصُّلح

ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلي ، فحضر عنده ، و أيبك العزيزي ، وسُنْقُر المشطوب وغير هؤلاء ، وكان قد صادق جماعة من خَوَاص المماليك ، وفرس منهم جماعة [2] ودخل معهم دخولاً عظيماً ، بحيث كانوا يجتمعون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء كبدر الدِّين دلْدرم وغيره .

فلمَّا حضر هذا النَّفَر عنده جَدَّ وهَزَلَ [3] ، ومن جملة ما قال : «هذا السُّلطانُ عظيم ، وما في الأرض للإسلام ملكٌ أكبر ولا أعظم منه ، وكيف رحل عن المكان بمجرَّد وصولي ؛ ووالله ما لبستُ لأمة حربي ، ولا تأهَّبتُ لأمر ، وليس في رجلي إلا زُرْبُول البحر ، فكيف تأخَّر ؟» [4] .

ثم قال : «والله إنه لعظيم ، والله ما ظننتُ أنه يأخذ يافا في شهرين ، فكيف أخذها في يومين ؟» . ثم قال لأبي بكر : «تُسَلِّم على السُّلطان وتقول له : بالله

(1) في طبعة مصر : ومجاوبات .
(2) هذه الكلمات ناقصة من طبعة مصر .
(3) يلاحظ من خلال تتبّع مسير المباحثات ، أنه كان يتخلّلها كثير من المداعبة والمباسطات .
(4) في هذا التعجّب معنى بالمفاخرة من قبل ريتشارد ، الذي يعتبر نفسه منتصراً في وقعة يافا .

عليك أجبْ سؤالي في الصُّلح ، فهذا أمرٌ لا بُدَّ له من آخر ، وقد هلكتْ بلادي وراء البحر ، وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم»[1] .

ثم انفصلوا عنه ، وحضر أبو بكر عند السُّلطان [188 ظ] ، وعرَّفه ما قال ، وكان ذلك في أواخر يوم السبت تاسع عشر رجب . فلما سمع السُّلطان – رحمة الله عليه – ذلك ، أحضر أرباب المشورة ، وانفصل الحال على أن الجواب هو : «إنَّكَ كنتَ طلبتَ الصُّلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعَسْقَلان ، والآن فقد خربت هذه يافا ، فيكون لك من قيسارية إلى صُوْر» .

فمضى إليه وعرَّفه ما قال ، فردَّه إليه ومعه رسول فرنجي ، وقال : «يقول الملك : إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحدٌ لواحد بلداً صار تبعه وغلامه ، وأنا أطلبُ منك هذين البلدين يافا وعَسْقَلان ، ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجتَ إلي وصلتُ إليك في أسرع وقت ، وخَدَمْتُكَ كما تعلم خدمتي» .

فكان جواب السُّلطان : «حيثُ دخلتَ هذا المُدخل ، فأنا أُجيبك إلى أن نجعل هذين البلدين قسمين : أحدهما لك ، وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي ، وهو عَسْقَلان وما وراءها» .

ثم سار الرَّسولان ، ورحل السُّلطان إلى الثَّقْل ، وكان المخيم بيازُوْر ، ورتَّب اليَزَك بها ، وأمَرَ بخرابها وخراب بيت دَجَن ، ورتَّب النقَّابين لذلك ، واليَزَك عندهم . وسار حتى أتى الرَّمْلة ، فخيم بها يوم الأحد العشرين من رجب ، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي [189 و] بكر ، فأمر بإكرامه والإحسان إليه .

---

(1) برغم نجاح ريتشارد في إدراك يافا ومنع سقوطها ، فها هو الآن يلحّ بالرّجاء إلى السُّلطان في طلب صلحه بالشروط التي تناسبه . ونظراً لموقف ريتشارد المُحرَج حول الضرورة الملحّة في عودته إلى بلاده ، وإفشال صلاح الدين لحملته على بيروت ، وفوق ذلك تخريبه لدفاعات يافا ؛ فيمكننا القول بأن الهدف التكتيكي الذي توخّاه السُّلطان من وراء حملته على يافا قد نجح تماماً . ولا أدلّ على ذلك من أن عدوّه ريتشارد ها هو ذا يلحّ في طلب الصُّلح ، مُدركاً بأنه لن تجديه مجابهة السُّلطان الآن أي نفع .

وكانت رسالته الشكر من الملك على إعطائه يافا ، وتجديد السؤال في عَسْقَلان ويقول : «إنَّه إنْ وقع الصُّلح في هذه الأيام سار إلى بلاده ، وإلاّ احتاج أن يُشَتِّي هاهنا» .

فأجابه السُّلطان في الحال ، وقال : «أما النُّزول عن عَسْقَلان فلا سبيل إليه ، وأما تَشَتّيه في هذه البلاد فلا بُدَّ منها ، لأنه قد استولى على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أُخذت بالضّرورة ، كما تؤخذ أيضاً إذا أقام إن شاء الله تعالى [1] . وإذا سهل عليه أن يُشتّي هاهنا ، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شابٌ في عنفوان شبابه ، ووقت اقتناص لذّاته ، ما يسهل عليّ أن أُشتّي وأصيِّف وأنا في وسط بلادي ، وعندي أولادي وأهلي ، ويأتي إلي ما أريده ومَنْ أريده ، وأنا رجلٌ شيخٌ قد كرهتُ لذّات الدُّنيا وشبعتُ منها ورَفَضْتُها عني ؟ والعسكر الذي يكون عندي في الشّتاء غير العسكر الذي يكون عندي في الصيف ؛ وأنا أعتقد أنّي في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يُعطي الله النَّصر لمن يشاء» [2] .

فلمّا سمع الرسول ذلك ، طلب أن يجتمع بالملك العادل ، فأُذن له في ذلك ، فسار إلى خيمته وحضر ، وكان قد تأخَّر بسبب مرض اعتراه إلى موضع يُقال له مار صمويل [3] ، فسار الرَّسُول إليه مع جماعة [189 ظ] . ثم بلغ السُّلطانَ أن عسكر العدوّ قد رحل من عكّا قاصداً يافا للإنجاد ، فجمع أرباب الرأي ، وعقد مشورةً في قصدهم ، فاتَّفق الرأي على أنهم يقصدونهم ، ويرحل بالثَّقْل إلى الجبل ويقصدونهم جريدةً ، فإن لاحت فرصة انتهزوها ، وإلا رجعوا عنهم ، «وهذا أولى من أن نصبر حتى تجتمع عساكر العدوّ ، ونرحل إلى الجبل في صورة مُنهزمين ، وأما الآن فإذا رحلنا ففي صورة طالبين» .

---

(1) في الأصل نقص استدركناه من طبعة مصر .
(2) هذا حديثٌ يُكتب بماء الذّهب ، وشهادةُ فخر خالدة للسُّلطان النّاصر المجاهد البطل الحرّ الأبيّ ، يحقّ له بها أن يُرفع إلى أعلى الرُّتب ، ويُسطَّر اسمه أبداً في سجلّ الخالدين .
(3) في الأصل : مار صموال . والتصويب من طبعة مصر .

فأمر السُّلطان الثَّقْل [أن] يسير إلى الجبل عشية الاثنين حادي عشري رجب ، وسار هو - قدّس الله روحه - جريدةً في صبيحة يوم الثلاثاء ، حتى نزل على العَوْجا . ووصل [إليه] من أخبره أن عسكر العدوّ قد وصل قيسارية ودخل إليها ، ولم يبقَ فيه طَمَع [1] ، وبلغه أن الأنكتار قد نزل خارج يافا بنَفَر يسير وخيم قليلة ، فوقع له أن ينتهز فيه الفرصة ويكبس خيمه ، وينال منهم غَرَضاً .

وعزم على ذلك ، وسار من أول الليل والأدلّة من العرب تتقدّمه ويقطع الناس في البرّيّة إلى أن أتى الصباح إلى خيم العدوّ ، فوجدها يسيرة ، مقدار عشر خيم ، فتداخله الطمع ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فثبتوا ولم يتحركوا من أماكنهم ، وكشّروا عن أنياب الحرب ، وكانوا على الموت أصبر ، فارتاع العسكر منهم ، ووجموا من ثباتهم ، ودار العسكر حولهم حلقة واحدة .

ولقد حكى لي بعض الحاضرين ، فإني كنتُ [190 و] تأخّرتُ مع الثَّقْل ، ولم أحضر هذه الوقعة - ولله الحمد - لالتياث مزاجي ، أن عدّة الخيل كان يحزرها المُكثر بسبعة عشر ، والمُقلّ بتسعة ، والرَّجّالة دون الألف ، فمن قائل ثلاثمائة ، ومن قائل أكثر من ذلك .

فوجد السُّلطان - رحمه الله - من ذلك موجدةً [2] عظيمة ، ودار على الأطلاب بنفسه يحثُّهم على الحملة [3] ، ويعدهم بالحُسنى على ذلك ، فلم يُجب دُعاءه أحد سوى ولده الملك الظّاهر - رحمه الله - فإنه تأهّب للحملة ، فمنعه [4] ، وبَلَغَني أنه قال له الجناح أخو المشطوب : «قل لغُلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا ، وأخذوا منهم الغنيمة يحملون» . وكان في قلوب العسكر من صُلح السُّلطان على يافا ، حيث فَوّتَهُم الغنيمة ، وجرى ما جرى ما أثَّر هذا الأثر .

---

(1) أي لم يعد ثمّة إمكان للاشتباك معه في مكان مكشوف .
(2) في طبعة مصر : مغيظة .
(3) في طبعة مصر : ودار على الأطلاب يحثّها ، فلم يُجب . . إلخ .
(4) هذه الجملة ساقطة من طبعة مصر .

فلما رأى السُّلطان ذلك ، رأى أن وقوفه في مُقابلة هـذه الشِّرْذمة اليسيرة مـن غير عمل خسارةٌ بحقِّه [1] ، وقد بَلَغَني أن الأنكتار أخذ رمحه ذلـك اليوم ، وحَمَل من طرف المَيْمَنَة إلى طرف المَيْسَرَة [2] ، فلم يعْرُض لـه أحد ، فغضب السُّلطان - قدَّس الله روحه - ثـم أعرض عن القتال ، وسار حتى أتى يازُور كالمُغضب . فنزل بها ، وذلك في يوم الأربعاء ثالث عشري رجب ، وبات العسكر كاليَزَك .

ثم أصبح يوم الخميس ، وسار إلى النَّطرون ، فنزل بها ، وأنفذ إلى العسكر فأُحضره عنده ، فوصلنا إليه آخر نهار الخميس رابع عشري رجب [190 ظ] فبات به . ثم أصبح يوم الجمعة ، وسار إلى أخيه الملك العادل يفتقده ، ودخل القُدْس ، وصلّى الجمعة ، ونَظَرَ العمائر ورتَّبها ، ثم عاد من يومه إلى الثَّقْل وبات فيه على النَّطرون .

ذكر قدوم العساكر

فأوّل من وصل علاء الدِّين بن أتابك صاحب الموصل ، وكان وصوله ضاحي نهار السبت سادس عشري رجب ، فلقيه السُّلطان - قدّس الله روحه - عن بُعْد ، وأكرمه واحترمه وأنزله عنده في الخيمة ، وعمل همَّة حسنة ، وقدَّم له تقدمةً جميلة ، ثم سار إلى خيمه .

---

(1) في طبعة مصر : خسَّةٌ في حقّه . يعني أن وقوف السُّلطان عاجزاً عن كسر القوّة التي بحوزة ريتشارد تعتبر في حقّه بمثابة المهانة ، فلذا آثر الانسحاب وإخلاء المكان . وعلى أي حال فهمّ السُّلطان كان متركزاً على تفويت الفرصة على ريتشارد في حصار القُدس .

(2) يذكر مؤرخو الفرنج الذين كتبوا سيرة الملك ريتشارد ، أن السُّلطان صلاح الدين اشتدّ إعجابه بمنظر الرمّاحة الفرنج وعلى رأسهم ريتشارد على متن جواده ، فلمّا هوى حصان ريتشارد من تحته ، دفعته المروءة إلى أن يرسل سائساً يقود جوادين في غمار المعركة ، هدية للملك الباسل . فهذه شهادة أعدائه بمروءته وفروسيته الرائعة . راجع :
Itinerarium, pp. 413-24; Ambroise, cols. 304-11; Runciman, op. cit., iii, p. 72.

وأما رسول الملك فإنه عاد في هذا اليوم من الملك ، فإن الملك العادل كان قد حَمَّلَهُ مُشافهةً إلى الملك ، وعاد مع الحاجب أبي بكر إلى يافا ، فعاد أبو بكر وحضر عند السُّلطان في ذلك اليوم وأخبره : أن الملك لم يتركني أدخل يافا ، وخرج إلي وكلَّمني في ظاهرها ، وكان كلامه :

«إلى كَمْ أطرح نفسي على السُّلطان ، وهو لا يَقْبَلُني ؟ وأنا كنتُ أحرص حتى أعود إلى بلادي ، والآن فقد هجم الشتاء ، وتغيَّرت الأنواء ، وقد عزمتُ على الإقامة ، وما بقي بيننا حديث» .

هذا كان جوابه ، خذله الله .

ذكر قدوم عسكر مصر المحروسة

وأقام السُّلطان – قدّس الله روحه – بالنَّطرون . ولما كان يوم الخميس تاسع شعبان قدم عسكر مصر ، فخرج السُّلطان – رحمة الله عليه – إلى لقائهم ، وكان فيهم مجد الدِّين [191 و] هُلْدري ، وسيف الدِّين يازْكُج ، وجماعة الأسدية . وكان في خدمته ولده الملك المؤيد مسعود ، وأظهر الزينة ونشروا الأعلام والبيارق ، فكان يوماً مشهوداً ، ثم أنزلهم عنده ومدّ الخوان ، ثم ساروا إلى منازلهم .

ذكر قدوم الملك المنصُوْر بن تقي الدِّين
رحمه الله

وكان قد تسلّم البلاد التي وُعد بها ، وتجهَّز . وكان وصل إلى خدمة الملك العادل في يوم السبت حادي عشر شعبان ، فنزل عنده بمار صمويل ، وافتقده ، وكتب الملك العادل إلى السُّلطان – قدّس الله روحه – يخبره بوصوله ، وسأله في

احترامه وإكرامه وإطلاق الوجه له . ولما تحقّق ولده الملك الظّاهر وصول الملك المنصُوْر استأذن والده في لقائه وافتقاد الملك العادل ، فأذن له في ذلك ، فسار فوجد الملك المنصُوْر مخيِّماً ببيت نوبة ، فنزل عنده وفرح بلقائه ، وأقام عنده إلى العصر ، وذلك في يوم الأحد .

ثم أخذه وسار به جريدةً حتى أتى خيمة السُّلطان ، ونحن في خدمته ، فدخل عليه واحترمه ، ونهض واعتنقه وضمّه إلى صدره ، ثم غشيه البكاء ، فصبَّر نفسه حتى غلبه الأمر وغشيه من البكاء ما لم يُرَ مثله [1] ، فبكى الناس لبكائه ساعة زمانية ، ثم باسطه وسأله عن الطريق .

ثم انفصل [191 ظ] وبات في خيمته ولده الملك الظّاهر - رحمه الله - إلى صبيحة الإثنين ، ثم ركب وعاد إلى عسكره ، ونشروا الأعلام والبيارق . وكان معه عسكر جميل ، فقرّت عين السُّلطان ، وذلك في صبيحة الإثنين ثالث عشر شعبان ، ونزل في مقدّمة العسكر مما يلي الرَّمْلة .

ذكر رحيله - قدّس الله روحه - إلى الرَّمْلة

وذلك أنه لما رأى أن العساكر قد اجتمعت ، جمع أرباب الرأي ، وقال : «إن الأنكتار قد مرض مرضاً شديداً ، والإفرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ، ونفقاتهم قد قلّت ، وهذا العدوّ قد مكّن الله منه ، وأرى أن نسير إلى يافا ، فإن وجدنا فيها مطمعاً بلغناه ، وإلا عُدْنا تحت الليل إلى عَسْقَلان فما تلحقها النَّجدة إلا وقد بلغنا منها غرضاً» .

(1) وهذا كلّه لتأثُّر السُّلطان بوفاة والد المنصور ، أي تقيّ الدين عُمر ، ابن شاهنشاه أخي صلاح الدين ، الذي كان كما ذكر ابن شدّاد آنفاً (ص 66) : من أعزّ الناس عليه وأعظمهم عنده . وكان أثيراً لديه لأنه تربّى في حجره بعد استشهاد أبيه شاهنشاه .

فرأوا ذلك رأياً ، وتقدَّم إلى جماعة من الأمراء ، كعز الدِّين جُورديك ، وجمال الدِّين فَرَج وغيرهما بالمسير في ليلة الخميس سادس عشر شعبان ، حتى يكونوا قريباً من يافا في صورة يَـزَك يستعرفون كم فيها من الخَيَّالة والرَّجَّالة بالجواسيس ، ثم يعرِّفونه ذلك ، فساروا .

هذا ورُسُل الأنكتار لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج ، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكُمَّثْرى والخوخ ، وكان السُّلطان يمدُّه بذلك ، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرُّسُل . والذي انكشف من الأخبار أن فيها ثلاثمائة فارس على [192 و] قول المُكثر ، ومائتي فارس على قول المُقلّ ، وأن الكُنْدُهْري يتردَّد بينه وبين الفرنسيسيّة في مقامهم ، وهم عازمون على عبور البحر قولاً واحداً ، وأنه لا عناية لهم بسُور البلد ، وإنما عنايتهم بعمارة سور القلعة . وكان قد طلب الأنكتارُ الحاجبَ أبا بكر العادلي ، وكان له معه انبساطٌ عظيم .

فلما تحقَّق السُّلطان - رحمه الله - هذه الأخبار ، أصبح يوم الخميس راحلاً إلى جهة الرَّمْلة فنزل بها ضاحي نهاره ، ووصل الخبر من العَيَّارة يقولون : «إنَّا أغرنا على يافا ، فلم يخرج إلا ثلاثمائة فارس ، بعضهم على بغال» . فأمرهم السُّلطان بمُقامهم هناك .

ثم وصل الحاجب أبو بكر ومعه رسولٌ من عند الملك ، يشكر السُّلطان على إسعافه بالفاكهة والثَّلج ، وذكر أبو بكر أنه انفرد به ، وقال له : «قُلْ لأخي - يعني الملك العادل - يُبصر كيف يتوصَّل إلى السُّلطان في معنى الصُّلح ، ويستوهب لي منه عَسْقَلان ، وأمضي [أنا] ويبقى هو ها هنا مع هذه الشِّرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم . فليس لي غرض إلا إقامة جاهي بين الفرنجية ، وإن لم ينزل السُّلطان عن عَسْقَلان ، فيأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها» [1] .

---

(1) هذا تنازلٌ بالغ من طرف ريتشارد ، سكتت عنه المصادر الفرنجية . وكلامه يدلّ بوضوح أنه لم يكن مكترثاً بغير جاهه ومصالحه ، ولتذهب مملكة القُدس من بعده أدراج الرّياح .

فلما سمع السُّلطان ذلك ، سَيَّرَهُم إلى الملك العادل ، وكان معهم صاحب بدر الدِّين دلْدرم الياروقي متوسِّطاً أيضاً . فلمّا ساروا [1] ، أسَرَّ السُّلطان [192 ظ] إلى ثقة عنده بأن يمضي إلى الملك العادل ويقول له : «إن نزلوا عن عَسْقَلان فصالحهُمْ ، فإن العسكر قد ضجر من ملازمته البَيْكار [2] ، والنفقات قد نفدت» . وساروا ضاحي نهار الجمعة سابع عشر شعبان .

ذكر الإجابة إلى النُّزول عن عَسْقَلان

ولما كان غروب الشمس من اليوم المذكور ، أنفذ بدر الدِّين دلْدرم [3] من اليَزَك بقول : «إنه خرج إلينا خمسة أنفس ، منهم شخص مُقَدَّم عند الملك يُسمّى هوَّات [4] ، وذكروا أن لهم معي حديثاً ، فهل أسمع حديثهم أم لا ؟» . فأذن له السُّلطان في ذلك . فلمّا كان عشاء الآخرة ، حضر بدر الدِّين بنفسه ، وأخبر أن حديثهم كان أن الملك نزل عن عَسْقَلان ، وعن طلب العوض عنها ، وقد صحَّ مقصودُهُ في الصُّلح .

فأعاده السُّلطان بأنه يُنفذ إليه ثقةً يأخذ يده على ذلك ، ويقول : «إن السُّلطان قد جمع العساكر ، ولا يُمكنني أن أُحدِّثه هذا الحديث إلا أن أثق أنك لا ترجع فيه ، وبعد ذلك أُحدِّثه» . وسار بدر الدِّين على هذه القاعدة ، وكتب إلى الملك العادل يخبره بما جرى .

---

(1) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

(2) البيكار : كلمة فارسية وكردية : پَيْگار ، تعني : الحَرب ، شاعت في ذاك العصر .

(3) تقدَّم من المؤلف القول (ص 390) أن الملك الإنكليزي ريتشارد قد طابت له صُحبة بعض من ذاع صيته من فرسان السُّلطان صلاح الدِّين ، من خواص المماليك ومن الأمراء ، كالأمير التُّركماني بدر الدِّين دلْدرم الياروقي هذا المذكور ، صاحب تل باشر . وسبق أن ذكرنا أن الاسم محرَّف عن التركية يلْدرم Yıldırım ، ويعني : صاعقة .

(4) لعلّه هيوبرت والتر Hubert Walter رئيس أساقفة ساليزبوري ، الذي كان حاضراً بيافا .

ولما كان السبت ثامن عشر شعبان ، أنفذ بدرُ الدِّين ، وذكر أنه أخذ يـده على هذه القاعدة مَنْ يثق به ، وأخـذ حدود البلاد على ما استقرَّ في الدَّفعة الأولى مع الملك العادل [1] ، فأحضر السُّلطان الديوان ، وذكر يافا وعملها ، وأخرج الرَّمْلة [193 و] منها ولُدّاً [2] ويُبْنَى ومَجْدَل يابا ، ثم ذكر قيساريّة وعملها ، وأرسوف وعملها ، وحَيْفا وعملها ، وعكّا وعملها ، وأخرج منها النَّاصرة وصفُّوريّة .

وأثبت الجميع في ورقة ، وكتب جواب الكتاب ، وأنفذه على يد طُرُنْطَاي [3] مع الرَّسُول ، وكان قد وصل الرَّسول لتحرير القاعدة مع بدر الدِّين في عصر السبت . وقال للرسول : «هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم ، فإن صالحتُم على ذلك فمباركٌ ، قد أعطيتم يدي ، فيُنفذ الملك مَنْ يحلف ، ويكون ذلك في غداة غد . وإلا فيُعلم أن هذا تدفيعٌ ومُماطلة ، ويكون الأمر قد انفصل بيننا» [4] . وساروا في بُكرة الأحد على هذه القاعدة .

* * * * *

(1) عاد الصُّلح هنا ، كما نرى ، بحسب ما كان أملاه السُّلطان صلاح الدين بشروطه هو ، لا بشروط ريتشارد . وسبب ذلك كان إصرار السُّلطان على متابعة الحملات الحربية على الأرض ، واحدة تلو الأخرى ، دون انقطاع أو كلل أو إتاحة أية فرصة للعدوّ حتى يرتاح أو يلملم أشتاته . هذا برغم المصاعب الكبرى التي واجهت صلاح الدِّين – كما رأينا – في تسيير العسكر مراراً وتكراراً . فكان صُلح الرَّمْلة أخيراً بحسب رضا السُّلطان ، وإن كان مع ذلك – كما سيروي ابن شدّاد أدناه – ليفضِّل متابعة الجهاد والقتال ، حتى دَحر الصَّليبيين نهائياً قبل وفاته . الأمر الذي تابعه من بعده أحفاده الأيوبيون ، ثم أتمّه المماليك ، حتى سقطت عكّا أخيراً عام 1291 هـ ، بعد قرن كامل من إعادة احتلالها .

(2) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .

(3) في الأصل : الطرنطاي . والتصويب من طبعة مصر . وهو يُذكر هنا للمرة الأولى ، لكن من الجليّ أنه تركماني من جماعة الأمير بدر الدِّين دلْدرم (يلدرم) الياروقي . أما الاسم فتُركي : Torun-tay ، ومعناه : الفلو ، المهر ابن عامين .

(4) في هذا الكلام من السُّلطان النَّاصر قوّة ما بعدها قوّة ، فهو يفاوض وجيشه جاهز للزّحف والقتال ، وليس يرضى بالصُّلح صاغراً أبداً . وسنرى كيف أن الملك ريتشارد ، الذي أنهكته جلادة السُّلطان وعزمه ، سيرضخ على الفور ويقبل بشروط السُّلطان بأسرها ، لا بل يُجاهر باستجداء السُّلطان عن المزيد من المكاسب .

ولما كان عشاء الآخرة من يوم الأحد العشرين من شعبان ، وصل من أخبر بوصول طُرُنْطَاي ومعه الرُّسُل ، واستأذن في حضورهم ، فأذن - رحمه الله - في حضور طُرنطاي وحده ، فذكر أن الملك قد وقف على تلك الرُّقعة وأنكر أنه نزل عن العوض ، فأذكره الجماعة الذين خرجوا إلى بدر الدِّين [1] دلدرم أنه نزل عن ذلك ، فقال : «إذا أنا قُلْتُهُ فلا أرجع عنه ، قولوا للسُّلطان : مباركٌ ! رضيتُ بهذه القاعدة ورجعتُ إلى مُرُوءتك ، فإن زدْتَني شيئاً فمن فضلك وإنعامك» .

وساروا وأحضر الرُّسُل ليلاً ، وأقاموا إلى بُكرة ، وأحضروا الرُّسُل عند السُّلطان بُكرة [193 ظ] الإثنين العشرين من شعبان ، فذكروا ما استقرَّ عن صاحبهم . ثم انفصلوا إلى خيمهم ، وحضر عند السُّلطان أرباب الرأي وأرباب المشورة ، واستقر الأمر ، وانفصلت القاعدة . وسار الأمير بدر الدِّين دلْدرم إلى الملك العادل ، وأخذ الرُّسُل معه في صورة مَنْ يسأل في زيادة الرَّمْلة .

وعاد عشاء الآخرة ليلة الثلاثاء [2] الثاني والعشرين من شعبان ، وكُتبت المواصفة [3] ، وذُكر فيها الشُّروط والصُّلح ثلاث سنين من تاريخها ، وهو الثلاثاء [4] الثاني والعشرون من شعبان ، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وزيد فيها الرَّمْلة لهم ولُدّ أيضاً . وسَيَّر العَدْل [5] وقال له : إن قدرتَ أن ترضيهم بأحد الموضعين أو بمناصفتهما فافعل ، ولا يكون لهم حديثٌ في الجبليات .

ورأى السُّلطان - قدَّس الله روحه - ذلك مصلحةً ، لما غشي الناس من الضعف ، وقلَّة النفقات والشَّوق إلى الأوطان ، ولما شاهده من تقاعدهم على يافا يوم أمَرَهُم بالحملة فلم يحملوا ، فخاف أن يحتاج إليهم فلا يجدهم ، فرأى أن

(1) في طبعة مصر : بين يدي دلدرم .
(2) في طبعة مصر : الإثنين .
(3) في طبعة مصر : المواضعة .
(4) في طبعة مصر : الأربعاء .
(5) أي العَدْل السُّلمي الزَّبَداني ، الرَّسول بين السُّلطان والملك ريتشارد . تقدَّم ذكره مراراً .

يجمَّهم مدَّة حتى يستريحوا ويتبعوا [1] غير هذه الحالة التي صاروا إليها ، ويعمِّر البلاد ، ويشحن القُدْس بما يقدر عليه من الأسلحة [2] ويتفرغ لعمارته [3] .

وكان من القاعدة أن تكون عَسْقَلان خراباً ، وأن يتّفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها ، خشية أن نأخذها عامرة فلا نخربها [4] . فمضى العَدْل على [194 و] هذه القاعدة واشترط دخول بلاد الإسماعيلية [5] ، واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصُّلح على قاعدة آخر صُلح صالحناهم عليه .

واستقرَّ الحال على ذلك ، وسارت الرُّسُل يوم الثلاثاء حادي عشري شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وحكم عليهم أن لا بُدَّ من فصل الحال أما بصُلح أو بخصومة ، خشية أن يكون هذا الحديث من قبيل أحاديثه السابقة ومدافعاته المعروفة .

ذكر قدوم رُسُل من جهات متعدِّدة

وفي ذلك اليوم وصل رسول سيف الدِّين بكْتَمر - صاحب خلاط - يُبدي الطَّاعة والموافقة وتسيير العسكر . وحضرَ رسولَ الكُرج ، وذكرَ فصلاً في معنى الدِّيارات التي لهم في القُدْس وعماراتها ، وشَكوا من أنها أُخذت من أيديهم ، ويسأل عواطف السُّلطان - رحمة الله عليه - بردّها إلى أيدي نوّابهم ؛ ورسول صاحب أرْزن الرُّوم يبذل الطاعة والعبودية .

---

(1) في الأصل : وينسوا . والتصويب من طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : الآلة .
(3) أي لكي يعيد ترتيب المقوّمات اللّوجيستية لدولته ، كما في التعبير العسكري الحديث .
(4) في الأصل : يأخذها عامرة فلا يخربها . وهو خطأ واضح والتصويب من طبعة مصر ، فعسقلان عادت بموجب الهُدنة إلى المسلمين ، إثر إصرار السُّلطان بشدّة عليها .
(5) في طبعة مصر : البلاد الإسلامية .

ذكر تمام الصُّلح

ولما وصل العَدْل إلى هناك ، أُنزل خارج البلد في خيمة حتى أُعلم الملك به ، فلما علم به استحضره عنده مع بقيّة الجماعة ، وعرض عليه العَدْلُ النُّسخة ، وهو مريض الجسم ، فقال : «لا طاقةَ لي بالوقوف عليها ، وأنا قد صالحتُ وهذه يدي» . فاجتمعوا بالكُنْدُهْري والجماعة ، ووافقوهم على النُّسخة ، ورضوا بلُدٍّ والرَّمْلة [194 ظ] مُناصفة ، وبجميع ما في النسخة . واستقرَّت القاعدة أنهم يحلفون بُكرة يوم الأربعاء ، لأنهم كانوا قد أكلوا شيئاً يوم الثلاثاء ، وليس من عادتهم الحلف بعد الأكل . وأنفذ العَدْلُ إلى السُّلطان - رحمة الله عليه - مَنْ عَرَّفَهُ ذلك .

ولما كان يوم الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان ، استُحضر الجماعة عند الملك ، وأخذوا يده وعاهدوه ، واعتذر بأن الملوك لا يُحلَّفون ، وقنع من السُّلطان بمثل ذلك [1] ، ثم حلف الجماعة : فحَلَفَ الكُنْدُهْري ابن أخته ، المُستخلف عنه في السّاحل [2] ، وباليان بن بارزان [3] ابن صاحبة طبرية ، ورضي الإسبتار والدّاويّة وسائر مُقدَّمي الإفرنجية بذلك . وساروا في بقية اليوم عائدين إلى المخيم السُّلطاني فوصلوا عشاء الآخرة . وكان الواصلون من جانبهم ابن الهَنْفَري وابن بارزان ، وجماعة من مُقدَّميهم فاحتُرموا وأُكرموا ، وضُربت لهم خيمةٌ تليق بهم ، وحضر العَدْل وحكى ما جرى .

---

(1) في طبعة مصر : وقنع السّلطان بذلك .

(2) برغم أن الملك هنري دى شامپانيا كان ابن أخت الملك ريتشارد ، فهو لم يكن بمثابة المُستخلَف عنه في السّاحل ، كما يذكر ابن شدّاد هنا ، بل عُيّن ملكاً لمملكة القُدس اللاتينية الثانية في عكّا بعد تأسيسها من جديد ، وكان ذلك في 5 أيار 1192 م وبقي على عرش القدس حتى وفاته في 10 أيلول من عام 1197 م . راجع : الحروب الصّليبية ، صراع الشرق والغرب ، لگروسّيه ، ص 80 ؛ وكذلك Runciman, op. cit., iii, p. 66 .

(3) ذكره ابن شدّاد مسبقاً ، وهو باليان الثاني ديبلان (Balian II d'Ibelin) صاحب الرَّمْلة ، من أسرة إيبلان الحاكمة ، وهو الاسم الفرنسي لبلدة يُبْنَى جنوبي يافا وغربي اللُّدّ .

ولما كانت صبيحة الخميس الثالث والعشرين من شعبان ، حضر الرُّسُل في خدمة السُّلطان - قدَّس الله روحه - وأخذوا يده الكريمة ، وعاهدوه على الصُّلح على القاعدة المستقرَّة ، واقترحوا حلف جماعة : الملك العادل ، والملك الأفضل ، والملك الظّاهر [1] ، وعلي بن أحمد المشطوب ، وبدر الدِّين دلدرم ، والملك المنصور ؛ وكلّ مجاور لبلادهم ، كابن المقدَّم صاحب شَيْزَر [2] [195 و] وغيرهم . فوعدهم السُّلطان أن يُسَيِّر معهم رسولاً إلى الجماعة المجاورين ليحلّفهم ، وحلف لصاحب أنطاكية وطرابلس [3] ، وعلَّق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين ، فإن لم يحلفوا لم يدخلوا في الصُّلح .

ثم أمر المنادي أن ينادي في الوطاقات والأسواق : «ألا إن الصُّلحَ قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم يدخل إلى بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل إلى بلادهم فليفعل» . وأشاع - رحمة الله عليه - أن طريق الحج قد فُتح من الشام ، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس ، وكنتُ حاضراً ذلك جميعه ، ووقع له ذلك - رحمه الله - . وأمَرَ السُّلطان - قدَّس الله روحه - أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عَسْقَلان ، ومعهم أمير كبير ، ولإخراج الفرنج منها ، ويكون معهم جماعةٌ من الفرنج إلى حين وقوع الخراب في السُّور خشية من استبقائه عامراً .

وكان يوماً مشهوداً ، غشي الناس من الطائفتين [فيه] من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، والله العليم إن الصُّلح لم يكن من إيثاره ، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصُّلح : «أخافُ أن أصالح ، وما أدري أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدوّ ، وقد بقي لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تلّه - يعني حصنه - ، وقال : «لا أنزل» ، فيهلك المسلمون» .

---

(1) في طبعة مصر إضافة : عزَّ نصرهم .
(2) تقدّم مراراً أن شيزر كانت بيد سابق الدّين ابن الدّاية حتى وفاة السّلطان ، انظر ص 419 .
(3) ذكرنا أن إمارة أنطاكية وكونتيّة طرابلس كانتا دولتين مستقلتين عن مملكة القُدس .

فهذا [195 ظ] كلامه ، وكان كما قال ، لكنه رأى المصلحة في الصُّلح لسآمة العسكر ، ومُظاهرتهم بالمُخالفة . وكان مصلحةً في علم الله تعالى ، فإنه اتَّفقت وفاتُه بعيد الصُّلح ، ولو كان اتَّفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر ، فما كان الصُّلح إلا توفيقاً وسعادةً له ، رحمة الله عليه .

ذكر خراب عَسْقَلان

ولما كان يوم السَّبت خامس عشري شعبان ، نَدَبَ السُّلطان علم الدِّين قَيْصَر إلى خراب عَسْقَلان [1] ، وسَيَّر معه جماعة من النقَّابين والحجَّارين ، واستقرَّ أن الملك يُنفذ من يافا مَنْ يسيرُ معه ليقف على الخراب ، ويُخرج الفرنج منها ، فوصلوا إليها يوم الأحد . فلما أرادوا الخراب اعتذر الأجناد الذين بها بأن : «لنا على الملك جامكيّةٌ بلده [2] ، فإما أن يدفعها إلينا حتى نخرج ، أو ادفعوها أنتم إلينا» .

فوصل بعد ذلك رسول الملك يأمرهم بالخروج فخرجوا ، ووقع الخراب فيها ضاحي نهار الإثنين سابع عشري شعبان سنة ثمان وثمانين ، واستمرَّ تخريبها ، وكتب على الجماعة رقاعاً في المعاونة على الخراب ، وأعطى كل واحد قطعةً معلومةً من السُّور ، وقيل له : «دُسْتُورُك خرابُها» .

---

(1) سبق أن ذكرنا أن السُّلطان أصرَّ بشدّة على عدم بقاء عَسْقَلان بيد الفرنج ، الذين كانوا يطالبون بها ، وذلك خشيةً على مصر من أن يحاولوا احتلالها ، كما جرى في السابق مرتين : الأولى أثناء تولّي أسد الدِّين شيركوه عمّ صلاح الدِّين ، والثانية أثناء تولّيه هو بها . ولمّا كان الفرنج أيضاً يخشون من جيوش السُّلطان على مستعمراتهم في السّاحل الفلسطيني ، فقد اشترطوا مقابل إخلائهم لعسقلان أن يتم هدم أسوارها . وهذا الأمر عينه كان لجأ إليه صلاح الدِّين أثناء تفاوضه ، كما قام بنفسه سابقاً بهدم أسوارها ، كما مرّ بنا ، عندما كان الصّليبيون في الطريق إلى احتلالها للمرة الثانية . راجع ما تقدّم أدناه بفقرة : ذكر خراب عَسْقَلان ، ص 323 .

(2) في طبعة مصر : لمدّة . أما الجامكيّة فهي المرتّب الشهري .

ذكر رحيل السُّلطان – قدّس الله روحه – من الرَّمْلة

ولما كان يوم الأربعاء التاسع والعشرون من شعبان ، رحل السُّلطان إلى النَّطْرون ، [196 و] واختلط العسكران ، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التِّجارة ، ووصل خلقٌ عظيم من العدوّ إلى القُدْس للحجّ ، وفتح لهم السُّلطان – رحمه الله – الباب في ذلك ، ونفَّذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردُّوهم إلى يافا ، وكثر ذلك من الفرنج . وكان غرض السُّلطان – رحمه الله – بذلك أن يقضوا وَطَرَهُم [1] من الزّيارة ، ويرجعوا إلى بلادهم ، فيأمن المسلمون شرَّهم .

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسَيَّر إلى السُّلطان يسأله منع الزوّار ، واقترح ألا يؤذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابه . وعلمت الفرنجية ذلك ، فعَظُم عليها ، واهتموا في الحج ، فكان يرد كلَّ يوم منهم جموعٌ كثيرة ، مُقدَّمون ، وأوساط [2] ، وملوك متنكِّرون .

وشرع السُّلطان – رحمة الله عليه – في إكرام مَنْ يرد ومدِّ الطعام ومُباسطتهم ومُحادثتهم ، وعَرَّفهم إنكار الملك ذلك ، وأذن لهم السُّلطان في الحجّ وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منع الملك من ذلك ، واعتذر إلى الملك بأنّ «قوماً قد وصلوا من ذلك البُعد ، ويَسَّر الله لهم زيارة هذا المكان الشَّريف ، لا أستحلُّ مَنْعَهُم !» .

ثم اشتدَّ المرض بالملك ، فرحل ليلة الأربعاء تاسع عشري شعبان ، وقيل إنه مات . وسار هو والكُنْدُهْري وسائر المُقدَّمين إلى جانب عكّا ، ولم يبق من يافا إلا مريضٌ أو عاجز [196 ظ] ونفر يسير .

---

(1) في الأصل : أن ينظر وطرهم . والتصويب من طبعة مصر .
(2) في طبعة مصر : وأسباط .

ذكر عَوْد العساكر الإسلامية إلى أوطانهم

ولما انقضى هذا الأمر واستقرت هذه القواعد ، أعطى السُّلطان النّاسَ دُسْتوراً ، فكان أول من سار عسكر إربل ، فإنه سار في مُستهلّ شهر رمضان المبارك ، ثم سار بعده في ثانيه عسكر الموصل وسنجار والحصن .

وأشاع [السُّلطان] أمْرَ الحجّ ، وقوي عزمُه على براءة الذِّمَّة منه ، وكان هذا مما وقع لي ، وبدأتُ بالإشارة به في يوم تتمّة الصُّلح ، ووقع منه - رحمة الله عليه - موقعاً عظيماً . وأمر الدِّيوان : «إن كل مَنْ عزم على الحج من العسكر يُثبت اسمه ، حتى يُحصى عدّة من يدخل معنا في الطريق» . وكتب جرائد بما يحتاج إليه في الطريق من الخلع والأزواد وغير ذلك ، وسَيَّرها إلى البلاد ليُعدُّوها .

ذكر رحيله
- رحمة الله عليه - (1)

ولما أعطى الناس دُستوراً ، وعلم عَوْد العدوّ مدحوراً إلى ورائه ، رأى الدُّخول إلى بيت المقدس الشَّريف لتهيئة أسباب عمارته ، والنَّظر في مصالحه ، والتأهُّب للمسير إلى الحج .

فرحل من النَّطرون في يوم الأحد رابع شهر رمضان ، وسار حتى أتى مار صمويل يفتقد الملك العادل بها ، فوجده قد سار إلى القُدْس ، وكنتُ عنده رسولاً من جانب السُّلطان ، أنا والأمير بدر الدِّين دلدرم والعَدْل (2) ، وكان قد انقطع عن أخيه مدّة بسبب المرض ، وكان قد تماثل .

---

(1) هذا العنوان غير موجود في طبعة مصر .
(2) أي العَدل الزَّبَداني ، المتقدّم ذكره مراراً .

فعرّفناه مجيء [197 و] السُّلطان إلى مار صمويل لعيادته ، فحمل على نفسه ، وسار معنا حتى لقيه بذلك المكان ، وهو أول وصوله ، ولم ينزل بعد ، فلقيه ونزل وقبّل الأرض ، وعاد فركب ، فاستدناه ، وسأله عن مزاجه ، وسارا جميعاً حتى أتيا القُدْس الشّريف في بقية ذلك اليوم .

ذكر وصول رسول من بغداد

ولما كان يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان ، صلّى الملك العادل - قدَّس الله روحه - الجمعة ، وانصرف عائداً إلى الكَرَك عن دُسْتور من السُّلطان لينظر في أحواله ، ويعود إلى البلاد الشرقية يُدَبِّرها ، فإنه كان قد أخذها من السُّلطان - قدّس الله روحه - . وكان قد وَدَّع السُّلطان - رحمة الله عليه - فلمّا وصل إلى العازريّة نزل بها مخيِّماً ، فوصله مَنْ أخبره أن رسولاً من بغداد واصلٌ إليك ، فأنفذ إلى السُّلطان وعرَّفه ، وذكر أنه يجتمع به ويُطالع بما وصل فيه .

ولما كان يوم السبت الرابع والعشرون ، دخل الملك العادل إلى الخدمة السُّلطانية ، وذكر أن الرَّسول وصل إليه من جانب ابن النّافذ بعد أن ولي نيابة وزارة بغداد . ومقصود الكتاب أنه يحثُّه على استعطاف قلب السُّلطان إلى الخدمة الشَّريفة ، والدخول بينه وبين الدِّيوان العزيز ، والإنكار عليه في تأخُّر رسله عن العتبة الشَّريفة ، واقتراح تسيير [197 ظ] القاضي الفاضل (1) ليحضر الدِّيوان العزيز في تقرير قواعد لا تتحرَّر بينه وبين السُّلطان - رحمة الله عليه - إلا به . وقد وُعد الملك العادل من الدِّيوان بوعود عظيمة إذا قرَّر ذلك ، وتكون له يدٌ عند الدِّيوان يستثمرها فيما بعد ، وما يشبه هذا المعنى .

---

(1) هو عبد الرّحيم بن علي اللّخمي البيساني الشهير بالقاضي الفاضل (529-596 هـ) ، من أئمّة الكتّاب ومن وزراء السّلطان ومقرّبيه . كان النّاصر يقول فيه لأمرائه : «لا تظنّوا أني ملكتُ البلاد بسيوفكم ، بل بقلم الفاضل !» .

فحدث عند السُّلطان فكرةٌ في إنفاذ رسول يسمع كلام الدِّيوان ، ويستعلم أثر دخول الملك العادل في البين ، وزاد الحديث ونقص ، وطال وقصر ، وقوي عزم السُّلطان على إنفاذ الضِّياء الشَّهْرَزُوْري . وعاد الملك العادل إلى مخيّمه بالعازرية بعد تقرير هذه القاعدة ، وعرَّفه إجابة السُّلطان إلى إنفاذ رسول إلى خدمة الدِّيوان العزيز [1] ، وسار يوم الإثنين طالباً جهة الكَرَك . وسار الضياء متوجهاً إلى بغداد يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر رمضان [2] .

ذكر توجه ولده الملك الظّاهر إلى بلاده ووصية السُّلطان له

ولما كان بُكرة يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك ، توجَّه ولده الملك الظّاهر بعد أن ودَّعه ، ونزل إلى الصخرة فصلّى عندها ، وسأل الله تعالى ما شاء . ثم ركب – وكنتُ في خدمته – فقال لي : «قد تذكرتُ ما أحتاج فيه إلى مراجعة السُّلطان مشافهة» . فأنفذ من استأذن له [198 و] في العوْد إلى خدمته ، فأذن له في ذلك فحضر واستحضرني ، وأخلى المكان ثم قال :

«أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنها رأس كل خير . وآمرك بما أمرك الله به ، فإنه سبب نجاتك . وأحذّرك من الدِّماء ، والدخول فيها والتقلّد لها ، فإن الدَّم لا ينام ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الرَّعية والنظر في أحوالهم ، فأنت أميني وأمين الله عليهم ؛ وأوصيك بحفظ قُلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر ، فما بلغتُ ما بلغتُ إلا بمداراة الناس . ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يُبقي أحداً ، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يُغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه كريم» .

(1) ذكرنا أن المقصود هو ديوان الخليفة العبّاسي النّاصر لدين الله ابن المستضيء في بغداد .
(2) في الأصل : سادس شهر رمضان . والتصحيح من طبعة مصر .

وكان ذلك بعد أن أفطرنا في خدمته [1] ، ومضى من الليل ما شاء الله أن يمضي ، وأكثر من ذلك ، ولكن هذا ما أمكن حكايته وضبطه .

ولم يزل بين يديه إلى قريب السَّحَر ، ثم أذن له في الانصراف ، ونهض له وودَّعه ، وقبَّلَ وجهه ومسح يده على رأسه ، وانصرف في دعة الله . ونام في برج الخشب الذي للسُّلطان يجلس عنده في الأحيان إلى بُكرة . وسرتُ في خدمته إلى بعض الطريق وودّعته ، وسار في حفظ الله إن شاء الله .

ذكر مسير الملك الأفضل [2]
رحمه الله

ثم سيَّر الملك الأفضل ثَقْلَه ، وأقام [198 ظ] يراجع السُّلطان على لساني في أشغال كانت له ، حتى دخل في شوّال أربعة أيام ، وسار في ليلة الخامس منه نصف اللّيل عَن تعتّب عليه ، جريدةً على طريق الغَوْر .

ذكر مسيره - قدّس الله روحه -
من القُدْس

وأقام السُّلطان - قدّس الله روحه - يُقطع الناس ، ويعطيهم دُستوراً ، ويتأهَّب للمسير إلى الدّيار المصرية ، وانقطع شوقه إلى الحج ، وكان من أكبر المصالح التي فاتته . ولم يزل كذلك ، حتى صحَّ عنده إقلاعُ مركب الأنكتار المخذول ، متوجهاً إلى بلاده مستهلّ شوّال [3] .

---

(1) في طبعة مصر : انصرفنا من خدمته .

(2) العنوان غير موجود في طبعة مصر .

(3) غادر ريتشارد المشرق مُبحراً إلى بلاده ، في 9 تشرين الأول 1192 م ، أي مطلع شوّال .

فعند ذلك حرَّر السُّلطان عزمه على أن يدخل السّاحل جريدةً ، ويتفقّد القلاع البحرية إلى بانياس ، ويدخل محروسة دمشق ، ويقيم بها أياماً قلائل ، ويعود إلى القُدْس الشَّريف ، سائراً إلى الديار المصرية ، لتفقُّد أحوالها ، وتقرير قواعدها ، والنظر في مصالحها .

وأمرني بالمقام بالقُدْس الشَّريف إلى حين عَوْده لعمارة بامارستان [1] أنشأه فيه ، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه - رحمة الله عليه - إلى حين عوده . وسار من القُدْس ضاحي نهار الخميس [سادس] شوّال سنة ثمان وثمانين ، وودعتُه إلى البِيْرة ، ونزل بها ، وأكل فيها الطعام . ثم رحل حتى أتى بعض طريق نابلس ، فبات .

ثم أتى نابلس ضاحي نهار الجمعة سابع شوّال ، فلقيه خلق عظيم يستغيثون [199 و] على المشطوب ، ويتضوّرون إليه سوء رعايته لهم ، فأقام - رحمه الله - يكشف عن أحوالهم إلى عصر يوم السبت ثامنه . ثم رحل ونزل بسَفَسْطية يتفقّد أحوالها ، ثم أتى في طريقه إلى كَوْكَب ، ونظر في أحوالها ، وأمَرَ بسدِّ خللها ، وذلك في يوم الإثنين عاشره .

ذكر خروج بهاء الدِّين قَرَاقُوش
من الأسر

وكان انفكاكه من ربقة الأسر يوم الثلاثاء حادي عشر شوّال ومَثُلَ بالخدمة الشَّريفة السُّلطانية ، ففرح به فرحاً شديداً ، وكان له حقوق كثيرة على السُّلطان والإسلام ، واستأذن السُّلطانَ - رحمة الله عليه - في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة ، فأذن له في ذلك ، وكانت القطيعة - على ما بلغني - ثمانين ألفاً .

---

(1) الكلمة فارسية مركبة : بيمار - استان ، وتعني : محلّ إقامة المرضى ، أي المشفى .

ذكر وصول البرنس
إلى الخدمة السُّلطانية مُسترفداً [1]

ولما وصل السُّلطان إلى بيروت ، وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مُسترفداً [2] ، فبالغ في إكرامه واحترامه ومُباسطته ، وأنعم عليه بالعَمْق وأزرغان ومزارع تغلُّ خمسة عشر ألف دينار [3] .

ذكر موت المشطوب بالقُدْس [1]

وكان قد تخلَّف المشطوب بالقُدْس من جُملة العسكر المعيّن له ، ولم يكن واليه ، وإنما كان عزّ الدِّين جُورديك ، وكان ولاّه بعد الصُّلح حالة عَوْده إلى القُدْس بعد أن شاور فيه [199 ظ] الملك العادل والملك الأفضل والملك الظّاهر ، على لساني ، وأشاروا به ، وأشار به أهل الدِّين والصلاح ، لأنه كان كثير الجدّ والخدمة لأهل الخير . وأمرني السُّلطان - رحمة الله عليه - أن أولّيه ذلك في يوم الجمعة عند الصخرة ، فولّيتُه إيّاه بعد صلاة الجمعة ، واشترطتُ عليه الأمانة ، وعرَّفتُه موضع حسن اعتقاد السُّلطان فيه ، فاعتنق الأمر ، وقام به القيام المرضي .

وأما المشطوب فإنه كان مُقيماً بالقُدْس من جُملة مَنْ كان فيه ، وتوفي - رحمة الله عليه - في يوم الأحد الثالث والعشرين من شوّال ، ودُفن في داره بعد أن صُلّي عليه في المسجد الأقصى ، رحمه الله .

---

(1) هذا العنوان ساقط من طبعة مصر .

(2) هو البرنس بوهيموند الثالث le prince Bohémond III d'Antioche ، حكم إمارة أنطاكية الفرنجية طويلاً ، بين عامي 1163-1201 م .

(3) العَمْق سهل داخلي في لواء إسكندرونة ، إلى الشمال الغربي من سورية ، تُشرف عليه قلعتا بَغراس ودَرْبساك . أما أزرغان فهو نهر في الجزيرة العليا بناحية الدّرباسيّة ، ينبع في الأراضي التركية ويصبّ في الخابور ، ويُعرف اليوم بزركان أو زرغان .

ذكر عَوْد السُّلطان - قدّس الله روحه - إلى محروسة دمشق

وكان عوده إليها بعد الفراغ من تصفّح أحوال القلاع السّاحلية بأسرها والتقدّم بسد خللها وإصلاح أمور أجنادها ، وإشحانها بالرجال والأجناد . فدخل إلى دمشق بُكرة الأربعاء سادس عشري شوّال ، وفيها أولاده : الملك الأفضل ، والملك الظّاهر ، والملك الظافر ، وأولاده الصغار .

وكان يحبُّ البلد [1] ، ويُؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد ؛ وجلس للناس في بُكرة الخميس سابع عشرين منه ، وحضر الناس عنده ، وبلّوا شوقهم من رؤيته - رحمة الله عليه - وأنشده الشعراء ، وعمَّ ذلك المجلسَ الخاصُّ والعامُّ ، [200 و] وأقام ينشر جناح عدله ، ويهطل سحاب إنعامه وفضله ، ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة .

حتى كان يوم الإثنين مستهلّ ذي القعدة ، اتّخذ الملك الأفضل دعوةً للملك الظّاهر ، فإنه لما وصل إلى دمشق بلغه حركة السُّلطان إليها ، فأقام بها حتى يتملّى بالنظر إليه ثانياً ، وكأنَّ نَفْسَه الشّريفة كانت أحسّت بدُنوّ أجل السُّلطان ، فودَّعه في تلك الدفعة مراراً متعددة ، وهو يعود إليه .

ولما اتَّخذ الملك الأفضل له دعوةً أظهر فيها من بديع التجمُّل وغريبه ما يليق بهمّته ، وكأنه أراد مجازاته عمّا خدمه به حين وصوله إلى حلب المحروسة ، وحضرها أرباب الدنيا والآخرة ، وسأل السُّلطانَ - قدّس الله روحه - الحضورَ ، فحضر جَبراً لقلبه ، وكان يوماً مشهوداً ، على ما بلغني .

---

(1) بلغت دمشق في عهد صلاح الدين ودولته الأيوبية شأناً رفيعاً من الحضارة والعمران ، فأقيمت بها العديد من المنشآت العلمية والخيرية ، كالمدارس ودور القرآن والحديث ، وعُمّرت القلعة والأسوار والمرافق العامّة . وما يزال أكثر هذه الأبنية قائماً اليوم يشهد بعظمة تلك الدولة . وسوف نُفرد لذلك بحثاً وافياً عن «دمشق في العهد الأيوبي» .

ذكر قدوم الملك العادل أخيه

ولما تصفَّح الملك العادل أحوال الكَرَك ، وأمر بإصلاح ما قصد إصلاحه فيه ، عاد طالباً البلاد الفُرَاتية ، فوصل أرض دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذي القعدة ، وكان السُّلطان قد خرج إلى لقائه ، وأقام يتصيَّد حول غباغب إلى الكسوة ، حتى لقيه ، وساروا جميعاً يتصَيَّدان ، وكان دخولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد حادي عشري ذي القعدة سنة ثمان .

وأقام السُّلطان - رحمة [200 ظ] الله عليه - بدمشق يتصيَّد هو وأخوه ، وأولاده يتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصِّبا ، وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنَّصَب ، وسهر الليل ونصب النهار ، وما كان ذلك إلا كالوداع لأولاده ومراتع تنزّهه ، وهو لا يشعر - رحمة الله عليه - ونسي عزمه لمصر ، وعرض له أمور أخرى ، وعزمات غير ذلك .

ووصلني كتابه - قدّس الله روحه - إلى القُدْس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاءً شديداً ، ووحلاً عظيماً ، فخرجتُ من القُدْس الشَّريف - حرسه الله تعالى - في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرّم سنة تسع وثمانين ، وكان الوصول إلى محروسة دمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة تسع .

وكان وصل أوائل الحاج على طريق دمشق [1] ، وكان دخول السُّلطان إليها عصر الإثنين حادي عشر ، فلم يتّفق المثول في خدمة السُّلطان إلى ضاحي نهار يوم الوصول ، فإنه اتفق حضوري . وكان الملك الأفضل حاضراً في الإيوان الشمالي ، وفي خدمته خلقٌ من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السُّلطان لخدمته ، فلمّا شعر بحضوري استحضرني وهو وحده ، قبل أن يدخل إليه أحد [2] .

---

(1) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .
(2) سيوضح ابن شدّاد أدناه أن إقامة السُّلطان بدمشق كانت بالقلعة ، بدار وبستان له بها .

فدخلتُ عليه - رحمة الله عليه - فقام ولقيني ملقىً ما رأيتُ أشدَّ منْ بشره فيه - رحمه [201 و] الله - ولقد ضَمَّني إليه ، ودَمعَتْ عينُه [1]. رحمة الله عليه .

ذكر لقائه للحاج
- رحمة الله عليه -

ولما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبني ، فحضرتُ عنده ، فسألني عمّن في الإيوان فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة ، والأمراء والناس في خدمته ، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة إقبال .

ولما كانت بُكرة الخميس استحضرني بُكرة ، فحضرتُ عنده ، وهو في صُفَّة البستان ، وعنده أولاده الصغار . فسأل عن الحاضرين فقيل : «رُسُل الفرنج ، وجماعة الأمراء والأكابر» . فاستحضر رُسُلَ الفرنج إلى ذلك المكان ، فحضروا ، وكان له ولدٌ صغير ، وكان كثير الميل إليه ، يُسمّى الأمير أبا بكر ، وكان حاضراً وهو - رحمه الله - يُداعبه . فلما وقع بصرُه على الفرنج ورأى أشكالهم ، وحلق ذقونهم ، وقصّ شعورهم ، وما عليهم من الثياب غير المألوفة خاف منهم ويكى ، فاعتذر إليهم وصرفهم بعد أن حضروا ، ولم يسمع كلامهم .

وقال لي : «أكلتَ اليوم شيئاً ؟» ، وكانت عادته - رحمة الله عليه - هذه المُباسطة . ثم قال : «أحضروا لنا ما تيسّر» . فأحضروا أرزاً بلبن وما يشبه ذلك من الأطعمة الخفيفة ، فأكل - رحمة الله عليه - وكنتُ أظن أن ما عنده شهوة ،

(1) ما أروع هذه المواقف الإنسانية ، وبخاصة عندما تبدر من شخص عظيم كالسُّلطان صلاح الدِّين ، الذي فرض في آن واحد هيبته وسطوته على الأصدقاء والأعداء ، مع شعور يمتزج بكل الإكبار والإعجاب لشخصيته الكريمة النبيلة ، المتناهية في الشهامة والمروءة ، والبالغة الرّهافة والإحساس بالآخرين . هذه الأخلاق تسمو بصاحبها إلى مصاف الصدّيقين والصحابة الكرام ، ولو كان في الإسلام قدّيسون لعُدَّ النّاصر صلاح الدين بلا مُشاحَّة في أولى مراتبهم .

وكان في هذه الأيام يعتذر للناس لثقل الحركة عليه ، وكأن بدنه كان ممتلئاً [201 ظ] وعنده تكسُّل .

فلما فرغنا من الطعام قال : «ما الذي عندك من خبر الحاج ؟» ، فقلتُ : «قد اجتمعتُ بجماعة منهم في الطريق ؛ ولولا كثرةُ الوَحل لدخلوا اليوم ، ولكنهم في غد يدخلون» . فقال : «نخرج إن شاء الله إلى لقائهم» . وتقدّم بتنظيف طرقاتهم من المياه ، فإنها كانت سنة كثيرة الأنداء ، وقد سالت المياه في الطرق كالأنهار .

وانفصلتُ عن خدمته ، ولم أجد عنده من النشاط ما أعرفه منه . ثم بكَّر في يوم الجمعة فركب وتأخرتُ عنه تأخراً قريباً ، ثم لحقتُه وقد لقي الحاج ، وكان فيهم سابق الدِّين ، وقرال [1] الياروقي . وكان كثير الاحترام للمشايخ ، قدّس الله روحه فلقيهم ، ثم لحقه الملك الأفضل ولدُه ، ولقي الجماعة ، وأخذني الملك الأفضل يحدّثني . فنظرتُ إلى السُّلطان – رحمة الله عليه – فلم أجد عليه كَزَاغَنْده [2] ، وما كان له عادة يركب بدونه .

وكان يوماً عظيماً قد اجتمع فيه للقاء الحاج ، والتفرّج على السُّلطان ، معظم مَنْ في البلد ؛ فلم أجد الصَّبر دون أن سرتُ إلى جانبه وحدّثتُه في إهمال هذا [3] ، فكأنه استيقظ ، فطلب الكَزَاغَنْد ، فلم يوجد الزَّرَدْكاش [4] ؛ فوجدتُ لذلك أمراً عظيماً وقلتُ في نفسي : «سلطانٌ يطلبُ ما لا بُدّ منه في عادته ولا يجده» . وأوقع الله في قلبي تَطيُّراً بذلك .

---

(1) تقدّم ذكر التُّركمان الياروقية ، ومنهم الأمير بدر الدين دلْدرم (يلدرم) الياروقي . أما اسم «قرال» فهو تركي : Kıral ، ويعني : مَلِك .

(2) تقدّم ذكر الكَزَاغَنْد ، وهي كلمة كردية تعني الدِّرع .

(3) أي كان عليه أن يعتني بحماية نفسه من مخاطر محاولات الاغتيال ، كما جرى مسبقاً مرّتين . انظر ما تقدّم ، ص 60 ، 120 .

(4) في نسخة الأصل : الزَّرْكَش . وهو تحريف ، والتصويب من طبعة مصر . أما الزَّرَدْكاش فهو المسؤول عن حفظ الدّروع والأسلحة في بلاط السُّلطان . والكلمة فارسية الأصل .

فقلتُ له – رحمه الله – : «ما ثَمَّ طريقٌ يُسلكُ ليس فيه خَلْقٌ كثير ؟» ، فقال : «بلى» . ثم سار – رحمه الله – بين البساتين يطلب جهة المُنَيْبِع [1] ، وسرنا في خدمته ، وقلبي يُرعد لما قد أُوقع فيه من الخوف عليه ؛ فسار حتى أتى القلعة [2] ، فعبر على الجسر إلى القلعة [3] ، وهو طريقه المُعتاد . وكانت آخر ركباته ، رحمة الله عليه ، وقدّس روحه .

* * * * *

(1) المُنَيْبِع محلّة قديمة بدمشق ، بدلالة اسمها الآرامي الذي يعني : عين الماء المتدفقة . تقع إلىَ الغرب من المدينة ، إلى الجنوب من نهر بردى ، ويمرّ بها نهرا بانياس والقنوات . موقعها في أيامنا يمتدّ من حيّ الحلبوني والبرامكة حتى الجمارك غرباً . وكلام ابن شدّاد يعني أن السّلطان سلك طريقه من ميدان الحصا بجنوب المدينة متجهاً شمالاً ، لا بحسب الطريق المعهود آنذاك (القُبيبات فقصر حجّاج فباب الجابية فالقلعة) ، وإنما انحرف غربي الطريق بين البساتين ، فبلغ المنيبع عن طريق الحميريين وقينية (أي في أيامنا المجتهد ومنطقة «زُقاق الجنّ») ، ثم تابع طريقه شرقاً عبر الخلخال (موقع الحلبوني والحجاز حالياً) ، ماراً بحُكر السمّاق (شارع النّصر حالياً) ، بأعلى المرج الأخضر (أي مرجة الحشيش التي قام بها المعرض في عصرنا) وبين النهرين (ساحة المرجة اليوم) ، وصولاً إلى القلعة .

(2) يشير النص هنا أن السّلطان كان يُقيم بالقلعة أثناء بقائه بدمشق ، وبها توفي وبها دُفن ، قبل أن يُنقل إلى المدرسة العزيزية في مقامه المشهور إلى أيامنا . لكن ينبغي الإشارة إلى أن القلعة الحالية أعاد بناءها الملك العادل بمطلع القرن السابع ، بعد وفاة السّلطان .

(3) كان الدخول إلى القلعة يتم حصراً من مدخلها الشرقي ، وهو الواقع ضمن المدينة بداخل سورها ، فيما يُحاذي في أيامنا محلّتي باب الفرج والمناخلية . والدّلالة على كون الباب الشرقي هو الأساسي لقلعة دمشق (الأيوبية البناء) ، هي الواجهة الشرقيّة الحجرية ، التي تحمل منحوتات ونقوش حجرية وكتابات غاية في الرّوعة . أما الجسر الذي كان يُفضي إلى المدخل الشرقي فوق الخندق فقد أزاله في عام 926 هـ الوالي العثماني المتمرّد جان بردي الغزالي . انظر كتابنا : حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام ، صفحات مفقودة تُنشر للمرّة الأولى من كتاب «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان» ، لابن طولون الصالحي ؛ دار الأوائل بدمشق 2002 ، ص 104 . وفيه نقلنا وصف الباب (الذي لا وجود له في عصرنا) والجسر الخشبي المتحرك ، نقلاً عن الرّحالة البورتغالي سيباشتياو مانريك Sebastião Manrique ، الذي زار دمشق بين عامي 1629–1643 م ؛ والرّحالة الفرنسي لوران دارڤيو Laurent d'Arvieux ، الذي زار دمشق عام 1660 م .

ذكر مرضه
- رحمة الله عليه -

ولما كانت ليلة السبت ، وجد كسلاً عظيماً ، فما انتصف اللّيل حتى غشيتهُ حُمّى صفراوية ، كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره . وأصبح في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين متكسّلاً ، عليه أثر الحمّى ، ولم يُظهر ذلك للناس ، لكن حضرتُ عنده أنا والقاضي الفاضل ، ودخل ولدُه الملك الأفضل ، وطال جلوسُنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه بالليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر .

ثم انصرفنا والقلوب عنده ، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الملك الأفضل ، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ، فانصرف . ودخلتُ إلى الإيوان القبلي ، وقد مُدَّ الطعام وولده الملك الأفضل قد جلس في موضعه ، فانصرفتُ ، ولم يكن لي قوّة للجلوس ، استيحاشاً . وبكى في ذلك اليوم جماعةٌ تفاؤلاً بجلوس ولده موضعه .

ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ، ونحن نلازم التردّد في طرفي النهار ، وندخل إليه أنا والقاضي [202 ظ] الفاضل في النهار مراراً ، ويُعطي الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفّة .

وكان مرضه في رأسه ، رحمة الله عليه . وكان من أمارات انتهاء العُمر غيبة طبيبه [1] الذي كان قد ألفَ مزاجه سفراً وحضراً . ورأى الأطباء فَصْدَه ففصدوه في الرابع فاشتدّ مرضه ، وقَلّت رطوبات بدنه ، وكان يغلبه اليُبس [2] غَلَبَةً عظيمة ، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف .

---

(1) هذان اللفظان ساقطان من طبعة مصر .

(2) كنا ذكرنا أن السُّلطان كان يعاني - كما يبدو - من ارتفاع ضغط الدّم الشرياني ، ومن نقص في التَّروية الدّموية ، كانَ السَّبب في يُبس أطرافه وخَدَرها .

ولقد أجلسناه في السادس من مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدّة ، وأُحضر ماءٌ فاتر ليشربه عقيب شُرب مُليِّن للطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة ، فشكا من شدّة حرِّه ، فغُيِّر وعُرِض عليه ثانياً ، فشكا من بَرْده . ولم يغضب ولم يصخب - رحمة الله عليه - ولم يقل سوى هذه الكلمات : «سُبحان الله ! لا يُمكن أحد تعديل الماء ؟» .

فخرجنا أنا والقاضي [الفاضل] يقول لي : «أبصرْ هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ، والله لو أن هذا بعض الناس كان قد ضَرَبَ بالقَدَح رأسَ مَنْ أحضره !» .

واشتدّ مرضه في السادس والسابع والثامن ، ولم يزل متزايداً ، وتَغيّب ذهنه - رحمة الله عليه - . ولما كان التاسع حدثت به رعشةٌ[1] ، وامتنع من تناول المشروب ، واشتدّ الرَّجف في البلد ، وخاف الناس ، ونقلوا الأقمشة من [203 و] الأسواق ، وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته .

ولقد كنتُ أنا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثُه أو قريبٌ منه ، ثم نحضر في باب الدّار ، فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا وإلا تعرّفنا أحواله وانصرفنا . وكنّا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا حتى تُقرأ أحواله من صفحات وجوهنا .

ولما كان العاشر من مرضه حُقن دفعتين ، وحصل من الحُقنة راحة وحصل بعض الخفّ ، وتناول من ماء الشعيرِ مقداراً صالحاً ، وفرح الناس فرحاً شديداً . فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع ، ثم أتينا باب الدّار فوجدنا جمال الدولة إقبالاً ، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدّدة ، فدخل ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظّم تورانشاه - جبره الله تعالى - يقول : «إن العَرَق قد أخذ في ساقيه» . فشكرنا الله تعالى على ذلك ، والتمسنا منه أن يمسّ بقية بدنه ، ويخبرنا بحاله في

(1) في طبعة مصر : حدثت عليه غشية .

العَرَق ، فافتقده ثم خرج إلينا ، وذكر أن العَرَق سابغ ، فشكرنا الله تعالى على ذلك ، وانصرفنا طيّبةً قلوبُنا .

ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه ، وهو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا بالباب ، وسألنا عن الأحوال ، فأُخبرنا أن العَرَق أفرط حتى نفذ في الفَرش ، ثم في الحُصْر ، [203 ظ] وتأثّرت به الأرض ، وأن اليُبس قد تزايد تزايداً عظيماً ، وخارَت القوّة واستشعر الأطباء [1] .

ذكر تحليف الملك الأفضل الناس

ولما رأى الملك الأفضل ما حلّ بوالده ، وتحقّق اليأس منه ، شرع في تحليف الناس ، وجلس ، في دار رضوان [2] المعروفة بسكنه ، واستحضر القضاة ، وعُمل له نسخة يمين مختصرة مُحَصِّلة للمقاصد ، تتضمّن الحلف للسُّلطان مدّة حياته ، وله بعد وفاته ، واعتذر للنّاس بأن المرض قد اشتدّ ، وما نعلم ما يكون ، وما نفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك .

فأول من استحضر للحلف سعد الدِّين مسعود أخو بدر الدِّين مودود – الشّحنة – فبادر إلى اليمين من غير تشرُّط . ثم استحضر ناصر الدِّين صاحب صهيون ، فحلف ، وزاد أن الحصن الذي في يده له . وحضر سابق الدِّين صاحب شَيْزَر ، فحَلَف ، ولم يذكر الطلاق ، واعتذر بأنه ما حَلَف به . ثم حضر خشترين الهكاري ، وحَلَف . وحضر نُوْشروان الزّرْزاري وحَلَف ، واشترط أن يكون له خبزٌ يرضيه . [وحضر] علكان ومَنْكَلان وحَلَفَا . ثم مُدَّ الخُوان ، وحضر الجماعة [204 و] وأكلوا .

---

(1) في طبعة مصر : وحارت في القوّة الأطباء . وهو غلط واضح .

(2) دار رضوان كانت بقلعة دمشق ، راجع الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة لعزّ الدين ابن شدّاد ، الجزء الأول في تاريخ مدينة دمشق وخططها ، 1 : 39 .

ولما كان العصر أُعيد مجلس التحليف ، وأُحضر ميمون القصري وشمس الدِّين سُنْقُر الكبير وقالا : «نحن نحلف بشرط أن لا نسلَّ في وجه أحد من إخوتك سيفاً ، لكنّ رأسي دون بلادك» - هذا قول ميمون القصري - ؛ وأما سُنْقُر فإنه امتنع ساعة ، ثم قال : كُنتَ حلّفتني على النَّطرون ، وأنا عليها . وحضر سامة [1] ، وقال : ليس لي خبز ، فقُلْ لي على أي شيء أحلف ؟ فروجع ، فحلف وعَلَّقَ يمينه بشرط أن يُعطى خُبزاً يرضيه . وحضر سُنْقُر المشطوب ، وحَلَف ، واشترط أن يُرضى . وحَضر اليكي الفارسي ، وحَلَف [2] . وحضر أيبك الأفْطَس وحَلف واشترط رضاه ، ولم يحلف بالطلاق . وحضر أخو سيَارُوخ ، وحَلف واشترط رضاه . وحضر حسام الدِّين بشارة ، وحَلف - وكان مُقَدَّماً على هؤلاء . ولم يحضر أحدٌ من الأمراء المصريين ، ولم يُتعرَّض لهم ، بل حَلَف هؤلاء النَّفَر . وربّما شذَّ منهم غير معروف [2] .

ونسخة اليمين المحلوف بها وفصولها :

الفصل الأول : «إنني من وقتي هذا قد أصفيتُ نيّتي ، وأخلصتُ طويّتي للملك النّاصر مُدّة حياته ، وإنني لا أزال باذلاً جهدي في الذَّبّ عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، ممتثلاً أمره ، واقفاً عند مَرَاضيه ، ثم [204 ظ] من بعده لولده الملك الأفضل عليّ ؛ ووالله إنني في طاعته ، وأذُبُّ عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي [ورجالي] ، وأمتثل أمره ونهيه ، وباطني وظاهري في ذلك سَوَاءٌ ، والله على ما أقول وكيل» . ثم فصل التخريج .

هذه نسخة اليمين المحلوف بها ، أعني مقاصدها [2] .

---

(1) هو سامة الجبلي ، أحد قوّاد صلاح الدين ، و سامه اسم كردي (بكسرة مُمالة) . ذكر النُّعيمي في الدارس (1 : 206) نقلاً عن البداية والنهاية لابن كثير (حوادث 655 هـ) أن المدرسة البادرائيّة بدمشق بُنيت موضع دار كانت للأمير سامة صاحب قلعة كَوْكَب ، الذي قبض عليه الملك العادل ، وأخذ منه ألف ألف دينار ، وخرّب قلعة كوكب .

(2) هذه العبارة ساقطة من طبعة مصر .

ذكر وفاته - رحمة الله عليه -
وقدّس الله روحه وأحسن خَلَفه للمسلمين

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وهي الليلة الثانية عشرة من مرضه - رحمة الله عليه - اشتدّ مرضُه ، وضعفت قوّته ، ووقع في أوائل الأمر من أول الليل ، وحال بيننا وبينه النِّساء ، واستُحضرتُ أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزَّكي ، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت .

وعرض علينا [1] الملك الأفضل أن نبيتَ عنده ، فلم يَرَ القاضي الفاضل ذلك رأياً ، فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف أن لا ننزل فيقع الصّوت في البلد ، وربما نهب الناس بعضُهم بعضاً ، فرأى المصلحة في نزولنا ، واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاّسة ، وهو رجل صالح يبيت في القلعة ، حتى إن احتضر - رحمة [205 و] الله عليه - بالليل حضر عنده ، وحال بينه وبين النساء ، وذُكِّر بالشهادة وذكر الله تعالى ، ففعل ، ونزلنا وكل منا يودّ فداءه بنفسه .

وبات في تلك الليلة - رحمة الله عليه - على حال المُنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكّره بالله تعالى ، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع ، لا يكاد يفيق إلا في الأحيان . وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى : ﴿هو اللّه الذي لا إلهَ إلا هُوَ عالمُ الغيب والشّهادة﴾ [2] ، سمعه وهو يقول - رحمة الله عليه - : «صحيح !» ؛ وهذه يقظةٌ في وقت الحاجة ، وعنايةٌ من الله تعالى به ، فللّه الحمدُ على ذلك .

* * * * *

---

(1) في طبعة مصر : وحضر بيننا .
(2) سورة الحشر - 22 .

وكانت وفاتُه – رحمة الله عليه – بعد صلاة الصّبح من يوم الأربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته – رحمة الله عليه – ووصلتُ وقد ماتَ ، وانتقل إلى رضوان الله ومحلِّ كرامته .

ولقد حُكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : ﴿لا إله إلا هُو عليه توكّلت﴾ ، تبسَّم وتهلّلَ وجهُهُ وسَلَّمها إلى ربّه . وكان يوماً لم يُصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقد الخلفاء الرّاشدّون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلا [205 ظ] الله تعالى . وبالله لقد كنتُ أسمع من بعض الناس أنهم يتمنّون فداء مَن يعزّ عليهم بنفوسهم ، وما سمعتُ هذا الحديث إلا على ضَرب من التجوّز والترخّص إلى ذلك اليوم ، فإني علمتُ من نفسي ومن غيري أنه لو قُبل الفداء لفُدي بالنفس .

ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء في الإيوان الشمالي [1] ، وحُفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعمّمين ، وكان يوماً عظيماً قد شَغَل كلَّ إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره ، وحُفظ المجلس عن أن يُنشد فيه شاعر أو يتكلّم فيه فصّال أو واعظ . وكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس [2] ، فتكاد النفوس تزهق لهَوْل منظرهم .

ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر ، ثم اشتُغل بتغسيله وتكفينه ، فما مُكّنا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبّة واحدة إلا بالقَرْض ، حتى في ثمن التّبن الذي يُلَتُّ به الطين . وغَسَلَهُ الدَّوْلَعي الفقيه ، ونُدبتُ إلى الوقوف على غَسْله ، فلم يكن لي قوّةُ تحمُّل ذلك المنظر .

---

(1) أي بالقلعة ، كما أسلفنا ، وكانت مُقام السُّلطان بدمشق ، وفيها دُفن أولاً .

(2) تجدر الإشارة هنا إلى أن السُّلطان صلاح الدين قد لقي وجه ربّه غير مسنّ ، عن عمر يُناهز الخامسة والخمسين (57 سنة قمرية) ، فلا يُلام في الحزن عليه أحد ، ناهيك عما كان أرساه في قلوب الجميع من المحبّة والمودّة والاحترام لذاته .

وأُخرج بعد صلاة الظهر – رحمة الله عليه – في تابوت مُسجّىً بثوب فوط ، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وَجْه حلٍّ عرفه . [206 و] وارتفعت الأصوات عند مُشاهدته ، وعَظُم الضجيج ، حتى إنَ العاقل يتخيَّل أن الدنيا كلّها تصيح صوتاً واحداً ، وغشي الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة (1) ، وصلّى عليه الناس أرسالاً ، وكان أوّل من أمَّ بالناس القاضي محيي الدِّين بن الزَّكي .

ثم أُعيد – رحمة الله عليه – إلى الدَّار التي في البستان ، وكان متمرّضاً بها – رحمة الله عليه – ودُفن في الصُّفّة الغربية منها ، وكان نزوله في حُفرته – قدّس الله روحه ونوَّر ضريحه – قريباً من صلاة العصر .

ثم نزل في أثناء النهار ولدُه الملك الظافر ، وعزَّى الناس فيه وسكَّن قلوب الناس ، وكان الناس قد شغلهم البكاء عن الاشتغال بالنّهب والفساد ، فما يوجد قلبٌ إلا حزين ، ولا عينٌ إلا باكية ، إلا من شاء الله ، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع ، ولم يَعُد منهم أحد في تلك الليلة ؛ إلا أنّا حضرنا ، وقرأنا ، وجدّدنا حالاً من الحُزن .

واشتغل ذلك اليوم الملكُ الأفضلُ بكَتْب الكُتُب إلى عمّه وإخوته يُخبرهم بهذا الحادث . وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوساً عاماً . وأُطلق بابُ القلعة للفقهاء والعلماء ، وتكلّم المتكلمون ، ولم يُنشد شاعر ، ثم انفضّ المجلس [206 ظ] في ظهيرة ذلك اليوم ، واستمرّ الحال في حضور الناس بُكرة وعشيّة لقراءة القرآن ، والدُّعاء له – رحمة الله عليه – . واشتغل الملك الأفضل بتدبير أمره ، ومراسلة إخوته وعمه .

ثُمَّ انقضتْ تلكَ السُّنونُ وأهلُها فكأنّها وكأنّهمْ أحلامُ (2)

---

(1) النص في طبعة مصر : وعظم من الضجيج والعويل ما شغلهم عن الصلاة .
(2) البيت من قصيدة معروفة لأبي تمّام يمدح بها المأمون ، راجع ديوانه 3 : 152 .

وصلّى الله على سيدنا محمد نبيّه وعلى آله .

هذه أخبار الملك النّاصر أبي المظفّر يوسف بن أيّوب – رحمة الله عليه – فرغتُ من جمعها يوم وفاته [1] – رحمة الله عليه – ، وقصدتُ بذلك وجه الله تعالى في حثّ الناس على التّرحُّم عليه ، وذكر محاسنه ، والله يُحسن خلافته من بعده ، ويجزيه ما هو أهلُه ، بمحمّد وآله ، وحَسْبُنا الله ونعمَ الوكيل [2] .

* * * * *

(1) هذا نص هام يشير إلى التاريخ الذي فرغ فيه المؤلف من تصنيف كتابه هذا . وإن كان ، كما رأينا ، قد تابع فيه بالتعديل والإضافة إلى مابعد هذا التاريخ بـ 37 عاماً ، كالتّرحّم على بعض أفراد البيت الأيوبي ممّن وقعت وفاتهم متأخّرة ، في القرن السابع . ثم رأينا المؤلف وهو يذكر القُدس الشّريف بعبارة : «يسّر الله فتحها» ، ممّا يدلّ على أن هذه العبارة كُتبت في عام 626 هـ (= 1229 م) أو بعده ، وكانت القُدس سُلّمت في هذا العام للآتين ، بموجب معاهدة سلام بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور فريدريك الثاني ملك ألمانيا وقائد الحملة الصّليبية الخامسة . وبقيت القُدس في أيدي الفرنجة 15 عاماً ، إلى أن انتزعها من أيديهم الخوارزمية عام 1244 م ، فما عادوا يحلمون بعدُ بمُلكها .
والطّريف ، أننا بعدما خلُصنا إلى هذه النتيجة ، عن طريق الاستقراء المنطقي ، وجدنا الناسخ يذكر بعد وريقات : «ووافق الفراغ منه . . سنة 626» ، فتمّ بذا المُراد !

(2) هذه الفقرة الختامية غير موجودة في طبعة مصر ، إنما بدلاً منها عبارة ختامية مغايرة :
«تمّ بعون الله ، والحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وسلامٌ على المُرسلين ، والحمدُ لله ربّ العالمين» .
وأما ما يلي ذلك من النص هنا فتنفرد بذكره نسخة الأصل ، أي مخطوطة الحَرَم القُدسي الشّريف ، ولهذا النص أهميته الكبرى ، على اعتباره يحدّد تاريخ كتابة النسخة ، نقلاً عن خط المؤلف (كما هو واضح) ، في خلال حياته . وفيها ما يدلّ على مقابلة هذه النسخة على أصل المؤلف بعد نسخها (عبارة : قوبلت بالأصل من أوّلها إلى آخرها) .
كما أن هناك زيادة أخرى مفيدة ، في الفصل التالي الذي أحصى فيه المؤلف أسماء المدن والقلاع التي فتحها صلاح الدين ، في المدّة من سنة 583 إلى 586 هـ .

قال مولانا الصّاحب المصنِّف ، أدام الله عُلوّه [1] :

ذكر المدن والحصون التي يَسَّر الله فتحها على يديه
- رحمة الله عليه - من ديار الفرنج - خذلهم الله تعالى -
من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين [2]

طَبَرَيَّة على بحر الأردن بالسَّيف ؛ عكّا على البحر الكبير بالأمان ؛ حيفا على البحر بالأمان ؛ النّاصرة التي تُنسب إليها النَّصَارى ؛ الرَّمْلة ؛ قَيْسارية بالسَّيف ؛ [207 و] أرسوف بالأمان ؛ يافا بالسَّيف «مدينتُها» ؛ عَسْقَلان بالأمان ؛ غَزَّة بالأمان ؛ الدَّارُوم ؛ صَيْدا على البحر ؛ بَيْرُوت بالأمان ؛ جُبَيْل ؛ هُونين ؛ جَبْلية ؛ تبْنين ؛ أنطرسوس «دون أخذ برجها» بالسَّيف ؛ جَبْلَة «مدينتها بالسَّيف ، وقلعتها بالأمان» ؛ اللاذقية «مدينتها بالسَّيف ، وقلعتها بالأمان» ؛ السَّرَفَنْد ؛ مدينة القُدْس الشَّريف ، خَلَّصه الله تعالى ؛ نابلس ؛ البيرة بأرض القُدْس ؛ صفّورية ؛ الطُّور ؛ حصن دبُّورية ؛ الفُولة ؛ حصن عَفْرَبَلا ؛ حصن جينين ؛ سَفَسْطية ؛ كَوْكَب ؛ حصن عفري «شمالي القُدْس» ؛ بيت لحم ؛ حصن العازريّة بأرض القُدْس ؛ البُرج الأحمر «قريباً منه» ؛ حصن الخليل «عليه السلام» ؛ بيت جبرين ؛ تلّ الصَّافية ؛ حصن مَجْدل يابا ؛ قلعة الجيب الفوقاني ؛ الجيب التّحتاني ؛ النّطرون ؛ الحصن الأحمر ؛ لُدّ بأرض الرَّمْلة ؛ قَلَنْوسة «قريباً منها» ؛ يُبْنى ؛ القَاقُون والقَيْمون ؛ قلعة الكَرَك «بعد حصار سنة ونصف» ؛ قلعة الشَّوْبَك «بعد حصار سنتين» ؛ قلعة السَّلْع ؛ الوعيرة ؛ قلعة الجمع ؛ قلعة الطَّفيلة ؛ قلعة

---

(1) لهذه العبارة أيضاً مدلول كبير وواضح ، فهي تُثبت - بما لا يدع مجالاً للشكّ - أن النسخة المعتمدة قد نُسخت خلال حياة المؤلف ، وكان الفراغ منها عام 626 هـ ، قبل وفاة ابن شدّاد بست سنوات ، أي عام 632 هـ .

(2) تنفرد نسخة القُدس بذكر هذه القائمة ، وهي ليست موجودة في طبعة مصر وما تلاها .

الهُرْمُز «جميع ذلك في وادي مُوسى والسَّراة» ؛ [207 ظ] قلعة صَفَد ؛ حصن يازُوْر ؛ شقيف أرْنُون ؛ حصن إسكندرونة «بين صُوْر وعَكّا» ؛ قلعة أبي الحُسْن «بأرض صَيْدا» ؛ صَيْدا أيضاً ؛ حصن بلدة بالسّاحل الأعلى ؛ المرقيّة «على البحر» ؛ حصن يَحْمُور بأرض عكّا ؛ بانياس بين جَبْلَة والمَرْقَب ؛ صهيون ؛ بلاطنس ؛ حصن الجماهريّة ؛ قلعة العَيْذُو ؛ بكّاس ؛ الشّغر ؛ بْكسْرَائيل ؛ السُّرْمانية ؛ قلعة بُرْزيّة ؛ دَرْبَسَاك ؛ بَغْرَاس «قريباً من أنطاكية» ؛ الدَّامور بأرض بَيْرُوت ؛ السَّرَفَنْد قريباً من صَيْدا .

* * * * *

آخره ، والحمد لله ربّ العالمين ، وصلواته على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلامه . ووافق الفراغُ منه ثاني عشر رجب المبارك ، سنة ست وعشرين وستمائة [1] ، على يد العبد الفقير إلى رحمة ربه . وحَسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل .

* * * * *

(1) هذا هو ، كما ذكرنا ، النص الذي يؤرخ فيه الناسخ لتاريخ الفراغ من كتابة النسخة ، عام 626 هـ . أي أن النسخة كُتبت في عصر المؤلف وقبل وفاته (عام 632 هـ) ، كما كان ذلك في نفس السنة التي استلم فيها اللاتين القُدس الشّريف من الملك الكامل (1229 م) .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قُوبلتْ بالأصل من أولها إلى آخرها [1] . . .

. . . .

الحمد لله وحده ، والصلاة والسّلام على مَنْ لا نبيّ بعده

اللّهم صَلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم

طالع فيه الفقير إلى الله تعالى . . .

. . . . . . ١٢٧٦

. . . . . .

طالعتُه من أوّله إلى آخره ، أفقر العباد

داعياً لمالكه بطول البقاء وعلوّ الارتقاء

. . . ومَلَكْتُهُ سنة . . .

. . . .

(1) هذه العبارة مكتوبة بنفس خط الناسخ ، بخلاف عبارات المطالعة والتملّك التالية المكتوبة بخطوط مغايرة . ولذا فقيمتها كبيرة ، تدلّ على موثوقيتها وتطابقها مع أصل المؤلف .

[208 و]

بسم الله الرحمن الرحيم

اللّهم صلِّ على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسَلِّم

فهم في بُطون الأرض بعد ظُهورها محاسنُهم فيها بَوالٍ دواثرُ

خَلَتْ دُوْرُهم منهمْ وأقْوَتْ عراصُها وساقتْهُم نحوَ المَنايا المَقادرُ

وخَلُّوا عن الدُّنيا وما جَمَعوا لها وضَمَّتْهُم تحتَ التُّراب الحَفائرُ

للملك داود [1]:

وإنّي إذا ما العزُّ أبدى مودَّتي خداعاً وأخفى الغلَّ بين الأضالعِ

لأُظهر جهلاً بالذي أناعالمٌ بمكنونه فعلَ اللّبيب المُخادعِ

وأغدو إذا ما أمكنَتْني فرصة عليه بماضي الحدِّ أبيضَ قاطعِ

بضربةِ مِقدامٍ ثَبُوتٍ مُجرِّبٍ يُغيِّبُه بين اللُّها والأخادعِ

هكذا الدُّنيا تُذِلُّ و . . . . . .

---

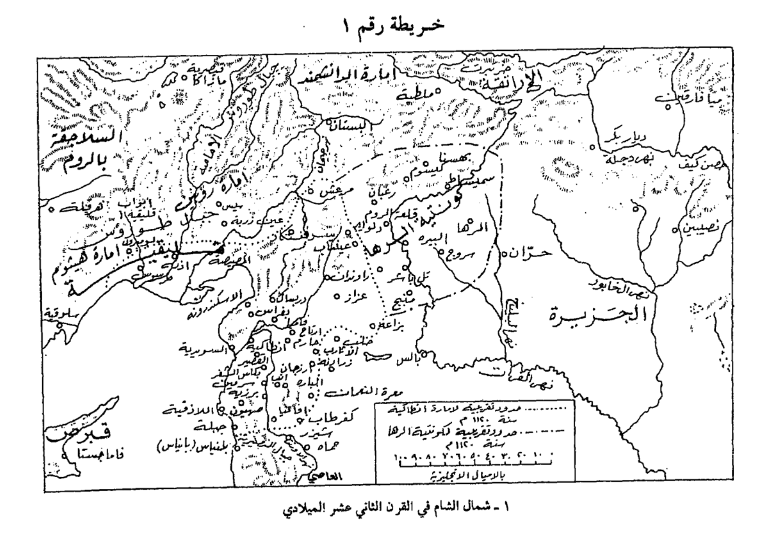
(1) الأبيات للملك الناصر داود بن الملك المعظّم عيسى بن محمد بن أيّوب ، الملقب بصلاح الدين . أحد أفراد البيت الأيوبي ، ولد بدمشق ونشأ بها (603-656 هـ) ، كان شاعراً أديباً ، ملك الكَرَك ، وتوفي بقرية البُوَيضة بالطاعون . وفيات الأعيان ، 1 : 397 .

الخرائط والصور

مسرد مراجع البحث

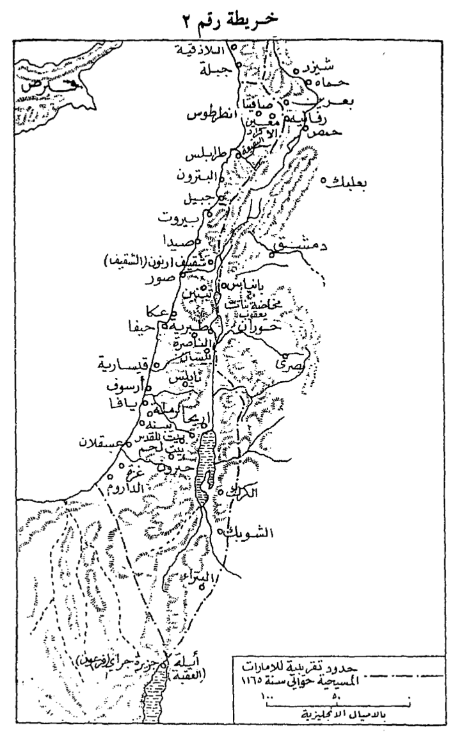
فهارس الكتاب

خريطة رقم ١



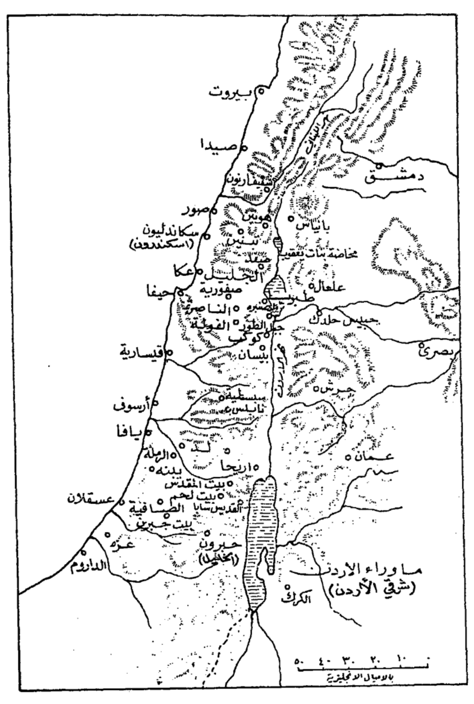
١ ـ شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

خريطة رقم ٢



٢ ـ جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

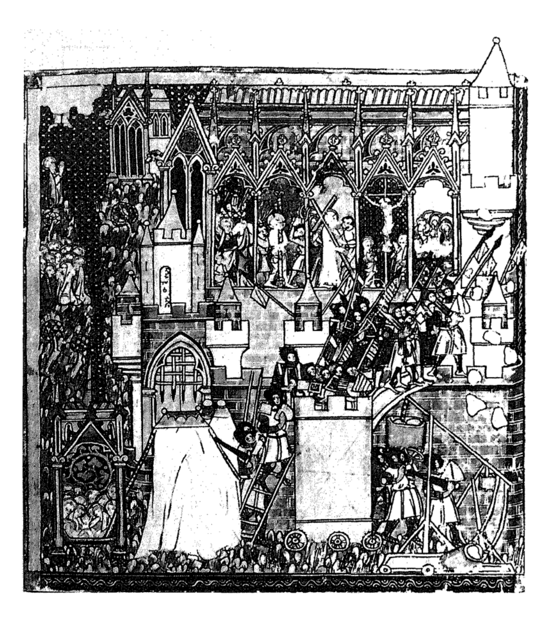
خريطة رقم ٣



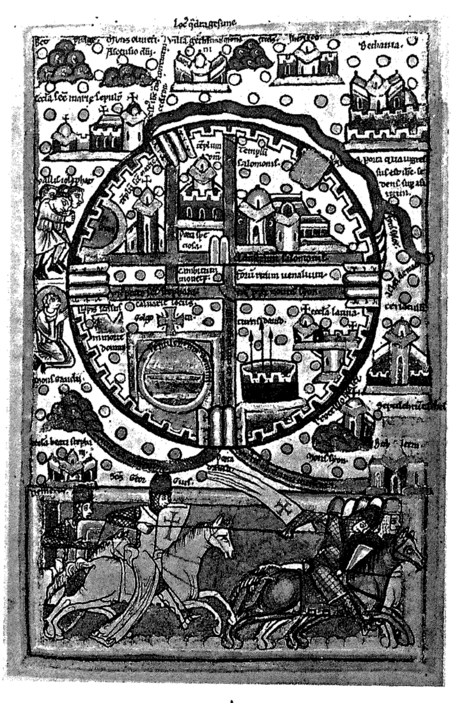
٣ ـ مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر



حصار الصليبيين للقدس عام 1099 م
من مخطوطة فرنسية تعود إلى أواسط القرن الرابع عشر الميلادي



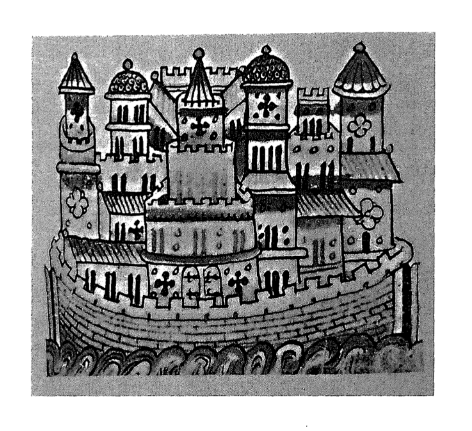
احتلال الصليبيين للقدس عام 1099 م
مخطوطة فرنسية لتاريخ «گيّوم الصوُّري» تعود إلى أواسط القرن الرابع عشر



خريطة لبيت المقدس رُسمت حوالي عام 1170 م
تظهر فيها أهم أماكنها المقدّسة



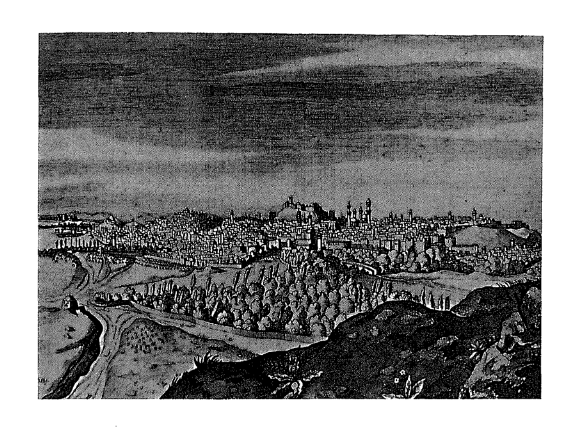
نُقيشة قديمة بشكل خريطة للقدس الشريف
من أواخر القرون الوسطى



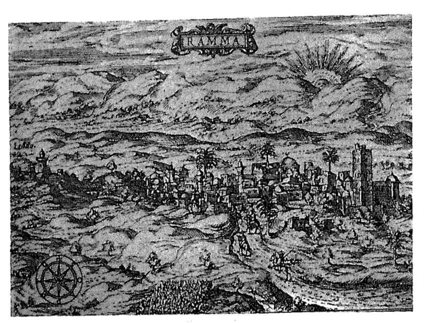
دمشق إبّان الحروب الصليبية

صورة رمزية من مخطوطة فرنسية تعود إلى حوالي عام 1240 م :

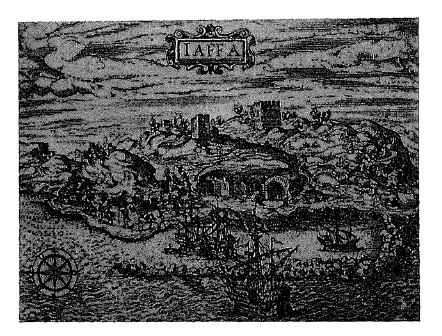
Mathieu Paris: *Historia Major*, tome II



صورة قديمة تمثّل مدينة حلب
نُقيشة نادرة تعود إلى القرن الثامن عشر



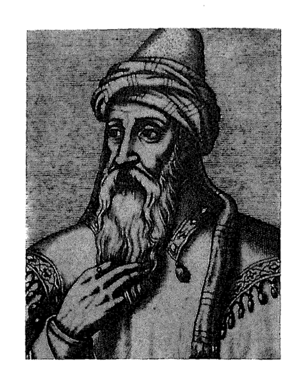
نُقيشة قديمة للرّملة ، من أواخر القرون الوسطى



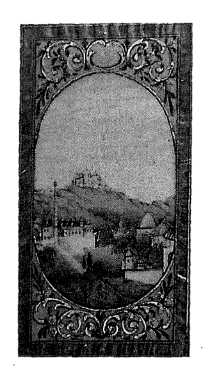
نُقيشة قديمة ليافا ، من أواخر القرون الوسطى



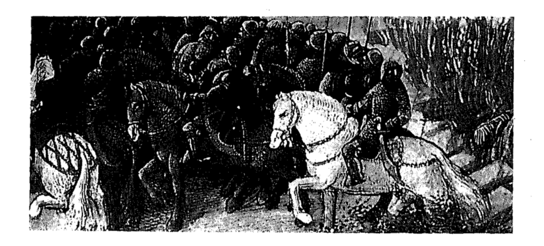
صورة افتراضية للسّلطان النّاصر صلاح الدّين
من عمل فنّان إيراني ، من مخطوطة تعود إلى عام 1180 م



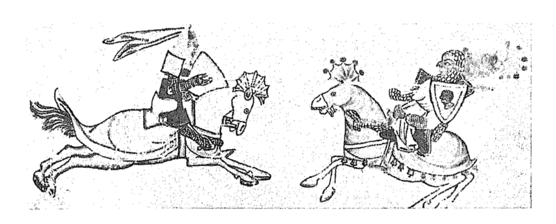
صورة شخصية لصلاح الدّين
نُقيشة من القرن الثامن عشر



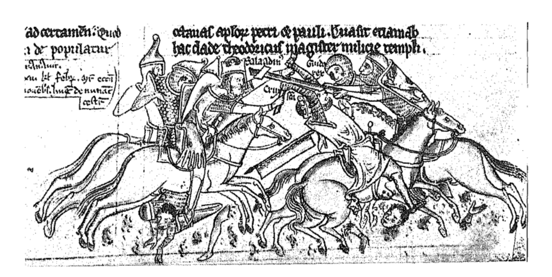
لوحة منمنة للقُدس الشريف
تعود إلى القرون الوسطى



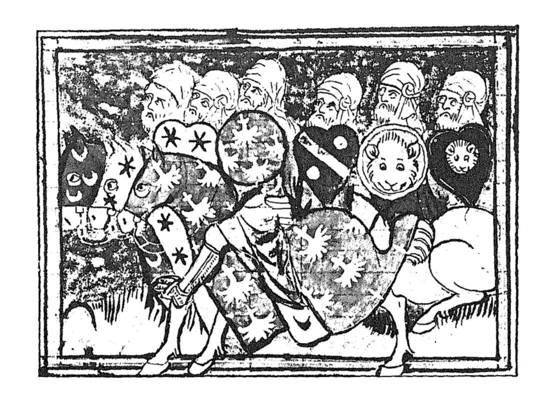
صورة قديمة يظهر فيها السّلطان الناصر مع كتيبة من خيّالته



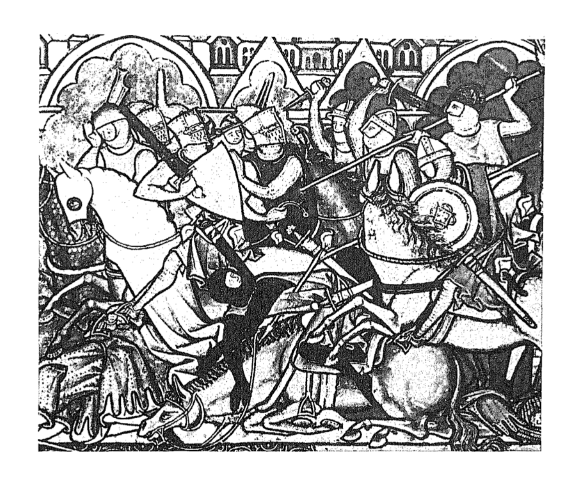
صورة افتراضية قديمة من مخطوط سفر مزامير «لوترل» *Luttrell Psalter*
تمثّل معركة بين السّلطان النّاصر صلاح الدّين والملك ريتشارد قلب الأسد



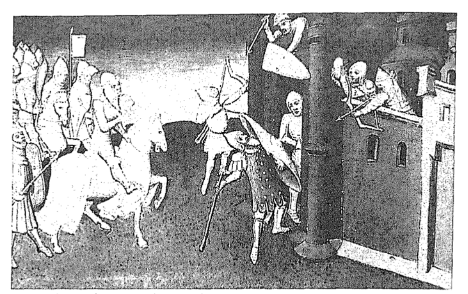
معركة حطّين ، مشهد لتغلّب السّلطان النّاصر على ملك القدس گي دی لوزينيان
من مخطوطة فرنسية تعود إلى حوالي عام 1240 م :
Mathieu Paris: *Historia Major*, tome I



صورة قديمة تمثّل خيّالة السّلطان النّاصر صلاح الدّين ، من مخطوطة فرنسية تعود إلى حوالي عام 1337 م : «حكايات گودفروا دى بويّون وصلاح الدّين»
Les Romans de Godefroi de Bouillon et de Salehadin



صورة قديمة تمثّل جيشاً صليبياً يندحر أمام هجمات الخيّالة المسلمين
عن مخطوطة إنجيل «مايكوفسكي» Majiekowski
من مطلع القرن الثالث عشر الميلادي



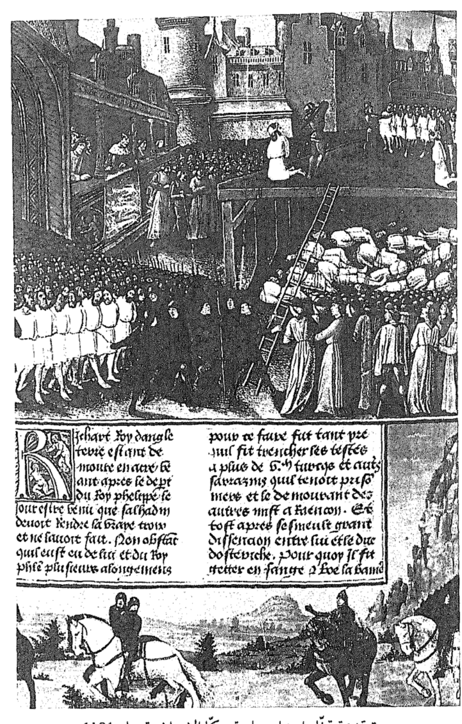
رسم من القرون الوسطى ، يبدو فيه السّلطان النّاصر (بالدّرع السّابغة)
وهو يباشر القتال بنفسه على أسوار بيت المقدس



لوحة رمزية تمثّل استسلام أعيان الصليبيين للسّلطان النّاصر
في بيت المقدس عقب تحريرها



صورة قديمة تمثّل الملك ريتشارد قلب الأسد على أبواب عكّا
عن مخطوطة تعود إلى القرن الثالث عشر



Richart roy dangle
terre estant de
moure en acre / re
ant apres le dept
du roy phelippe le
jour estre venu que salhadin
devoit rendre la vraye croix
et ne lavoit fait. Non obstant
quil eust eu de lui et du roy
phe plusieurs alongemens

pour ce faire fut tant pre
quil fit trencher les testes
a plus de v.m turcs et autz
sarrazins quil tenoit priso
niers et le demourant des
autres mist a raencon. Et
tost apres se meust grant
dissencion entre lui et le duc
dostriche. Pour quoy il fit
getter en fange la banie

صورة قديمة تمثّل إعدام حامية عكّا الإسلامية عام 1191 م
بحضور الملك ريتشارد ، مخطوطة فرنسية من القرن الخامس عشر :
Livre des Passages d'Outremer



إكليل غار مصنوع من معدن البرونز ، قدّمه امبراطور ألمانيا ڤلهلم الثاني
لضريح صلاح الدّين إجلالاً لذكراه ، عند زيارته لدمشق عام 1898
ثم سرقه عام 1918 «لورنس العرب» إبّان دخول الإنكليز دمشق
في الحرب العالمية الأولى ، وهو اليوم في المتحف الحربي الإمبراطوري بلندن

يرمز شعار الإمبراطور IRW II باللاتينية إلى : ملك ألمانيا ڤلهلم الثاني
يلي ذلك كتابتان ، بالعربية (في الأعلى) ، وبالتركية (في الحواشي) ، هما :

هذا التاج مقدّم من طرف صاحب الحشمة والعظمة إيمپراطور ألمانيا حضرت ولهلم الثاني
تذكاراً لزيارة قيصر المشار إليه تربة حضرت صلاح الدّين أيوبي ، رحمة الله عليه رحمة واسعة
سـنة 1315 الموافق سـنة 1898

اشبو تاجى المانيا ايمپراتورى حشمتلو ايكنجى ويلهلم حضرتلرى صلاح الدين ايوبى حضرتلرينك
تربه شريفه لر يانه ذكار زيارتلرى اولمق اوزره وضع وإهدا . سنه 1315 بيورمشلردر سنه 1898

مسرد مراجع البحث

أولاً : المراجع العربية والمعرّبة

- اتّعاظ الحُنفا في أخبار الأئمّة الفاطميين الخُلفا : لتقي الدّين المقريزي ، تحقيق الدكتور جمال الدّين الشيّال ، القاهرة 1948 .

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة : لعزّ الدّين ابن شدّاد ، تحقيق دومينيك سورديل وسامي الدّهان ، منشورات المعهد الفرنسي بدمشق 1953-1962 .

- البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ، مصر 1351-1358 هـ .

- البرق الشامي : للعماد الأصفهاني الكاتب ، الجزء 3 و 5 ، نشرة د. مصطفى الحياري و د. فالح صالح حسين ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمّان 1987 .

- التاريخ الباهر في الدّولة الأتابكيّة : لابن الأثير الجزري ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة 1963 .

- تاريخ بيروت : لصالح بن يحيى ، نشرة لويس شيخو ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت 1927 . وطبعة فرنسيس هورس وكمال صليبي ، دار المشرق ، بيروت 1969 .

- تاريخ الدّول والملوك : لابن الفُرات ، تحقيق حسن الشمّاع ، البصرة 1976 .

- تبصرة أرباب الألباب : مرضي بن علي الطرسوسي ، نشره المستشرق الفرنسي كلود كاهن ، مجلة المعهد الفرنسي بدمشق 1947-1948 .

- تتمّة المختصر في أخبار البشر : لابن الوردي ، مصر 1285 هـ .

- الحروب الصليبية ، صراع الشرق والغرب : رنيه گروسّيه ، ترجمه عن الفرنسية وعلّق عليه أحمد إيبش ، دار قتيبة بدمشق 2002 .

- حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام ، صفحات مفقودة تُنشر للمرّة الأولى من كتاب «مفاكهة الخلاّن في حوادث الزمان» : لابن طولون الصالحي ، تحقيق أحمد إيبش ، دار الأوائل بدمشق 2002 .

– الدّارس في تاريخ المدارس : لعبد القادر النعيمي ، تحقيق الأمير جعفر الحسني الجزائري ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق 1948–1951 .
– دمشق الشام في نصوص الرّحالين والجغرافيين العرب والمسلمين : أحمد الإيبش ود. قتيبة الشهابي ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1996 .
– السُّلوك لمعرفة دول الملوك : للمقريزي ، تحقيق مصطفى زيادة ، القاهرة 1934–1942 .
– سنا البرق الشامي : للفتح البنداري ، تحقيق الدكتور رمضان ششن ، دار الكتاب الجديد ، بيروت 1971 . طبعة أخرى بتحقيق الدكتورة فتحية النّبراوي ، مكتبة الخانجي بمصر ، القاهرة 1979 .
– صُبح الأعشى في صناعة الإنشا : للقَلْقَشَنْدي ، الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية 1918–1922 .
– صلاح الدّين الأيوبي ، دراسات في التاريخ الإسلامي : لهاملتون كب ، حرّرها د. يوسف إيبش ، الطبعة الثانية ، دار بيسان ، بيروت 1996 .
– العبر في خبر من غبر : للحافظ الذهبي ، تحقيق صلاح الدّين المنجد وفؤاد سيّد ، الكويت 1960–1966 .
– الفتح القسّي في الفتح القُدسي : للعماد الأصفهاني ، تحقيق محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة 1965 .
– القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية : لابن طولون الصّالحي الدمشقي ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق 1949–1956 .
– قوانين الدّواوين : لابن مماتي ، تحقيق عزيز سوريال عطيّة ، القاهرة 1943 .
– الكامل في التاريخ : لابن الأثير الجزري ، طبعة القاهرة 1348 هـ .
– كتاب الاعتبار : لأسامة بن مُنقذ ، تحقيق فيليب حتّي ، برنستون 1930 .
– كتاب الخَراج : لقُدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، نُبذ ملحقة بكتاب المسالك والممالك لابن خُرداذبه ، نشرة دى خويّه ، لايدن 1889 .
– كتاب الرّوضتين في أخبار الدولتين : لأبي شامة المقدسي ، مصر 1287 هـ .
– كشف الأسرار العلمية بدار الضّرب المصرية : لمنصور بن بعرة الذّهبي الكاملي ، تحقيق عبد الرّحمن فهمي ، القاهرة ، 1966 .
– لسان العرب : لابن منظور الأفريقي ، دار صادر ، بيروت 1955–1956 .

- المختصر في أخبار البشر : للملك المؤيّد أبي الفداء ، مصر 1325 .
- مرآة الزّمان في تاريخ الأعيان : لسبط ابن الجوزي ، حيدر أباد الدّكن ، 1951 .
- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة : للمستشرق زامباور ، تحرير الدكتور زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة 1951 .
- معجم البلدان : لياقوت الحموي ، دار صادر ، بيروت 1955-1957 .
- المُعرّب : للجواليقي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار الكتب المصرية 1938 .
- مفاتيح العلوم : للخوارزمي ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة 1342 هـ .
- مُفرِّج الكروب في أخبار بني أيوب : لابن واصل الحموي ، تحقيق الدكتور جمال الدّين الشيّال ، القاهرة 1953-1960 .
- مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي وافي ، القاهرة 1957-1962 .
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك : لابن الجوزي ، حيدر أباد الدّكن 1357 هـ .
- وفيات الأعيان : لابن خلّكان ، تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد ، القاهرة 1948 . وطبعة أخرى بتحقيق د. إحسان عبّاس ، بيروت 1968-1972 .

ثانياً : المراجع باللغة الفرنسية

Ambroise: *L'Estoire de la Guerre Sainte*, ed. G. Paris, Paris, 1897.

Cahen, Claude: "Un Traité d'Armurerie Composé pour Saladin", Extrait du *Bulletin d'Etudes Orientales*, IFD, Damas, Tome XII, 1947-1948.

Dozy, R.: *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, Leiden, 1851.

Dussaud, R.: *Topographie Historique de La Syrie Antique et Médiévale*, Paris, 1927.

Elisséeff, Nikita: *Nur ad-Din, un grand prince musulman au temps des croisades*, IFD, Damas, 1967.

Ernoul: *Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier*, ed. L. de Mas Latrie, Paris, 1871.

Estoire d'Eracles, Recueil des Historiens des Croisades: Historiens Occidentaux I-II.

Grousset, René: *Histoire des croisades et du royaume franc de Jérusalem*, Paris, 1934-6.

ثالثاً : المراجع باللغة الإنكليزية

Ehrenkreutz, A.S.: "Extracts from the Technical Manual on the Ayyubid Mint in Cairo", *B.S.O.A.S.* vol. XV (1953), pp. 424-447.

Ehrenkreutz, A.S.: "The Standard of Fineness of Gold Coins Circulating in Egypt at the Time of the Crusades." *Journal of the American Oriental Society*. vol. 74, No. 3, July-Sept. 1954, pp. 162-166.

Gibb, H.A.R.: "The Arabic Sources for the Life of Saladin", *Speculum*, XXV (1950), pp. 58-72.

Runciman, S.: *A History of the Crusades*, Penguin Classics, London 1981.

Lane-Poole, Stanley: *The Mohammedan Dynasties*, Paris, 1925.

Lane-Poole, Stanley: *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem*, London 1898.

Lewis, B.: "Saladin and the Assassins", *B.S.O.A.S.*, vol. XV (1953).

Lyons, M.C. & Jackson, D.E.P: *Saladin, the Politics of the Holy War*, Cambridge University Press, Cambridge 1982.

Setton, K.M.: *A History of the Crusades*, Philadelphia 1968.

رابعاً : المراجع باللاتينية والإيطالية والألمانية

Anonymus: *Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi*, ed. by W. Stubbs, Rolls Series, London, 1864.

Gabrieli, Francesco: *Storici Arabi delle Crociate*, Giulio Einaudi Editore S.p.A., Torino 1957.

Guillaume de Tyr: *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum*, dans: Recueil des Historiens des Croisades: Historiens Occidentaux I-II.

Mayer, Hans Eberhard, *Geschichte der Kreuzzüge*, W. Kohlhammer GmbH, Stuttgart, 1965.

Möhring, H.: *Saladin und die Dritte Kreuzzug*, Frankf. Hist. Abh., 21, 1979.

* * * * *

الفهرس العام

لأسماء الأعلام والأماكن

الواردة في متن الكتاب

جرت العادة في الكتب العربية المحقّقة فصل فهارس الأعلام عن فهارس الأماكن ، وثمّة من يُفرد فهارس للأقوام فضلاً عن الأعلام ، مما يستلزم بالنتيجة من القارئ جهداً مضنياً للعثور على ضالّته . لكننا نؤثر دوماً في مؤلفاتنا وتحقيقاتنا جمع الفهرسين معاً ، كيما تعمّ الفائدة وتتيسّر .

* * * * *

فهرس الكتاب

القسم الأول : في ذكر
مولده وخصائصه وأوصافه وشمائله وخِلاله

القسم الثاني :
في تقلّبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريخها

* * * * *

من منشورات

الأوائل

للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية

❖ **الحقيقة بين النبوءة والسياسة، تأليف : محمد نضال الحافظ ط1 2003 قياس24/17 عدد الصفحات 400.**
هل كان انهيار برجي مركز التجارة العالمي نبوءة؟ ما مصير من دعا إلى ضرب مكة المكرمة بقنبلة نووية؟ ما هي العلاقة بين العراق الآن وبابل زمن نبوخذ نصر؟ ما قصة النبوءات في آخر الزمان؟ ما هي تلك النبوءات الإنجيلية والتوراتية والقرآنية ؟ وما علاقتها بالسياسة العالمية ؟ ماذا يفعل اليهود والمسيحيون والمسلمون تجاه نبوءاتهم ؟ تعرّف الحقيقة المذهلة من خلال كتاب الحقيقة بين النبوءة والسياسة .

❖ **أم القرى مؤتمر النهضة الإسلامية الأول، عبد الرحمن الكواكبي، تحقيق : د. محمد جمال طحان ط1 2002 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 232.**
الكواكبي واحد من أجدادنا الأفذاذ؛ رُوَّاد النهضة الذين حاولوا النهوض بالواقع إيماناً منهم بمسؤوليّة العلماء في توعية الناس ليقدروا على المطالبة بحقوقهم بعد أن يدركوا أنّهم بشر أحرار في صنع مصائرهم . مما نادى به الكواكبي في كتابه هذا : يجب ألاّ يصرّ أحد على رأيه الذاتي ، وألا يمانع في العدول عن خطئه - سبب الفتور هو تحوّل السياسة الإسلامية من ديمقراطية إلى ملكية مقيدة ، ثم إلى ملكية مطلقة - إن البليّة هي فقدنا الحرية ، حرية التعليم والخطابة والمطبوعات والمباحثات - كأنَّ مجرّد كون الأمير مسلماً يغني حتى عن العدل ، وكأنّ طاعته واجبة ولو كان يخرّب البلاد ، ويظلم العباد - إنّ طاعة أولي الأمر واجبة ، ولكنْ مع العدل ، فالحاكم العادل الكافر أفضل من المسلم الجائر وأولى بحكم المسلمين - صرنا نتبع الأشخاص بدلاً من التمسّك بديننا الحنيف - إن المنشأ لكل فساد هو انحلال السلطة القانونية وتسلّط فرد عليها ، فضلاً عن دخول ديننا تحت ولاية العلماء الرسميين أي الجهّال المتعممين - إن الاقتصار على العلوم الدينية يُضعفُ المسلمين ، ولابد من دراسة العلوم الرياضية والطبيعية أيضاً - إذ ترك الخطباء التحدّث في الأمور العمومية ، وعدّوا ذلك لغواً . وهكذا تأصّل فينا فَقْدُ الإحساس - إنّ السبب الأكبر للفتور هو تكبّر الأمراء وميلهم إلى العلماء المتملّقين المنافقين الذين يزيّنون لهم الاستبداد - إن أفضل الجهاد هو الحطُّ من قدر العلماء المنافقين عند العامة ، وتحويلهم لاحترام العلماء العاملين حتى لا يلبث أن يحترمهم الأمراء أيضاً ويأخذون بآرائهم . وهكذا؛ نجد أن أم القرى واحد من الكتب المذهلة ، إنْ حذفنا منه تاريخ تأليفه ، فلن نشكّ لحظة واحدة ، في أنّه قد أُنجز تواً ، وخصوصاً أنّ صاحبه قد وقّعه باسم السيد الفراتي .

❖ **القرآن وتحديات العصر، تأليف : محمد الراشد ط1 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات 288.**
الإسلام الحضاري النابع من معطيات الوحي ممثلاً بالقرآن الكريم ...إسلام الانفتاح على طول امتداد الزمان السرمدي ليعم الخير كل بني الإنسان ...إسلام الحوار المفتوح بعيداً عن التمذهب والتشرذم والطائفية . . إسلام الانطلاق على محاور ...الوحي والعلم والعقل والحب ، ذلكم هو الصوت الذي يحمل لواءه المؤلف بعد رحلة الشك ومغامرة التمرد والإلحاد ليرسو في نهاية المطاف على شواطئ الإيمان المعقول الذي ينسج الحلم الأزلي على طول امتداد التاريخ . . حلم ميلاد الإنسان الحضاري مجدداً على سطح قريتنا الصغيرة الأرض . وهذا لا يتم ما لم ندرك أبعاد القرآن بمنطق العقل والعلم وإسدال الستار على المفاهيم الضبابية الخاطئة البعيدة عن منطق القرآن والتي لم تعد قادرة على مواكبة العصر . ولا يكتفي المؤلف بمناقشة عدد من المستشرقين والمفكرين الغربيين الذين أساؤوا إلى القرآن عن سوء فهم أو عن سوء طوية فحسب ، وإنما يسارع إلى تأكيد السقوط الأمريكي الموعود على ضوء المستقبل المنظور ، من خلال رؤيته لمنطق التاريخ واستلهامه لأبجديات القرآن...

❖ مابين موسى وعزرا. كيف نشأت اليهودية؟ تأليف:عبد المجيد همو ط1 2003 قياس24/17 عدد الصفحات 288.

موسى وبنو إسرائيل ـ القرآن الكريم لم يشر إلى اليهودية في زمن موسى ـ العهد القديم لم يشر إلى اليهودية في زمن موسى ـ حقيقة رسالة موسى ـ هل العهد القديم كتاب سماوي ؟ متى تم نسخ التوراة وتدوينها ؟ توراة موسى ـ الألواح وهل هي غير التوراة ؟ الزبور وداود ـ سليمان الحكيم ـ إثبات عدم يهودية إبراهيم وأبنائه ـ وإثبات عدم يهودية موسى والأسباط وداود وسليمان ـ متى ظهرت اليهودية في الكتاب المقدس ؟ كيف نشأت اليهودية ـ عزرا ونحميا أنشأا اليهودية ـ سمات اليهودية.

❖ اليهودية بعد عزرا وكيف أُقِرَّتْ؟ تأليف : عبد المجيد همو ط1 2003 قياس 24/17 عدد الصفحات .

تاريخ تدوين الأسفار كلها ـ التوراة والأخلاق ـ المعتقدات ـ هل هناك إله واحد يعبده اليهود أم هم يعبدون آلهة عدة ؟ الطقوس ـ الوصايا ـ الوصايا الأخلاقية ـ المحرمات من النساء ـ وصايا حول الزنى ـ وصايا مختلفة ـ الإيمان باليوم الآخر.

❖ مفاهيم تلمودية نظرة اليهود إلى العالم، تأليف: عبد المجيد همو ط1 2003 قياس24/17 عدد الصفحات .

متى كُتب التلمود؟ تعريفه ـ جمعه ـ تأليفه ـ ترجمته ـ أهميته ـ الردود عليه ـ التلمود والأمم الأخرى ـ التلمود والمسيحية ـ مسيح اليهود المخلص ـ التلمود والعرب ـ موضوعات تلمودية ـ موقف التلمود من يهوه ـ موقف التلمود من فلسطين التلمود والآخرة ـ التلمود والقبالة (تطور التلمود) ...

❖ الله أم يهوه؟ أيهما إله اليهود؟ تأليف : عبد المجيد همو ط1 2003 قياس 24/17 عدد الصفحات136.

تعدد الآلهةعند اليهود ـ إيل ـ يهوه ـ بعل ـ آلهة أخرى ـ إيل إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ـ ما صفاته؟يهوه إله اليهود : من أين أتى؟ما صفات يهوه؟ : التسلط ـ الجهل ـ حب الجنس ـ الحزن ـ الكذب . . . إلخ. هل اليهود موحدون؟

❖ الفرق والمذاهب اليهودية منذ البدايات حتى الآن، تأليف : عبد المجيد همو ط1 2003 قياس 24/17 عدد الصفحات 208.

اليهود وفرقهم قبل الإسلام ـ نشوء اليهودية وانقسامها ـ السامرية ـ الصدوقية ـ الحسيديون . الفريسيون ـ الأسنيون الغنوصيون ـ الكتبة ـ المتعصبون ـ الربانيون ـ التلموديون ـ القراءون ـ موسى ابن ميمون ـ الفاءون ـ القبالة ـ يهود الخزر الأشكناز ـ اللوثرية ـ المسيحية اليهودية ـ شهود يهوه ـ الصهيونية ونشأتها ـ وموضوعات أخرى مفصلة تفصيلاً دقيقاً تبين موقف اليهود من المسيحية ـ وكيف اضطهدوا المسيح وأتباعه . .

❖ المجازر اليهودية والإرهاب الصهيوني، تأليف : عبد المجيد همو ط1 2003 قياس 24/17 عدد الصفحات 288.

هذا الكتاب يشرح بوضوح ما أحدثه اليهود من مجازر وإرهاب قديماً وحديثاً من خلال كتاب العهد القديم ووقائع الحال على مرور التاريخ حتى العصر الحديث، من هذه المجازر : مجازر ما قبل موسى ـ مجازر نسبت إلى موسى مجازر يشوع ـ القضاة ـ صموئيل ـ مجازر نسبت إلى داود ـ مجازر يهوه ـ مدين ـ العجل ـ سنحاريب ـ الطوفان ـ إيزابيل ياهو ـ مجازر المكابيين ـ يهوديت ـ استر ـ الثورة الفرنسية ـ البلاشفة ـ مجازر فلسطين قبل الدولة المصطنعة ـ الاغتيالات اليهودية الإسرائيلية لزعماء فلسطين ـ تدمير القرى في فلسطين من قبل 1948 حتى 2000 ـ عبث الصهاينة بقرارات الأمم المتحدة، وغيرها كثير. كتاب توثيقي من التوراة ومن كتب اليهود التي يؤمنون بها يوثق القتل والإرهاب اليهوديين وهو وصمة عار من جهة نظر الإنسانية في جبين اليهود وسجل مشرف من وجهة نظر اليهود في جبينهم.

❖ **مصير إسرائيل في النبوءات، تأليف : محمد عرب ط1 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات 188.**

محاولة لاستطلاع تطور الأحداث العالمية باستشراف المستقبل على ساحة الكرة الأرضية من خلال قراءة السياسات الدولية المعاصرة ومقارنة هذه السياسات، بما سينجم عنها، مع النبوءات التي وردت في التوراة والأناجيل والقرآن والأحاديث النبوية الشريفة وكتب العارفين من الأئمة الذين اعتنوا بهذا العلم ونقلوا إلينا بعض أخباره من علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى جعفر الصادق رضي الله عنه ومن ورث عن علومهم. كما يتابع الكتاب النبوءات عند الشيخ محيي الدين بن عربي الذي ستفاجئ القارئ إشاراته بدقتها وارتباطها بعصرنا الذي يمشي بخطى متزنة إلى مصير ربما سيغدو معلوماً لقارئ هذا الكتاب، والذي سيقود إلى نهاية الصهيونية كما أكدت قراءة نبوءات نوستراداموس.

❖ **11 أيلول 2001 والإعجاز العددي القرآني وقيام إسرائيل وزوالها.**

تأليف : عاطف علي صليبي ط 1 2003 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات160 .

دراسة علمية تعتمد الرَّقْم ولا تعتمد أيّ تأويل أو تفسير أو اجتهاد، يبيّن فيه المؤلف وبالرقم تاريخ قيام إسرائيل من القرآن الكريم وتاريخ زوالها، كما يبيّن التاريخ الواضح للتفجيرات التي حدثت في مبنيي مركز التجارة العالمي والبنتاغون في أمريكا، كما يثبت أن القرآن الكريم ليس كتاباً دينياً فقط، بل كتاب فيه تبيان كل شيء.

❖ **أمريكا . إسرائيل و 11 أيلول 2001 ديفيد ديوك، تر: سعد رستم ط1 2002 قياس21.5/14.5عدد الصفحات80.**

يؤكد مؤلف الكتاب الأمريكي أن إرهاب وتجسس إسرائيل هو الأشد خطراً على أمريكا، ويعدد أهم العمليات الإرهابية التي قامت بها إسرائيل ضد أمريكا. ويتهم الإسرائيليين والموساد بإخفائهم معلومات هامة عن المخابرات الأمريكية حول التخطيط لتفجيرات 11 أيلول 2001.

❖ **مخيم جنين من النكبة إلى الانتفاضة، تأليف:علي بدوان ط1 2002 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 96.**

دراسة سياسية وتوثيقية بالتواريخ والأرقام والأسماء لما تعرضت له مدينة جنين ومخيمها على وجه الخصوص من همجية وتدمير من قبل الاحتلال الإسرائيلي. كما يعرض إلى قصة لجنة التحقيق الدولية وبالتفصيل، وإلى مداخلات هذا التحقيق ...إلى أن تم إلغاء تلك اللجنة ومحاولة طمس المجزرة الإسرائيلية في مخيم جنين.

❖ **أبو حيان التوحيدي إنساناً وأديباً، تأليف : محمد رجب السامرائي ط1 2002 قياس 14.5 / 21.5 عدد الصفحات 192.**

يتناول المؤلف في كتابه سيرة حياة التوحيدي والظلم الذي لحق به من ذوي الجاه والسلطان، وتفضيلهم مَن هو أدنى منه مرتبة أدبية وعلمية، كما يتعرض إلى التوحيدي كأديب فارس لايُشَقُّ له غبار في ميادين عديدة كالأدب والفلسفة.

❖ **المثقف وديمقراطية العبيد، تأليف: د. محمد جمال طحان ط1 2002 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 144.**

في هذا الكتاب بعض الأحاديث عن المتاهات والمفازات، فيه ما يؤلم ويرهق، وفيه ما يدعو إلى المكابدة، ويحث على المعاناة. الجو مكفهر والغيوم داكنة وكذلك الهموم، من أجل ماذا ؟! من أجل الديمقراطية، ومن أجل الثقافة. . ولكنْ، فيه إلى جانب ذلك كله، وفوق ذلك كله تجربة قلم حي، وتجربة إنسان نابض بالبراءة والنزاهة، إنه الأمل في استمرار الدفاع عن الوطن، وعن المواطن فيه، الآن وفي المستقبل.

❖ **إشكالية وحدة الوجود في الفكر العربي الإسلامي (الله والإنسان والعالم في الحضارات الإنسانية) دراسة تحليلية رؤيوية، تأليف : محمد الراشد ط2 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات 288.**

ما هو موقف العقل البشري من تلكم المحاور الكفيلة بتحقيق شرطه الوجودي في الحياة وفي الممات والمتمثلة برؤيته إزاء الله والإنسان والعالم؟ هذا ما سعى المؤلف إلى إبرازه على ضوء التساؤلات الأزلية. لماذا خلق الله الكون وما فيه؟ كيف تم الخلق الأول؟ لماذا خُلقنا وإلى أين المصير؟ ما السبيل إلى تحقيق خلاص فردي وجماعي في الحياة ويوم البعث

والنشور؟ وبالتالي، ما طبيعة العلاقة بين الله والإنسان والعالم؛ والتي من شأنها الإمساك بالمفاتيح الأساسية للوصول إلى إجابات حاسمة عن التساؤلات كلها التي يطرحها المتسائلون؟ هذا ما حاول المؤلف تجسيده من خلال الكم الفلسفي والثقافي للأمم والشعوب، وبخاصة على صعيد الفكر العربي الإسلامي. فهل فيكم من يتطلع إلى توليد إجابات تحقق للبشرية الحب والأمن وتوقير الحياة، وتحويل دوائر الرعب إلى دوائر سلام أبدي على طريق الخلود؟

❖ **الولايات المتحدة الأمريكية من الخيمة إلى الإمبراطورية. مرفق خريطة شاملة للولايات المتحدة.**

إعداد: ديب علي حسن، مراجعة وتدقيق: إسماعيل الكردي ط1 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات 432.

قليلون هم الذين يعرفون أن الولايات المتحدة كان الاستعمار يجثم فوق صدرها، وأن حرباً أهلية دامية جرت فيها بين الشماليين والجنوبيين، وقليلون يعرفون ما هو دستورها؟ وما ولاياتها؟ وما مدنها؟ وما ثرواتها؟ وما قوانينها؟ وما تنوّع سكانها؟ وما....؟ وما....؟! الكتاب يسدّ فجوة في المكتبة العربية، ويبيّن كيف تم طرد الهنود الحمر وإبادتهم. وكيف نشأت دولة أمريكا.. ويعدد رؤساءها منذ الرئيس الأول إلى الآن.. يجب على كل عربي أن يقرأ ما هي الولايات المتحدة؟ وكيف نشأت؟ وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه الآن.

❖ **الفرق والمذاهب المسيحية منذ البدايات حتى ظهور الإسلام.**

تأليف: نهاد خياطة ط1 2002 قياس 14.5 / 21.5 عدد الصفحات 176.

لئن كان الإسلام عربي النشأة، وسوري الامتداد والإشعاع، فقد كانت المسيحية سورية النشأة والامتداد والإشعاع، لذا ومن حق كل سوري، وإن كان مسيحياً، أن يعتز بالإسلام، ومن حق كل سوري، وإن كان مسلماً أن يعتز بالمسيحية والعربي السوري من حقه أن يعتز بكلتيهما. وإذا كان من حقه أن يؤثر إحداهما على الأخرى فلأنه بذلك يستجيب لرؤيته التي يعينها له نموذجه، والإنسان لا يختار نموذجه كما لا يختار أبويه.

❖ **رمضان في الحضارة العربية الإسلامية.**

تأليف: محمد رجب السامرائي ط1 2002 قياس 14.5 / 21.5 عدد الصفحات 192.

يرسم المؤلف صورة عن رمضان في ذاكرة الإنسان العربي في الزمان والمكان، ويسرد سيرته العطرة في المظان العربية القديمة والمعاصرة عن طريق التدوين لهذه المظاهر الاحتفالية به، وتدوين المظاهر الاحتفالية بعيد الفطر السعيد ومأكولاته وحلوياته في أكثر من 22 بلداً عربياً و إسلامياً.

❖ **المسيحية وأساطير التجسد في الشرق الأدنى القديم (اليونان. سورية. مصر).**

تأليف: دانييل باسوك، تر: سعد رستم ط1 2002 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 80.

يؤكد المؤلف الباحث الأمريكي باسوك في كتابه هذا أن عقيدة التجسد في المسيحية عقيدة خرافية، وفكرة وثنية دخيلة، نفذت إلى المسيحية من وثنية اليونان والرومان. ويرى أن رسالة المسيح بذاتها كانت رسالة أخلاقية توحيدية بسيطة، لا تعقيد فيها، فالمسيح نشأ يهودياً، مؤمناً وترعرع في بيئة توراتية متدينة، من ركائزها الأساسية التأكيد على وحدانية الله تعالى الخالصة، والفصل التام بينه وبين مخلوقاته من البشر. إن المسيح هو عبد الله، وليس ابناً لله، هو نبي الله، وليس ابناً لله...

❖ **التوحيد في الأناجيل الأربعة وفي رسائل القديسين بولس ويوحنا.**

تأليف: سعد رستم ط 1 2002 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 256.

يؤكد المؤلف من الأناجيل الأربعة ومن رسائل بولس ويوحنا أنّ المسيح عيسى عليه السلام أكّد أن الله هو الإله الواحد الأحد وأنه ـ أي المسيح ـ بشر وإنسان ويؤكد المؤلف أن مَنْ يقرأ الأناجيل قراءة متمعنة لن يجد عبارة واحدة صريحة لسيدنا المسيح عليه السلام نفسه يدعو فيها أتباعه للإيمان بألوهيته وبلزوم عبادته، أو يصرح فيها لهم بأنه رب العالمين وإله الخلائق أجمعين المتجسد الذي انقلب بشراً، أو يصرح لهم فيها بعقيدة التثليث...

❖ الذات الإلهية والمجازات القرآنية والنبوية وإزالة شبهة التشبيه والتجسيم من أساسها.

تأليف: سعد رستم ط1 2002 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 272 .

إن جماعة من قدماء أصحاب الحديث، عُرفوا تاريخياً باسم الحشوية، لكثرة ما حشوا به الدين من أحاديث وأخبار آحادية فردية غريبة وجعلوها حجة في العقيدة والإيمان! فاغتروا بظاهر ما ورد في بعض الأحاديث والأخبار وقليل من الآيات القرآنية، من تعبيرات أضيف فيها اسم عضو من أعضاء الإنسان كالوجه أو الجنب أو اليد أو الساق أو القدم لله تعالى... إن الغرض من الكتاب، هو توضيح المعنى الصحيح للآيات التي اشتبه فهمها على الحشوية المجسمة، توضيحاً ينكشف به بجلاء التنزيه المطلق لله سبحانه وتعالى، وليس الغرض أبداً اتهام أحد في عقيدته أو تكفيره أو تضليله، وما كان أغنانا عن تضييع الوقت والجهد في مثل هذه الاختلافات في هذا العصر، لكن البعض سامحهم الله هم الذين شغلوا أو يشغلون المسلمين بهذه الخلافات مما أجبرنا على الخوض في هذه المسائل وحماية عقيدة الناشئة من أبنائنا من دعاياتهم المتواصلة وكتبهم الكثيرة...

❖ نحو تفعيل قواعد نقد متن الحديث دراسة تطبيقية على بعض أحاديث الصحيحين.

تأليف: إسماعيل الكردي ط1 2002 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 352 .

بمرور الزمن، وكما يحدث في كل تراث ديني مقدّس، تكونت هالة مهيبة مبالغ بها حول صحيح مسلم وصحيح بخاري فصار أي تحفّظ على عبارة وردت فيهما أو ردٌّ لسند أو حديث فيها، أو التشكيك بصدوره عن النبي صلى الله عليه وسلم مهما أقام صاحبه على رأيه هذا من الدلائل العلمية والبراهين العقلية، واتبع في قوله سلفاً أو أسلافاً من العلماء المتقدمين، وعمل بما وضعوه من قواعد وشروط لقبول المتن، يُعَدُّ زيغاً وضلالاً وعدواناً على السُّنَّة! ! وسنرى - يقيناً - أنه وعلى الرغم من الدقة التي اتبعها الإمامان البخاري ومسلم في انتخاب الحديث واجتهادهما في تحرّي صحيح السند منه، لم يخل كتاباهما من عدد من الروايات المنتقدة سنداً أو التي لا يمكن القبول بصحتها متناً، طبقاً لقواعد نقد المتون التي قررها علماء الحديث.

❖ سيرة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية).

تأليف: بهاء الدين ابن شداد تحقيق: أحمد إيبش ط1 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات .

تبقى سيرة البطل الخالد صلاح الدين الأيوبي وجهاده وحروبه مع الصليبيين، وانتصاره الأكبر في حطين، وفتحه للقدس تبقى واحدة من أنصع صفحات تاريخنا العربي الإسلامي الوضاء. في هذا الكتاب الرائع «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» ينقل لنا المؤلف بهاء الدين ابن شدّاد صورة حيّة ورواية مباشرة عن حياة بطلنا الكبير وأعماله وبطولاته. . ويصوّر لنا، كشاهد عيان ثَبْت صادق، مشاهد مؤثرة وعبراً بليغة عن المزايا العظيمة التي تحلّى بها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، حتى احترمه الأعداء بَلْهَ الأصدقاء، فارتفع اسم صلاح الدين عالياً ليقترن بأمجاد جهاده، وليقترن بالقدس الشريف، وليغدو صاحبه - بكل جدارة - واحداً من أعظم الشخصيات التي أنجبتها أمتنا العربية الإسلامية، لا بل البشرية جمعاء على امتداد تاريخها. وكفى سلطاننا صلاح الدين فخراً أن الشهادة بفضله ونبله وتسامحه فضلاً عن شجاعته وقوته وحكمته كانت قد صدرت عن أعدائه قبل أصدقائه وأتباعه. إن سلطاننا الناصر صلاح الدين من النوادر النوادر الذين يقال فيهم : إنهم نسيج وحدهم. فهو - وبحق - نسيج وحده.

❖ حوادث دمشق اليومية غداة الغزو العثماني للشام 926. 951 هـ صفحات مفقودة تنشر للمرة الأولى.

تأليف: ابن طولون الصالحي الدمشقي تحقيق:أحمد إيبش ط1 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات 432.

تحتل كتب (الحوادث اليومية) مكانة مرموقة في تواريخ البلدان العربية الإسلامية، وتتميز بصبغة شائقة وممتعة للقراءة

ومفيدة للبحث والدراسة. وهذه الكتب تقدم لنا صورة حية وصادقة عن حياة المجتمع وحركته السياسية والاقتصادية وحوادثه وغرائبه وطرائفه، فضلاً عن وصف واف للعادات والتقاليد ولأنماط الحياة السائدة آنذاك في الفترة التي يغطيها الكتاب. وهذا الكتاب الذي نقدمه اليوم، يمثل جزءاً وافياً من القسم الضائع من كتاب ((مفاكهة الخلان في حوادث الزمان)) للمؤرخ الدمشقي الشهير ابن طولون الصالحي، وهذا القسم يُعَدُّ دون شك المصدر الأول لتأريخ مدينة دمشق في مطلع العهد العثماني بين عامي 926-951 هـ وهي فترة غامضة المعالم لم تصلنا عنها مصادر ووثائق كافية. فيأتي هذا الكتاب اليوم ليسد ثغرة هامة، وليضيف جزءاً هاماً إلى مكتبة المصادر المختصة بتاريخ دمشق وبلاد الشام، وليرسم فوق ذلك صورة حية وطريفة ودقيقة للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لدمشق إبان دخولها تحت حكم بني عثمان في عهد السلطان سليمان خان القانوني.

❖ **نقد الدين اليهودي، تأليف: جميل خرطبيل ط1 2002 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 176 .**

في البدء لابُدَّ من القول: إن الإيديولوجية الدينية اليهودية، قامت على فكرة الإله الملتزم بالشعب المميز، والأرض الموعودة، أرض كنعان، كما في نصوص العهد القديم. واليهود بحسب النص الديني، مدعوون لاحتلال/ لاستعمار، أرض الغير، أرض كنعان، بالقوة، بعد إفناء أصحابها وأهلها الشرعيين. وذلك لإقامة وطن لهم تحقيقاً لإرادة يهوه. ولتبرير هذا الأمر، طرحَ الدينُ الوعدَ الإلهي، وقضيةَ الإيمان، والوثنية. وهذا يعني أن الإيديولوجيا الدينية اليهودية، قامت على اغتصاب حق الآخرين. وعلى أساس هذه النقطة الجوهرية، امتدّت / توسّعت/ تعمّقت، الديانة اليهودية بهدف تعزيز تلك الفكرة. .

❖ **إسرائيل والعرب حرب الخمسين عاماً.**

تأليف: بريغمان أهرون و جيهان الطهري ط1 2002 قياس24/17 عدد الصفحات 320 .

من أهم الكتب التي صدرت عالمياً والتي تتناول الصراع العربي الإسرائيلي. كيف قسمت فلسطين؟ الاتصالات السرية في باريس. التخريب في مصر - المجابهة - حرب الأيام الستة - السادات يدهش العالم بالمصالحة - كامب ديفيد - أيلول الأسود - شارون والجميل - الحرب في لبنان. مكر صدام حسين - مؤتمر مدريد - الطريق الطويلة - المحادثات السرية في أوسلو .... الحلقة المفرغة؟ النقاش مع سورية.

❖ **الحلقة المفقودة في سلسلة الحضارات القديمة للجزيرة العربية.**

تأليف: علي سكيف ط 1 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات 208 .

اكتشاف جديد لم يصل إليه أي عالم أو مستشرق أو مؤرخ غربياً كان أم شرقياً!! الأمر الذي سيؤدي إلى الكشف عن حقائق هامة جداً ومنها على سبيل المثال لا الحصر: أ- من هو أول مكتشف للحرف والكتابة العربية؟ وأين؟ . . ومتى؟ . . ! وما هو المصدر الذي استُقيت منه الحروف؟! ب- وثائق إيبلا المكتشفة في سورية تبين أن إسرائيل ليس هو يعقوب وأن بني إسرائيل ليسوا هم أولاده أو من تكاثروا عنه، وهذا ماتشير إلية آيات القرآن الكريم. ج- حقائق أو دلائل تؤكد أن طوفان نوح كان نتيجة لحرب كونية استُخدمت فيها أسلحة تدمير شاملة تفوق بقدرتها التدميرية ما توصل إليه العالم اليوم. وأن العالم ربما يكون قد عرف الاستنساخ في زمن نوح عليه السلام. د- هل كان موسى عليه السلام ساحراً يستطيع أن يجعل العصا تنقلب إلى أفعى ويفجر بها الصخور فتنبع منها المياه، ويشق بها البحر فتظهر اليابسة ليمر عليها هو وأتباعه أم أن الحقيقة مخالفة لهذه الخرافات والأساطير؟ هـ- معلومات موثوقة تؤكد أن الأنبياء والرسل وأتباعهم وكتبهم جميعاً كانوا من العرب الخلّص وأن الكتب السماوية كافة نزلت باللغة والكتابة العربية. و- معلومات وحقائق أخرى تظهر لأول مرة تدحض مزاعم ونظريات المستشرقين التوراتيين والصهاينة ومن سار على دربهم وتبنى نظرياتهم من العلماء والمؤرخين العرب.

❖ **المرأة في حياة وشعر الجواهري، تأليف : ديب علي حسن ط1 2002 قياس21.5/14.5 عدد الصفحات 272 .**
رحل الجواهري آخر العمالقة في عالمنا الشعري، رحل وهو يحمل في قلبه الفرات ودجلة وأقمار بغداد، وغيوم الكوفة وليالي البصرة، حمل الأسى والحزن وتاريخاً من الجراح المسافرة، رحل ليلتحق بمن سبقوه من المبدعين الذين ضاقت بهم هذه الأرض الواسعة مع أنهم اختزلوا الدنيا بقارورة عطر دمشقي. بالقرب من دمشق وأحجارها استراحوا، لم يكن الجواهري إلا الفرات الذي غادر مجراه وفاضت أمواجه خارج بلاده، لكنه كان يرسلها ليلاً في خفقة القلب لتروي حقول القمح ولتمسح الأحزان. فوا عجباً لمن يمسح الأحزان وهو بحر متلاطم من الغربة والأسى. . . . في هذا الكتاب خلجات قلب الشاعر المحب، الشاعر الذي يرى أن المرأة العربية هي أشرف نساء الدنيا، وهو الشاعر الذي أعطى المرأة من عقله وقلبه وآمن بها سيدة تنشر شذاها حيث تستطيع، من لا يقرأ الجواهري الشاعر المحب، فسوف يبقى بعيداً عن تذوق روائعه التي نظن أنها من أجمل الشعر العربي. في هذا الكتاب باقة نضرة من بستان الجواهري آثرنا أن تكون فواحة بعطر من أحب من بغداد إلى لندن إلى. . إنه الشاعر الذي لا تغيب الشمس عن مملكته الشعرية نضالاً وحباً وإيماناً وتفاؤلاً بالقادم، وهذه باقة من ياسمينه.

❖ **الدليل إلى ألفية ابن مالك في النحو والصرف والإعراب (تبويب وتوضيح).**
تأليف:محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي إعداد:باسمة درمش ط1 2002 قياس24/17عدد الصفحات 160.
أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتي. اللغة العربية درّ ظاهر ومكنون، وحتى نحافظ على هذا الدر فإنه يتوجب علينا أن نحافظ على الصدفة التي تحتضن هذا الدر وتفرزه، أي نحافظ على قواعد اللغة العربية سليمة معافاة من أي خطأ أو لغو أو تشويه. وكتاب الدليل إلى ألفية ابن مالك يحوي قواعد اللغة العربية، نحوها وصرفها، في ألف بيت وبيتين من الشعر الموزون، كما يحوي تبويباً مفصلاً لكل قاعدة نحوية وصرفية لمباحث الألفية التي بلغت الأربعة والسبعين مبحثاً. الدليل إلى ألفية ابن مالك : أسلوب شعري يسهل حفظ قواعد لغتنا العربية. استحضار سريع ومكثف لقواعد لغتنا العربية.

❖ **قَتلُ المرتد الجريمة التي حَرَّمها الإسلام، تأليف : محمد منير إدلبي ط1 2002 قياس 20/14 عدد الصفحات 167 .**
الدين هو تحول في القلوب. والدين ليس سياسة ولا يسعى أتباعه إلى تشكيل أحزاب سياسية. كما أن الدين ليس وطنية ذات ولاءات محدودة، وليس هو بلداً ذا حدود جغرافية بل هو التحول الذي يكون لخير روح الإنسان وصالحها. إن بيت الدين هو في أعماق القلب. إنه فوق حكم وسيطرة السيف. وكما أن السيوف لا تستطيع تحريك الجبال، كذلك فإن القوة لا يمكنها أن تغير القلوب. وفي الوقت الذي كان فيه الاضطهاد باسم الدين هو الموضوع المتكرر في تاريخ العدوان الإنساني، فإن حرية الاعتقاد والضمير هو الموضوع المتكرر في القرآن الكريم. قال ربنا عز وجل : لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي. وقال أيضاً : قل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر. (ومن يرتد منكم عن دينه، فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). فهل يصح أن نعارض القرآن الكريم والحديث الصحيح والعقل الإنساني الواعي، وأن تحل هذه الجريمة التي تُعَلَّمُ في المدارس والمعاهد والجامعات ؟ !

❖ **انتبهوا... الدجال يجتاح العالم، تأليف:محمد منير إدلبي ط1 2002 قياس21.5/14.5 عدد الصفحات 176 .**
دراسة تحليلية علمية موثوقة تثبت بطلان الزعم القائل بأن الدجال إنسان واحد من لحم ودم. وتثبت في الوقت نفسه أن ما يسمى بالأعور الدجال قد ظهر في الأرض وأنه يجتاح العالم ويعيث فيه فساداً !!! ما تفسير الحديث الشريف : تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله؟ ثم تغزون فارس فيفتحها الله ؟ ثم تغزون الروم فيفتحها الله ؟ ثم تغزون الدجال فيفتحها الله؟

❖ أبناء آدم من الجن والشياطين، تأليف: محمد منير إدلبي ط2 2003 قياس 24/17 عدد الصفحات .
يقول المؤلف : إن سفك الدم باسم الدين ليس بأقل خطورة على الجنس البشري من سفك الدم باسمه . إذ لا ينمو في أرض الخرافة إلا الوهم والخيال ، فتذوي طاقة الإنسان وتموت ، ويموت معها المجتمع المريض بها . وفي أرض العلم والبحث والتفكر والاستكشاف ينمو العقل ويزدهر الإبداع ، وتأتي قوى الكون طائعة تخدم الإنسان في بيئته ومجتمعه ، وهذا الكتاب دراسة تحليلية موثقة من القرآن الكريم والحديث الشريف تثبت بطلان الزعم القائل بوجود أشباح وأرواح خفية اسمها الجن والشياطين . ويجد القارئ فيه بياناً علمياً جديداً يتعلق بحقيقة ما يسمى جن الملك سليمان والنملة التي حادثته والهدهد الذي أتاه بالأخبار من سبأ ، وحقيقة مفهوم إحضار عرش بلقيس ، وحقيقة هاروت وماروت ، وحقيقة مفهوم إبليس والشيطان وجنة آدم وشخصيته ، وحقيقة خلق الإنسان وتطوره كما ويجد تحليلاً وكشفاً مميزاً للدجل المتعلق بما يسمى تحضير الجن والأرواح . ويستطيع القارئ العربي أن يفهم الحقيقة الإسلامية الرائعة المتعلقة بهذه المفاهيم على ضوء بيان القرآن الكريم والحديث الشريف ، فيطمئن قلبه بإذن الله تعالى إلى هذا الفهم العلمي الصحيح .

❖ مختارات قصصية من الأدب الألماني، تأليف: شتيفان هيم . شتيفان تسفايغ . كورت كوزنبرغ . رايز ماريا ريلكي . باول إرنست، ترجمة: هيفاء شعيتاني ط1 2002 قياس 20/14 عدد الصفحات 80 .
يتناول الكتاب قصصاً ست ، هي قليلة في عددها ، قصيرة في طولها ، لكنها غنية بمضمونها ، فهي تحمل في طياتها جانباً إنسانياً تنبض به قلوب البشر جميعاً ، وهي على التوالي :آكلو لحوم البشر ـ أسطورة الحمامة الثالثة ـ نظرة ازدراء ـ ساسكولا ـ قطع طريق ـ دموع الحيوانات . وفي نهاية الكتيب نبذة عن المؤلفين الألمان . والقصص موجّهة لليافعين والمراهقين والشباب والكهول ، أي أنها تحلّق بخيال الناس كلهم ومن مختلف أعمارهم .

❖ بوشكين والقرآن، تأليف: مالك صقور ط1 2002 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 221.
كان القرآن الكريم وآياته الملاذ الروحي لبوشكين في سني محنته ، عندما نُفي وحوصر من الجهات جميعها : رجال القيصر ، والسلطات المحلية ، ورجال الدين وأبيه ، وذلك في أثناء التحضير لانتفاضة الديسمبريين ضد القيصر . حينئذ برزت له شخصية الرسول العربي(ص) مرشداً روحياً وأخلاقياً ونضالياً . لقد أعجب بوشكين شاعر روسيا العظيم بشخص الرسول الكريم ، اليتيم الذي أصبح قائداً عظيماً ، ومحارباً شجاعاً ، عطوفاً رحيماً على الفقراء والمساكين ومثالاً للتواضع والرحمة . كما وجد في القرآن الكريم ملهماً لإبداعه الشعري الذي أضحى ماسة براقة في تاج الشعر العربي الإنساني . يُعَدّ هذا البحث من أولى الأبحاث التي تناولت هذه الموضوعة الهامة .

❖ دلالة تراكيب الجمل عند الأصوليين، تأليف: د.موسى العبيدان ط1 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات 371.
يُعَدّ اهتمام الأصوليين بالمباحث الدلالية سمة تميز بحثهم اللغوي ، وكانت نتائجهم ذات قيمة علمية عالية ، مثل التعميم والتخصيص، والغموض والوضوح ، والتغير الدلالي ، والحقيقة والمجاز ، والمشترك اللفظي ، والعلاقة بين اللفظ والمعنى ، والقصد ... وقد درسوا المعنى على المستويين المعجمي والتركيبي ضمن القرائن السياقية . الكتاب ينطلق أساساً من ضرورة اعادة قراءة التراث ، فجاء قراءة عصرية للتراث الأصولي في مجال علم الدلالة ، أي قراءته في محيط ظروفه وملابساته التاريخية والاجتماعية . فجمع البحث بذلك بين الأصالة والمعاصرة .

❖ أسرع الحاسبين ملامح جديدة للإعجاز العددي في القرآن الكريم.
تأليف: عاطف صليبي ط1 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات 330 .
مرفق مع الكتاب قرص كمبيوتر يحتوي على برامج التراميز وبرامج القسمة . الاكتشاف المعجز في القرن الواحد والعشرين . فهو درس الحروف المقطعة التي كشفت أن القرآن الكريم مرمز (مشفر) ثم درس كيفية اكتشاف التراميز

القرآنية الثلاث (الشيفرات). (وما فرطنا في الكتاب من شيء) الآية 18 من سورة الأنعام. (إن هو إلا ذكر للعالمين، ولتعلمن نبأه بعد حين) الآيات 87 ـ 88 من سورة ص. وهوكتاب يجب أن يقتنيه كل مسلم ومسلمة. وستتم ترجمته إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية. . إن شاء الله.

❖ **أفكار غيرت العالم تاريخ الحضارة عبر أعلامها.**

تأليف: د. محمد جمال طحان ط1 2002 قياس 20/14 عدد الصفحات 250.

يرصد الكتاب أهم الأفكار والنظريات العلمية والأدبية والفنية التي كان لها دور رئيس في تغيير نظرتنا إلى العالم، أو في تغيير أسلوبنا في التعامل معه. ويحاول الكتاب أن يقدم الأفكار بشكل مبسط لا ينفرمنه المستمع غير المختص، بل يحضُّه الفضول لاكتشاف المزيد، كما يعرض المؤلف الكتاب بجمل مكثفة لا يملّ المختص من قراءاتها. بعض أفكار الكتاب: الزراعة منذ وجود الإنسان. بوادر التفكير في بابل ومصر. اليونان. . السفسطائيون. . سقراط، أوهام الخطيئة والخلاص. . أفلاطون. . أرسطو. سمات المرحلة اليونانية. بين بيرون ونيرون. الطب. . من الجاهلية إلى الإسلام. الرازي. الفارابي. المعري. ابن سينا. . . الغزالي. . ابن باجه. . ابن طفيل. . ابن رشد. . التصوف. . ابن النفيس. . توما الأكويني. . ابن خلدون. نستخلص من الكتاب أن الأفكار العظيمة والنظريات العلمية هي مكتسبات إنسانية لا هويَّة لها، بدليل أن أصحابها مختلفو الجنسيات والمشارب والأديان والانتماءات، انطلقوا من محيطهم الضيق إلى العالم الرحب حيث عمَّت أفكارهم ونظرياتهم العلم، مجتازة الحدود كلها.

❖ **الكتاب التذكاري للدكتور نعيم اليافي،** تأليف: مجموعة من الأدباء والدارسين ط1 2002 قياس 24/17 الصفحات 192.

سيقع القارئ في هذا الكتاب على ملامح من قدرة هذا المعام على فهم الظاهرة الأدبية فهماً بلغ من السعة والعمق والسطوع، حَدّاً كاد يتجاوز في جملته الشائع المعروف من فهمها، في مرحلته الزمنية. فقد ربط بينها وبين حركة الفكر في سياقاتها العامة: الاجتماعية والثقافية والسياسية. واستعان بالفلسفة وبحقائق علم النفس وعلم الجمال في تعميق هذا الفهم. فوضع هذه الظاهرة ضمن شروطها المؤثرة، في درس نشأتها وتحولها. وربما استلمح، من فهمها أيضاً، لمحات تصل بينها وبين حركة الفنون الأخرى في المرحلة نفسها.

❖ **ظاهرة النص القرآني تاريخ ومعاصرة** رد على كتاب النص القرآني، امام إشكالية البنية والقراءة للدكتور طيب تيزيني.

تأليف: سامر إسلامبولي ط 1 2002 قياس21.5/14.5 عدد الصفحات 160.

كيف جمع النص القرآني؟! توحيد القراءات والرسم للنص القرآني. كيف نشأت القراءات؟ بيان أن اختلاف القراءات لا يؤثر على الأحكام. توثيق النص القرآني من التاريخية إلى الواقعية. وهمية وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم وذلك لأنه كتاب أحكمت آياته. الكتاب دراسة علمية تحليلية تثبت أن القرآن الكريم ثابت منذ نزوله، ولم يتعرض إلى الاختراق أبداً. والدليل الأقوى على هذا هو أنه بين أيدينا وهو قابل للدراسة والتأكد من صحة مضمونه على صعيد الآفاق والأنفس وكيفية إثبات أن مضمونه لا يمكن أن يكون خطأً ومناقضاً لمحل خطابه أبداً لأن النص الرباني لا يمكن أن يتناقض مع محل خطابه ولا بأي شكل من الأشكال.

❖ **الآحاد. النسخ. الإجماع** (دراسة نقدية لمفاهيم أصولية)، تأليف: سامر إسلامبولي ط1 2002 قياس21.5/14.5 عدد الصفحات160

ما فائدة الخبر الظني؟ ما موقف القرآن من خبر الآحاد الظني؟ ما موقف الصحابة والعلماء من الخبر الظني؟ نقاش رسالة الألباني في أن حديث الآحاد حجة بنفسه. ما خطورة وجود فكرة الناسخ والمنسوخ في القرآن؟ هل النسخ ممكن للنص الخاتمي؟ نماذج من الآيات التي قيل إنها منسوخة ورد ذلك. ما تفسير: (ما ننسخ من آية أو ننسها)؟ (يمحو الله ما يشاء ويثبت)؟ (وإذا بدلنا آية مكان آية)؟ (اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم)؟ إثبات أنه لا ناسخ

ولا منسوخ في القرآن ذلك الكتاب الذي أحكمت آياته . . . ما هو الإجماع ؟ وما مصدريته ؟ وما مفهومه كمصدر رباني ؟ مناقشة الإجماع عند الإمام الشافعي . . . . نماذج من إجماع الصحابة وآل البيت وعلماء الأمة . . نقد قاعدة (الأصل في الأفعال التقيد) . ماذا ترتب على الإدعاء بأن الإجماع مصدر شرعي إلهي ؟

❖ **المرأة مفاهيم ينبغي أن تُصَحَّحَ، تأليف:سامر إسلامبولي ط 1 1999 ط 2 2001 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات160.**

تفسير آيات : غض البصر . حفظ الفروج . إبداء الزينة . ضرب الخمار . هل حقاً أن الرسول الكريم قال : إني رأيت أكثر أهل النار من النساء ؟ أنتن ناقصات عقل ودين؟! يقطع الصلاة الكلب والحمار والمرأة ؟! كيف يكون إذنها سكوتها وهي لم تنطق بحرف؟! السياسة والنساء ومنصب الرئاسة . ما قصة ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة ؟! ماذا اشترط الله لتعدد الزوجات؟ وكيف أهمل المسلمون شروط الله تعالى ؟!

❖ **تحرير العقل من النقل قراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم.**

تأليف:سامر إسلامبولي ط1 2000 ط 2 2001 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 272 .

هل نعتمد العقل أم النقل؟! ما الفرق بين السُّنة والحديث؟! ما هي العصمة ؟ وهل هناك أئمة معصومون ؟! هل سحر اليهودُ الرسولَ الكريمَ؟ هل حقاً أن الرسول الكريم نسي آيات ثم تذكرها؟! هل حقاً أن الرسول الكريم قال : إنما الشؤم في ثلاثة ؛ في الفرس والمرأة والدار؟! هل صحيحا البخاري ومسلم مقدسان لايجوز المساس بهما أو نقدهما؟!

❖ **الألوهية والحاكمية دراسة علمية من خلال القرآن الكريم.**

تأليف:سامر إسلامبولي ط1 2000 قياس20/14 عدد الصفحات352 .

كيف ندرس مفهومي التوحيد والإيمان باليوم الآخر؟ما هي الأهمية الكبرى لهذين المفهومين اجتماعياً وتعبدياً؟ لم دمج المسلمون ما هو بشري بما هو رباني في السياسة؟! من أعطى الحق لهم بالحكم بتكفير فلان وتزندق فلان وارتداد فلان؟! ما الألوهية؟ ما الربانية؟ما الحاكمية؟ ما حاكمية الله؟ما حاكمية الإنسان؟ ما معنى (الرحمن على العرش استوى) ؟

❖ **المسؤولية في القانون الجنائي الاقتصادي دراسة مقارنة بين القوانين العربية والقانون الفرنسي.**

تأليف: محمود داوود يعقوب ط1 2001 قياس 24/17 عدد الصفحات 432 .

تُعَدُّ المسؤولية الجنائية من الدعامات الأساسية التي يرتكز عليها مبدأ المعاقبة حقاً وممارسة وهي بالتالي السند الأصلي للقانون الجنائي ، بل هي سبب وجوده ، وهي أيضاً المحور الأساسي الذي تدور حوله الفلسفة والسياسة الجنائية . وهذا الكتاب (المسؤولية في القانون الجنائي الاقتصادي) هو دراسة مقارنة بين القوانين العربية في سورية ومصر مع الاستشهاد المطوّل أحياناً بالقوانين الجنائية في لبنان والعراق والكويت واليمن والأردن والجزائر والسودان والمغرب والسعودية والإمارات وقطر والبحرين وليبيا . . وبين القانون الجنائي الفرنسي .

❖ **الحياة هي في مكان آخر، تأليف: ميلان كونديرا، تر: معن عاقل ط1 2001 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 368.**

لم تستسلم من قبل لأي جسد آخر بهذه الطريقة ، ولم يستسلم أي جسد آخر لها من قبل بهذه الطريقة . كان بوسع العاشق أن يستمتع ببطنها ، إلا أنه لم يسكنه قط ، وبوسعه أن يلمس نهدها ، إلا أنه لم يشرب منه قط . آه يا للإرضاع ! راحت تراقب بشغف حركات الفم الخالي من الأسنان الشبيهة بحركات السمكة ، وتتخيل أن ابنها ، وهو يشرب حليبها ، يشرب في الوقت ذاته أفكارها وتصوراتها وأحلامها . إنها حال فردوسية . . كانت تسهر بحرص على جشاء ابنها وبوله وبرازه ، وليس هذا اعتناء ممرضة مهتمة بصحة طفل ، إنما كانت تسهر على نشاطات الجسد الصغير بشغف .

❖ الوصايا المغدورة (الترجمة الكاملة)، تأليف: ميلان كونديرا تر: معن عاقل ط 1 2000 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 288.

هذه الدراسة النقدية مكتوبة بشكل رواية على مدى تسعة أجزاء مستقلة، تتقدم الشخصيات ذاتها وتتلاقى: سترافينسكي وكافكا وأنسير ميه وبرود، همنغواي مع كاتب سيرته. . وفن الرواية هو البطل الرئيس للكتاب والذي يبحث الحالات الهامة في عصرنا: الدعاوى الأخلاقية التي أقيمت ضد فن هذا العصر من سيلين إلى ماياكوفسكي. . الحياء بوصفه مفهوماً جوهرياً لعصر مؤسّس على الفرد. . القوة الغامضة لإرادة الموت، الوصايا، الوصايا المغدورة. وُلد ميلان كونديرا في تشيكوسلوفاكيا، واستقر في فرنسا عام 1975، ويُعدُّ من أشهر الروائيين في هذا القرن، وكتب هذا الكتاب باللغة الفرنسية. وهو من الروائيين المثيرين للجدل في العالم.

❖ المحاورة، تأليف: ميلان كونديرا ترجمة: معن عاقل ط1 2000 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 176 .

وضعت بعد ذلك كفيها على وركيها، وزلقتهما على امتداد الجذع. رفعتهما فوق الرأس، ثم تسلقت يدها اليمنى على امتداد ذراعها اليسرى المرفوعة ويدها اليسرى على امتداد ذراعها اليمنى، وأنهت حركة الذراعين. . أعادت بعد ذلك يديها إلى وركيها، وزلقتهما على امتداد الساقين، رفعت الساق اليمنى ثم الساق اليسرى وهي منحنية. ثم نظرت إلى المدير وحركت الذراع اليمنى ملقية إليه بتنورتها الوهمية. مَدَّ المدير يده وأحكم قبضته، وأرسل بيده الأخرى قبلة. كانت متفاخرة بعريها الوهمي، ولم تعد تنظر إلى أحد، راحت تنظر إلى جسدها المتموج، وعيناها نصف مغمضتين، ورأسها مائل جانباً. . . تحطمت بعد ذلك وضعية الزهو. .

❖ العبادات في الأديان السماوية (اليهودية . المسيحية . الإسلام).

تأليف:عبد الرزاق رحيم صلال الموحي ط 1 2001 قياس 24/17 عدد الصفحات 368 .

وهذا الكتاب هام جداً جداً لأنه يسدُّ ثغرة كبيرة في مكتبتنا العربية الإسلامية، بل والعالمية. والباحث في دراسته هذه والموثقة توثيقاً دقيقاً يتناول مفهوم العبادات في الأديان الثلاثة وفي ديانات مندثرة مثل ديانة المصريين القدماء والعراقيين القدماء واليونانيين القدماء والرومانيين القدماء، وفي ديانات ما زال لها معتنقون ومؤيدون إلى الآن مثل الديانة الهندوسية والبوذية والصينية والزرادشتية والصابئية. فكم من الناس والمثقفين يعرف كيف يصلّي اليهود؟ وكيف يزكّون؟ وكيف يتطهّرون. وإلى أين يحجّون؟ وكيف يصومون؟ وكيف يتوضؤون ؟ وكذلك الأمر بالنسبة للمسيحيين و. . . هذه الدراسة دراسة مقارنة هامة تبين وبالنصوص الموثقة من التوراة والأناجيل والقرآن الكريم والسنة النبوية ما أصاب بعض الديانات السماوية من تحريف وابتعاد عمّا نزل أصلاً في كتبها السماوية، حتى وصل بعضهم إلى تحليل ما حُرِّمَ في كتبهم، وتحريم ما أُحِلَّ؟ وتبديل ما ليس يُبدّل رغم وجود دلائل قاطعة في كتب تلك العبادات حُرِّفت فيما بعد. ولا شك أنه، وبعد قراءة الدراسة، سيتضح تماماً جانب هام من جوانب تاريخ العبادات المقارن في العالم.

❖ المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات.

تأليف : ديب علي حسن ط1 2000 ط 2 2001 ط3 2002 قياس24/17 عدد الصفحات 352 .

المرأة في التوراة (إبراهيم وسارة وهاجر، يعقوب وراحيل والزواج من أختين، يهوذا يزني بكنته ثامر، أمنون يغتصب أخته ثامار) سالومي ورأس يوحنا المعمدان، المرأة اليهودية في الحياة الدينية المعاصرة. المرأة في الجيش الإسرائيلي، حاخامات يهود يديرون شبكات الدعارة و المخدرات في العالم. كيف حاولت إسرائيل تصدير عبادة الشيطان إلى مصر؟ تفاصيل العملية القذرة لاتهام سفير مصر في إسرائيل بمحاولة اغتصاب راقصة إسرائيلية. الكتاب دراسة موثوقة تبين وتفضح وتعري كيف لعب حاخامات يهود بالنساء اليهوديات وعن طيب خاطرهن منذ وُجد اليهود إلى الآن.

❖ **تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي**، تأليف:د. محمد حسين محاسنة ط1 2001 قياس 24/17 عدد الصفحات384.

هو دراسة لفترة غفل عنها المؤرخون تماماً، حتى بدت ضبابية وهي من أهم الفترات في تاريخ مدينة دمشق لأنها كانت في معظمها صراعاً مذهبياً بين السنة والإسماعيلية، وهي فترة استجلى فيها المؤلف الدكتور محمد حسين محاسنة خفايا صراعات كثيرة من الفاطميين إلى القرامطة إلى الأتراك والتركمان إلى جماعات الأحداث الدمشقية وقد تناول الباحث بداية جغرافية المدينة وخططها وبداية بنائها ومناخها ومياهها. ثم انتقل إلى الفتح الفاطمي لها وإلى الأحداث الخطيرة التي رافقت هذا الفتح، ثم تحدث عن التنظيمات الإدارية والمالية ثم الحياة الاقتصادية ثم الثقافية.

❖ **القصر المسحور** (سيد الباب السابع).

تأليف: إيفلين بريزوبيللين، ترجمة: فاطمة عابدين ط1 2001 قياس24/17 عدد الصفحات 176.

للأديبة الفرنسية إيفلين بريزوبيللين، ترجمة السيدة فاطمة عابدين، وهي رواية رائعة ومن عيون الأدب العالمي للفتيان، والرواية من جهة تحاول: أن تكون خيالية، ومن جهة أخرى فإن ما فيها من إغناءات فكرية تفتح آفاق فكر الفتيان وتدخل القيم التي فيها إلى خيالهم بصورة سلسة لتصبح معتقدات تترسخ في وجدانهم وعقولهم، إنها قصة خيالية من نوع مميز جداً تثير اهتمام الفتيان بشكل رائع، قصة فتى عانى مع جده الكثير من أجل قيم ومبادئ ومثل عليا تدعو لحب الوطن والسلام، وتدعو لمحاربة الشر أينما وُجد ولمقاومة الظلم والطغيان والتمييز العنصري. الرواية - بصدق - أقرب إلى الكمال، والذي أوصلها إلى هذا الأسلوبُ الواضحُ السَّلِسُ، واللغةُ السهلةُ الممتنعةُ، وصدقُ الترجمة، إضافة إلى مقدرة المترجمة الفائقة في تعريبها.

❖ **بين ابن المقفع ولافونتين** (مدخل إلى دراسة مقارنة)، تأليف:فاطمة عابدين ط1 2001 قياس24/17 عدد الصفحات 136.

الكتاب مقتطفات من كليلة ودمنة لابن المقفع، ومقتطفات من أعمال لافونتين الشعرية، شاعر فرنسا العظيم، والهدف من إبراز هذه المقتطفات هو إثبات أن الأفكار واحدة لدى الإنسانية، وإن اختلفت وسائل التعبير عنها. والكتاب موجه لليافعين والتلاميذ والمُدَرِّسين. ولا شك أن الكبار أيضاً سيجدون فيه ما يهذب النفس، ويعمق الحكمة في نفوس صارت ظمأى لأدب يسمو بالنفس ويرفعها.

❖ **ببغاء امريكو**، تأليف:هوجيت بيروت، تر: فاطمة عابدين ط1 2001 قياس24/17عدد الصفحات 128.

❖ **بيت ساحور ذكريات.. حكايات.. وصور**، تأليف:غطاس أبو عيطة ط1 2001 قياس20/14 عدد الصفحات206.

❖ **دراسات في تاريخ وآثار فلسطين وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية.**

المحرر العلمي: د.شوقي شعث ط1 2001 قياس 24/17 عدد الصفحات 466.

هذا هو المجلد الرابع في هذه السلسلة، وهو يسدُّ فراغاً كبيراً في الدراسات التاريخية والأثرية الفلسطينية تصدّى لكتابتها أشهر الباحثين في الوطن العربي مثل: د. شاكر مصطفى، د. محمد أبو الفرج العش، د. صفوان التل، د. معاوية إبراهيم، د. زيدان كفافي، د. عبد العزيز محمود، د. محمد خير ياسين ومصطفى سليمان. وحرّر هذه البحوث د.شوقي شعث. تناولت البحوث الموضوعات التالية: العصر الحجري القديم حتى نهاية العصر البرونزي القديم - آثار فلسطين في العصر البرونزي الحديث - فلسطين في العصور العربية الإسلامية - النقود العربية الإسلامية. الفنون الإسلامية المبكرة في فلسطين - الأسواق والخانات في فلسطين في العهود الإسلامية.

❖ **نهاية عظماء العرب في العصور الوسطى.**

تأليف:د.إبراهيم سعيد ود. علي أحمد تقديم الدكتور أسعد علي ط1 2001 قياس 24/17 عدد الصفحات 176.

هو محاولة جريئة للكشف عن الأسباب والعوامل التي دفعت بأشخاص كبار - في بعض الأحيان - للإقدام على فعل القتل والإجرام من أجل غايات شخصية أو كان خلفها التعصب الشعوبي ضد العرب وكذلك المكائد اليهودية الدائمة ومحاولات سيطرة رأس المال على العقيدة.

❖ **مقدمة في الجغرافية البشرية، تأليف:د.إبراهيم احمد سعيد ط1 2001 قياس24/17 عدد الصفحات 244.**
هو كتاب : يتصدى لأهم المشكلات التي تواجه عالم اليوم : النمو السكاني (الولادات ـ الوفيات ـ الهجرة) ويعرف الكتاب خصائص الهجرة الدولية واتجاهاتها وانعكاساتها على المجتمعات الدولية ، ويتعرض لأهم المدارس الفكرية في النمو السكاني كالمالتوسية والكنزية والمادية والحجم الأمثل للسكان ، ويبين أن هناك عوامل طبيعية واقتصادية وتاريخية وسياسية لتوزع السكان ، وهو دراسة معمقة لآليات تطور المجتمعات ومراحل نموها مع نماذج من مجتمعات الحرف الاقتصادية المتعددة بدءاً من حرف الصيد والجمع والالتقاط وحتى المجتمع الاشتراكي .

❖ **سيبويه النحوي حياته . كتابه . مصادر ترجمته ومراجعها .**
تأليف: هيثم الشيخ عبدو ط 1 2000 قياس 24/17 عدد الصفحات 176.

❖ **الشعر والتلقي دراسات في الرؤى والمكونات، تأليف:د.نعيم اليافي ط1 2000 قياس24/17 عدد الصفحات 271.**
يتابع المفكر والناقد د. اليافي رحلته الدؤوب في عالم النقد والأدب والفكر من خلال ثلاث دراسات متنوعة قاسمها المشترك فن الشعر ، وقد اتجه مؤلفها في معالجته ثلاثة اتجاهات : الأول : علاقة الشعر بتلقيه ، وهو بحث في صلب نظرية الأدب والنقد ونقد النقد . والثاني : يحاول القبض فيه على أمر يخصّ مضمون الشعر وموضوعه في زمان ومكان وتجربة محددة . والثالث : سعي للتاريخ والنقد والرصد الشمولي لحركة الشعر الحديث في سورية ولبنان . والدراسات الثلاث تتكامل من حيث كون الشعر محورها الرئيس ، إضافة إلى انتمائها للتنظيروالتطبيق النقدي ، وهذا شأن د. اليافي منذ بواكيره النقدية إلى يومنا هذا ، فهو يؤمن بأهمية تواشج النظري والعملي وتلاحمهما في النقد والأدب والفكر والحياة .

❖ **رحلة إلى الأعماق حوارات في الفكر والثقافة والأدب، تأليف: د.نعيم اليافي ط1 2000 قياس21.5/14.5 عدد الصفحات 236 .**
يشكل الحوار حاجة فكرية ومعرفية وحياتية ، وتأكيداً لذلك ، فقد اختار المفكر د. اليافي ثلّة الحوارات التي أُجريت معه في الفترة الأخيرة ، ويستطيع المتابع أن يجد الكثير من الأفكار القابلة للنقاش التي تنظمها مجموعة من الرؤى والأفكار والآليات التي عُرفت عن د. اليافي . ويُعَدُّ الكتاب لبنة ضرورية في مشروع المؤلف الفكري والنقدي . من حوارات الكتاب : نحو وعي لغوي جديد ـ تعليم الفصحى ـ مسرحنا والمستقبل ـ النقد الأكاديمي والنقد والتراث ـ المرأة والتحرر ـ تعدد الزوجات ـ الحداثة والتراث ـ الثقافة والتحرير ـ تحرير القدس يبدأ بالتفجير من الداخل .

❖ **مفهوم الجامعة، تأليف: د.نعيم اليافي ط1 2000 قياس20/14 عدد الصفحات 76 .**
تُعَدُّ الأفكار المثارة في هذا الكتاب مهمة وضرورية لأنها تعبّر عن رؤى أستاذ جامعي خبر الجامعة مفهوماً وطرقاً وأساليب وقضايا . ويشير د. اليافي إلى مختلف الإشكاليات التي تعاني منها الجامعة ، وقد فعل ذلك بأسلوبه المعهود حيث الوضوح والجرأة والدقة وعمق الرؤيا . مما تناوله د. اليافي : المؤسسة الجامعية ـ المعلم والطالب ـ الدرس الجامعي ـ صياغة المفهوم وحدة الرؤية ـ فضاء المستقبل ـ الواقع والتطلع .

❖ **مظاهر اجتماعية في بعض روايات العجيلي، تأليف: شاهر امرير ط1 2000 قياس 20/14 عدد الصفحات 120 .**
يسعى هذا البحث إلى إلقاء الضوء على بعض روايات الأديب المعروف عبد السلام العجيلي . وهو إذ يتفرغ للحديث عن بعض المظاهر الاجتماعية ، فلأن مؤلفه مقتنع بأن للمجتمع في أدب العجيلي مكانة خاصة . والروايات المدروسة هي : المغمورون. ألوان الحب الثلاثة . أزاهير تشرين المدماة . باسمة بين الدموع . آراء في الحب .

❖ **ليلة في غرفة تشريح الجثث سبع حكايات في الحياة والموت والأمل.**

الكاتب الياباني يوشيو ساكاب، تر: موسى الزعبي ط 1 1999 قياس 27/17 عدد الصفحات 415 .

هذا الكتاب مؤلف من سبع حكايات عن الحياة في زمن الحرب في اليابان . وهي مختارة لوصف الحياة والموت وحتى البعث والحساب ، وهي تظهر كيف أن الكائنات البشرية تقع في أخطاء حمقاء لا تحصى ، فالحياة القلقة تقع فريسة مشاكل الشوق الشديد والإجحاف والتميز العنصري وفوق كل ذلك رعب ومآسي الحرب . إنها لمحة إلى الشعب الياباني الذي عاش في مطلع القرن العشرين ، ومات الملايين منه وسط الدمار والخراب . يقول المؤلف : أقدم هذا الكتاب للقراء ، وأدعوهم للتفكير في عالم اليوم وعالم الأبدية ، ولا أطمح من عملي هذا بالحصول على مكافأة أو سعادة ، بل خدمة للإنسانية المعذبة السائرة نحو الأبد المجهول .

❖ **تاريخ الشركس وآل أنزور الأديغة والشيشان والداغستان والأستين.**

تأليف : محمد عبد الحميد الحمد ط 1 . 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات 208 .

من هم الشركس ؟ الأساطير والطقوس والموروث الثقافي . النشاط الزراعي والتركيب الاجتماعي . تاريخ الشركس النضالي . أولئك آبائي فجئني بمثلهم . الشركس والثورة . الهجرة إلى سورية .

❖ **إخوان الصفا والتوحيد العلوي، تأليف : محمد عبد الحميد الحمد ط 1 . 2000 قياس 24/17 عدد الصفحات 208 .**

من هم العلويون؟ العلويون هم طائفة مسلمة من شيعة أهل البيت ، ينتمون إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بالولاية وبعضهم بالنسب . والعلويون أو الشيعة كلمتان مترادفتان مثل كلمتي الإمامية والجعفرية ، فكل شيعي هو علوي العقيدة ، وكل علوي هو شيعي المذهب .

❖ **الديانة اليزيدية بين الإسلام والمانوية، تأليف : محمد عبد الحميد الحمد ط 1 . 2002 قياس 24/17 عدد الصفحات 270.**

دراسة موثقة للمذهب اليزيدي في سيرورته التاريخية ، يبين فيها أن المذهب لم يخرج عن عباءة الإسلام ، وأن اليزيديين قوم منزهون لله تعالى ، وتفند كل التهم التي ألحقت بهم من خصومهم خارج (الأثنوس) ، وتبين أن ما أضافه بعض أبناء الطائفة لا يقل خطراً على المذهب عما أضافه أعداؤهم ، ويوضح الأسباب . ويتضح لنا في سياق البحث كيف غلفت بعض الدراسات بهالة ضبابية ، جعلت تعاليم وفكر المذهب أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة .

❖ **محاكم الجزاء الدولية وجرائم حكّام إسرائيل، تأليف: ظافر بن خضراء ط 1 . 2002 قياس 20/14 عدد الصفحات 176.**

يتجه هذا البحث ، نحو مناقشة موضوع يكتسب أهمية متزايدة ، ويمثل وجهاً من أوجه الصراع العربي - الصهيوني المفتوح ، هو الوجه القانوني المتعلق بمحاكمة مجرمي الحرب الصهاينة أمام المحاكم الدولية المختصة . إذ بعد تقصير طويل في هذا الميدان ، بدأ بعض العرب بالتنبه إليه ، فكان تحريك الدعوى ضد الإرهابي أرئيل شارون أمام القضاء البلجيكي ، فيما تتزايد الدعوات من أجل تقديم شارون وأمثاله من مجرمي الحرب الصهاينة للمحاكمة أمام محكمة الجزاء الدولية .

❖ **إشارات حمراء، تأليف: رزان المغربي ط1 2002 قياس 14.5 / 21.5 عدد الصفحات 88.**

مقطوعات شعرية تسمو ، وترتفع بالنفس البشرية إلى سماء العاطفة النبيلة .

❖ **الجياد تلتهم البحر، تأليف : رزان المغربي ط1 2002 قياس 14.5 / 21.5 عدد الصفحات 96.**

قصص قصيرة تعبر عما يشوب حياة الناس من تقلبات سريعة على مختلف الصعد الاجتماعية والفكرية .

❖ حل الاختلاف بين الشيعة والسنة في مسألة الإمامة.

تأليف : مصطفى حسيني طباطبائي، ترجمة : سعد رستم ط1 2002 قياس17/12عدد الصفحات 80.

هل الإمامة أمر منفصل عن الإمارة والحكومة أم لا ؟ كيف كان سلوك أئمة أهل البيت عليهم السلام مع ولاة الأمور وحكام المسلمين في عصرهم ؟ كيف كان سلوك أئمة الشيعة من أهل البيت تجاه فقهاء وأئمة أهل السنة وعامتهم ؟ وما هي التعليمات التي كان الأئمة يقولونها لتلامذتهم ومحبيهم في هذا الشأن ؟ هل الخطأ في موضوع الإمامة يوجب حقاً الخسران العظيم في الآخرة والمصير إلى النار أم لا ؟

❖ الشعرية قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي.

تأليف : د. احمد جاسم الحسين ط1 2001 قياس 24/17 عدد الصفحات 218 .

يبدو معنياً بسؤال هام : كيف يمكن توظيف التطورات النقدية الحديثة في قراءة تراثنا وكشف جمالياته ؟ يجتهد مؤلفه في محاولة الإجابة عن هذا السؤال وغيره من الأسئلة التي تخص البنيوية وسواها من مناهج نقدية حديثة . .

ويصبُّ الباحث جهوده التطبيقية بخاصة على نصوص الشاعر ابن المعتز، محاولاً كشف مكنوناتها وجمالياتها عبر تركيزه على العناصر الفنية : الصورة واللغة والإيقاع التي تشكل معاً محاور هذا الكتاب الذي يمت بوشائج قوية إلى نظرية الأدب والمنهج البنيوي . . عبر لغة نقدية يبدو أنها تحرص على مصطلحاتها ومفاهيمها ورؤاها، أما النقد التطبيقي واستنطاق النصوص وتأويلها فَيُشكّلُ جُلَّ هذا الكتاب .

❖ سورية واللاجئون الفلسطينيون العرب المقيمون.

تأليف : المحامي ظافر بن خضراء ط2. 2002 قياس 21.5/14.5 عدد الصفحات 192 .

هذا الكتاب يقدم كدراسة قانونية عن أوضاع اللاجئين في سورية في طبعته الثانية، حيث يأتي المحامي ظافر بن خضراء بالنصوص القانونية، على ما يتمتع به الفلسطينيون في الدول العربية التي لجؤوا إليها بعد عام 1948، ويخص سوريا، مقارنة مع بعض الدول العربية بأوضاع قانونية مختلفة، باختلاف الدول التي لجؤوا إليها، حيث لم يُسمح لهم بالعمل وحرية التملك العقاري وغيره، بينما سوريا لم تترك أي تمايز بينهم وبين مواطنيها، وتمتع الفلسطيني بكامل الحقوق المدنية والعسكرية، مع بعض الاستثناءات انطلاقاً من موقفهم القومي الملتزم بالقضية الفلسطينية وضرورة حفاظهم على حقهم في العودة وتقرير المصير وبناء دولتهم الفلسطينية المستقلة على كامل التراب الوطني الفلسطيني، وعاصمتهم القدس.

محقق الكتاب
احمد ايبش

باحث في التاريخ والتراث العربي والإسلامي . صدر له بدءاً من عام 1982 ثمانية كتب عن تاريخ بلاد الشام والجزيرة العربية ، عدا عن عشرات المقالات والمحاضرات المختلفة . شارك في عدّة مؤتمرات دولية عن تاريخ بلاد الشام ، ما بين عامي 1985 - 2001 .

أحدث مؤلفاته : حوادث دمشق اليومية ، غداة الفتح العثماني للشام (926 - 951 هـ) ، صفحات مفقودة تنشر للمرة الأولى من كتاب (مفاكهة الخلان في حوادث الزمان) لابن طولون الصالحي . صدر مؤخراً عن دار الأوائل بدمشق .

تحت الطبع : الحروب الصليبية ، صراع الشرق والغرب . ترجمة عن الفرنسية للمؤرخ الفرنسي الكبير رنيه گروسّيه . يصدر عن دار قتيبة بدمشق .

يقوم حالياً بالإعداد لمجموعة من الدراسات التاريخية والأثرية حول معالم التراث الحضاري للقطر العربي السوري ، تحت عنوان : (إعادة استكشاف سورية) . ستكون أهم حلقاتها بعنوان :

(موسوعة الريف العربي السوري) بالتعاون مع الصديق الباحث محمد عصام الحجار . ستصدر قريباً .

IBN SHADDAD'S

BIOGRAPHY OF SALADIN

THE SAGA OF A SOVEREIGN, WARRIOR AND A GENTLEMAN

EDITED BY
AHMED N. IBESCH

